المدينة الاستثناء

قراءة مورفولوچية لمدينة بورسعيد

قاسم مسعد عليوة

وزارة الثقافة



سلسلة
هوية المكان

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• المدينة الاستثناء
قراءة مورفولوجية لمدينة بورسعيد
• قاسم مسعد عليوة
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2007 م
16,5 × 23,5 سم
• تصميم الغلاف: هند سمير
• المراجعة اللغوية: ممدوح بدران

• رقم الإيداع: ٢٢١٠٦ / ٢٠٠٧
• الترقيم الدولى: 9-495-437-977
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 7947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 3904096

تعنى بنشر الدراسات والأبحاث المعنية بخصوصية المكان وأهميته فى التاريخ المصرى والعربى

المدينة الاستثناء

قراءة مورفولوچية لمدينة بورسعيد

المدينة الاستثناء

قراءة مورفولوچية لمدينة بورسعيد

المحتوى

الإهــداء

إلى أبنائى..
سميح وشادى ورشا
وأحفادى..
محمد وسيف وجنى

المحب
قاسم مسعد عليوة

المقدمة



نعم هى المدينة الاستثناء، وما ينبغى لها إلا أن تكون كذلك.

مدينة خارج الأطر . لا تعرف الجمود ولا تعترف بالحدود .. تجتذِب ولا تُجتذب .. وتخرج على كل صور المحاصرة والاحتواء.

لم لا وهى المدينة التى تبنى نفسها بنفسها، وتملك من إمكانات التمدن ما لا تقدر عليه مُخَيِّلات المخططين والبنائين ؟

مدينة غافلت الكل وآلت إلى ما آلت إليه من بهاء، وبرهنت لكل متابع أنها - فعلاً لا قولاً- المدينة الاستثناء.

مدينة رفعت أراضيها المنخفضة فأصبحت فى مستوى البحر، وأزاحت سبخها وملحها لتخرج شطأها أزاهير على هيئة ڤيلات وعمائر.

ساقت دلالها فأهداها البحر أراضي ما كانت لها قبلاً، ونظرت إلى البحيرة فاستحتْ وسحبت ماءها عن قيعان منحت نفسها لها عن طيب خاطر لتفعل بها ما تشاء.

هى مدينة أنثى، مصرية عربية أفريقية أوروبية (معاً)، تغسل شعرها بماء البحر، وتلاعب بقدميها ماء البحيرة، وأنَّى فردت ذراعيها عَمَّ العمار.

وعمار مدينتنا لا يعرف غير الازدهار والتنامى والامتداد . وامتداده ضاربٌ فى الاتجاهين : الأفقى وإنْ وثبَ من أفريقيا إلى آسيا، والرأسى وإنْ بدا أنه يحايث السحاب.

إنها بالفعل المدينة الاستثناء.

الاستثناء بموقعها العبقرى الذى يصل بين قارات ثلاث هى إفريقيا وآسيا وأوروبا، وبظروف نشأتها التى رافقت شق قناة السويس فى أشهر وأدق عملية جراحية تجرى لسطح الكرة الأرضية، والاستثناء بكونها أول مدينة مصرية تنشأ فى العصر الحديث بعيداً عن نهر النيل، وخارج نطاق القاهرة المركز.

ولا يمكن إلا أن توصف بـ " المدينة الاستثناء " لأنها المدينة الأولى والوحيدة فى مصر وفى العالم العربى التى تبلورت فيها المواجهة بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية فى حيين متقابلين هما حيا العرب والإفرنج، وبعدما كانت السيطرة للثانى أضحت للأول بعد صراع كفاحى مرير. أما لماذا سُمى حى الوطنيين بحى العرب وليس بحى المصريين أو حى الفلاحين أو الأُجراء أو أى اسم آخر ؟ .. فالإجابة عليه هى الاستثناء الذى لم تصنعه أية مدينة مصرية أو عربية أخرى.

وهى أيضاً المدينة المصرية العربية الوحيدة التى فعلت ما لم تفعله أى مدينة مصرية أو عربية أخرى بإقرانها العروبة بالسيادة عند تسميتها لأغلب أبنائها، فمن تسميه بـ " العربى" لابد أن يُسبق بـ " السيد "، ومن تسميه بـ " السيد " لابد أن يُتبع بـ " العربى "، حتى إنْ اقتصرت شهادة الميلاد على واحدة فقط من هاتين المفردتين، وما أكثر " السيد العربى " فى هذه المدينة . إنَّ من يتسمون بهذه التسمية المُركَّبة، وأكاد أقول بهذه الصفة، مثلوا ـ وقت التواجد الأجنبى بها ـ الأكثرية الكاثرة، وبترديدها هذه الأسماء / الصفات فى فضاءات شوارعها وبين جدران مبانيها قاومت الأجنبى بقدر ما عايشته .. أليست هذه "المقاومة الاستثناء ".

وفى ذات الاتجاه ابتكرت الشخصية المعجزة فى مقاومتها .. شخصية " أبو العربى ".. لكأنها قصدت أن يصبح أباً لكل العرب .. شخصية : وثابة، شجاعة، مواجهة، مقاتلة، فنانة، منطلقة، مرحة، وتقدس فوق هذا وذاك علاقات الأسرة والجيرة والزمالة.. هل بعد هذا من خصائص وصفات يحتاج إليها العرب ؟.. لكن شاء الهدَّامون الباغون فى زمن الانعطافة السالبة الكبرى ـ انعطافة السبعينيات من القرن الفائت ـ أن ينالوا من هذه الشخصية فطعنوها بالباطل فى كل خصيصة وصفة تتمتع بها، وجعلوها مادة للتندر والسخرية، وأطلقوا عليها بكل فجاجة النكات تلو النكات، غير أنها ـ مع كل هذا ـ ما تزال تمارس فعل حتمية الوجود على الرغم من كل الأقاويل التى تزعم أن عصر الحتميات قد ولى وانقضى، فهل بعد هذا ـ أيضاً ـ من استثناء؟

وحدث أنْ وُلدتُ ـ أنا مُحدثك عزيزى القارئ ـ من رحم هذه المدينة بعد نحو ست

وسبعين سنة من تدشينها، وبالتحديد بعد أربعة أيام وسبعة أشهر وخمس وسبعين سنة، ولدتْ مع خواتيم الحرب العالمية الثانية . لم تكن لمصر فى هذه الحرب ناقة ولا جمل، ومع هذا نال المدينة من دمار هذه الحرب ما نالها، ومن الحرب العالمية الأولى نالت أيضاً بعضاً من شرورها، وكذا من الغزوة الإنجليزية الاحتلالية سنة ١٨٨٢م. هى حروب كثيرة سبقت ميلادى شهدتها هذه المدينة، وحروب أخرى عشتها معها : عدوان ١٩٥٦م، حرب ١٩٦٧م.، حرب الاستنزاف، وحرب ١٩٧٣م، وبخلاف هذه الحروب، ومعارك ثورة ١٩١٩م. المدنية، ومعارك ١٩٥١م./ ١٩٥٣م. الفدائية، فإنها هى أسرة الجنود الإنجليز العشرة فى غزوة ١٨٨٢م. (طابية الدبية)، وهى صاحبة أول نصر بعد هزيمة ١٩٦٧م.(موقعة رأس العش)، ومحققة أكبر هزيمة نالتها القوات البحرية الإسرائيلية (إغراق المدمرة إيلات) . ياه .. كل هذه الحروب والمعارك خاضتها هذه المدينة حديثة النشأة وخرجت منها منتصرة مزهوة !.. كل هذه الحروب ولم تنل منها ـ حتى ـ ما تناله القلامة من الظفر الطرى ! .. إنها حقاً للمدينة الاستثناء.

وفوق الأوسمة الاستثنائية العديدة التى زينتْ صدرها، أهدتها الأمم المتحدة وساماً استثنائياً آخر يثبت أنها لسنوات وسنوات وسنوات ظلت المدينة المصرية الأولى فى التنمية البشرية .

وأنا وإن كنتُ ـ عزيزى القارئ ـ أبغى بهذا الكتاب تقديم هذه المدينة، بصفتها الاستثنائية هذه، لك وللعالمين معك ومن بعدك، فسوف أجتهد ألا أذكر اسمها مقترناً بهذه الصفة، لأن الاستثناء عندها ما عاد استثناءً من فرط الاعتياد.

وأستميح صديقى، ورفيق دربى، الشاعر الكبير محمد محمد الشهاوى عذراً إن تماس عنوان كتابى مع عنوان قصيدته العصماء " المرأة الاستثناء "، فمدينتى كامرأته تشبه الشمس دونما أفول، وهى جميلة مفعمة بلهيب الوضاءة، ومترعة بالألق المترقرق على شطآنها، ومثلما فعلت امرأته أسلمتْ مدينتى أعضاءها ليد السحر لترسم فى جسمها الغضِّ أحلى الأساطير، وعنها لا يمكن لأى مزمار إلا أن يقول غير العبارة التى نطقت بها مزامير امرأته ..” هى (مدينة) تشبه المستحيلَ ".

فصبابة العشق إذن قد جمعتنا .. هو لامرأته، وأنا لمدينتى .. وكلاهما يُعدُّ فى دنيا التشبه كائناً مستحيلا.

" هى (مدينةٌ) تشبه الشمسَ
إلا أفولا
على شاطئ الألق المترقرق..

مفعمة بلهيب الوضاءة ،
مترعة بأريج الأنوثة
تسلم أعضاءها ليد السحر،
ترسم فى جسمها الغضّ
أحلى الأساطير
ماذا يقول لسان المزامير عنها
إذا ما أراد لنا أن يقولا
هى (مدينة) تشبه المستحيلا ".

أعتقد أنه قد آن الأوان عزيزى القارئ لأن أبدأ معك سياحة غير عجول للتعرف على قسمات هذه المدينة التى جمعت بين الجدة والطرب والقتال واللعب، فاستعد ..

واعلم أنك معى سوف تركب صهوة خيالك، ومعى سوف تجتاز حدود المكان والزمان، وأمامك سأعرض معطيات البيئة واستثناءات الجغرافيا والتاريخ، وأتعهد بأن أقف بك على مورفولوجية هذه المدينة الاستثناء .. كيف نشأت، وكيف تشكلت، وإلى أى حال آلت . وبعدها سأطوف بك أرجاء هذه المدينة لأريك معمارها - المعمار الاستثناء - وتصاريف الزمن فيه وأفاعيل الناس به، وإنْ كنتُ أتخيل، منذ الآن، أننا لن نتمكن من الإحاطة بكل جوانبها، وأنَّى لنا بهذه الإحاطة .. ومدينتنا هى بورسعيد.. بورسعيد الاستثناء؟

قاسم مسعد عليوة
بورسعيد: ٢١ يناير ٢٠٠٦م

الباب الأول



الفصل الأول

متعة التحليق فوق نقطة التقاء خطى الطول والعرض

١٨ , ٣٢° شرقاً و ١٦ , ٣١° شمالاً



تخيل عزيزى القارئ أنكَ طائر بحرى.. نورس مثلاً أو ما شابه.. وتخيل أيضاً أنكَ، وقد صرتَ كذلك، عدتَ أو عاد بكَ الزمن إلى الوراء نحو مائة وخمسين عاماً لتحلق عند خط طول ١٨. ٣٢° شرقاً وخط عرض ١٦. ٣١° شمالاً.

أرجوك.. لا ترفع رأسك عن الورق وتُقلب باصريك فى فضاء المكان الذى تقرأ فيه، ولا تخاطب نفسك بلسان الحيرة فى أمر ذلك المؤلف الذى يطالبك بتخيل أمور لم ترد إلى ذهنك قبل الإقدام على قراءة ما كتب. أرجوك لا تفعل هذا، فأنا لم أطلب منك سوى أن تتخيل، والتخيل ليس فقط أمراً سهلاً وميسوراً، وإنما هو أيضاً أمر ييسر فهم أشياء كثيرة قد لا يتيح الواقع فهمها على النحو الأكمل. ولاحظ أننى ما رجوتك إلا ليقينى من أنك ستجد فى التخيل بهجة تخرجك مما أنت فيه الآن. إنها بهجة المغامرة.

أنا نفسى سأفعلها، وستجدنى مثلك نورساً أو ما شابه. إلى جوارك سأحلق، وستجدنى أعلو حينما تعلو، وأهبط حينما تهبط، أميد كيفما شئت وشاءت الريح عند نقطة التقاء خط طول ١٨. ٣٢° شرقاً وخط عرض ١٦. ٣١° شمالاً، فى ذلك الزمن الذى ليس سحيقاً جداً، فمائة وخمسون عاماً تقريباً من عمر كوكبنا الأرضى مدى قريب جداً.

لا تتواضع إلى هذا الحد وتسألنى عن جدوى هذا التحديد الدقيق لنقطتى التقاء خطى الطول والعرض فأنت بالتأكيد تعرف ماهية خطوط الطول وخطوط العرض وأهميتها

الجغرافية، وأنه منذ رسمها هيبارخوس (١٤٠ قبل الميلاد) ما كان للخرائط التى تلتها كخرائط بطليموس المعروفة باسمه والخرائط العربية كخريطة المسعودى (٩٥٦ م) وابن حوقل (٩٧٧م) والإدريسى (٧٥٤م) النتائج الهامة فى مجال الكشوف الجغرافية الكبرى[١].

إنْ كنتَ ناسياً فعلاً فخطوط الطول عبارة عن أنصاف دوائر تتصل نهاياتها فى أقصى طرفى الأرض، وكل خطى طول متقابلين يمثلان دائرة عظمى متكاملة، ومن ثم فكل خط طولى هو نصف دائرة ويتجه اتجاهاً شمالياً وجنوبياً حقيقياً. ويمكن رسم عدد لا نهائى من خطوط الطول على الكرة الأرضية، وبالتالى هناك خط طول لأى نقطة يمكن اختيارها على الأرض. هذا ما يقوله الجغرافيون[٢].

وخطوط العرض دوائر كاملة أيضاً وإطلاق وصف الخطوط عليها هو إطلاق جوازى، وكل دوائر العرض دوائر بها ٣٦٠ درجة وتتميز بأنها متوازية وتمثل اتجاه شرق - غرب حقيقى. وتتقاطع هى وخطوط الطول بزوايا قائمة فيما عدا منطقتى القطبين. وكذلك يمكن رسم عدد لا نهائى من دوائر العرض على الكرة الأرضية، ولذلك فإن أى نقطة على سطح الأرض تقع على خط عرض ماعدا نقطتى القطب الشمالى والقطب الجنوبى، والأصل أن تكون المسافة بين كل درجتى عرض ثابتة ابتداءً من خط الاستواء حتى القطبين، إلا أن فلطحة الأرض جعلت هذا الأمر غير متاح تماماً[٣].

ها أنتذا قد حصلت على معلومات تؤهلك لأن تصبح بعدما تستعيد هيئتك البشرية عالماً جغرافياً إنْ أردتَ. لكن دعنا من هذا الآن فإنها لمتعة فعلاً أن نطير ونحلق ونرقب من علٍ .. فوقك السحاب وتحتك الماء واليابسة.. انظر، إنَّ الأرض تكاد تكون كلها مغطاة بالمياه.

عن الأخضر العميق ورماله السوداء:

تعال اهبط معى كى تميز هذا الشريط الضيق الداكن. إنه شريط من الرمال السوداء. ركز بصرك عليه. اطبعه فى ذاكرتك ثم اتركه قليلاً الآن ولا تغفل عنه فإن لهذا الشريط شأن سوف تعرفه عما قليل، ما أطلبه منك الآن هو تأمل هذه المساحات الشاسعة من الماء. بالتأكيد أنت تستطيع تمييز ماء عن ماء، وتعرف ما هو البحر وما هى البحيرة، فهذا العريض باهر الاخضرار أحياناً عميق الزرقة غالباً ؛ الهادر الصاخب فى أوقات، الهادئ المستكين فى أخرى، هو بعينه البحر الأبيض المتوسط، ذلك الذى أطلق عليه أجدادى وأجدادك المصريون القدماء وصف : الأخضر العميق " وأسموه " حاونبو " وركبوه فى رواحهم وغدوهم إلى ومن " بيبلوس "، ومن فوق ثبجه نقلوا الخشب والذهب والحرير والدواجن، وعبره وهبوا سكان لبنان وسوريا واليونان بعضاً من حضارتهم وثقافتهم

ومكنوا للآلهة المصرية فيما وطأوه من أراض شمال وشرق هذا البحر.

إنه البحر الذى ظن الإغريق أن الإله بوسيدون قد أخضعه لسطوته، وفى أساطيرهم رأى ركاب سفينة الآرجو الشجعان من أعاجيبه وأهواله ما أمكنهم أن يروه، وفعلوا فوق سطحه ما فعلوا. إنه ذات البحر الذى جابه الفينيقيون. وهو ذاته البحر الذى تاه فيه أينياس ورفاقه قبل أن ينهض الرومان بدولتهم وينتزعوا الهيمنة عليه من دولة قرطاجة ليصبح اسمه بحر الروم. وهو عينه البحر الذى سيطر عليه العرب وأحال طارق بن زياد مياهه إلى محفز لجنوده عند فتحه للأندلس هناك فى أقصى الغرب منه.

إنه لبحر أساطير وأساطيل ومذابح

بحر على وداعة هيئته دام، وعلى بهاء منظره قاس، وعلى نعومته تنعم أسماكه بالاغتذاء على لحوم البشر.

هذا البحر أنت بالتأكيد تعرفه. تعرف صفاته وكائناته وتاريخه. ولعلك تعرف أنه كان منذ نحو خمسين ألف سنة - لا يهم إن زادت ألفاً أو قلت ألفاً بحسابات علماء الجيولوجيا - بحيرتين عظيمتين مفصولتين عن بعضهما البعض إذ كانت تونس الخضراء ملتصقة بمالطا وصقلية وإيطاليا، وكانتا مفصولتين عن المحيط الأطلسى إذ كانت المغرب ملتصقة بإسبانيا ولم يكن بوغاز جبل طارق قد تخلق بعد، كما كان بحر القلزم (البحر الأحمر) متصلاً بالبحر الأبيض عن طريق ما أطلق عليه برزخ السويس . ولم تكن هناك دلتا فى مصر بشكلها الحالى، وإنما كان يشغل هذه المنطقة خليج فسيح من خلجان البحر الأبيض، وكانت هضبة المقطم، هذه العالية التى تشغلها الآن أحياء سكنية وبيوت، مغمورة بمياه إحدى هاتين البحيرتين اللتين صارتا بحراً. ثم حدث أن انتهى العصر الجليدى فى أوروبا فانفصل - ببطء وعبر آلاف السنين - البحران: الأبيض والأحمر، وانحسرا عن بحيرة التمساح والبحيرات المرة، واندمجت قارتا آسيا وإفريقيا، وانفصلت تونس عن مالطا وصقلية وإيطاليا، كما انفصلت المغرب عن إسبانيا وتكوّن بوغاز جبل طارق، ليظهر حوض البحر الأبيض المتوسط بشكله الحالى - تقريباً - ويتصل بالمحيط عن طريق البوغاز، ثم ظهرت دلتا نهر النيل وفروعها السبعة ومن بينها الفروع الثلاثة التى روت منطقة الشمال الشرقى من مصر وهى الفرع البيلوزى والفرع التنيسى والفرع المنديسى.

بالتأكيد أنت تعرف كل هذا يا عزيزى . إن خذلتنى وقلتَ أنك لا تعرف فأعدَّ نفسك لرحلة طويلة بعض الشىء تطير فيها إلى هضبة المقطم وجبل عتاقة وجبل شبراويت وانظر بنفسك، ستجد آثار أسماك وحيوانات البحر وقد تحجرت، وسترى آثار انسحاب المياه فى ثنايا الجبل خطوطاً كاشفة ودالة على أن بحراً كان عندها ثم انحسر.

وأوكد لك أننى قد رأيتُ هذه الآثار رأى العين ولمستها، بل استخلصتُ بعض القواقع المتحجرة لنفسى وظلت عندى ضمن أندر مقتنياتى إلى أن ضاعت ذات حرب. سامح الله من أضاعها.

ولأن البحر عريض وهائل، فإن النقطة التى نُحلق فوقها الآن ـ مهما بدت من الاتساع بالنسبة لكلينا ـ ضئيلة بل شديدة الضآلة بالنسبة لحوض البحر كله. وأنا وأنت لا نحلق فى الحقيقة إلا فوق خليج من خلجان هذا البحر. إنه الخليج البيلوزى . نحن نتوسط هذا الخليج فهو يمتد من دمياط غرباً إلى رأس كاسياس بالقرب من فُم بحيرة البردويل شرقاً، وطوله يقدر بنحو ٧٥ ميلاً ويقدر عمقه بنحو ١٤ ميلاً، وبسبب الرأس الصغير من اليابسة المتقدم فى البحر يمكن تقسيم هذا الخليج إلى خليجين صغيرين، وتستطيع يا عزيزى أن تحفظ للجهة الشرقية اسمها الأصلى (خليج بيلوز) أو تسميها بخليج الطينة أو التينة إذا كنتَ تأنف من الطين الدبق مثل سكانها، أما الجهة الغربية منه فلك أن تسميها مثلما يسميها الأهالى بخليج الديبة نسبة إلى فُم الديبة مصب الفرع المنديسى إلى البحر الأبيض.

والرياح التى تهب على هذا الخليج تأتيه من الجهة الغربية والشمالية الغربية، وهى التى تسبب العواصف أحياناً، وهبات الرياح الشمالية والشمالية الشرقية قليلة وضعيفة هى والرياح الجنوبية . وتختلف قوة التيارات المائية فى الخليج شدة وضعفاً تبعاً لقوة الرياح. وسرعة التيار المائى لا تزيد على ميلين اثنين فى اليوم الواحد تقريباً، إلا أنه يوجد تيار آخر أشد تأثيراً شمالى الخليج، من خواصه أنه يدفع بالسفن فى الاتجاه الجنوبى، لذا توجه هذه السفن دفاتها إلى الشمال بما قيمته ربع درجة لتحافظ على مسارها إلى الموانئ الشرقية.

وعمق المياه عند المصب القديم لفرع النيل البيلوزى هو ثمانية أمتار على بعد ٧٥٠٠ متر من الساحل، وإلى الغرب من هذا المصب بنحو ٣٠ كيلومتراً ـ حيث نحلق بالضبط ـ فإن عمق الثمانية أمتار يكون على بعد ٢٣٠٠ متراً فقط من الساحل، ولهذه الخاصية أهمية كبرى سوف تعرفها فيما بعد.

وإلى الغرب من النقطة التى نحلق فوقها، وعلى مسافة جد ضئيلة يقع مرفأ دمياط، ذلك المرفأ التجارى عظيم الشأن الذى جاءت إليه وانهمرت منه جيوش الصليبيين، ومنه أيضاً خرجوا. وإلى الشرق كانت هناك مرافئ مماثلة : انطاكية وصور وعكا ويافا وغيرها. مرافئ كان لها شأن وأى شأن فى حركة الملاحة البحرية فى العصور الوسطى، ومن ثم كانت مطمعاً للغزاة المتسربلين بسرابيل متنوعة لعل أشهرها سربال الدين.

اللافت فى هذه العصور التى وصفت بالوسطى أن كثيرين لم يفكروا بالرسو فى المنطقة التى نحلق فوقها. ربما لأن اللسان الرملى كان شديد الضيق، وربما لأن السبخ ظاهر من حوله، أو لأن البشر الذين اختاروه مكاناً للعيش قليلون ولا مطمع فيهم يغرى بغزو منطقتهم، فهم ساكنو أكواخ لا مال لديهم ولا ثروة، صيادو أسماك وطيور لا أكثر، لذا فقد نعم هذا الموضع بالأمن والسلام لدهور ودهور، سفن تروح وأخرى تجىء، جميعها يحف بهذا الجزء من الخليج دونما التفات، وقوافل وجيوش تنقل البشر والبضائع وخبرات النماء والخراب إلى حواضر لصيقة بموضعنا سأجتهد لأنقل إليك بعض أطراف من قصصها حينما يحين الحين.

انظر.. لا أثر هنا لأى عمران.. الماء والرمل الأسود حتى الصيادين لا نراهم. ربما خمنتَ أنهم فى قيلولة، ولعلك تخيلتَ أن أجسادهم وظلالهم اندمجت بزرقة السماء وسمرة الرمل فلا نراهم . ربما كان ما خمنته أو تخيلته صحيحاً، لكن الأصح أنهم قلة قليلة من البشر قدمت من جنوبى البحيرة، التى ستعرف عنها الكثير والكثير جداً بعد قليل، واستوطنت هذا اللسان الرملى وبالتحديد عند البوغاز المعروف ببوغاز أشتوم الجميل. حيث الوفرة الوافرة من السمك والطير أقامت. هنا أيضاً فوق تلك البقعة اليابسة الواقعة شرقى البحيرة أقام مجموعة من الناس قرية لهم حيث لا أمواج ولا هدير ولا نوات، هذه القرية هى قرية القابوطى التى أطلق عليها اسم شخص سوف تنسج حوله الأساطير وتروى الحكايات.

إنهم أناس قليلون، سواء فى الشرق أو فى الغرب. يكادون يكونون جزءاً من الطبيعة التى يعيشون فيها. تسيطر عليهم ولا يزعمون أنهم يسيطرون عليها إلا بقدر ما يستخلصونه منها لحفظ الأود والاتجار مع العابرين أو المقيمين بالمناطق القريبة.

أراك قد صدقت أنك نورس أو ما شابه، فها هى ذى التماعات أسراب الأسماك تلفت انتباهك، وها أنتذا تحملق فى أفواج السلاحف الصغيرة التى خرجت لتوها من بيضها المدفون فى الرمال السوداء وراحت تزحف مسرعة باتجاه موج البحر. يا له من منظر بهيج. نداء الحياة يجذبها إلى الماء فتجرى قبل أن تهبط عليها جوارح الجو، وفى جريها لا تعبأ بأكداس القواقع والطحالب التى لفظتها الأمواج، ولا بالأسماك الميتة أو بالسراطين التى تحفر أخنانها. صحيح أن فى البحر أقراش ووحوش، لكن فيه أيضاً الكائنات الأقل ضراوة كالدلافين مثلاً، تلك التى تسبح أسراباً أو أزواجاً . انظر إلى قفزاتها الرشيقة فوق سطح الماء، ألا تُشعرك بالمرح؟.. وها هى أسراب السردين تلمع تحت الماء وتفرض نفسها على عينيك وعينىَّ، وكذا أسراب أبو منقار، والسيوف والزلغانة . ولو دققتَ قليلاً لرأيتَ

الأسماك الكبيرة نسبياً، فها هى أسراب اللوت، القاروص، الدنيس، البورى، السفرديا، البلاميطا، النقط، المرجان، السيجان، الباغة، الموز؛ وقد تُفزع أسرابها الكثيفة الهشة فى آن مجموعات من الحَبَّار (السيبيا ـ السبيط) ،الأخطبوط، وقناديل البحر والثعابين ؛ وفى العمق البعيد عنك وعنى تسبح فى تؤدة أعداد من الوقار والحيتان والشبين والباراكودا والترسة وغيرها من الأجسام ضخمة الأجرام مفتوحة الشهية ؛ ولو كنا من الطيور الغواصة لرأينا فى قاع هذا البحر فى موضعنا هذا أسماك غطا موسى، الجمبرى (الريبيان)، الاستاكوزا، الشيكال، الحناجل (الكابوريا ـ السراطين) ،أم أربعة وأربعين؛ وملتصقاً بالقاع ستجد الإسفنج وقد جاورته القواقع وهى أنواع وأنواع، منها على سبيل المثال لا الحصر الإختينيا والسورنباق، والجندوفلى، وبلح البحر، وصوابع الجنية، والخلول، وأم الخلول، والبكلويز، وما لا أعرف له اسماً.

عن الحوض الرمادى بادى الاتساع وتنوعه الحيوى:

هاهى ذى بحيرة المنزلة تنبسط تحتك ـ وأمامك وخلفك ـ بمياهها الرمادية ومويجاتها الهادئة غالباً الثائرة أحياناً.

هى حوض هائل الاتساع والضخامة .. التنوع الحيوى بها من الغنى والاتساع بحيث أدهش الباحثين على مر العصور.

ومع هذا لا تستهولنك الضخامة التى هى عليها الآن، ولا تنس أننا قد رجعنا بالزمن أو رجع هو بنا نحو مائة وخمسين عاما، وأننا الآن فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى. مساحة البحيرة الآن أكبر بكثير مما هى عليه فى زماننا الذى جئنا منه، فقد فعلنا بها الأفاعيل. لا تستعجلنى الحديث فى هذه المسألة فلكل مقام مقال.

كان أندريوسى واضحاً فى دراسته التى أجراها عن هذه البحيرة إبان الحملة الفرنسية، وبالتحديد عام ١٨٩٩م، حينما أكد على أن جيولوجيا مصر السفلى تخضع لمبادئ بالغة البساطة، ورد تكوُّن هذا اللسان الرملى إلى الأعاصير التى تحمل الرمال من قاع البحر وتُلقى بها إلى الساحل وذلك عندما يلتقى التيار الساحلى الذى يتبع سواحل المتوسط من الغرب إلى الشرق بمجارى فروع النيل من جهة اليسار، وإذ يحدث هذا تتضاءل سرعة هاتين القوتين المندفعتين مما يتسبب فى ترسيب يتخذ شكل قمم تتفاوت فى درجة حدتها بينما يَتخذ البلاج، لوقوعه بين النهر وهذه القمم، شكلاً دائرياً ؛ وقد أكد أن هذين الشكلين دائمان، ويجدهما المرء عند مصب فرع دمياط، وعند فتحتى فُم الديبة وأم فارج (أم مفرج) والمزج بين الرمل والطين موجود باتساع البلاجات بين دمياط وبيلوز(٤).

يهمنى أن تعرف أن مساحة هذه البحيرة التى نحلق فوقها الآن تتجاوز السبعمائة وخمسين ألف فدان، أما فى الزمن الذى جئنا منه فمساحتها دون ذلك بكثير. ومع هذا فهى أكبر بحيرات مصر الطبيعية، وأخصب مسطحاتها المائية، وأكثرها إنتاجاً للأسماك، وترتبط بالبحر كما ترى من خلال بوغاز هو فى الأصل مصب لفرع النيل التنيسى . وتقع هذه البحيرة بين خطى طول ٤٥ ٣١° و ١٥ ٣٢° شرقاً وخطى عرض ٠٠ ٣١° و ٣٥ ٣١ شمالاً. هل رأيتَ كم هى فسيحة؟.. قارن وستجد أنها شديدة الاتساع، مترامية الأطراف، وإنْ كانت ضحلة، وقلما تجاوز المتر عمقاً.

إنْ أردتَ معلومات أكثر فهى تقع فى المنخفض الچيولوچى المحصور بين صدع البيلوزيوم من ناحية الشرق وصدع دمياط اللاذقية من ناحية الغرب، وتشغل جزءاً من الدلتا القديمة لنهر النيل فى المنطقة التى كانت تمر بها فروع النيل الثلاثة: المنديسى والتنيسى والبيلوزى. أراك مندهشاً.. لا تندهش فطبيعى أن الوضع لم يكن كذلك فى العهد القديم . لا تقلبن باصريك هكذا فيما تراه، ولا تضربن بجناحيك هكذا فى الفضاء، فهذه المنطقة كانت بالفعل من أكثر المناطق خصوبة فى العصور القديمة، وهناك من الشواهد الكثير والكثير مما يدل على أن منطقة البحيرة كانت واحدة من أزهى الجنان المصرية لولا أفعال الجيولوچيا والبشر، وقبل أن أحكى لك عن الحواضر العامرة التى كانت قائمة على مقربة من نقط التقاء خط الطول ١٨ ٣٢° شرقاً وخط العرض ١٦ ٣١° شمالاً اسمح لى بأن أخبرك بأنه قبل القرن السادس الميلادى لم يكن لبحيرة المنزلة أى وجود، ومن ثم لم يكن هناك لسان رملى، فأى من الطبيعة والإنسان لم يكن فى حاجة إليه لأن الاخضرار كان هو الملمح السائد فى المنطقة بأسرها، ومعين هذا الاخضرار هو تلك الأفرع الثلاث لنهر النيل.

والسبب فى نشأة البحيرة يعتبر من المسائل الخلافية، ففى حين يميل كثيرون من المتخصصين إلى نسبة هذه النشأة إلى زلزال قوى حدث فى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى أدى إلى انخفاض أراضى هذه المنطقة وطغيان البحر واقتحامه لكثبان الرمل التى كانت تفصل بينه وبين الأراضى الزراعية(٥)؛ فإن آخرين أرجعوا هذه النشأة إلى حدوث تغييرات فى خط شاطئ البحر أدت إلى تقدمه إلى داخل اليابسة فى بعض المناطق وتراجعه عنها فى مناطق أخرى(٦) ؛ وهناك من يرى أن هذه البحيرة ليست ذات أصل بحرى، ولكنها تكونت من تجمع مياه النيل فى منطقة منخفضة شمال شرقى الدلتا مما أدى إلى ظهورها على هيئة سلسلة من المستنقعات العذبة (٧) ؛ أما العلامة جمال حمدان فقد رأى أن الأصل فى بحيرات مصر الشمالية جميعها ـ ومنها بحيرة المنزلة ـ

مجرد خلجان هامشية من البحر لم تردمها تماماً رواسب النهر(٨)؛ وهناك من يرى أن سبب غمر أراضى شرق مصر بمياه البحر لا يرجع إلى الانخفاض عن سطح البحر، وإنما إلى ارتفاع منسوب مياه البحر، وحجتهم فى هذا أن ارتفاع منسوب مياه البحر كان عاماً بحيث تأثرت به سواحل البحر المتوسط كلها(٩).

لا تندهش للجزر الكثيرة التى تراها منثورة وسط مياه البحيرة، فحتى مع الغمر الهائل لمياه البحر، كما سبق أن أخبرتك، فقد نجت بعض المناطق اليابسة وظلت مشرئبة بأعناقها وتتأبى على الغرق. هل تعرف كم جزيرة هى ؟.. لن تصدق، إنها ١٠٢٢ جزيرة. نعم ألف واثنتان وعشرون جزيرة تصل مساحاتها إلى نحو ٣١٣٧٠ فداناً(١٠). بالطبع هى متفاوتة الأحجام ومن يجوبونها للصيد أو يقيمون فيها يسمونها بالأكوام والعلاوى والمراحات. والمراحات هى الجزر التى تضم تجمعات بشرية وتتخللها ممرات مائية تسهل عملية الانتقال. وكما أنها متفاوتة الأحجام فهى أيضاً متفاوتة الارتفاعات إذ تتراوح ارتفاعاتها عن سطح البحيرة بين العشرين سنتيمتراً والمترين، وبعضها عامر بالنباتات المائية والزراعات المحصولية كما ترى، وبعضها مغطى بطبقة رقيقة من الأملاح، وهى إما جزر طينية التربة مثل جزر: الحصة، مورجان، الدمالون، ابن سلام، تنيس، كوم الدهب، الميدة، أبو مسلم، العين ؛ وإما جزر رملية التربة مثل جزر: غنيم، حجر، الظهر، بطيخ، جميل، السمريات، القرعة، عجاج، دياب، حطب، السرجة. وتتميز النوعية الأولى من هذه الجزر باتساع المساحة فقد تصل مساحة بعضها إلى ٢١٥ فداناً، بينما يغلب على النوعية الثانية صغر المساحة، وجمعها بين الرمال والقواقع . وأغلبها متعرج وغير منتظم.

أنتَ نورس دقيق الملاحظة إذ تسألنى عن هذه الخطوط الرفيعة من اليابسة المتناثرة بين هذه الجزر، وتقول إنه لا يمكن اعتبارها جزراً.. نعم هذه الخطوط الممتدة طولاً فى غير عرض كبير ليست جزراً ولا تدخل فى الرقم المذكور آنفاً. إنَّ كل خط منها يسمى براً مثل: بر الرمل، بر العفريت(لا تخف فلا شىء يخيف فى هذا البر)، وبر الحمار (لا تضحك).

وتتميز بيئة هذه البحيرة بوفرة الحشائش والنباتات المائية التى تنمو فيها وعلى ضفافها الخارجية وحواف الجزر والمناطق القاحلة والمزروعة منها، ومن أهم هذه الحشائش والنباتات: البردى، الحجنة، السمار، النسيلة، الخُرِّزة، البشنين، ورد النيل(ياسنت الماء)، الحامول، السرمق (له أسماء شائعة أخرى مثل القطف، الخُبِّيزة الإفرنجى،والسبانخ الرومى)،الملوح، الزينة ،السويدة، الزتون، الحدادى .. وأنواع مختلفة من البوص والغاب والطحالب . وهذه النباتات أنواع، فمنها المغمور مثل: نباتات نخشوش الحوت والطحالب ؛ ونباتات جرفية (تلك التى تنمو على حواف المسطح المائى) مثل: الغاب والسمار والبردى ؛

والنباتات الطافية وهى إما: نباتات حرة الطفو لا تتصل جذورها بالقاع مثل نبات ورد النيل، أو نباتات طافية ثابتة الجذور مثل نبات البشنين(١١).

وهناك نباتات أخرى تنمو فى المناطق القاحلة داخل الجزر وتتحمل ملوحة التربة وجفافها وهى النباتات العصيرية كالملوح، الزينة، السويدة، الزتون، الحدادى ؛ ولهذه النباتات جميعها دور بيئى عظيم الأهمية فهى تجدد الأكسجين الذى تستنزفه الأحياء المائية وتتثبت قاع وجوانب البحيرة من الانجراف بفعل حركة المياه فضلاً عن تنقية المياه.

وطبيعى أن البشر يستخدمون الكثير من هذه النباتات فضلاً عن أنها غذاء مهم للحشرات والأسماك والطيور ومأوى يوفر البيئة الصالحة لتكاثرها.

وبما أنك نورس فإنك قادر على التمييز بين أنواع المياه . تقول أنك تعرف نوعين من المياه: العذب الفرات، والملح الأجاج، ولأنك طائر بحرى فأنت تميل بالطبع إلى الملح الأجاج الذى تلائم كائناته حويصلتك؟.. لكن غير هذين النوعين يوجد نوع ثالث هو نوع المياه الشروب . لا تسأل عما تكون هذه المياه فطواعية سأشرح الأمر لك . فى جنوب البحيرة مياه عذبة لكنها ليست فراتاً، وفى شمالها ـ لاسيما بالقرب من البواغيز ـ مياه ملحة لكنها ليست أجاجاً، وبينهما توجد المياه الشروب وهى المياه العذبة شبه المالحة وتحتل هذه النوعية من المياه معظم المسطح المائى فى البحيرة، والسبب يعود إلى أن البحيرة تمثل مصباً طبيعياً للقنوات المتفرعة عن النيل والمصارف الزراعية . إذن فدرجات الملوحة فى البحيرة شديدة الانخفاض فى المناطق الجنوبية منها وشروب فى معظم مسطحها المائى، وعالية فى الشمال لاسيما الغربى منها. ويشكل البخر المصدر الرئيسى لفقد المياه من بحيرة المنزلة حيث يصل معدل البخر اليومى إلى ٥,٥سم/ يوم أو ٢,٤ مليار متر سنوياً، كما تصل كمية التسرب من أسفل عن طريق الخزان الجوفى إلى ٣,٥ مليون متر مكعب سنوياً، وقد أثبتت الدراسات أن التسرب من البحيرة إلى البحر والعكس عن طريق القاع متناهى الصغر(١٢).

وتتميز مياه البحيرة على وجه العموم بطبيعتها القلوية فتوصف بأنها قلوية التفاعل، إذ تحتوى على نسبة غير قليلة من الكلوريدات والكبريتات والبيكربونات وقليل من الأزوتات كما تحتوى على الصوديوم والجير والمغنسيوم والسيلكون ويبلغ الوزن النوعى لمياه البحيرة ١,٠٢- ١,٠٣ ترتفع فى أوقات التحاريق إلى١,٥ - ١.٧ ولذلك اشتهرت البحيرة بالملاحات.

وتتألف البحيرة من حوالى ٣٠ حوضاً تعرف محلياً بالبحار مثل بحار: دشدى، الديجو، أتريب، أم الجيف، البشتير، الجنكى . وتختلف الأحواض فى أعماقها وتتميز بتجاورها مما

يسهل الانتقال فيما بينها(١٣).

وما دمت أيها النورس قد خبرت نوعيات المياه داخل هذه البحيرة، فقد آن لك أن تعلم أن تركيبة المجتمعات السمكية التى تعيش فيها تعتمد على التغير فى درجة الملوحة، مثلما تعتمد على الحركة الدورانية للمياه فيها. وهذه الحركة الدورانية لا تسهم فقط فى التطهير الذاتى للبحيرة، وإنما أيضاً فى دفع الأسماك السطحية والقاعية إليها . وفى أحوالها العادية توفر البحيرة جميع الظروف اللازمة لنمو وبناء الأسماك التى تعيش فيها أو تفد إليها . وعلى الرغم من عدم وجود حصر دقيق لنوعيات وأحجام الأسماك التى تعيش فى البحيرة، إلا أن الشواهد ـ تؤيدها بعض الدراسات والإحصاءات القليلة ـ تدل على اغتناء البحيرة بأنواع عديدة من الأسماك، ويمكن تصنيف المعروف منها إلى:

أسماك المياه العذبة:

وتأتى إلى البحيرة من النيل عبر الترع والقنوات والمصارف. وهى إما أسماك تعيش فى نطاق ضيق من الملوحة مثل أسماك: البلطى والقرموط، وإما أسماك تعيش فى نطاق واسع من الملوحة مثل البلطى الحسانى الأخضر (الشبار).

أسماك المياه المالحة:

وتأتى إلى البحيرة من البحر عبر البواغيز وهى فى طور الزريعة أو الأصبعيات، وما إن تنمو حتى تهاجر إلى البحر مرة أخرى . وهى إما أسماك تعيش فى المياه العذبة والمالحة (معا) دون أن تموت كأسماك البورى والطوبارة والحنشان؛ وإما أسماك تعيش فى نطاق واسع من الملوحة كالجرانة والقاروص والنُّقْط واللوت والزلغانة وأبو نصف منقار؛ وإما أسماك تعيش حيث الملوحة العالية ولذا تظل فى المناطق القريبة من البحر مثل الهليلى والدنيس وأسماك موسى.

وتوجد فى البحيرة أيضاً عائلات القشريات كالسراطين (أبو جلمبو ـ الكابوريا) وجراد البحر والروبيان (الجمبرى)، وبعض أنواع من الرخويات التى تعيش داخل القواقع والمحار ذى المصراعين (البكلويز).

وتشكل الحشرات والطفيليات حلقة مهمة من حلقات السلسلة الغذائية فى البحيرة، فتنتشر فيها ومن حولها أعداد لا حصر لها من الحشرات الطائرة والزاحفة والغاطسة، منها: البعوض والهاموش والعصويات والزنابير وذباب المنازل والفاكهة والخنافس الدوارة والغاطسة والنمل والعناكب وصراصير المنازل والحقول، والديدان المفلطحة والخيطية كالإنكلستوما والإكسيورس والإسكارس ؛ وجميعها تعتبر من المستهلكات الثانوية التى تغتذى على المنتجات الأولية أو العفن أو دماء وأنسجة وعصارات الفرائس الحيوانية

والنباتية التى تتطفل عليها أو على بعضها البعض. وبالتالى تتغذى عليها وعلى يرقاتها الرتب والأنواع الحيوانية الأعلى كالأسماك والطيور وبعض الحيوانات.

وعلى الرغم من أن بعضها ضار بصحة الإنسان والحيوان، إلا أنها تمثل حلقة مهمة من حلقات السلسلة الغذائية فى بيئة البحيرة كما قلتُ لك، فضلاً عن دورها فى عملية تلقيح النباتات المنتشرة حول وداخل البحيرة.

والبعوض هو أهم هذه الحشرات وأكثرها انتشاراً. وعلى الرغم من أن معظم أنواعه الموجودة بالبحيرة ليس ضاراً، فإن منه ما يحمل الجراثيم التى تسبب عدداً من الأمراض المهلكة مثل: الملاريا والحمى الشوكية والحمى الصفراء، وهى أنواع تعيش على ما تمتصه من الدماء. وبعوضة الأنوفليس الفرعونى ناقلة طفيل الملاريا هى الأكثر انتشاراً فى بيئة البحيرة . واحذر يا عزيزى فهذا النوع من البعوض لا يُحدث صوتاً أثناء طيرانه (لا يَزِنّ) كما أنَّ لدغته ليست لاسعة.

وتشهد البحيرة فى فصلى الربيع والصيف خروج الهاموش كامل الأطوار فى أعداد هائلة تحملها الرياح من سطح البحيرة المائى إلى اليابسة وتنقل أسرابه أثناء هذا الخروج كميات كبيرة من المواد العضوية من بيئة البحيرة.

والبحيرة أيضاً غنية بالبكتيريا والطفيليات التى تعيش داخل أو خارج عوائلها، ومن أهمها طفيل الهتروفس الذى ينتقل إلى الإنسان والحيوانات الثديية عن طريق الأسماك(١٤). وينتشر فى المناطق الجنوبية عدد من القواقع المنتشرة فى دلتا نهر النيل، التى يعتبر كل منها عائلاً مثالياً لتفريخ سركاريا البلهارسيا. إلا أن هذه القواقع غير موجودة فى مناطق المياه المالحة، مما يحد من انتشار فرص البلهارسيا لاسيما فى المناطق الشمالية من البحيرة.

وأنواع البكتريا والفيروسات المرضة الموجودة ببيئة البحيرة متعددة مثل: بكتريا القولون التى تسبب الإسهال، والشيجلا وتسبب الدوسنتاريا، والسالمونيلا وتسبب التيفود والباراتيفود، والكوليرا وتسبب المرض المسمى باسمها. ومن الفيروسات المنتشرة فيروس شلل الأطفال وفيروس الالتهاب الكبدى الوبائى. ومن الكائنات الدقيقة وحيدة الخلية: الأنتاميبا وتسبب الإسهال والنزلات المعوية وخراج الكبد، والجيارديا وتُسبب الإسهال، ونجليزا أميبا وتسبب الالتهاب السحائى المخى(١٥).

لماذا تبتعد عنى؟.. هل أزعجتك؟.. آه أيها النورس الزائغ.. أنت تحاول اللحاق بالنورسة الفاتنة التى حفت بك وسبقتك وسبقتنى.. ارجع، فقد تقودك إلى سرب النوارس الذى تنتمى إليه، وقد تنفرد بك فى جزيرة من الجزر لتستمتع بك وتستمتع بها، واحذر فطيرانك خلفها

سيكون سبباً فى أن تلقى حتفك، فقد ينقض عليك أكثر من غراب من غربان البحر، فينقرونك نقراً يجعلك تتمنى الموت قبل أوانه.. ارجع، ولا تكن غريراً فتهلك، ثم لا تنس بدايةً أنك نورس بشرى، وما تفعله الآن ضد الطبيعة التى فُطِرتَ عليها.

جميل أنك توقفت عن ملاحقة هذه النورسة. أنت نورس عاقل . أرحتَ نفسك وأرحتنى، فتعال الآن أحدثك عن طيور هذه البحيرة . انثن معى إلى هذه الناحية، ثم تلك، وتلك، وتلك أيضاً.. أرأيت الكثافات اللونية التى تبرقش مياه البحيرة وتتحرك فوق الجزر والأحراش؟.. إنها طيور الماء، وتقدر أنواعها - حسبما سجل العلماء فيما بعد - بنحو ٤٥٠ نوعاً(١٦). وتتوزع هذه الأنواع على مجموعتين عريضتين إحداهما مقيمة والأخرى مهاجرة، وهذه الأخيرة تنقسم إلى طيور عابرة إلى مناطق الإشتاء - وبحيرة المنزلة من أهمها - وطيور تقضى فترة الشتاء بأكمله فيها . وتقدر أعداد الطيور العابرة بنحو ٢ مليون طائر(١٧)، بينما تقدر الطيور المقيمة بنحو ٣٠٪ من مجموع الطيور المسجلة(١٨). وقدر العلماء - فيما بعد طبعاً - جملة الطيور المهاجرة التى تأوى إلى البحيرة فى الشتاء فقط بنحو ٣٠٠ ألف طائر(١٩).

واتساع مسطح البحيرة وتنوع بيئاتها بين مياه ضحلة وجزر مغطاة بالنباتات وقنوات مائية ومسطحات طينية جعل لها أهمية خاصة كمأوى لكل هذه الأنواع والأعداد من الطيور. ومن أهم المناطق التى تجاور بحيرة المنزلة بحيرة الملاحة ببورفؤاد.

ومن أهم الطيور المتواجدة بالبحيرة: البط الكيش والحمراى والزرقانى والخضارى والشرشير والشرشير المخطط والبلبول والشهرمان، والغُر، ودجاج الماء والدجاج السلطانى، والقطقاط الذهبى والرمادى وقطقاط الرمل الكبير، والنوارس التى نتشبه بها الآن - والنوارس كما تعلم ليست نوعاً واحداً فمنها الفضى والقرقطى وأسود الرأس وصغير الحجم وكل هذه الأنواع موجود فى البحيرة - والبلشون الأبيض والرمادى والأرجوانى والبشاروش، والبجع الأبيض، والإوز العراقى . ومنها أيضاً طيور الغطاس، سواء كانت حمراء الرقبة أو سوداءها أو كانت متوجة، والمُلِّيح، وطيطوى البطائح واخضر الساق وأحمرها وأرقطها، والأبقع، والسنونو، وآكل المحار، والنَّكّات، وأبو اليسر المطوق، والقنابر، والوروار، والزقران البلدى والشامى، والكروان رفيع المنقار، وكروان الماء الأوروبى، والكروان الغيطى الصغير، واليمام الحمرى والبلدى والمطوق، وأبو الفصاد الصغير. وفيها أيضاً غراب البحر وغراب الليل وخطاف البحر، وغيرها كثير.

والمؤلم أيها النورس العزيز أن أساليب عيش البشر ستهدد فيما بعد بانقراض أنواع مثل : المُلِّيح والبشاروش والبط الشهرمانى والبط الخضارى والبط الزرقانى والدجاج

السلطانى واليمام المطوق والبجع الأبيض من البحيرة(٢٠). أليس هذا أمراً مؤلماً ؟.. وهل هناك من هو أبشع وأفتك بالبيئة من البشر؟

ولا تقتصر عوائد استخدام ثروات البحيرة على ما يدره صيد الأسماك والطيور، وإنما تمتد لتشمل عوائد استخدامات الثروات الأخرى، وهى على البساطة التى قد تبدو عليها شديدة الأهمية لساكنى البحيرة - فى القلب أو على الضفاف - ومن أمثلة ذلك:

السـمـار: وهو أنواع منها الرفيع والغليظ ويستخدم فى صناعة الحُصر.

البردى : وعلى عكس القدماء يستخدمه أهالى البحيرة فى صناعة الأكياب التى تقام بها العشش والتحاويط، مثلما يستخدم فى صناعة أكياس الشحن وورق اللف.

الأحطاب: وهى أنواع وتستخدم فى صناعة الخشب المضغوط وحشو الكراسى وعادة ما تستخدم كوقود.

والبحيرة فقيرة فقراً مدقعاً فى الطحالب إلا من بضعة أنواع قليلة لا تكاد ترى إلا فى مناطق قليلة والسبب فى هذا الفقر الطحلبى إنما يعود إلى التغير المستمر فى ملوحة الماء نتيجة لتعاقب الفيضان والتحاريق ولأثر مياه الصرف التى تصب فى البحيرة ولطبيعة التربة المتفككة التى لا تهيئ مربى صالحاً للطحالب(٢١).

إلا أن البحيرة تجود بما يعوض عن نقص الطحالب ويسميه الأهالى بالجُماص. قد يكون الاسم غريباً عليك وعلى كثيرين من غيرك، لكن أهالى البحيرة يألفون هذه المفردة وربما تكون من اختراعهم . والجُماص هو مخلفات أنواع كثيرة من القواقع والأصداف الميتة حيواناتها، التى تقذفها الأمواج عند اشتداد الرياح فتلقىَ بها إلى ضفاف البحيرة . ويستعمل الجُماص فى أغراض متعددة منها ردم البرك والمستنقعات وتأسيس الطرق الريفية بها.

وصدق أو لا تصدق، هذه البحيرة تهب أهاليها طواعية ودون إجبار مادة الجبس . بعض مناطق منها غنية بمادة البناء هذه والحصول عليها لا يتطلب جهداً أو عناءً، لكن فيما بعد - فى الزمن الذى أتينا منه - سيحتاج من الراغب فيه أن يحفر فى القاع ليحصل عليه، وسيستلزم هذا دفع رسوم مالية فى حين أنه الآن متاح للراغب دونما تنظيم وبلا مقابل.

ومما تهبه البحيرة من ثروات الملح المستخلص من البرك والسيَّاحات على أطراف البحيرة، وسوف تمنع الحكومة فى قادم السنوات استخلاصه للسمية التى ستصيبه نتيجة للتلوث الذى سيطرأ على بيئة البحيرة . وفى قادم السنوات أيضاً سوف تحاول الحكومة الكشف عن البترول والغاز الطبيعى فى قاعها.

أعتقد أنه لا يكون لطيفاً إنْ حجبتُ عنكَ أيها النورس العزيز بعض البيانات عن طبيعة

المناخ هنا، فمعروف أن مناخ أية منطقة يتأثر بعدة عوامل منها الموقع بالنسبة لخطوط العرض والطول، وطبوغرافية وتضاريس الأرض، والمساحات المائية القريبة منها أو المحيطة بها لتأثيراتها الواضحة على درجتى الحرارة والرطوبة وكميات الأمطار ولارتباطها بسرعة الرياح . وجميعها تضافرت لتسهم فى إيجاد مناخ جيد يساعد على تواجد حياة نشطة بالمنطقة، فالنهاية الدنيا لدرجة الحرارة تصل صيفاً إلى ٢٤,٥ درجة فى المتوسط، أما متوسط نهايتها العليا فيصل إلى ٣١ درجة ؛ ويصل متوسط النهاية الدنيا شتاءً إلى ١٣ درجة، أما متوسط النهاية العليا فيصل إلى ١٩ درجة ؛ ومتوسط نسبة الرطوبة هو ٧٢ صيفاً و ٧٤ شتاءً ؛ أما مجموع كميات الأمطار بالمليمتر فهى صفر فى الصيف و ١٩,٤ شتاءً ؛ وتتراوح سرعة الرياح بين ١٠كم / ساعة و٢٠كم/ساعة . وأقصى درجة حرارة سُجلت على وجه الإطلاق هى ٤٦ درجة مئوية، وقد سُجلتْ فى شهر يونيو، وتراوحت أدنى درجة حرارة بين الصفر ودرجتين مئويتين وقد سُجلتْ فى شهر فبراير، أما نسب الرطوبة فهى عالية فى المعتاد، على النحو الذى سلف ذكره، ويندر أن تقل عن ٧٠٪ أو تزيد عن ٨٠٪ (٢٢). وتتماثل سرعات الرياح تماثلاً نسبياً خلال العام وتصل إلى ذروتها فى فصل الربيع، إذ تصاحبها رياح الخماسين.

ويمكن حصر النوَّات فى عشرين نوَّة الأغلبية الغالبة منها تحدث فى فصول الخريف والشتاء والربيع، وواحدة منها فقط تقع فى بداية فصل الصيف أو على مشارفه، وتعتبر أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير ومارس أكثر شهور السنة استقبالاً للنوَّات فى منطقتنا . وهى على العموم قصيرة الآماد . قد تستمر لسبعة أيام، كما فى نوتى الكرْم (يناير) والحسوم (مارس)، وقد لا تستمر إلا يومين اثنين فقط، مثلما هو الحال مع نوة الشمس الكبيرة ورياح الخماسين ورياح النقطة. وهذه النوات على خطورتها ليست مهلكة إنْ تم التحسب لها، إلا أن أخطرها ما يتعلق برياح الصليبة التى تهب على هذه المنطقة فى أكتوبر من كل عام، وهبوب هذه الرياح يكون شديداً كل خمس سنوات، وإذا ما هبت تُحدث ما يشبه الإعصار، وقد تحدث بسببها كوارث ضخمة حيث تهب الرياح فى وقت واحد من جميع الاتجاهات.

الفصل الثانى

ثلاثة أفرع وحاضرتان

اسمح لى الآن أيها النورس العزيز، ونحن نطوف بأجواء موضعنا أن أسرد عليك نبذات عن فروع النيل القديمة التى كانت تمر بهذا المكان أو بالقرب منه فى قديم الزمان.

لعلك تعرف أنه كانت للنيل سبعة أفرع فى دلتاه، وكانت المنطقة التي نُحلق فوقها الآن جزءاً من هذه الدلتا، بل كانت أخصب أراضيها وهذه الأفرع كما سماها استرابون الذى زار مصر بعد هيرودت بحوالى ٥٠٠ سنة فى القرن الأول الميلادى هى: الفرع البيلوزى، والفرع التنيسى، والفرع المنديسى - وقد حدثتك عن هذه الأفرع الثلاثة - أما الفروع الأربعة الأخرى فهى: الفرع الفاتنيتى، الفرع السبنيتى، الفرع البولبيتى، والفرع الكانوبى. وجميعها يحمل أسماء أهم المدن التى كانت تمر بها، ولا يهمنا هنا سوى الفروع التى كانت تمر بمنطقتنا: البيلوزى، التنيسى، والمنديسى.

الفرع البيلوزى:

لنبدأ بالفرع البيلوزى المنسوب إلى مدينة بيلوز التى كانت قائمة على مصبه وسأحكى لك عنها حكايات وحكايات. كان هذا الفرع يبدأ من رأس الدلتا القديمة عند جزيرة الوراق شمالى إمبابة ويتجه شرقاً متبعاً مجرى ترعة الشرقاوى وأبى الأخضر وفاقوس، وكان يتصل بالبحر المتوسط عند منطقة المحمدية بسيناء حيث ميناء بيلوز الذى كان يقع على بعد ٢٨ كيلو متراً جنوب شرقى موضعنا الحالى، ولآثار هذا الميناء شهرة سوف أحكى لك

نتفاً منها بعد قليل. ويكفى أن أقول لك أن الخليج الذى كان هذا الميناء يُطل عليه سمى باسمه فأصبح يعرف لمدد طويلة من الزمان بالخليج البيلوزى. وحسب دى بوا - إيميه (أحد علماء الحملة الفرنسية) فإن الفرعين البيلوزى والكانوبى كانا يشكلان قمة الدلتا ويحدانها من ناحية الشرق والغرب(٢٣).

الفرع التنيسى:

وكان الفرع التنيسى يتبع مجرى بحر مويس الحالى من عند تل أتريب (شمال بنها حالياً) وكان يمر بمدينة تنيس على بعد تسعة كيلومترات جنوب غربى موضعنا الحالى، وكان يصب عند نقطة سُمِّيَت ببوغاز تنيس، ثم أطلق على هذا البوغاز بعد ذلك اسم أم فارج أو أم مفرج، وهو اسم محرف لطابية فروجة التى بُنيت فى عصر محمد على باشا. ويقع هذا البوغاز أو الفم على بعد ٢٠ كيلو مترا شرقى موضعنا.

الفرع المنديسى:

أما الفرع المنديسى فكان يبدأ من قرية كفر الجهنمى على بعد ستة كيلومترات جنوبى مدينة ميت غمر ويمر بتل تمى الإمديد (نمويس) قبل أن يمر بمدينة (مندس) عاصمة مصر فى عهد الأسرة التاسعة والعشرين، وقد ظلت هذه المدينة من سنة ٣٩٩ إلى ٣٧٩ قبل الميلاد، أى لمدة عشرين سنة محل إقامة ملوك مصر . ومعنى كلمة مندس باللغة المصرية القديمة جزيرة التيس وقد انتشرت فيها عبادة أوزوريس . وكان هذا الفرع يأتى إلى موضعنا هذا أو يحف به، ليصب مياهه فى البحر المتوسط من خلال بوغاز الديبة، هنا أسفل منا باتجاه الغرب قليلاً . وبوغاز الديبة هذا أمر محمد على باشا ذات مرة بردمه حتى لا تزداد ملوحة مياه بحيرة المنزلة بتأثير مد البحر، فأوسع البحر من فُم أشتوم الجميل الواقع إلى الغرب من مصب الديبة المردوم . هذه هى أفاعيل الطبيعة.

عن الازدهار الحضارى القديم فى المنطقة:

إذن فقد كانت هذه المنطقة ممراً ومعبراً للمياه العذبة إذ تشق طريقها للذوبان فى مياه البحر المالح ؛ وحيث يوجد الماء العذب توجد الخضرة، وتتنوع صور الحياة، وتتعدد مظاهر وممارسات البشر. وللبشر عادات وأساليب تختلف باختلاف البيئات ما بين بدوية وريفية وساحلية وحضرية؛ فما بالك وقد جمعت الأزمان السالفة هذه البيئات كلها فى المنطقة التى نحلق فوقها الآن؟.. بالتأكيد سنجد فيها إنْ بحثنا، وربما بدون بحث، مفردات مثل: المضرب والحقل والشاطئ والمدينة، والجواد والمحراث والمركب والمَرْكَبة، والخيمة والبيت والمعبد والقصر والقلعة... إلى آخر ما يستحدثه البشر ويستخدمونه بتتابع لا يبزهم فيه أى كائن حى.

ولعله قد آن أوان الحديث عن الحواضر التى قامت واندثرت بالقرب من منطقتنا، واسمح لى أن أركز حديثى على اثنتين منها فقط.

لنبدأ بتنيس الموغلة فى القدم.

تنيس:

لنتجه إلى المتبقى منها .. والمتبقى جزيرة الوصول إليها ومشاهدة ما بها ليس بالمعضلة. فقط حرك جناحيك واندفع معى باتجاه الجنوب الغربى، وإلى أن تلوح لنا سأقص عليك أطرافاً من أخبارها.

يعود تاريخ إنشاء مدينة تنيس إلى ما قبل الأسرة الثامنة عشرة من الأسر التى حكمت مصر القديمة . وإبان الحملة الفرنسية وصفها أندريوسى بأنها وجزيرة تونة من أهم جزر بحيرة المنزلة، وأنها احتفظت باسمها فى حين أصبح يطلق على جزيرة تونة اسم عبد الله (عبد الله بن سلام) وهو اسم شيخ أو ولى أقيم له ضريح فى هذه الجزيرة(٢٤).

وقد استدل ابن حوقل على قدمها من وجود تلال من جثث الموتى المتراكمة التى وجدت ملفوفة فى أكفان من الكتان كما كان يفعل قدماء المصريين . وكان بها عمارة لم يكن بأحسن منها، وبُنيت لملوك مصر فى وسطها مجالس ونصبت عليها قباب زينت بأحسن الزينة والنقوش، فإذا بدأ النيل يجرى انتقل الملوك إليها، فأقاموا بها إلى النوروز، ثم رجعوا، وكان كل ملك يأتى يعمرها ويزيد فيها ويجعلها متنزهاً له. ولم يكن بينها وبين دمياط سوى مسيرة نصف نهار.

وحسب المسعودى فإن " طولها من الجنوب إلى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتا ذراع، وعرضها من المشرق ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانون ذراعاً، ولها تسعة عشر باباً مصفحاً بالحديد، وبها نحو مائة وستين مسجداً، وستة وثلاثون حماماً، ومائة معصرة للزيت السيرج والقصب، فضلاً عن مائة وستون طاحوناً، وعدد كبير من الحوانيت ".

واشتهرت تنيس بالزراعة، وكانت بها أشجار كثيفة من النخيل والكروم . وأقيمت بها صهاريج عظيمة تحت الأرض كانت تُملأ بمياه النيل عندما تفيض وتطرد المياه الملحة . وكان السكان يستعملون هذه المياه حتى السنة التالية، وكل من لديه ماء فوق حاجته يبيع الفائض لغيره، وجمعت إلى شهراتها العديدة شهرتها فى صناعة الألبان وصيد الأسماك. وقيل والعهدة على الرواة إن السيدة هاجر زوج إبراهيم الخليل وأم إسماعيل من تنيس(٢٥)، إلا أن آخرين قالوا بأن إبراهيم الخليل لم يحط رحاله إلا فى تانيس - وليس تنيس - وهى صوعن المعروفة الآن بصان الحجر.

ومن قبيل الخلط بين الإخبار والأسطورة ما ذكره تقى الدين أحمد بن على المقريزى فى

كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزى أن تنيس بلدة من بلاد مصر فى وسط الماء سُميت بهذا الاسم نسبة إلى تنيس بن حام بن نوح، كما ذكر أيضاً أن الذى بناها هو قليمون بن أتريب بن قبطيم (أحد ملوك القبط)، إلا أنه بالبحث فى الكتاب المقدس لم يستدل على اسم تنيس كابن لحام بن نوح ضمن سلسلة مواليد بنى نوح (تك ١٠)(٢٦). وقد ذكر المقريزى أن تنيس كانت تصنع كسوة الكعبة المشرفة . ومن طريف ما قاله عن تنيس أنه فى سنة ٣٧٨هـ. صيد بأشتوم تنيس حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعاً ونصف ذراع، وطول رأسه تسعة أذرع، ودائرة بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعاً، وفتحة فمه تسعة وعشرون شبراً. وقد أمر أمير تنيس أبو إسحاق بن لوبة به فشُق بطنه ومُلّح بمائة إردب ملح، وقد رُفع فكه الأعلى بعمود خشب طويل . وكان الرجل يدخل إلى جوفه بقاف الملح وهو قائم غير منحن، ثم حملوا الحوت إلى القصر حتى رآه العزيز بالله. ومن طريف حكاياته أيضاً أنه فى ليلة الجمعة ١٨ ربيع الأول سنة ٣٩٩هـ. شاهد أهالى تنيس تسعة أعمدة من نار تلتهب فى آفاق السماء من ناحية البحر، فخرج الناس إلى ظاهر البلد يدعون الله حتى أصبحوا فخفت تلك النيران(٢٧).

وكانت فيها آثار كثيرة للأوائل، وأكبر مسجد بها طوله ١٠٠ ذراع، وعرضه ٧١ ذراعاً، ويوقد فيه كل ليلة ١٨٠٠ قنديل، وكل مساجدها ذات منائر غير الزوايا العديدة، وبها ٧٢ كنيسة، ٢٥٠٠ حانوت، ٥٠٠٠منسج لنسيج الأقمشة . واشتهرت بصناعة النسيج وذاع صيت الحُلل التنيسية من الكتان، وكان يبلغ ثمن الحُلة مائتى دينار . وكان لا يصنع الثوب للخلفاء فى بغداد إلا منها. ويقال له البُدنة، يُصنع من الذهب، ولا يدخل فيه من الغزل غير أوقيتين . وذُكر أن ثوباً صنع فيها للخليفة من عرض واحد بلغ ثمنه ألفى دينار. وكانت تجارتها من الأقمشة مع العراق حتى سنة ٣٦٠هـ. (سنة ٩٧٠ ميلادية) تتراوح بين عشرين وثلاثين ألف دينار سنويا . وكان نساجو تنيس ينسجون البوقلمن الذى لا ينسج فى مكان آخر من جميع أنحاء العالم، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار، وكانت تُحمل أثوابه إلى المشرق والمغرب ويقال أن إمبراطور الروم عرض على سلطان مصر (الخليفة الفاطمى) أن يأخذ منه مدينة تنيس ويعوض عنها بمائة مدينة من مدائن دولته فرفض.

ومع هذا العمران كانت تنيس مدينة عسكرية اشتهرت بصنع السلاح، وكانت لها أسوار حصينة، وحسب المسعودى فإن صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التى كانت تبلغ فيها تنيس مبلغ منسوجاتها، ولأنها ظلت مطمعاً دائماً للقراصنة والغزاة، فقرر المتوكل سنة ٢٣٩هـ. (سنة ٨٥٤ م.) أن يقام فيها حصن على غرار ما فعله فى

سائر المناطق.

ويحضرني هنا مما قرأتُ في الزمن الذي أتينا منه عن قصة هذا الحصن أن الروم هاجموا دمياط سنة ٢٨٣هـ. (٨٥٣ م.) فملكوها وما فيها وقتلوا فيها عدداً كبيراً من المسلمين وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة فنفر إليهم عنبسة بن إسحق، وكان أمير مصر في جيش كبير فلم يدركهم، ومضى الروم إلى تنيس فلم يتبعهم عنبسة فقال يحيى بن الفضل للخليفة المتوكل(٢٨) :

أترضى بأن يوطأ حريمكَ عنوةً ... وأن يُستباح المسلمون ويُحربوا

حمارٌ أتى دمياطَ والروم وُثَّبٌ ... بتنيس رأى العين منه وأقربُ

مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما ... أصابوه من دمياط والحربُ تُرتَّبُ

فما رام من دمياط شبراً ولا درى ... من العجز ما يأتي وما يُتَجَنَّبُ

فلا تنسنا إنا بدارِ مُضَيَّعة ... بمصر وإن الدين قد كاد يذهبُ

وقد حول صلاح الدين الأيوبي تنيس إلى مدينة حربية سنة ٥٨٨هـ.(١١٩٢م.) ، ونقل أهلها ومناسجها ولم يبق فيها إلا المقاتلون . وبسبب من الحروب الصليبية أمر الملك الكامل محمد بن العادل بن أبي بكر بن أيوب سنة ٦٢٤هـ. (١٢٢٧ م.) بتهجير من فيها من أهلها وهدمها، حتى لا تقع في أيدي الصليبيين، وهكذا اختفت تنيس إلى الأبد، ولم تتبق منها إلا آثارها الدوارس.

ها هي ذي جزيرة تنيس تلوح في الأفق، فمدْ بجناحيكَ واتبعني لأريك بعضاً من مجد تنيس الغابر. انظر .. ها هو تل تنيس الأثري.. لقد ابتلعت البحيرة الكثير من آثار المدينة التي كانت ظاهرة ولم يتبق سوى هذا التل.. وكما ترى فإن مساحته تزيد أو تقل قليلاً عن الثمانية كيلومترات مربعة، ومتدرج الارتفاع، وارتفاع قمته عن سطح البحيرة يصل إلى أربعة أمتار ونصف المتر. ومع هذا فهاأنتذا ترى شواهد الحياة التي كانت تمارس هنا وقت أن كانت هذه الأطلال عامرة بالحياة.

هذه الحُمرة التي تكسو التل هي حمرة بقايا المباني المتحللة وكانت تُبنى من الطوب الأحمر.. وها هي أكداس أدوات المعيشة أغلبها كما ترى من الفخاريات المهشمة. انظر إلى

الصوامع والحمَّامات وخزانات المياه .. تبدو منبهراً من دقة هندستها، بالفعل هي مبهرة من هذه الناحية. إنْ أردتَ أنْ نقترب أكثر فلنقترب . إنكَ تبدو مأخوذاً وأنت تتابع رصف الأبنية والأسقف والسراديب المبنية بالآجر الذى ما زال محتفظاً بصلابته على الرغم من الرطوبة والرياح والرمال الملحية . انظر إلى هذا العامود الرخامى ، ألا يُشعرك بمعانى العظمة والخلود، ويعطيك إحساساً قوياً بالتحام الحضارات والتواريخ؟

لقد كانت تنيس حاضرة ليست ككل الحواضر.

بيلوز التى أصبحت الفرما:

لننطلق شرقاً.

لن نطير كثيراً فآثار الحاضرة التى نطلبها قريبة جداً. ثمانية وعشرون كيلومتراً فقط ونصل إليها.

حتى نصل، دعنى أخبرك بأننا سنتجه إلى بيلوز التى كانت، وقد كانت حصن وسوق مصر الشمالى الشرقى، وكثيرون يربطون بينها وبين الفرما، ويرون أن الفرما هى بيلوز بتسميتها العربية، وأن الفرما ما أقيمت إلا على أطلال بيلوز أو ملاصقة لها، واسمها المصرى يعود القديم بر آمون، أى مدينة الإله آمون، ومنها الاسم العبرى برمون، والقبطى برؤنى وبرما، والعربى الفرما . وبيلوز أنشئت كضاحية لمدينة آمون فى العصر اليونانى وسكنها بعد ذلك البيزنطيون والرومان والعرب.

والحقيقة أن تعاقب المدن فى نفس الموقع، وفى بعض الأحيان فى نفس الموضع، يمثل ظاهرة يمكن تلمسها بوضوح فى كثير من المدن المصرية. وما شهدته على سبيل المثال مدينتا الإسكندرية والقاهرة ، يماثل مع الفوارق بالطبع ما شهدته بيلوز.

ومعنى بيلوز هو الطينة لوقوعها فى منطقة تغطيها البرك والمستنقعات. ومن تفسيرات أسماء المدن المخلوطة بالأساطير والخرافات والحيل اللغوية ما قيل من أن الفرما كانت بحيرة ماء فغرق فيها ألف مركب ورمى البحر منها ألف رجل فسميت ألف رما أى ألف رمة وتحولت إلى الفرما (أبو المكارم - القرن الثانى عشر) ؛ ومنها أيضاً ما نقله المقريزى عن ابن خالويه من أن الفرما سميت باسم أخى الإسكندر بانى الإسكندرية وكان يسمى الفرما ؛ وعلى غرار ما يذهب إليه الأخلاقيون الدينيون المتعالمون بأمور الدنيا دونما سند من العلم اللهم إلا بعض الروايات غير المؤصلة ذهب جلال الدين السيوطى إلى أقصى ما يكون عليه الوعظ الأخلاقى حينما رد ذيوع صيت مدينة الإسكندر عن مدينة شقيقه، حسبما كان يروى وقتها، إلى أنه - أى الإسكندر - قال لمَّا بنى مدينته : هذه مدينة فقيرة إلى الله تعالى غنية عن الناس فبقيت بهجتها، فى حين أن شقيقه الفرما قال عن مدينته :

هذه مدينة غنية عن الله فقيرة إلى الناس فذهبت بهجتها (٢٩).

وقد بلغ عدد سكانها في العصر المصرى القديم حسب إحدى الروايات مائة ألف نسمة، وكانت مسرحاً لجزء من أحداث أسطورة إيزيس وأوزيريس، فالصندوق الذى خدع به ست - والمتآمرون معه - أوزيريس الطيب وأغلقوه عليه لمَّا تمدد فيه ثم سمروه وختموه بالرصاص المذاب ، هذا الصندوق حملوه وألقوا به فى أشتوم الطينة (بيلوز)، وما لبثت مياه هذا الأشتوم أن دفعت به إلى البحر، لذا فقد كان هذا الأشتوم مكروهاً، وتضطر إيزيس إلى مواصلة رحلة بحثها بالاتجاه نحو بيبلوس لتستخلصه - كما هو معروف - من الشجرة التى حل فيها، وإذ تحقق لها هذا لفته رأفة وشفقة وحنواً فى قطعة من القماش ووضعت فوقه دهاناً وأرقدته فى الصندوق وأنزلته فى سفينة عادت بها إلى بيلوز، فلمَّا صارت فى معزل خبأت الصندوق فى مكان مستتر، وقيل فى غابة كانت أشجارها متكاثفة، وذهبت تبحث عن حوريس، وكان عند مرضعته فى مدينة بوتو... واتفق أنَّ ست كان يصطاد ليلاً فى نور القمر بتلك الغابة فعثرت رجله بالصندوق فعرفه وعرف الجثة التى فيه، فى الحال أخرجها وقطعها أربع عشرة قطعة وبعثرها، فجمعت إيزيس ثلاث عشرة قطعة وركبتها فى مواضعها من بدنه ثم استكملت القطعة الناقصة وهى عضو التناسل من خشب الجميز، فلما تكامل جسمه بهذه الحالة انبعثت فيه الحياة. وتضمنت الأسطورة بياناً بالجهات التى حلت فيها أعضاء أوزيريس، فكان هدبا المعبود وحدقتا عينيه من نصيب مدينة بيلوز(٣٠) .

وكان لبيلوز ميناء على البحر المتوسط فى ذلك العصر . وقد أقام رمسيس فى هذه المدينة مدة ثم شيد إلى جوارها مدينة بر " رمسيس ".

ولأنها كانت بحق مفتاح بوابة مصر الشرقية لإشرافها على الطريق القادم من الصحراء ولامتلاكها ناصية البحر ولجريان نهر النيل إليها عبر فرعه البيلوزى فقد أصبحت مطمعاً للطامعين، وأمامها عسكرت جيوش الإسكندر الأكبر، وكان قد وصل إلى مصب الفرع البيلوزى المقدونى عام ٣٣٢ق.م، واستولى عليها أنطونيوس الرابع سنة ١٧٠ق.م، وجابينيوس سنة ٥٥ ق.م، ويُذكر أنه عندما دب الخلاف بين كليوباترا وأخيها الصغير بطليموس فرت كليوباترا إلى سوريا حيث جمعت جيشاً وسارت إلى مصر ووقف أخوها عند (بيلوز) استعداداً للحرب معها سنة ٤٨ق.م، ودخلها أوكتافيوس بسهولة بعد انتصاره على أنطونيوس فى موقعة أكتيوم سنة ٣٠ ق.م، وارتبط ببيلوز مصرع القائد الرومانى الأشهر بومبى لدرجة أن أندريوسى طالب إبان الحملة الفرنسية بوضع نصب تذكارى لهذا القائد الذى قتل غيلة فى بيلوز وقت ازدهارها فى العهد الرومانى(٣١). وبومبى كما هو معروف كان هو وقيصر صديقين ثم تحاربا كثيراً، ولمَّا هُزم بومبى فر إلى مصر هو

وزوجته وبعض من رجاله، لكن بوثينس Pothinus خصيُّ بطليموس الثانى عشر ووزيره أمر الخدم بقتل بومبى اتقاءً لغضب القيصر أو سعياً لاسترضائه فطُعن بومبى طعنةً نجلاء حين وطأت قدماه رمال الساحل بينما كانت زوجته تنظر إليه فى هلع.

ومرت العائلة المقدسة فى العام الأول الميلادى بـبيلوز فى رحلة القدوم إلى مصر عبر رفح والعريش، ومرت بها أيضاً فى رحلة الخروج عبر بابليون ومسطرد وبلبيس(٣٢) .

وكان الفينيقيون يدخلون مصر بمراكبهم من ميناء بيلوز، وكانوا يسمونها ميناء " سين. وقال استرابون: " وفى مدينة سين أو بر آمون حصلت معارك كبيرة بين المصريين والآشوريين بقيادة سينا شريب، كما حصلت بها معارك هائلة بين المصريين والفرس بقيادة كاثمنيس، وفى هذه المعركة وصلت نجدات يونانية للجيش المصرى فانتصر..."

وذكرت بيلوز فى الكتاب المقدس باسم (سين) كما جاء فى قاموس الكتاب المقدس بالصفحة رقم ٤٩٧: سين مدينة مصرية ورد ذكرها فى حزقيال (٣٠:١٥:١٦)، ومن نصوصه التى ورد فيها اسم سين " واسكب غضبى على سين حصن مصر واستأصل جمهور نو وأضرم ناراً فى مصر.. سين تتوجع توجعاً "، وسين مصر أى عظمة مصر. وفى الصفحة رقم ٨٩٤ بالمرجع نفسه " سين (حز ٣٠:١٥:١٦) هى نفس بيلوسيوم فى العصر الكلاسيكى...". وربما يكون اسم شبه جزيرة سيناء مشتقاً من اسم هذه المدينة، إلا أن دى بوا ـ إيميه فى دراسته المعنونة " مذكرة حول فروع النيل القديمة ومصباتها فى البحر " تراجع عما اعتقده بهذا الخصوص بعدما رأى الترجمة الدولية للتوراة التى تجعل من سين هذه مدينة سايس(٣٣).

وفى سنة ٦١٦ميلادية احتل الفرس بيلوز أثناء حملتهم التى زاحموا بها الرومان فى احتلالهم لمصر، وقد خربوا الكنائس والأديرة المتواجدة بها قبل أن يتحركوا منها إلى ممفيس.

وفيما يبدو أن التحصينات الواقعة على طريق بيلوز / رفح قد ضعفت فى أواخر الحكم الرومانى لمصر مما أدى إلى سحب الحاميات منها والاكتفاء بتحصين بيلوز، حتى أن المسلمين عند فتحهم لمصر بقيادة عمرو بن العاص لم يلقوا مقاومة تذكر من هذه الحصون اللهم إلا من حصن بيلوز فكان منيع الأسوار وبه كثير من التكدسات الإدارية. ويقال أن القبط الذين كانوا بالمدينة صاروا يومئذ لعمرو أعواناً.

وقد تعمد عمرو التباطؤ فى تحركه نحو هذا الحصن حتى يدركه المدد الذى طلبه من الخليفة، فلمَّا بلغه صدته قوات الروم فضرب على المدينة حصاراً. والغالب أن قوات الروم بها كانت كبيرة، يدل على هذا أمران: أولهما أن عمرو بن العاص لم يجازف باقتحامها

بمجرد وصوله إليها، وإنما حاصرها وطلب المدد، وثانيهما أن الروم لم يدفعوا إلى المدينة بقوات أخرى تدعم القوات المتواجدة بها.

وقد دام الحصار شهراً دأب الروم خلاله على مناوشة الجيش المحاصر. وحتى يطيل عمرو من أمد حصاره للمدينة دفع ببعض من قواته إلى الإغارة على المناطق القريبة لتوفير ما يلزم لإعاشة كتائب جيشه. ولما طال الحصار بالروم اضطر قائد الحصن إلى مهاجمة جيش المسلمين بقوات أكبر من تلك التى كانت تقوم بالمناوشات، لكن المسلمين اضطروهم إلى الارتداد فانتهز عمرو ووضع القهقرى الذى وضع الروم أنفسهم فيه وأمر قواته بمضاعفة الضغط ومطاردتهم حتى سبقوهم إلى أبواب الحصن وسيطروا عليه. وقُتل يومها من الروم عدد كبير، وكان ذلك فى أول المحرم سنة ١٩ هـ. (يناير سنة ٦٤٠م.) (٣٤).

وتغير الاسم من بيلوز إلى الفرما، ولا يهم في رأيى معرفة ما إذا كان التغيير فى الاسم قد طرأ عليه قبل الفتح الإسلامى أم بعده، فمثل هذا التغيير يستلزم وقتاً، وقد ذكرتُ لكَ آنفاً أصل تسمية الفرما وسلسلة التحريفات التى طرأت على الاسم المصرى القديم (بر آمون) حتى وصل إلى الفرما؛ لكن من المهم أن أذكر لك أنه كانت بالفرما (بيلوز) فى عهدها الإسلامى واحدة من أقدم إيبارشيات الكرازة المرقصية، وكانت تحتوى على الكثير من الأديرة والكنائس. وكان بها عدد كبير من الأساقفة، وقد زار الراهب أبيفانيوس الفرما سنة ٨٧٠م، أى بعد الفتح الإسلامى لها بسنوات، وفى زيارته هذه رأى بها كنيسة باسم السيدة العذراء تذكاراً لمرور العائلة المقدسة.

لقد كان دخول وخروج أغلب الخلفاء والملوك والأمراء إلى ومن مصر باتجاه بلاد المشرق لا يتم إلا بمرورهم هم ومن يصطحبونهم من رجالات الحكم والدين وقادة جيوش الحرب عبر الفرما (بيلوز). حتى قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون لما اتجه بها موكبها إلى بغداد لتتزوج من الخليفة العباسى المعتضد سنة ٢٨٦هـ. (٨٩٩م) لم يكن أمام هذا الموكب إلا أن يمر بأرغد مدينة على أسهل طريق، طريق الفرما التى تملك مفتاح بوابة مصر الشرقية.

وقد تعرضت الفرما (بيلوز) للغزو على أيدى الصليبيين، ولم تدمر نهائياً إلا على يدى بلدوين الأول ملك بيت المقدس، فبعدما عبر غزة والعريش ووصل إلى الفرما فى ٢١مارس ١١١٨م، ووجدها خالية من أهلها دخلها بجيشه وأحرق مسجدها الجامع وسائر مساجدها، ثم واصل سيره إلى تنيس، وفيها أصيب بالمرض نتيجة أكلة سمك من أسماك بحيرة المنزلة، فقفل عائداً، وقبل أن يصل إلى مدينة العريش داهمه الموت فشق أصحابه بطنه وصبروه ونزعوا أحشاءه ورموها فى المكان الذى عُرف بسبخة بلدوين ثم حُرِّقَت إلى

سبخة البردويل أى بحيرة البردويل، و تقع على بعد تسعين كيلومتر من تنيس . وشديدة القرب من الفرما التى هدمها.

ولقد بهرت هذه المدينة العرب مثلما بهرت غيرهم، فوصفها ياقوت الحموى وصفاً دقيقاً حدد به موقعها، وأهم ما يميزها ويميز سكانها، وأساليب العيش فيها، فوصفها بأنها مدينة قديمة بين العريش والفسطاط قرب قاطية وشرق تنيس على يمين القاصد لمصر، بينها وبين بحر الظلام المتصل ببحر الهند أربعة أيام . وعن ثرواتها قال أنه كان بها مقطع الرخام الأبيض بلونين، وبها من النخيل الذى كان يثمر حين ينقطع البسر والرطب فى سائر البلدان، ووصف مناطق السباخ المحيطة بها بالموحلة، وقال بأنها لا تكاد تنضب صيفاً وشتاءً، وأن شُرب أهلها من ماء المطر الذى يخزن فى جباب، وصف أهلها بأنهم نحاف الأجسام متغيرو الألوان، وهم من القبط وبعضهم من العرب من بنى جرهم وسائر جزام، يعملون بالتجارة مع القوافل وأكثر متاجرهم من البلح والشعير.

وكما كانت عادة كتاب هذا العصر فقد مزجوا الواقع بالخرافة والحقيقى بالمتخيل عند حديثهم عن هذه المدينة . من ذلك ما قال به ياقوت الحموى وأعاد ذكره الكندى عن الطريق التى كانت تمتد من الفرما إلى جزيرة فبرس(يعنى قبرص) فى البحر، فغلب عليها البحر.

وبالإضافة إلى ما ذكرته الأدبيات المختلفة عما اشتهرت به هذه المدينة، فقد اشتهرت أيضاً فى مجال الصناعة لاسيما صناعة الأوانى الفخارية، وأدوات الزينة، والأقمشة الكتانية . وكانت تُصدِّر إنتاجها عبر طريق رفح البرى وطريق المتوسط البحرى إلى أثينا وروما وجزيرتى قبرص وكريت والشام الكبير.

أكاد أشعر وأنت تنظر إلىَّ ونحن فى طيراننا أن سؤالاً يدور فى دماغك البشرى، الذى تحتويه هذه الرأس النورسية، عن السبب وراء كل ما حكيتُ، وعن الدافع الذى حاد بى عن الجغرافيا إلى التاريخ. ولا أظنك قد رددتَ مسلكى هذا إلى شهوة الكلام أو حب الاستعراض أو الرغبة فى التباهى وغيرها من أمراض المثقفين التى تعودناها. لا أظنك تفعل هذا بى، فسؤالك مشروع، والإجابة عنه غاية فى السهولة واليسر، وقد سبقنى إليها العلامة جمال حمدان فقال فى هذه المسألة الموجز المفيد ".. البيئة قد تكون خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، وربما تكون الجغرافيا صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها "(٣٥) . ومن الأقوال البليغة التى ذكرها أيضاً فى ذات الاتجاه " .. إن التاريخ ظل الإنسان على الأرض بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان "(٣٦).

ها نحن قد اقتربنا من المدينة المندثرة بفعل تدمير بلدوين، وما طرأ على الفرع البيلوزى من إطماء وغمرٍ بالرمال . وأضاع من هيبتها طغيان مياه البحر على مينائها الذى لم يبق

منه إلا بعض الأرصفة المهشمة التى تدل على الأهمية التى كان عليها فيما مضى من سالف السنين . ها نحن قد وصلنا . أتعرف الاسم الذى يعرف به موقع هذا الميناء الآن؟.. يعرف بالحمدية .. موقع معروف لدى البدو الذين يعيشون فى هذه المنطقة الآن .. أين خرائبه التى تراها الآن مما كانت عليه فى الفترات الإغريقية والبيزنطية والرومانية؟.. صحيح أن الطريق الساحلى الذى ربط بين المدينة المندثرة ورفح كان من أقدم طرق التجارة، لكن الميناء كان ذا فائدة قصوى للمدينة، تجارياً وحربياً، وأيضاً مصدر خطر بالغ لها . وقد عظَّمَ من أهميته الحربية إقامة القلاع الساحلية.

مدْ بجناحيكَ وجاورنى فأقودك إلى أطلال المدينة.

انظر.. هذا هو كل ما تبقى من المدينة العظيمة.. كومان أثريان يمتدان فى خطين متوازيين لمسافة ميل ونصف الميل. تعال أريكهما.. ها هو الكوم الشرقى أقل فى الامتداد، هذا صحيح، لكنه أعظم فى الارتفاع، أما الكوم الغربى فكما ترى يمتد حوالى الميل ويتسع إلى نصف ميل وارتفاعه لا يتعدى ٤٠ قدماً، وبين الكومين أرض مستوية كما ترى . ويُرَجَّح أن الفرع البيلوزى كان ينتهى عند هذه الأرض.

ألق ببصرك إلى بقايا ذلك الحصن، وتفقد معى ذلك السور المبنى بالطوب الأحمر، ألا تراه عظيماً ؟.. وهذه الأعمدة الجرانيتية التى تطعن فى قلب التاريخ، أليست دليلاً على الازدهار الحضارى الذى كانت عليه هذه المدينة؟.. تأمل معى ضخامة الكومين واتساع المساحات التى تشغلها آثار الذين كانوا يقيمون هنا، ألا توحى إليك هذه الضخامة وتلك الاتساعات بروعة الحياة التى كانت تصطخب فى هذا المكان؟.. أنا شخصياً على يقين من المكانة العظيمة التى كانت هذه المدينة تحظى بها فى مختلف العصور.

الفصل الثالث

عِقاب المقصرين

لعلك استنتجتَ بإحساسك النورسى نوعيات البشر الذين سكنوا هذه المنطقة وقت ازدهارهاـ أو سكنوا بتخومها ـ من فلاحين وأرباب صنائع وصيادين ورعاة ورجال دين وقادة وجنود.

هم مصريون بالأساس وإنْ خالطهم الأوروبيون والأسيويون من يونانيين ورومانيين وهكسوس وفُرْس. وهل نسيت غزوات قورش وقمبيز؟.. منهم من جاء غازياً ناهباً، ومنهم من جاء مهاجرا مقيماً. ولعل أهم الهجرات التى شهدتها المنطقة ثلاثاً هى : هجرات الهكسوس والإسرائيليين والعرب، وسوف أحدثك عنها عاجلاً، لكن لسانى يستعجلنى كى أقول لك إن من استوطن هذه المنطقة من هؤلاء استيطاناً حقيقياً ذاب فى نسيجها واندمج فى لُحمتها وأصبح مصرياً منبت الصلة عن البيئة التى جاء منها.

هذا ليس كلام نورس وطنى متعصب، وإنما هى حقيقة أثبتها الواقع المصرى عبر الحقب التاريخية المختلفة، وبتوزع الاتجاهات الجغرافية الأربعة فيها، وأكدته الأبحاث الحديثة، فالشعب المصرى شعب أصيل منذ القدم .. مقيم ومتجذر، وإنْ كانت هناك احتمالات اختلاط كبرى قد وقعت فى مصر لأمشاج جنسية أفريقية وأسيوية، فهى احتمالات لا يقينية يقول بها بعض من ذوى الجموح النظرى، لكن الصحيح هو ما قال به شانتر، وأكده جمال حمدان، فالمصريون القدماء شعب أصيل، تواجدوا فى مصر ولم يفدوا

إليها من مكان آخر(٣٧).

وحسبما يقول الأنثروبولچيون فإن احتمالات الاختلاط المهمة فى مصر قلت مع ومنذ بداية عصر الأسرات التاريخية، فمنذ فجر التاريخ برز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة الأصل ومتجانسة بقوة فى الصفات والملامح الجسمية ؛ وأغلب الوافدين إلى مصر - لاسيما من الشرق - لم يفدوا إليها كمهاجرين، وإنما كغزاة حربيين، وهذا ما حكيتُ لك عنه ورأيتَ أنت أيها النورس العزيز آثاره بأطلال كل من تنيس والفرما التى هى بيلوز.

وغالباً ما تتغلغل الهجرات البشرية وتسرى فى الريف مثلما تتغلغل وتسرى فى المدن، أما الغزوات الحربية فتقتصر على المدن تقريباً . والهجرات تمثل حركات ضخمة الحجم كمّاً، وكلية كيفاً ، بمعنى أنها تشتمل على الجنسين مما يجعل تأثيرها الجنسى محققاً، أما الغزوات العسكرية فبضعة محدودة من حركة " ذكرية " بحتة. ولذا تذوب إن لم تُبَدْ، فمن بين نحو ٤٠ موجة دخيلة عُدَّت فى التاريخ المصرى، لا نجد إلا ثلاث هجرات حقيقية هى الهجرات التى حدثتك عنها آنفاً.. هجرات الهكسوس والإسرائيليين والعرب(٣٨) .

ولاحظ يا عزيزى أن هذه الهجرات جميعاً جاءت من الشرق، أى من آسيا، وعبر مفازات أفضت إلى منطقتنا هذه أو حفت بها.

والهجرة ليست كلمة بسيطة تتكون من الأحرف التى تشكلها فحسب، كما قد يتخيل البعض، فالحقيقة أنه بين ثنايا هذه الأحرف تتجمع حزم معقدة من الدوافع والسلوكيات والإمكانات والثقافات والتيارات والمجالات والأنماط المتراكبة بعضها فوق بعض، وغالباً ما تكون هذه الحزم بطيئة وحثيثة فى تحركها حتى ليظن المعايش لها أنه لا توجد ثمة هجرة فى سبيلها إلى التحقق، فى حين أن الناظر إليها بعد تحققها يتصور أنها إنما كانت مجرد قفزة واحدة غيرت وبدلت ما لم يتصور أنه قابل للتغيير أو التبديل.

وعلى الرغم من أن الهجرات، التى تبدو عادة فى صور تصاعدية، لا تخلو من بعض ارتدادات، إلا أنه غالبا ما لا يسجل التاريخ سوى القوى الواضح من هذه الارتدادات، لاسيما تلك التى تكون بفعل ضغوط عسكرية كما حدث مع الهكسوس ،أو بدافع دينى مثلما كان من أمر الإسرائيليين، فقد طرد الجيش المصرى كما هو معروف الهكسوس الذين أقاموا بمصر نحو ٥٠٠ سنة بعد تحرشات وكر وفر ومحاصرة ومعارك لعل أشهرها معركة أواريس . وخرج الإسرائيليون برفقة النبى موسى من أرض جاشان وتخومها فراراً من بطشة الفرعون. وكلاهما أواريس وجاشان كان يتاخم منطقتنا ويحف بها.

وعلى العموم فقد طُردَت الهجرتان الأوليان من مصر تماماً بعد استقرار مؤقت، و كان استقرارهما بها محلياً، فإما بشرق الدلتا بالنسبة للهكسوس، أو بوادى الطميلات (أرض

جاشان) بالنسبة للإسرائيليين ؛ أما هجرة العرب فبدأت بأعداد محدودة كغزوة " ذكرية "، ولكنها سرعان ما تحولت إلى هجرة واسعة النطاق مختلطة النوع . وهى أيضاً بدأت كشبه استقرار على أطراف الصحراء وحواف المدن، لكنها ما لبثت أن استقرت فى الأراضى الزراعية وانتشرت فى المدن. ولهذا كُتب للتعريب فى مصر أن يكون تحولاً خالداً لا ظاهرة عابرة كالهللينية(٣٩).

وعليه، فإن من سكنوا هذه المنطقة أو عاشوا فى جوارها، وقت أن كانت تضج بمظاهر الحياة، بادية وريفاً وحضراً، هم المصريون الأصلاء، وأن مَنْ جاءوها مِنْ يونانيين ورومان وهكسوس وإسرائيليين وفرس وأقاموا فيها، لاسيما فى مدنها، وفى مقدمة هذه المدن تنيس والفرما (بيلوز)، ما لبثوا أن اختفوا، حتى لكأن إقاماتهم بالمنطقة - ومن ثم بمصر - كانت إقامات عابرة، فبعد أن طُمرت أفرع النيل الثلاثة تلاشوا ولم يتبق سوى العرب الذين أثروا فى مصر ثقافياً ومصرتهم مصر جنسياً، وقد ساعد على هذا أن كلاً من العربى والمصرى من أصل قاعدى واحد منذ ما قبل الإسلام، بل ما قبل التاريخ. حتى أنه يمكن القول بأن الاختلاط الجنسى المصرى - العربى هو زواج بين أقارب بعيدين(٤٠)، لذا كان ميسوراً أن تستقبل مصر بصحرائها وريفها ومدنها العرب بالحفاوة التى تليق بالأقرباء.

وقد كان طبيعياً، بعدما نال الجفاف والتبوير من المناطق الخضراء وانخفضت الحركة فى التخوم الصحراوية وازورت عنها القوافل، أن تستقبل بيئة بحيرة المنزلة أعداداً غير قليلة منهم، باعتبارها البيئة الأقرب والأصلح لأن تكون موئلاً لهم . صحيح أنَّ الانتقال إلى البحيرة لم يصل فى هذه الأوقات إلى درجة التزاحم، لكن - وهذا أمر طبيعى - أدى هذا الانتقال واستمراره واستقراره إلى مجموعة من التغيرات على المقيمين الأصليين، العائشين داخل البحيرة وحولها، فانطبعوا - عبر سلسلة من علاقات الجدل والمصاهرة - بطابع هو مزيج من المصرية والعربية.

النيل يعاقب المقصرين فى حقه :

لكن أين هم سائر البشر الذين كانت تعج بهم هذه الأراضى التى قحلت؟.. أين هم وأين مدنهم وقراهم ومضاربهم؟..

سبخ وطين وملح ورمل جاف تسفوه الرياح .. هل هذا كل ما تبقى؟..

أنتَ نورسٌ لماح .. تقول النيل هو مصر .. إنْ فاض أحيا، وإنْ جف أمات.. قولتك قولة حق، فهاأنتذا ترى تأثير طمر ثلاثة أفرع قصار .. لا غرس أو زرع، لا جنى أو حصد، ولا صناعة ولا تجارة .. ومن ثم فلا قوافل ولا أساطيل ولا حروب أو اقتتال؟.. أى دراما تلك التى صنعتها الطبيعة، فى هذه المنطقة من مصر، بالناس الذين سكنوها وظنوا أنهم قد

سيطروا عليها وخلدوا فيها ؟.. غلبهم الوهم فأظهرت لهم الطبيعة أنها الأقوى والأبقى، وأن النيل الذى هو بطلها الرئيس قادر على أن يغضب، وإذا كان قد مَنح فبإمكانه أن يمنع .. وما داموا قد تحججوا بالإغارات الأجنبية، ولم يبذلوا العناية اللائقة بأفرعه، فلم يعملوا على تطهيرها ولم يقوموا بإزالة الطمى والرواسب من مجاريها، فليحجز عنهم مياهه، وليمنع عنهم خيره، ولا يلومون إلا أنفسهم.

وهكذا أصبحت المنطقة الغنَّاء قفراً يباباً.

هوامش الباب الأول

الفصل الأول:

(١) د. يسرى الجوهرى، الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٦م.، ص ٣٢٣ .

(٢) محمد سامى عسل، الجغرافيا الطبيعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م.، ص ص ١٦-١٧ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٧ .

(٤) علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، المجلد الثالث، دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، بدون ناشر، ١٩٨٤م.، ص ص ٣٩-٤٠ .

(٥) فؤاد فرج، المدن المصرية: منطقة قناة السويس، مطبعة المعارف ومكتبتها، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص ٢١ .

(٦) د. السيد عباس زغلول، " التطور الجيولوجى لبحيرة المنزلة "، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.، ص ٦ .

(٧) د. محمد صفى الدين، مورفولوجية الأراضى المصرية، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٧م.، ص ٢٧٠ .

(٨) د. جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان، الجزء الأول، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠م.، ص ٨١٨ .

(٩) محمد عوض محمد، نهر النيل، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٦٢م.، ص ١٩١م.

(١٠) فريق عمل محافظة بورسعيد، " بورسعيد وبحيرة المنزلة"، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة،محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م. ص ٦ .

(١١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:

ـ خالد منتصر، " المشاكل التى تواجهها محافظة دمياط من تلوث بحيرة المنزلة: الاقتراحات ـ التوصيات"، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.، ص ٣.

ـ ج.م.ع.، مجلس الشعب، الفصل التشريعى السادس، دور الانعقاد العادى الأول، مضبطة الجلسة السادسة عشرة، ٩ فبراير١٩٩١م.، ص ٧١ .

(١٢) د. محمد حسن عامر، " مصادر التلوث فى بحيرة المنزلة وطرق التخلص منها "، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد،

٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.، ص ٤ .

(١٣) د. محمد صفى الدين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٠ .

(١٤) قسم علوم البحار بكلية العلوم جامعة قناة السويس، تقرير أولى عن التلوث فى المياه الإقليمية لبورسعيد، مرفوع لمحافظة بورسعيد، أكتوبر ١٩٩٠م، ص ص ١٩-٢٠ .

(١٥) د.أحمد أمين الجمل، " تلوث المياه فى مصر وأثره على صحة الإنسان"، (إعداد)، الدورة التدريبية الأولى لفروع ومكاتب البيئة بالمحافظات، جهاز شئون البيئة ومؤسسة فريدريش إيبرت، الإسكندرية، ١٧-٢١ يوليو ١٩٨٩م.، ص ٧ .

(١٦) مِندى بهاء الدين وآخرون، عالم الطيور فى مصر، برنامج الطيور المهاجرة، المركز الدولى لحماية الطيور ومركز التعليم والوعى البيئى بحديقة الحيوان، الجيزة،١٩٩٠م.، ص ٣٨ .

(١٧) نعمات حسين، " دعوة للمحافظة على ٢ مليار طائر مهاجر تعبر أرض مصر"، الحياة الجديدة، جهاز شئون البيئة، القاهرة، العدد ٢٨، مارس ١٩٨٩م. ص ٢٨ .

(١٨) مندى بهاء الدين وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨ .

(١٩) د. جميل عبد المولى، " أهمية بحيرة المنزلة كمأوى للطيور البرية"، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.، ص ١ .

(٢٠) أحمد عبد الرازق وحسن صادق عمران، المحميات الطبيعية ببورسعيد، جهاز شئون البيئة فرع بورسعيد، بورسعيد، بدون تاريخ نشر، ص ١٣ .

(٢١) اللواء عبد المنصف محمود، على ضفاف بحيرات مصر، الجزء الأول، سلسلة من الشرق والغرب ،العدد ١٩٨، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ٨ يناير ١٩٦٧، ص ٧٢ .

(٢٢)المرجع السابق، ص ٧١ .

الفصل الثانى:

(٢٣) علماء الحملة الفرنسية، مرجع سبق ذكره، ص٣٧٧ .

(٢٤) المرجع السابق، ص ٢٥ .

(٢٥) أحمد هانى قزامل، انهيار سد مصر: بورسعيد قبل أن تتحول إلى قدس أخرى، بدون ناشر،١٩٩٧م.، بورسعيد، ص ٥١، نقلاً عن حياة إبراهيم ومحمد شلبى ،(غير مذكورة تفاصيل المرجع المنقول عنه) ، ص١٢٢ .

(٢٦) القس شنودة فتحى، تاريخ إيبارشية بورسعيد قديماً وحديثاً، ط ١، دار الأوائل للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦م.، ص ١٤ .

(٢٧) المرجع السابق، ص ١٥ .

(٢٨) لواء عبد المنصف محمود، مرجع سبق ذكر ه، ص ٣٤ .

(٢٩) محمد السيد عيد، الفرما مدينة كان لها تاريخ، أخبار الأدب، القاهرة، العدد ١٢٤، ٢٦ نوفمبر ١٩٩٥م.

(٣٠) لواء عبد المنصف محمود ، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٢ ـ ٤٦ .

(٣١) علماء الحملة الفرنسية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧ .

(٣٢) حسن الرزاز، طرق مصر المقدسة، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

١٩٩٧، ص ص ٤٢-٤٥، ص ص ١٠١-١٠٣ .

(٣٣) علماء الحملة الفرنسية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٩ .

(٣٤) حسن الرزاز، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٣ .

(٣٥) جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد ٥٠٩، مايو ١٩٩٣، ص ٦ .

(٣٦) المرجع السابق.

الفصل الثالث:

(٣٧) جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان، كتاب الهلال، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢، نقلاً عن:

E.Chantre, Recgerches Anthropologiques dans L` Alrique Orientale, Egypte, 1904, P.302-3.

(٣٨) المرجع السابق، ص ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣٩) المرجع السابق، ص ٣٧ .

(٤٠) المرجع السابق، ص ٣٨ .

ما لم يرد بشأنه هامش فالعمدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة وخبرته بالموضوع.

الباب الثانى



الفصل الأول

رجل سريع الانقياد

الآن وقد طفنا معاً عند نقطة التقاء خط الطول ٣٢,١٨° شرقاً وخط العرض ٣١,١٦° شمالاً وما حولها، و شاهدنا ما يحيط بها من تضاريس طبيعية وآثار تاريخية، أدعوك إلى أن تفعل مثلى . اخلع عنك ريشك و نفض عنك تعبك و تعال معى فى صورتك الآدمية إلى مكتبتى، فما سأحكيه لك قد لا يحتاج إلى تخيل أو مشاهدة قدر ما يحتاج إلى تدقيق وتوثيق، و لعلى وإياك نجد هذه الحاجة فيما تزخر به المكتبة من كتب ومراجع وصور ووثائق.

هل بلغك أمر شخص يدعى لوبير Le Père؟.. إنْ لم تكن تعرف عنه شيئاً، أقول لك بداية إنه فرنسى ولد عام ١٧٦٣ م.، وتوفى عام ١٨٤١ م.، وجاء إلى مصر فى عهد الحملة الفرنسية باعتباره كبير مهندسى الرى والطرق والجسور فيها . وهو - وهذا ما يهمنى أن أنقله إليك - وأضع التقرير المشهور عن إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط . فقد عهد نابليون بونابرت إليه فى ٤ نوفمبر ١٧٩٩م برئاسة اللجنة المكلفة بدراسة المنطقة المجاورة لساحل البحر الأبيض المتوسط، فقضى عامين فى فحص ودراسة مشروع وصل البحرين عن طريق نهر النيل .

وتصميم المشروع كما وصفه لوبير يتلخص فى أن تُحفر ترعة من السويس إلى البحيرات المرة ويعاد حفر الخليج القديم المعروف بخليج أمير المؤمنين، ذلك الذى حفره

عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٣٢ هـ (٦٤٤ م) وكان يصل النيل بالبحر الأحمر إلى أن يتلاقى مع بحر موسى قرب بوباسط (قرب الزقازيق) ثم إلى فرع دمياط ومنه إلى الترعة الفرعونية ففرع رشيد، ومنه إلى الإسكندرية بواسطة ترعة الإسكندرية .

كان هذا هو مشروع لوبير الأصلي، لكنه حبذ كذلك فكرة وصل البحرين رأساً بواسطة ترعة أخرى تخترق برزخ السويس فيما بين بيلوز على البحر الأبيض و مدينة السويس على البحر الأحمر، غير أنه اعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر الأبيض المتوسط بنحو تسعة أمتار .

أظنك تتوقع منى أن أحدثك عن قناة السويس . ألمح هذا فى أسارير وجهك، ولربما نشط ذهنك الآن فى تقليب الأمور المتصلة بهذه القناة، ولعلك تريد أن تسبق الأحداث فتربط بين نقطة التقاء خط الطول ٣٢,١٨ ° شرقاً وخط العرض ٣١,١٦ ° شمالاً والموضوع الذى تتوقع أن أحدثك عنه. لكن قبل أنْ أجاريك اسمح لى بأن أسألك إنْ كنتَ تعرف شخصاً اسمه لينان بك . هل تعرفه ؟.. لا يخدعنك لقب البكوية فليس لينان هذا بمصرى أو تركى أو حتى أردنى، إنه فرنسى أيضاً، كان ضابطاً فى سلاح البحرية الفرنسية واسمه لينان دى بيلفون، وقد حضر إلى مصْر عام ١٨١٨م، ضمن بعثة علمية بصفته رساماً، ولأنه شرب من ماء النيل فقد كان بإمكانه أن يغادر مصر ثم يعود إليها ثانية، لكن يبدو أنه شرب من النهر الخالد ماءً كثيراً فقد مكث فيها ولم يغادرها . الأكثر من هذا أنه عكف على دراسة مشروع لوبير نظرياً وتطبيقياً، و لمَّا التحق سنة ١٨٣٠م. بخدمة الحكومة المصرية أمره محمد على باشا باصطحاب موجيل بك والاستعانة به فى دراسة مشروع وصل البحرين.

هل تعرف موجيل بك ؟.. إنه أيضاً فرنسى شغل منصب مهندس للطرق والكبارى بالحكومة المصرية، ولأنهما - موجيل ولينان - تأثرا بأفكار لوبير فقد اقترحا وضع أهوسة جنوب البحيرات المرة لتتحكم فى اندفاع المياه إلى البحيرات ومنها تسيير القناة حتى تصل إلى النيل، ثم ما لبث لينان أن أدخل عام ١٨٤٠م. تعديلات جوهرية على مشروعه الابتدائى بعد أن تيقن من أنه لا فرق بين مستوى البحرين، فوضع مشروعاً لشق قناة مستقيمة بينهما لأنها أقصر وأقل تكلفة و أكثر ملاءمة لأوروبا واحتياجات تجارتها، فمثل هذه القناة المستقيمة تسمح بالمرور السريع للسفن ذات الحمولات الكبيرة بين السويس والفرما .

غير أنه أصر على ضرورة إقامة أهوسة عند فم خليج السويس . وتبدأ القناة حسب

تصوره من شرق خليج السويس وتتجه إلى الشمال حتى تصل إلى البحيرات المرة ثم تجتازها إلى بحيرة التمساح بعد أن تخترق مرتفعات سرابيوم ثم تجتاز بحيرة التمساح، و بعد أن تدور حول المنطقة المعروفة باسم مرتفعات الجسر تمر بالشاطئ الشرقى لبحيرة المنزلة لتصب فى خليج بيلوز على البحر الأبيض المتوسط فى النقطة التى كانت تعرف قديماً باسم فم الطينة واقترح إقامة برزخ عند مدخل القناة فى البحر الأبيض المتوسط لحمايته من رواسب النيل (١). وفى سنة ١٨٤٥ م وصل إلى مصر الدوق دى مونتبنسييه ابن ملك فرنسا فقدَّم له لينان مشروعه ثم توجه به إلى منطقة برزخ السويس ليشرح له على الطبيعة. و عاد الدوق إلى فرنسا و أدى عرضه للمشروع فى باريس إلى تكوين جمعية الدراسات الخاصة بحفر قناة السويس التى تأسست فى ٣٠ نوفمبر ١٨٤٦م. بمساعدة السان سيمونيين وبقوة دفع ونفوذ من (أنفانتان) السان سيمونى المعروف، وتكونت هذه الجمعية من خمسة من الفرنسيين وعشرة من الألمان واثنين من الإنجليز، و كانت على اتصال بلينان دى بيلفون وبالقنصل النمساوى لورين Laurin، وقد قيل وقتها أن نفقات حفر القناة أكثر من نفقات مد خط السكك الحديدية بين الإسكندرية والسويس(٢).

وقد اتخذ السان سيمونيون من مشروع لينان المباشر علاوة على مشروع لوبير أساساً لأبحاثهم و محاولاتهم لتنفيذ مشروع توصيل البحرين، وأكد ميشيل شيفاليه أحد السان سيمونيين البارزين إمكان شق قناة مستقيمة تصل بين البحرين مباشرة دون حاجة إلى استخدام النيل(٣). وفى عام ١٨٤٧م سافرت ثلاث جماعات منها إلى مصر إحداها بزعامة إنجليزى هو روبرت ستيفنسون Robert Stephenson، والثانية برئاسة فرنسى هو " بولان تالابو" Paulin Talabot، والثالثة برئاسة نمساوى هو نجريللى Negrelli، حيث اضطلعت كل منها بعمل مسح تفصيلى لبعض جوانب الموضوع(٤). ولعلها هى اللجنة الفنية التى قال عبد الرحمن الرافعى بأنها تأسست ١٨٤٦م من بعض المهندسين من مختلف الأمم لدرس مشروع حفر القناة، وجاء أعضاؤها إلى مصر لفحص المشروع فى أواخر عهد محمد على، واستمروا على عهد عباس وعاونتهم الحكومة وعهدت بتخطيط المواقع إلى بعض كبار المهندسين مثل: لينان بك وسلامة أفندى إبراهيم وإبراهيم بك رمضان وطائل أفندى وغيرهم، وانتهت اللجنة إلى أن فرق مستوى البحرين ليس أمراً ذا بال، ورأت الوصل بينهما بشق ترعة تجتاز الدلتا(٥) ؛ لكن محمد على باشا أعرض منذ البداية عن مشروع القناة، ولم يرغب فيه لما توقعه - إذا ما تم - من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تحيق بمصر إذا ما فتح قلب مصر لسفن الدول الأوروبية . من هنا كان عدم

استجابته لدعوة المهندسين وإغراءات الماليين الأوروبيين الذين زينوا له المشروع. وكان يردهم بلطف و حكمة، و يعدهم و يمنيهم، وفى الوقت نفسه يُضمر الإعراض عن هذا المشروع حتى نهاية حكمه (٦).

وقد قامت بريطانيا بإجراء تحرياتها عن موقف محمد على باشا من المشروع عن طريق سفيرها فى القسطنطينية اللورد كاولى Cowely الذى كتب إلى بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا يقول " إن محمد على قد أبلغ الصدر الأعظم رشيد باشا بأن الدول العظمى قد ألحَّت عليه فى بناء القناة، ولكنه أعارها أذناً صماء، وأنه يفكر فى الاضطلاع بالمشروع بنفسه بعد الانتهاء من العمل الذى يقوم به حالياً – يقصد قناطر الدلتا – كذلك فقد طلب الوالى إلى رشيد عدم تشجيع المشروع إذا عرضته على الباب العالى أية دولة أجنبية(٧).

أنت عرفتَ الآن لوبير و لينان بك و موجل بك، فهل تعرف شخصاً يدعى لويجى نيجرللى؟

لا تتعجل فتقول إنه فرنسى ضابط أو مهندس، صحيح أنه مهندس لكنه ليس فرنسياً بل هو نمساوى . و هو صاحب مشروع مؤيد للاتصال المباشر بين البحرين وقد اتصل بالسان سيمونيين عام ١٨٤٣م و ساهم فى جمعيتهم المشكلة لدراسة قناة السويس بصفته ممثلاً للعنصر النمساوى ورئيساً للشعبة النمساوية التى حضرت إلى مصر عام ١٨٤٧م . وقد أكد فى مشروعه على إمكان إنشاء مدخل و ميناء على الخليج البيلوزى .

بعد دراسة نيجرللى عهدت جمعية دراسات قناة السويس فى عام ١٨٤٦م إلى شخص يدعى " بولان تالابو" Paulin Talabot بدراسة منطقة البرزخ بين البحرين لمعرفة مدى إمكان شق قناة تصل ما بين السويس و بيلوز – الفرما – و قد نشر تالابو تقريره فى عام ١٨٤٧م الذى تضمن أربعة مشروعات من بينها مشروع قناة ملاحية مباشرة بين البحرين سواء أكان ذلك باستخدام أهوسة أو بدونها لتساوى ارتفاع البحرين، لكنه رأى صعوبة إنشاء البروزين اللذين قال بهما نجريللى وإرسائهما على أرض غير صلبة، و كذلك صعوبة إنشاء مدخل ميناء على الخليج البيلوزى، وعلى ذلك فإنه رأى التخلى عن أى مشروع مباشر ينتهى إلى الخليج البيلوزى(٨).

المهم من هذا كله أن نظرية الأمتار التسعة التى تخفض بحراً (الأبيض) و ترفع بحراً (الأحمر) دُمرت تدميراً لصالح نظرية أهم و أدق هى نظرية الأوانى المستطرقة.

أراك تعجب لذكر كل هؤلاء قبل ذكر فردينان دى ليسبس . لا تعجب فما قدمناهم على دى ليسبس إلا لأنهم سبقوه وعاصروه، وفوق هذا وذاك كانوا من أهل الإبداع والابتكار، أما هو فلم يكن أكثر من مغامر، وفى أفضل الأحوال يمكن أن نستعير له من دنيا الأعمال

وصف المروج، ذلك الذى يتبنى مشروعات الغير فيروج لها كيما تتحقق و تدخل دنيا التنفيذ.

بداية أقول لك إن فردينان دى ليسبس هذا لم يكن مهندساً ولا خبيراً ملاحياً و لا حتى مسئولاً ذا دراية إدارية . كل ما هنالك أنه من عائلة دبلوماسية، فجده وأبوه و خاله كانوا منضوين فى السلك الدبلوماسى الفرنسى، فألحقه خاله بارتيليمى Barthelemy بوزارة الخارجية الفرنسية قبل أن يعينه بالقرب منه فى لشبونة، أما أبوه ماتيو Mathieu فقد فتح أمامه طريق مصر إذ كان أول ممثل لفرنسا فى مصر بعد الحملة الفرنسية خلال الفترة من ١٨٠٢م إلى ١٨٠٤م وكان فردينان فى البداية تلميذاً – قنصلاً .

و حينما جاء إلى مصر لأول مرة عام ١٨٣١م لم يسمح له بالنزول من السفينة إلى الأراضى المصرية ـ وكان قادماً من تونس ـ بسبب اكتشاف حالات كوليرا أدت إلى عزل جميع ركاب السفينة فى الحَجْر الصحى، وفى الحَجْر قرأ فردينان الدراسة التى أجراها لوبير ضمن مجموعة من الكتب التى أحضرها له رئيسه فشدت انتباهه فكرة القناة التى ستختصر الطريق إلى الهند، واستطاع بذكائه أن يحصل على التقرير الذى أعدته جماعة السان سيمونيين حول المشروع بحكم صلته بمحمد على باشا، وتصادق مع لينان بك وتحصل منه على صور مما كان يكتبه عن المشروع (٩).

وقد أبدى محمد على باشا نحو فردينان الذى تولى منصب مساعد القنصل الفرنسى عطفاً كبيراً لما كان بينه و بين أبيه من صلات الصداقة القديمة، فقد كان قنصلاً لفرنسا فى مصر سنة ١٨٠٣م، واتصل فردينان دى ليسبس بالأمير محمد سعيد إذ عهد إليه أبوه أن يُعنى بتربيته الرياضية، فتعلم الأمير على يده أنواع الرياضة والمهارة فى ركوب الخيل. من هنا نشأت صلات الود بينهما، واستمرت صداقتهما طوال حياة سعيد باشا، ولَمَّا كان الأمير الشاب يعانى من البدانة ومن النظام الغذائى الصارم الذى فرضه عليه الباشا فقد كان فردينان يُعد له أطباق المكرونة الشهية، وحسب روبير سوليه فقد روى فردينان هذه القصة بنفسه(١٠).

وإزاء أخطائه أوقع عليه مجلس الدولة الفرنسى عام ١٨٤٩م، عقوبة تأديبية باللوم والطرد من السلك الدبلوماسى، فقام بدور مزارع و عاش لفترة فى منطقة بيرى الفرنسية حيث توفيت زوجته ثم أحد أبنائه بالحمى القرمزية(١١).

لا تضجر من هذه التفاصيل ولا يخامرنك أى شك فى جدواها، فما تعمدت ذكرها على مسامعك – وهى قليل من كثير- إلا لتتمكن من بناء تصور شبه متكامل عن ذلك الرجل الذى قلب موازين الأمور فى مصر و العالم.

طبيعي والكعكة التي يعد بها مشروع لوبير ضخمة ولذيذة أن يظل أمر الاستيلاء عليها هاجس هذا القنصل المغامر المطرود أثناء تقاعده . وقد دفعه هذا الهاجس إلى أن يكتب مذكرة بشأن هذا المشروع ويترجمها إلى العربية ويفكر فى عام ١٨٥٢م فى تقديمها لوالى مصر عباس الأول، إلا أن صديقه قنصل هولندا رويسينايرز حذره بلا دراية، وأكد له أنه لا توجد أى فرصة لكى يهتم الوالى بهذا المشروع، فقدمه مباشرة إلى السلطان العثمانى باعتباره حاكم مصر الأسمى، إلا أن السلطات العثمانية أبلغته أنه لا يمكن الشروع فى مثل هذه الأعمال إلا عن طريق الحاكم بمصر، فأرجأ المشكلة إلى وقت يكون مواتياً أكثر . وجاء هذا الوقت سريعاً إذ اغتيل عباس الأول عام ١٨٥٤م وانتقلت ولاية مصر إلى محمد سعيد باشا فسارع فردينان دى ليسبس بكتابة خطاب إليه يهنئه بالمنصب وقال له إنَّ الدبلوماسية لم تعد تشغل وقته وأنه سيكون سعيداً لو أمكنه الإعراب له عن تقديره واحترامه، فرد عليه محمد سعيد ودعاه إلى المجىء إلى مصر فى شهر نوفمبر بعد عودته من زيارة القسطنطينية (١٢).

من فوره اتصل بجمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس فى باريس و أقنعها بصلته الوطيدة بوالى مصر الجديد وحصل منها على توكيل ليعمل باسمها من أجل الحصول على امتياز قناة السويس و فى ٧ نوفمبر ١٨٥٤م وصل فردينان دى ليسبس إلى الإسكندرية فاستقبله مندوب الوالى وأحاطه بحفاوة بالغة وأوصله إلى مقر الضيافة، فأخذ مثل كل مروج لطيف يستطلع مزاج الوالى من خدمه وحاشيته ليتحقق من التغيرات التى طرأت على هذا المزاج خلال فترة ابتعاده عنه. و فى ١٥ نوفمبر ١٨٥٤م دعاه محمد سعيد باشا لمرافقته فى مناورات الخريف، فما كان من فردينان دى ليسبس إلا أن امتطى الجواد الذى أهداه إياه الوالى ووثب به فوق حاجز من الأحجار على مرأى من القواد والحاشية فى حركة أكروباتية أعجبت الوالى وحاشيته. وكان فى مقدمة المعجبين وزير المالية ذو الفقار باشا المقرب من الوالى . ولم يكن فردينان دى ليسبس يحتاج لأكثر من هذا ، وعليه فاتحه فى أمر المشروع فى اليوم التالى، و زينه له فقبل محمد سعيد باشا المشروع ووعده بالمساعدة، واستدعى قواد جنده وعرض عليهم الفكرة، ولأنهم كانوا متأثرين إعجاباً بفروسية فردينان دى ليسبس فقد سارعوا إلى استحسان المشروع دون أن يبحثوه أو يوازنوا بين مضاره ومزاياه فكانوا حسب عبد الرحمن الرافعى هم و سعيد فى قصر النظر سواء (١٣) ؛ ولم تفت فردينان دى ليسبس هذه الحقيقة المؤلمة فقد أشار إليها، فى شىء من التهكم و السخرية، وقال " جمع سعيد باشا قواد جنده، وشاورهم فى الأمر، و لمَّا كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز و الخنادق

أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف، انحازوا إلى جانبى، و لما عرض عليهم الباشا تقريرى عن المشروع، بادروا إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه، وكانت النتيجة أن منحنى الباشا ذلك الامتياز العظيم» (١٤).

وكان أن فوجئ قناصل الدول باستدعاء محمد سعيد باشا لهم للحضور إلى قصره بالقاهرة فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤م ليتلوا عليهم ورقة كان قد أعدها له فردينان دى ليسبس، ولم تكن هذه الورقة سوى فرمان الامتياز الأول.

اشتمل الفرمان الأول على اثنتى عشرة مادة كلها مجحفة بحق مصر و مُشْبِعة لأطماع المغامر فردينان دى ليسبس، فقد جاء فى المادة الأولى : يؤسس المسيو فردينان دى ليسبس شركة يُعهد إليه بإدارتها تسمى " الشركة العالمية لقناة السويس البحرية " لشق برزخ السويس واستغلال طريق صالح للملاحة الكبرى، وإنشاء وإعداد مدخلين كافيين، أحدهما على البحر الأبيض المتوسط والآخر على البحر الأحمر وبناء مرفأ أو مرفأين .

ويلاحظ هنا ثلاثة أمور، أولها أنه لم يرد فى الفرمان أى ذكر لجمعية الدراسات الخاصة بقناة السويس التى وَكَّلت فردينان دى ليسبس عنها، ففرمان الامتياز واضح فى تحديده لاسم فردينان دى ليسبس دون غيره وبهذا نسب المشروع لنفسه وأنكر التوكيل.

وثانيها أنه لم يرد بالفرمان أى تحديد دقيق لمواقع المدخلين على البحرين المتوسط والأحمر، ومن ثم لم يأت ذكر نقطة التقاء خط الطول ٣٢,١٨° شرقاً وخط العرض ٣١,١٦ ° شمالاً .

أما ثالثهما فيتعلق باسم الشركة، فعلى حين أن أغلب الأدبيات التى تناولت قناة السويس وتعرضت لهذا الفرمان ذكرت أن اسمها هو الشركة العالمية لقناة السويس، نجد من يقول بأن الفرمان قد نص على أن اسم الشركة هو " الشركة العامة لقناة السويس البحرية " وليس " الشركة العالمية لقناة السويس البحرية "(١٥) . وقد ورد هذا فى تمهيد الفرمان الأول، وفى مادته الأولى كما ورد فى تمهيد الفرمان الثانى، وفى المادة الواحدة والعشرين منه ، الأمر الذى يحتاج إلى تدقيق وتحقيق ونشر لصور ضوئية أو زنكوغرافية للفرمانين فى صورتيهما الأصليتين، لأنه لو صح هذا – و لا نستبعده – فإن الأمر يحتاج إلى وقفة لتفسير معنى عامة، فلا أظن يا عزيزى أنه قد قصد ذلك النوع من الشركات المملوكة ملكية عامة للشعب، فلم يكن هذا المصطلح شائعاً فى ذلك العهد، ولذلك فأنا أميل إلى أن هذه المفردة إنما تعنى الشمول والعالمية، واستند فى هذا إلى ما ورد بالتمهيد الذى ورد فى مقدمة الفرمان حول الإيضاحات التى قدمها دى ليسبس لمحمد سعيد باشا وبينت أنه فى الإمكان تأسيس شركة لهذا الغرض تؤلف من أصحاب رؤوس الأموال فى شتى

الأمم (١٦) ؛ ومن ثم فإن عبد الناصر لم يقع فى فخ عندما أصدر قراره بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية، لأنه كان اسمها الفعلى، ومع هذا أرى أنه من الضرورى بمكان البحث فى هذه النقطة التى أغفلها الباحثون أو كادوا.

وجاء فى المادة الثالثة أن مدة الالتزام تسع وتسعون سنة تبتدئ من تاريخ افتتاح قناة البحرين .. ونصت المادة الخامسة على أن تجبى الحكومة سنوياً من الشركة ١٥ ٪ من صافى الأرباح المستخلصة من الشركة ويوزع الباقى بواقع ٧٥ ٪ للشركة و١٠ ٪ للأعضاء المؤسسين . ومن العجيب المستغرب أن هذا الفرمان منح الشركة امتيازات لا تمت للقناة بصلة، منها إعطاؤها أراضى الدولة بغير مقابل وإتاحة زراعتها بمعرفة الشركة أو بواسطتها وإعفاؤها من الضرائب لمدة عشر سنوات (م ٧) وترك الفرمان تحديد مساحة تلك الأراضى للمهندس لينان صديق دى ليسبس (م ٨)، كما منح الشركة حق استغلال المناجم و المحاجر الداخلة فى الأملاك العامة واستخراج المواد اللازمة منها لأعمال القناة بدون دفع أية رسوم (م ٩)، وكان أمراً غير مألوف، ومثيراً لأكثر صور الدهشة والعجب قوة، السماح للشركة باستغلال قناة التغذية (قناة المياه العذبة) المتفرعة من النيل والمتاخمة لمنطقة حفر القناة استغلالاً خاصاً مع إباحة بيع مائها للفلاحين المصريين بمبالغ تتحصل عليها خزانة للشركة (م ٨).

وحدث بعد إعلان الفرمان الأول ثلاثة أمور كان ينبغى توقع أحدها على الأقل، وهو ما تعلق بهياج إنجلترا التى فاجأها الفرمان فأقامت الدنيا ضده، ولأنها كانت تعلم أن الفرمان لن يكون سارى المفعول بدون موافقة الباب العالى – وهذا ما أشَّر به سعيد باشا على الفرمان – فقد أوغرت إنجلترا صدر السلطان التركى ضد الفرمان فعارضه، ليبذل دى ليسبس غاية جهده لإقناع أوروبا بمشروعه، وفى رحلات مكوكية اتجه إلى القسطنطينية ثم إلى إنجلترا وطاف بالدول الأوروبية واتصل بإمبراطور فرنسا من أجل إنفاذ الفرمان .

أما الأمر الثالث فقد اكتشفه دى ليسبس نفسه فى الفرمان الذى سعى إلى إنفاذه ورأى فيه عيباً، فقد تبين له أن هذا الفرمان جاء خالياً من أى نص يتعلق بالعمالة اللازمة للحفر، وأيقن أن خلو الفرمان من هذا النص سيكلفه كثيراً فلجأ إلى نابليون الثالث الذى تدخل لدى الباب العالى للقضاء على التأثير الإنجليزى عليه وطمأنته، كما اتجه صوب والى مصر ليوقع على الفرمان الثانى الذى قدمته له وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٥ يناير ١٨٥٦م، بعدما عرض دى ليسبس عليه نتائج الدراسات التى قامت بها اللجنة الدولية الفنية (لجنة ١٨٥٥م) وأثبتت أن سطح كل من البحرين واحد ،وأن الأرض صالحة لاجتياز

القناة الملحية وأنه من الممكن إقامة ميناء عند الطرف الشمالى للقناة غرب الخليج البيلوزى.

عقب صدور هذا الفرمان اتجه دى ليسبس و معه لينان بك و موجيل بك باعتبارهما كبيرى مهندسى الحكومة المصرية فى رحلة استكشافية لمنطقة البرزخ، ووصل لينان وموجل إلى الفرما فى ١٠ يناير ١٨٥٥م، وقدما فى ٢٠ مارس من نفس العام المشروع التمهيدى إلى دى ليسبس، وقد أثبتا فيه أن طمى النيل ليس له وجود بين الرواسب البحرية أمام ساحل البحر المتوسط، ودللا على ذلك بأن شاطئ بيلوز لا يتكون إلا من الرمال فقط وليس فيه أى أثر لرواسب نهرية كما سبق أن أخبرتك يا عزيزى (١٧).

وبتوجيه من دى ليسبس شُكلت لجنة دولية فى ٣٠ أبريل من نفس السنة من المهندسين والفنيين لدراسة تقرير لينان وموجل، وإبداء رأيها فى مدى صلاحية المشروع للتنفيذ بهدف طمأنة من يتطلعون للاكتتاب فى أسهم الشركة عند الإعلان عن تأسيسها. وبعد ثمانية أشهر، أى فى ديسمبر من ذات السنة، وصلت اللجنة إلى منطقة الفرما ودرست على مدى ثلاثة أيام الساحل البيلوزى دراسة وافية، وبحثت إمكان إنشاء ميناء على هذا الساحل، ودرست بعثة لاروس المتفرعة عن اللجنة الدولية الخليج البيلوزى لمدة شهر آخر وانتهت إلى أن الساحل مكون من الرمال الدقيقة، ويليه منطقة رملية تمتد فى البحر حتى يصير عمق الماء عشرة أمتار، وتوصلت إلى أنَّ العمق اللازم لملاحة السفن الكبيرة، وهو ثمانية أمتار، متوفر فى المنطقة الغربية من الخليج البيلوزى حتى دمياط على بعد ٢٣٠٠ متر من الشاطئ، بينما لا يتوفر هذا العمق نفسه فى المنطقة الشرقية من الخليج إلا على بعد ٧٥٠ متراً من الشاطئ، وهذا ما سبق أن قلته لك عند الحديث عن الخليج البيلوزى، كما تبين للجنة أن نسائم البر و البحر التى يتعرض لها الخليج معظم العام من شأنها أن تُسهل حركة السفن دخولاً و خروجاً من وإلى الميناء المزمع إنشاؤه على منفذ القناة الشمالى فى جميع الأوقات(١٨).

ويتعلق الأمر الثانى بالسان سيمونيين فقد هاجوا و ماجوا من سطو دى ليسبس على المشروع وحاولوا عرقلة تحرك دى ليسبس بتنشيط مشروعات مُغايرة لم يكتب لها النجاح . من هنا كان الخصام الذى لا علاج له بين دى ليسبس، الذى أظهر وجهه الحقيقى، وأصدقائه القدامى.

ويبدو أن دى ليسبس قد قدَّر حدوث هذا الهياج وحدد حجمه ورتب نفسه لمواجهته واحتوائه، فقد حرص على أن يُرسل إلى جمعية دراسات قناة السويس نسخة من جميع الوثائق، المذكرة التى وضعها، والفرمان، وجميع الخطابات المرسلة إلى القنصلين البريطانى والفرنسى ، وأرسل إليها أيضاً قائمة بأسماء الأشخاص الذين، فى رأيه، يمكن

أن يكونوا مؤسسى الشركة القادمة . وكانت أسماء الشخصيات السان سيمونيين الأساسية واردة فى هذه القائمة فكسب بهذه الحيلة رضا بعضهم .

لكن الهجوم من أغلبهم عليه كان شديداً، حتى أنه اتهم بأنه ينقضُ على السان سيمونيين كالخنفساء، ووصف بأنه مجنون خطر يُفسد مشروع السويس النبيل . إذ ذاك استعان دى ليسبس بعائلته وبأصدقائه ووزع المناصب على المنضمين إليه من السان سيمونيين وطلب معاونة حماته (مدام دى لامال) عريضة الاتصالات، واعترف لها بأنه يطمح إلى أن يجمع وحده خيوط هذا المشروع الكبير، و أنه لا يرغب فى قبول شروط أى شخص، وهدفه هو فرض جميع الشروط (١٩).

والفرمان الثانى جاء كثير التفاصيل (٢٣ مادة)، شديد الإجحاف والتفريط بحقوق المصريين فشروطه الفادحة لا ترضى بها حكومة رشيدة ساهرة على مصالح البلاد(٢٠).

بمقتضى هذا الفرمان صدق محمد سعيد باشا على الامتياز الذى سبق أنْ منحه لصديقه المغامر الطموح، وبمقتضاه حصلت الشركة على امتيازات عديدة خلاصها كما يلى:

١- منحت الحكومة الشركة امتياز إنشاء قناة السويس بين خليج الطينة على البحر المتوسط والسويس على البحر الأحمر، وإنشاء ترعة للمياه العذبة صالحة للملاحة النيلية تستقى من النيل وتصب فى القناة الملحة، وإنشاء فرعين للرى والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة ويصلان إلى السويس و الطينة (م ١).

٢- تنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضى المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة و توابعها، وهى مساحة شاسعة تترامى على طول القناة والترعة المزمع إنشاؤها بعرض كيلومترين من الجانبين، وقد تنازلت عنها الحكومة بلا مقابل مع إعفائها على الدوام من الضرائب، وتنازلت أيضاً عن جميع الأراضى القابلة للزراعة لتستصلحها الشركة وترويها و تزرعها، مع إعفاء هذه الأطيان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها (م ١٠) .

٣- خُولت الشركة، عدا ما تقدم، حق انتزاع الأراضى المملوكة للأفراد مما ترى لزومها لإجراء الأعمال و الانتفاع بالامتياز فى مقابل أن تدفع الشركة لأصحابها تعويضات عادلة (م ١٢) .

٤- على أصحاب الأطيان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترع التى تنشئها الشركة إذا أرادوا رى أراضيهم بمياهها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة فى مقابل تفويض يؤدونه لها(م ٨) .

٥- منحت الحكومة الشركة طول مدة الامتياز الحق فى أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المبانى و صيانتها وملحقات المشروع، دون دفع أى رسم أو ضريبة أو تعويض وأعفت الحكومة الشركة من الرسوم الجمركية و العوايد عن جميع الآلات والمواد التى تستوردها من الخارج (م ١٣).

٦- حُدد أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للملاحة وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (م ١٦) . ولكن المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدى إلى تعطيله، أو يفتح باباً للمشاكل، وهو وجوب أخذ الحكومة فى هذه الحالة جميع المهمات والمعدات المخصصة لأعمال المشروع البحرية، وأن تدفع للشركة قيمتها التى تقدر بالتراضى أو بناء على تقدير الخبراء وبالطبع لا يوجد ما يمنع الشركة من المبالغة فى تقدير قيم المعدات التى خصصتها أو تخصصها فى المستقبل للمشروع، أو أن تتعمد الإسراف فيها لتعجيز الحكومة، ولتختلق العقبات التى تعطل حق مصر فى استرداد القناة . ثم إن المادة ١٦من هذا الفرمان لم تذكر شيئاً عن المنشآت التابعة للشركة، كالمبانى مثلاً وقد كان الفرمان الأول (م ١٠) ينص على أن شأنها شأن القناة فى رجوعها للحكومة دون مقابل، أما الفرمان الثانى فقد صيغ بأسلوب مجحف بحقوق مصر كل الإجحاف . يضاف إلى هذا (و الملاحظة من عندى) أن هذه المادة أتاحت للشركة تجديد الامتياز لمدد متتالية كل منها تسعه وتسعون سنة .

٧- خُولت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التى تمر فى القناة البحرية أو الترع و الثغور التابعة لها على شرط أن لا تزيد النهاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وكل شخص من المسافرين (م ١٧) .

٨- فى مقابل الأراضى والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة المصرية على حصة قدرها ١٥ ٪ فى المائة من صافى الأرباح السنوية (م ١٨) وقد خسرت مصر هذه الحصة سنة ١٨٧٩م، فعندما ارتبكت أحوالها المالية بسبب إسراف إسماعيل باعت هذا النصيب إلى البنك العقارى بفرنسا مقابل ٢٢ مليون فرنك.

٩- نص الفرمان على أن يكون أربعة أخماس العمال من المصريين على الأقل (م ٢) وتعهدت الحكومة ببذل مساعدتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها فى جميع دوائر المصالح بأن يمدوا الشركة بمساعدتهم لها (م ٢٢)، وقد فسرت الشركة نصوص هاتين المادتين على أنها تعهد من الحكومة بتسخير أربعة أخماس العدد الذى تطلبه من العمال، وأن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين، وأن أدوارهم محددة فى أعمال الحفر والإنشاء، وفى كل الأحوال يجب وضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من أعمال، ومن

هنا كانت السخرة وكانت ظروف العمل القاسية وموت نحو ١٢٠ ألف فلاح مصرى أثناء حفرها بمتوسط شهرى ألف شهيد وبمعدل يومى ٣٣ شهيدا، وذلك من عشرين ألفاً كانوا يساقون إلى ساحات الخفر كل شهر.

وكان فرمان الامتياز الأول (م ٢) يُخول الحكومة حق تعيين مديرى الشركة، ولكن هذا الحق لم يظهر له أثر فى فرمان الامتياز الثانى، وهذا الفرمان يقضى بإلغاء النصوص الواردة فى الفرمان الأول بما يخالف أحكام الفرمان الثانى، واقتصرت المادة (٢٠) من الفرمان الثانى على أنه " يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا المسيو فردينان دى ليسبس بصفته المؤسس لها طوال المدة التى تستغرقها الأعمال، ثم لمدة أخرى قدرها عشر سنوات تبتدئ من تاريخ استغلال الامتياز، وقد خسرت الحكومة فى الفرمان الثانى حق تعيين مديرى الشركة و حفظ لها فقط حق تعيين " مندوب " عنها لدى الشركة ليمثل حقوق الحكومة ومصالحها، الأمر الذى يحق معه وصف هذا الفرمان بالفرمان الشخصى مثلما فعل روبير سوليه مع الفرمان الأول (٢١)، لأنه فُصِّل تفصيلاً ليركز السلطة بين يدى دى ليسبس .

و كان الفرمان الأول ينص (المادة ٤) على أن الحصون التى ترى الحكومة لزوم إنشائها فى منطقة القناة لا تكلف بها الشركة، قد أُغفل هذا النص فى الفرمان الثانى، وفسر إغفاله بأنه لا حق للحكومة فى إقامة الحصون فى هذه المنطقة.

والأدهى أن سعيد باشا فى معاضدته لصديقه الفرنسي المغامر، وتذليله للعقبات وإزاحته لها من أمامه، ذهب إلى أقصى مدى بما أعطاه له، بالإضافة إلى كل المزايا الفرمانية التى ذكرتها لك يا عزيزى، المبالغ المتوفرة فى خزانة الحكومة وقتئذ وقدرها ١٠٠ ألف جنيه ليستعين بها على العمل (٢٢).

فهل رأيتَ يا عزيزى كيف خول محمد سعيد باشا الشركة مزايا جعلتها تشارك الحكومة المصرية فى ملكيتها العامة وسيادتها ؟.. وهل رأيتَ كيف ملَّكها مرافق ومنافع عامة لا يملكها أبناء البلاد ؟ ..أسمعك تقول كأنها دولة داخل دولة .. نعم لقد جعل منها محمد سعيد دولة أخرى بها راحت تنمو و تستفحل داخل الدولة المصرية (٢٣).

اتصل دى ليسبس برجال البنوك مثل فولد Fould وروتشيلد Rothschild لتمويل المشروع فطلبوا عمولات كبيرة دفعته إلى أن يقوم بنفسه بتنظيم الاكتتاب فى جميع البلدان بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية . و تم افتتاح مكتب فى باريس و تعيين مراسلين فى الأقاليم والدول الأخرى، فبما أن المشروع عالمى فيجب أن يكون رأس المال عالمياً أيضاً . وحسب روبير سوليه خاطب دى ليسبس بنفسه الجمهور أثناء رحلات عديدة فى المملكة

المتحدة (أربع مرات خلال الفترة من ١٨٥٦م إلى ١٨٥٨م) وبرشلونة وفينيسيا، وفيينا، وأوديسا(٢٤) .

لقد كان دى ليسبس أفاقاً دهَّاقاً، وكان حريصاً على أن يبدو حسب ديفيد لاندز ـ صاحب واحد من أهم الكتب التى كشفت النهب الأوروبى المنظم لمصر ـ مملوءاً بحماس الأنبياء، طليقاً فى خطابه، أنيقاً فى كتابته ؛ ولهذا جعل من مشروع القناة كل شىء لكل الناس ؛ فإذا كان من يكتب إليه دى ليسبس من أهل المُثل قال له إن القناة خطوة عظيمة نحو عالم جديد مشرق، وإذا كان فرنسياً وطنياً ـ بل إذا كان مواطناً أوروبياً ـ قال له دى ليسبس إن القناة ضربة قاضية لغدر الشرقيين، وإذا كان رأسمالياً حريصاً قال دى ليسبس إنَّ المشروع استثمار عظيم التزمت الحكومة المصرية بضمانه ضد أى خسارة(٢٥).

وفى اليوم الخامس من نوفمبر ١٨٥٨م تم فتح باب الاكتتاب و طرح ٤٠٠ ألف سهم للبيع فى السوق فاكتتب ٢١ ألف شخص فى فرنسا اشتروا ٢٠٧ آلاف سهم حسب روبير سوليه، أما ديفيد لاندز فالرقم عنده يزيد قليلاً ليصل إلى ٢٢٢٣٦٨ سهماً(٢٦) ؛ أما الأماكن الأخرى فقد كان الفشل فيها شبه تام فكل عبقرية دى ليسبس وكل الأساليب التى استخدمها للترويج لمشروعه، فلم يشتر الإنجليز أو الأمريكان أو الروس أو النمساويون، بل الأتراك أيضاً، شيئاً من هذه الأسهم ولكل منهم أسبابه ؛ ولمعالجة هذا الفشل فقد باع جبرياً لسعيد باشا ١٧٦ألف سهم بدلاً من الـ ٦٤ ألف سهم المتفق عليها ، وتحملت مصر إخفاقات دى ليسبس فى توزيع الأسهم.

ورهن سعيد مستقبل مصر عندما وقع اتفاقية مع شركة القناة يدفع بمقتضاها أعباء المساهمة عن طريق سندات من الخزانة المصرية.

ولقد نصت هذه الاتفاقية على أن يكون سعر السهم مائة فرنك، ومعنى ذلك دفع مبلغ ١٧,٧٦٤,٢٠٠ فرنك عن ١٧٧٦٤٢ سهماً لم يكن سعيد قد سدد منها فى أبريل ١٨٦٠م غير ٢,٥١٦,١٥٧ فرنك فحسب، أما الباقى فتمت تغطيته بالطريقة سالفة الذكر، على ألا يتم سداد الدفعات الأولى إلا سنة ١٨٦٣م (٢٧). غير أن الموقف تغير عند نهاية ١٨٦٢م. فقد ارتفع ثمن السهم إلى ٣٠٠ فرنك، ومن ثم ارتفعت أعباء مصر المباشرة من ١٥ مليون فرنك إلى ٥٤ مليون فرنك (٢٨).

وحسبما ذكر نوبار باشا فى مذكراته تمخض هذا الأمر عن نشوء موقف حرج وروى أن محمد سعيد باشا توجه إلى قنصل فرنسا بالشكوى مما فعله دى ليسبس، وملخص ما فعله أنه سلم محمد سعيد باشا ورقة منفصلة فسلمها بدوره إلى سكرتيره دون أن يقرأها،

ليفاجأ بعد أيام بطلب من دى ليسبس يرجوه أن يتكرم بإصدار أوامره لدفع قيمة اكتتابه، فسأله محمد سعيد باشا " أى اكتتاب؟ "، فأجاب " قيمة اكتتابكم البالغة ٨٨ مليون فرنك "، وأحضروا الورقة المنفصلة التى دُوِّن على ظهرها بالفعل مبلغ ٨٨ مليون فرنك قيمة اكتتاب والى مصر، فقال دى ليسبس " لقد مضت خمسة عشر يوماً و جلالتكم صامتون، فبهذا الصمت تكونون قد صدَّقتم على الاكتتاب ... لقد أبلغت ذلك لزملائى و للأشخاص الذين يحملون لكم أرق المشاعر وكلفونى بإبلاغ تحياتهم لجلالتكم" .

ويقول نوبار باشا: إن محمد سعيد باشا قال لقنصل فرنسا بلهجة عسكرية ما معناه "لقد أغرقنى صديقك دى ليسبس حتى أذنىَّ " (٢٩).

ويورد روبير سوليه تعليقاً للمؤرخ المصرى محمد صبرى على هذا الأمر فيقول " إن تحميل خزانة نائب ملك مصر (الوالى) بـ ٤٤ ٪ من رأس المال الإجمالى ـ لشركة يقال إنها عالمية ـ الذى كان يجب الحصول عليه من رؤوس الأموال الحرة ،هو دَفعُ لمحمد سعيد باشا نحو منحدر الاستدانة المشئوم " (٣٠) .

لقد كانت صداقة غريبة تلك التى ربطت بين دى ليسبس و محمد سعيد باشا، صداقة تشيع فيها الكراهية مثلما تشيع فيها المودة والإقبال والإدبار والترضية والتهديد . وقد وصل الأمر بمحمد سعيد باشا أن حاول قتل دى ليسبس حسبما ذكر الأخير فى مذكراته، ومن الحيل الكثار التى مارسها دى ليسبس على صديقه أنه أوهمه وأدخل فى روعه بأن نابليون الثالث إمبراطور فرنسا يرغب فى استضافة ابنه طوسون للتعلم بمدارس فرنسا فسُر محمد سعيد باشا، لكن ما إنْ وصل طوسون إلى باريس حتى التفت دى ليسبس إلى صاحبه ليقول له إنَّ ابنك رهينة عندنا إذا أنت عُدتَ إلى معارضة المشروع، أو كررتَ التنبيه على العمال بعدم التوجه إلى منطقة الحفر. ويقال إنَّ هذه الحيلة قد أثرت أبلغ الأثر فى محمد سعيد باشا وأنها من أسباب موته وهو فى سن الأربعين.(مات فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣م.)، وحسب تعبير د. مصطفى الحفناوى كان دى ليسبس من الصفاقة ولؤم الطبع بحيث دخل المسجد الذى صلى فيه على محمد سعيد وشيعه إلى مقره الأخير وتقبل العزاء فى ضحيته(٣١).

لقد كان محمد سعيد باشا أول حاكم مصرى ينفتح انفتاحاً سافراً على فرنسا وأوروبا بدافع من تربيته ومن صداقته الغربية لفردينان دى ليسبس، وبتأثير من هذين الدافعين تدفق الأوروبيون فى عهده على مصر باحثين عن الثروة فى مشروعاته المُجزية، ومكثرين من إساءة استخدام عنصر الثقة . وتمتع القناصل الأوروبيون منذ عهده بحصانة تحولت إلى حق إفلات الأوروبيين الذين قاموا بأعمال نصب واحتيال واختلاس حقيقيين من طائلة

العقاب.

لقد كان محمد سعيد باشا سريع الانقياد و التأثر بما يسر به إليه أصدقاؤه المقربون، ومن ثم كثرت قراراته غير المبنية على الدراسة فضلاً عن التأنى عند إجرائها . والامتياز الذى منحه لفردينان دى ليسبس لشق قناة السويس ليس إلا مثالاً واحداً على سرعته فى اتخاذ القرارات، فقد اتخذ قرار منح الامتياز دون تفكير فى العواقب، والسبب هو تأثره بـ " اللعب العاطفى على علاقات صداقة قديمة "(٣٢).

ما رأيك يا عزيزى فى استراحة قصيرة التقط فيها بعضاً من أنفاسى و تستريح أنتَ من ثرثرتى ؟

لقد قطعنا شوطاً لا بأس به فى الحديث عن الجغرافيا و التاريخ . ربما بدا لك مما عرضته عليك بطريقة أقرب إلى البانورامية، أننا قد ابتعدنا كثيراً عن نقطة التقاء خط الطول ١٨ ,٣٢° شرقاً وخط العرض ١٦ ,٣١° شمالاً، لكننى أطمئنك بأننا على العكس قد اقتربنا جداً .

ريضْ ساقيك فقط واحتس شيئاً لتجدد قواك .

أنا شخصياً سأفعل هذا، فليتك تفعل مثلى لنتهيأ لما هو آت .



الفصل الثانى

خراف وكواسر

أخشى عزيزى القارئ أن يتسرب إليك أى قدر – ولو ضئيل – من الملل وأنت تقرأ هذا الكتاب . إنْ حدث – وأرجو ألا يحدث – فنح الكتاب جانباً وانصرف إلى ما هو أفيد لك، فإنفاق الوقت على غير المفيد إهدار للحياة ؛ أما إذا كنتَ ترغب – ما تزال – فيما أرويه وتطيقه، فما عليك إلا أن تستمر فى التصفح.

أشكرك.

وبما أنكَ أبهجتنى، ولأن كلينا نال من الراحة قسطاً، فإننى أدعوك لنزهة على ضفة قناة السويس .. فما رأيك ؟.

أشكرك مرة أخرى .. وهيا بنا.

نحن هنا فى أقصى نقطة من شمال شرق قارة إفريقيا . نُطلُ على البحر المتصل بقارة أوربا وعلى دقائق يسيرة من قارة آسيا . ها هى ذى قارة آسيا أمامك على الضفة الأخرى من القناة .

إنها نقطة التقاء خطى الطول ١٨ ٣٢° شرقاً والعرض ١٦ ٣١° شمالاً .. نقطة عبقرية نادراً ما نجد مثيلاً لها على الكوكب الأرضى . بل يستحيل أن تجد مثيلاً لها على كوكبنا . وأرجو ألا يفوتنى الحديث عن ملامح هذه العبقرية، أما الآن فأريدك أن تتخيل – وأنت فى صورتك البشرية – أنك تعيش عام ١٨٥٩م. عند موضعنا هذا تحديداً، وتحديداً فى يوم

الاثنين الموافق ٢٥ أبريل من عام ١٨٥٩م.، لن ترى طبعاً سوى مساحة من الرمال القفر غمر البحر بعضها، فيما راحت الرياح - رياح الخماسين - تُطيِّر الجاف من الرمال.

وبالطبع سترى أسراباً من الطيور، ومنها النوارس، هل تذكرها؟ . ها هى ذى تحلق وتميد فتبهرك رشاقتها، وقد تبهرك التواءات الأسماك وتمايلها بين مناقير بعضها.

هنا، وفى هذا اليوم تحديداً، ستتم أدق وأشق وأشهر عملية جراحية يمكن أن تُجرى على سطح الأرض. أدوات الجراحة ليست معقمة وليست رهيفة الحد وليست متطورة . مجرد فئوس ومعاول وجواريف ومقاطف .. لا توجد معاطف بيضاء ولا أقنعة أو أغطية رأس أو قفازات، وإنما أسمال ومزق من قماش .. ولا تتوفر تروليات للنقل، كهربائية أو يدوية، إنما زكائب وحبال وحمير وجمال وكرابيج وأسلحة.

هنا وفى هذا اليوم تحديداً ستتم أول وأخطر وأهم عملية اختزال قارى تحدث على وجه الأرض فى القرن التاسع عشر الميلادى، فبموجب هذه العملية سيتحتم تغيير خرائط العالم. ولأول مرة سيتم رسم خط حدودى صناعى (بفعل البشر)، طبيعى (بحكم أنه مكون من مياه ومحفور فى رمال) . ما بين أقصى شمال شرق القارة الإفريقية وأقصى غرب القارة الأسيوية سيرسم هذا الخط . وبعدما كانت التخوم من التداخل بحيث لا تتيح معرفة بدايات أو نهايات كل من القارتين، فبعد عشر سنوات فقط من ذلك اليوم ستتغير الخرائط والعلامات الدولية، والسبب هو هذه العملية الجراحية الفذة .

هنا فى هذا المكان، وفى نهار ذلك اليوم .. اليوم الخامس والعشرين من أبريل ١٨٥٩م. أقيم حفل متواضع اقتصر على جمع من مستخدمى الشركة والمقاول العام وفريق من العمال المصريين بلغ عددهم فى ذلك اليوم نحو مائة عامل جىء بهم من دمياط والنواحى القريبة منها (٣٣). فى هذا الحفل ألقى دى ليسبس خطبته التى مالأ فيها محمد سعيد باشا كعادته، وجاء فيها " باسم شركة قناة السويس العالمية البحرية وتنفيذاً لقرار مجلس إدارتها نضرب أول معول فى هذه الأرض ليفتح أبواب الشرق لتجارة الغرب وحضارته..."، وبعد ذلك أمسك بمعول وضرب به الأرض، إيذانا بالبدء فى عمليات الحفر وتبعه أعضاء الوفد فالمهندسون ثم سائر مستخدمى الشركة. بعدها وجه حديثه إلى العمال المصريين وقال لهم " سوف يبدأ كل منكم بمعوله فى عمليات الحفر كما فعلنا نحن الآن واذكروا أنكم بهذا لن تحفروا الأرض فقط، ولكن ستجلبون الرخاء لأسركم ولبلادكم "، ثم صاح " المجد والفخار لأفندينا محمد سعيد باشا، فليعش عمراً طويلاً "(٣٤).

وبعدها شرع العمال المصريون فى أعمال الحفر ولم يكن التصديق العثمانى على فرمان الامتياز قد صدر بعد، والهدف كان معروفاً وهو وضع تركيا وإنجلترا أمام الأمر

الواقع (٣٥). ورويداً رويداً بدأت بورسعيد فى النشوء.

البداية كانت مجموعة من الخيام للعمال الأجانب من فرنسيين ونمساويين ويونانيين، وزودت هذه الخيام بألواح خشبية توضع على أرضياتها التى هى فى الأساس رمال الحفر بعد ما تم فرشها فى المناطق المنخفضة والأراضى السبخة بارتفاع مترين ونصف المتر . ثم ما لبثت الأكواخ والأكشاك الخشبية أن ظهرت، ومنها ما كان من مخلفات حرب القرم . وقد أقيمت هذه الأكواخ على الشريط الرملى الفاصل بين البحر المتوسط وبحيرة المنزلة . ثم حلت محل الأكواخ والأكشاك الخشبية شاليهات وأكشاك قامت بتصنيعها شركة فرنسية تعرف باسم فريريه دى ميكام وقد وصلت هذه الأكشاك إلى بورسعيد فى يوليو ١٨٥٩م. لتحل محل الخيام (٣٦). ثم ظهرت المنازل المصنوعة من الأخشاب المستوردة والقرميد الأحمر، واستخدمت كذلك مواد محلية كالبوص والطين والحصير، وأقيمت بعض المبانى من الطوب المحروق الذى تم صنعه من الطين المستخرج من قاع البحيرة . ولأول مرة شهدت بورسعيد عام ١٨٦٥م. استخدام المبانى سابقة التجهيز وكانت من نصيب الأوربيين ؛ أما العمال من الوطنيين، وقد جلبتهم الشركة فى البداية من دمياط والدقهلية والإسكندرية والقاهرة وغيرها، فقد أقاموا على الهامش حيث البرك والمستنقعات، وإقامتهم كانت فى عشش من البوص . التقسيم كان عنصرياً وطبقياً منذ البداية، فالأجانب أقاموا فى المدينة الوليدة بالقرب من أماكن حفر القناة، والوطنيون ليس لهم سوى ما أطلق عليه قرية العرب التى تقع غرب المدينة فى منطقة كثيرة البرك والمستنقعات وقد وصفها أحد الكتاب الفرنسيين بأنها مثال بائس للحياة فى الشرق(٣٧).

ومن حيث الحجم لم تكن قرية العرب تقارب عُشر مساحة المدينة وقتها وكانت تفصل بينهما أرض فضاء تقترب مساحتها من الخمسمائة متر . وأخذت هذه المساحة فى التقلص إلى أن زالت تماماً ولم يعد يفصل بينهم سوى شارع واحد .

أشعر أننى قد اقتربت جدا من هدفى بحديثى عن نشأة المدينة لكن القناة تضغط علىّ بأحداثها الكثيرة التى لو انصرفت إليها لحرفتنى عن هدفى وبغيتى ؛ لكننى أستميحك عذراً فثمة أمور ثلاث تفرض نفسها على من يتصدى للحديث عن بورسعيد وإنْ ارتبطت أكثر بقناة السويس. أول هذه الأمور لو كان قد تحقق لما شقت القناة ولما أنشئت بورسعيد أصلاً، فقد فزع محمد سعيد باشا عقب بدء الحفر ربما بسبب هياج الأسد البريطانى وسعيه – مؤَيَداً من النمسا ـ لدى السلطان العثمانى لإيغار صدره ضد نائبه على مصر بإثارة مخاوفه من عزم الأخير على الاستقلال بمصر، وكان من نتائج هذا صدور أوامر السلطان بوقف أعمال الحفر. من فورة نقل محمد سعيد باشا الأمر إلى الشركة، وطلب

قنصل فرنسا ذاته من مواطنه إطاعة الأمر، لكن دى ليسبس رفض الرضوخ(٣٨). وبعد أن توقفت الأعمال بضعة شهور استأنفها من جديد دى ليسبس وعندئذ قام محمد سعيد باشا، على كل ما يربطه بفرديناد دى ليسبس من صداقة وعلاقات، بإصدار أوامره إلى جعفر باشا محافظ دمياط لسحب الشغالة من أولاد العرب وإعادتهم إلى دمياط(٣٩).

وفيما يلى نص الأمر الذى أرسله والى مصر إلى جعفر باشا محافظ دمياط فى ٩ يونيه سنة ١٨٥٩ . مؤرخاً ٢١ ذى الحجة ١٢٧٥ هـ ." بمجرد وصول أمرى إليك يجب أن تقوم بسرعة وتذهب إلى دى ليسبس وأنْ تسحب الشغالة من أولاد العرب المصريين الجنسية وتعيدهم إلى دمياط وأن تبلغنى بتاريخ عودتكم وعدد العمال الذى سحبتهم من الشغل وقد حررنا هذا لكم ولأتباعكم " ." حاشية : يجب أن تمنعوا بعد الآن ورود شغالة من أولاد العرب المصرى الجنسية للمحل المذكور بتاتاً وإذا كتب لكم المسيو المذكور بهذا الصدد فقولوا له أنكم مأمورون بجمعهم من طرفنا ولديك أوامر بهذا المنع وإذا اقتضى الأمر عرض الحال علينا فاعرضوه ولذلك حررنا هذه التحشية "(٤٠).

كما أصدر أمراً سرياً آخر بمنع توريد الطعام والماء لمناطق الحفر وذلك لوقف أعمال الحفر حتى تصدر بها موافقة من السلطان العثمانى، وفى نفس الوقت وجه شريف باشا ناظر الخارجية منشوراً إلى أعضاء السلك القنصلى فى مصر بعدم تعاون رعاياهم مع دى ليسبس فى أعمال حفر القناة (٤١).

ومضت الحكومة فى سياستها غير الوفية إزاء الشركة فمنعت صيادو السمك فى بحيرة المنزلة من التعامل مع رجال الشركة، ولولا شحنات من الأطعمة وماء الشرب كان يبعثها دى ليسبس من الإسكندرية إلى بورسعيد، حيناً على ظهر السفينة التجارية " سعيد "، وحيناً على ظهر سفينة شراعية لتعرض رجال الشركة فى منطقة بورسعيد لخطر المجاعة أو الموت عطشاً(٤٢).

وما كان من الشركة إلا أن تحدت قرار الحكومة المصرية بجلبها للأطعمة ومياه الشرب من الإسكندرية إلى بورسعيد، وسعت فى جمع العمال الأوربيين حتى وصل عددهم إلى مائتى عامل ورخصت لمقاول الشركة أن يشترى مركبين لاستخدامهما فى تفريغ شحنات السفن فى بورسعيد، وباتخاذ الإجراءات لتموين ورشة بورسعيد بالمواد الغذائية بحيث تكفى لمدة شهر، على أن تباع للعمال فى المنطقة . وقع هذا كله فى يونيه عام ١٨٥٩م. وتكرر فى أكتوبر من نفس العام، فقد رأت تركيا أن المشروع يجعل من مصر - فى أتون أى حرب أوربية - مسرحاً للنزاع يؤدى فى النهاية لا إلى فصل مصر عن تركيا فقط، بل إلى غياب حكم أسرة محمد على من مصر . وحددت مصر أول نوفمبر ١٨٥٩م. موعداً

لإخلاء المنطقة من جميع المستخدمين والعمال. واستجاب العمال الأجانب لأوامر قناصلهم وغادروا المنطقة فيما عدا المستخدمين والعمال الفرنسيين، بزعامة لاروش، فقد أظهروا تحدياً سافراً لقنصل فرنسا وللحكومة المصرية. وطلب دى ليسبس العون من نابليون الثالث ومن الإمبراطورة أوجينى، وأثار الرأى العام الفرنسى فمارس نابليون الثالث ضغوطه على القسطنطينية، وتدخلت وزارة الخارجية الفرنسية لدى قنصلها فى مصر وأمرته بعدم التعرض للفرنسيين ونقلته من مصر فى ٢٦ أكتوبر عام ١٨٥٩م. ومن ثم استمر العمل فى القناة، وسكتت مصر، واستخدمت الشركة العديد من الفلاحين وغيرهم من دمياط والدقهلية والإسكندرية والقاهرة وغيرها (٤٣). كما استعان ببعض بدو الصحراء وجمالهم وخيامهم، وبالأخص بدو مديرية الشرقية. وفى آخر ديسمبر سنة ١٨٥٩م. وصل عدد العمال المصريين الأحرار العاملين فى حفر القناة ٣٣٠ عاملاً منهم ٢٢٠ عاملاً استأثرت بهم مواقع الحفر فى بورسعيد، ووصل عدد العمال الأوربيين إلى ١٥٨ عاملاً منهم ٨٠ عاملاً أجنبياً كانوا يعملون فى بورسعيد(٤٤).

وكانت الشركة تدفع للأوربى ١٥ ريالاً فى الشهر، أما أجرة العامل المصرى فى اليوم فكانت فرنكاً واحداً يومياً . ويُذكر أن الشركة هى التى أطلقت على العمال من المصريين لقب الوطنيين الأحرار لتميزهم عن أعمال السخرة (٤٥).

وثانى هذه الأمور السخرة التى بدأ تطبيقها فى منطقة الحفر اعتباراً من شهر أبريل ١٨٦١م.، بعدما تبين للشركة بنهاية سنة ١٨٦٠م. أن عدد العمال لم يتجاوز ١٧ ألف عامل بما لا يتناسب وضخامة العمل المطلوب، ففكر دى ليسبس فى تطبيق تفسيره للفرمان الثانى. هنا ظهرت وصمة العار التى لطخت كل من كانت لدية سلطة إصدار أوامر التنفيذ والمتابعة سواء فى الشركة أو فى الحكومات المصرية والعثمانية والفرنسية.

فيما سبق عرضتُ لنص المادة الثانية من فرمان الامتياز الثانى الصادر فى ٥ يناير ١٨٥٦م. الذى يوجب أن يكون أربعة أخماس العمال على الأقل من المصريين وكذا تعهد الحكومة المصرية ببذل مساعدتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها فى جميع دوائر المصالح أن يمدوا الشركة بمساعدتهم كما نصت على هذا المادة الثانية والعشرين من ذلك الفرمان . وأخبرتك يا عزيزى بأن الشركة قد فسرت هاتين المادتين على أنها تتضمنان تعهداً من الحكومة المصرية بتسخير أربعة أخماس العدد الذى تحتاجه الشركة من العمال، على أن يكونوا من الفعلة والفلاحين وتحديد أدوارهم بأعمال الحفر والإنشاء، وأن الشركة وحدها هى التى تهيمن على تشغيلهم فيما تريده هى من أعمال وقد تحقق للشركة ما أرادت بالحيلة والمداورة حتى وصل عدد العمال الذين أعدتهم الحكومة المصرية لهذا العمل

بدون أجرة ٢٧٠٠٠ عامل، أما عدد الشغالة والمستخدمين فبلغ ٥٠٠تقريباً(٤٦). ولقد نشرت جريدة Standard البريطانية مقالاً أعادت نشره جريدة L`Isthme de Suez مترجماً إلى اللغة الفرنسية، فى العدد ١٢٢ الصادر فى ١٥ يوليو ١٨٦١م. ص ٢٢٨ مجموعة السنة السادسة، وجاء فى هذا المقال ما يلى : لقد علمنا من مصدر موثوق به أن هؤلاء العمال التعسين كانوا يسحبون سيراً على الأقدام إلى بورسعيد، وقد ربط بعضهم إلى بعض كالجمال أو مثل قطعان العبيد فى إفريقيا(٤٧).

وتم تقسيمهم إلى مجموعات تضم كل مجموعة منها بين عشرين وخمسين عاملاً بقيادة (مقدم) يختاره المقاول أو مسئول ساحة الحفر المزود بكرباج أو بندقية وكان يُلهب ظهور الفلاحين ويطلق النار على من يحاول الفرار ثم يطلب غيره، هكذا دونما رحمة ودونما تطبيق حتى للائحة استخدام العمال المصريين فى أشغال قناة السويس التى أصدرها الوالى فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦م. ونصت على توفير الغذاء والماء والمسكن والرعاية الصحية وتحديد لساعات العمل وكميته وتحديد للأجرة وغيرها من الأمور اللازمة لتنظيم العمل، فالغذاء اقتصر على الجبن القديم والمش والعسل والبصل لفترة تتراوح بين ثمانية أسابيع واثنى عشر أسبوعاً وكانت البصلة حسب " مانتو " مراقب عام الشركة المستقبل تُقطع إلى أربعة أجزاء لتقليص نصيب العمال البؤساء . وورقياً ووفقاً لما جاء فى وثائق الشركة فإن الجراية اليومية للعامل الواحد من أبناء العرب تنقسم إلى نوعين : النوع الأول وقد عرف باسم " يوم الأرز " وكانت تكلفته ٥٣ , ٠فرنك، واليوم الثانى عرف باسم " يوم العدس "وكانت تكلفته ٤٥ , ٠فرنك،وكل من النوعين غاب عنه تماماً من اللحوم والدواجن والأسماك . والأعجب أنه مذكور فى وثائق للشركة أنها كانت تقدم لعمال الحفر البسكويت(٤٨).

وبالنسبة للإمداد اللوجستى فقد كانت القاهرة تمد هذه المنطقة الفقيرة إلى المواد الغذائية - باستثناء الأسماك والطيور - بالفول والعدس والبصل والعسل، وكانت دمياط تمدها بالدقيق والأرز والخضروات، والدقهلية بالماشية والخضروات، والإسكندرية بالزبد والشعير والأغنام، وكانت هذه هى مناطق الإمداد المحلية ؛ أما الإمداد الخارجى فقد كان يأتى من يافا التى أمدت منطقة الحفر بالدجاج والبيض، والعراق بالتمر، أما مجموعة الدول الأوربية (إيطاليا، انجلترا، فرنسا، سويسرا، النمسا، واليونان) فكانت تمدها بالخمور والأملاح والدقيق والزيوت ومختلف أنواع البضائع . ومع هذا فاستهلاك أغلب هذه المواد التموينية سواء كان محلياً أو أجنبياً كان قاصراً على مهندسى الشركة والعمال الأوربيين، ولم يترك هؤلاء للعمال المصريين سوى فتات الفتات.

أما عن مياه الشرب فلم تكن تكفى عشرات الآلاف الذين زُجَّ بهم إلى هذه المنطقة القفر. وقامت الشركة بمخالفة أساسيات المشروع الذى نُص فيه على أن نقطة البدء هى توصيل مياه النيل لساحات الحفر قبل الشروع فى حفر القناة الملحة، فبسبب من الاعتبارات السياسية المعروفة وقتذاك قامت بحفر القناة الملحة وأجلت حفر ترعة المياه العذبة، وجلبت مياه الشرب إلى ساحات الحفر بوسائل بدائية وغير كافية عبر اللسان الرملى الفاصل بين البحر والبحيرة.

فى أول الأمر تم جلبها من الإسكندرية فى السفينة التجارية " سعيد " التى خصصت لهذا الغرض، ثم بواسطة قوافل الجمال التى كان الماء يستجلب فوق ظهورها من دمياط، عبر اللسان الرملى الفاصل بين البحر والبحيرة، وكذا عن طريق القوارب التى كانت تجلب الماء من المطرية عبر بحيرة المنزلة (٤٩) .

وكان محمد سعيد باشا قد أعد مفاجأة سارة لفرديناند دى ليسبس وزملائه بحشره لنحو ١٠ الآف عامل سخرهم ليحفروا قناة (ترعة) تخرج من النيل شمال مدينة دمياط حتى تصل إلى بحيرة المنزلة لتسير فيها القوارب حاملة المياه والتموين إلى بورسعيد (٥٠).

ولكن غالباً ما كانت قوافل الجمال والقوارب تتأخر، لاسيما عندما تسوء الأحوال الجوية، فكان يستعاض عنها باستخراج المياه من أبار قرية قاطية الموجودة على بعد كيلومترات شرق موقع الحفر ولم تكن مستساغة . وأحضرت الشركة مكثفين لتحلية مياه البحر فى سنة ١٨٥٩م. قدرة كل منهما خمسة الآف لتر من المياه يومياً، وأضيف مكثف ثالث سنة ١٨٦٠م. إلا أن تكلفة تشغيل هذه المكثفات كانت عالية وكانت تحتاج إلى كميات هائلة من الفحم، لذا كان تشغيلها يتم بالتناوب ولا يتم تشغيل المكثف الثالث إلا عندما يتعطل المكثفين الأولين (٥١).

ووصل الأمر إلى حد تطبيق نظام توزيع الماء بالبطاقات، ولم يزد نصيب الفرد عن لترين من الماء لجميع استعمالاته .

وفشلت الشركة فى الاعتماد على وسائلها الخاصة لجلب المياه، ومن ثم عقدت اتفاقاً أخر فى يونيه عام ١٨٦١م. مع محمد الجيار ،أحد أكبر ملاك السفن فى بحيرة المنزلة ومن ذوى الموارد الضخمة لنقل ماء الشرب فى البراميل سعة كل برميل متر مكعب، وكان يتم توزيع الماء بواسطة مضخات ضاغطة فى خزان شيدته الشركة من الصاج يسع اثنين وثلاثين متراً مكعباً. وقد تسببت إحدى العواصف التى هبت على المنطقة سنة ١٨٦١م. فى منع وصول قوارب المياه إلى بورسعيد واستمرت يومين فكان أن تجمهر العمال فى اليوم

الثالث عند موقع وصول القوارب وقاموا باغتصاب المياه من البراميل عنوة، وعندما تكرر الحادث في العام التالي جلبت الشركة الماء من بئر تقع عند فم الطينة، ولكن طعمه لم يكن مستساغاً (٥٢) .

وكانت هناك محاولات كثيرة لسرقة المياه، فقد قام بعض المراكبية بسرقة المياه من فنطاس برأس العش، وفشلت هذه المحاولة عندما أطلق الخفير النار عليهم . كما قام خمسة أشخاص من الأهالي بالتعدى على خفير أحد أحواض المياه التابع لأحد الأجانب وقاموا بالاستيلاء على الماء الموجود به . وكانت قلة الماء سبباً لحدوث المشاجرات بين الأهالي في قرية العرب. وفي محاولة للتغلب على هذه المشكلة قام الأهالي بجمع مبلغ ١٥٨ فرنكاً لإقامة طلمبة إضافية بقرية العرب إلى جانب الطلمبة الموجودة بها وأبدوا استعدادهم لتحمل تكاليفها، وأقيمت الطلمبة، وقامت المحافظة بتعيين قواص بكل طلمبة منعاً للمشاجرات. وطالب قنصل النمسا والمجر بزيادة عدد القواصة، ومع ذلك فقد استمر سكان المدينة - وبخاصة الأهالي - يشكون من قلة الماء، وكان ذلك يسبب قلقاً شديداً وإزعاجاً دائماً للمحافظة (٥٣) .

وبسبب شح المياه كان أغلب العمال يموتون بالدوسنتاريا الحادة، ومنهم من كان يدفع أجره اليومي لقاء شربة ماء، وظهرت أمراض التيفوس والتيفود في ساحات الحفر لاسيما في بورسعيد بسبب الافتقار إلى وسائل ونظم النظافة العامة والشخصية . وكنتيجة لانتشار الطاعون البقري بين الماشية في الريف المصري ووصولها إلى بورسعيد عن طريق البحر المتوسط، بسبب أن النيل كان يقذف جثث الحيوانات إلى البحر، وكان التيار الساحلي يدفعها شرقاً باتجاه بورسعيد لتلقى الأمواج المدينة كل يوم بعدد من هذه الجثث وقد تآكل وتعفن (٥٤). كما ظهرت الأمراض الصدرية والرمدية وحالات الإسهال الشديد والالتهابات الكبدية الوبائية والجدرى .

وجاء وقت ربما كان سنة ١٨٦٢م. كان يجرى فيه تنفيذ ثلاثة مشروعات في آن واحد، إذ كان يتم إنشاء مدينة بورسعيد على البحر المتوسط وحفر القناة الملاحية التي تربط هذا الميناء بمدينة السويس على البحر الأحمر ثم حفر قناة أخرى للمياه العذبة بدءاً من النيل لتزويد المعسكرات(٥٥)، فتحولت خنادق الحفر إلى محاشر للآلاف المؤلفة من المصريين الذين يسامون مر العذاب نهاراً تحت وقدة الشمس وليلاً إذ يتعثرون في بهمة ظلام لم تقدر المشاعل على تبديدها.

وفي سنة ١٨٦٥م. عصف بالعمال وباء الكوليرا مما دفع بالعمال إلى الهرب، وسبقهم الأجانب الذين جاءوا إلى بورسعيد يقطعون المسافة سيراً على الأقدام، ويحملون معهم

أثقالهم ثم فروا منها . وكان ذلك بعد يوم ٢٨ يونيو ١٨٦٥م. فقد قدم إلى بورسعيد عامل يونانى من الإسماعيلية واصطحب معه الكوليرا، وبعده هبطت إلى المدينة سيول جارفة من الفارين من الزقازيق والإسماعيلية وعتبة الجسر، وازدادت الوفيات منذ اليوم الثالث من شهر يوليو كما ازداد عدد الفارين إلى المدينة. ولم يحاول أحد من رجال الشركة وقف ذلك السيل من اللاجئين إلى المدينة خشية وقوع تصادم(٥٦) . وقلد الأهالى الأجانب وهربوا من المدينة حيث قطعوا عشرات الكيلومترات سيراً على الأقدام. ونتيجة لهذا أصبح الموقف فى بورسعيد ينذر بحالة خطيرة للغاية . ولك أن تتخيل عزيزى القارئ، إذا كان هذا هو الحال فى بورسعيد حيث درجة الحرارة اللطيفة والبحر الممتد والهواء المشبع باليود والساحل اللطيف، الحال فى سائر المناطق لاسيما الوعرة منها كمنطقة الجسر مثلاً . لقد كان الأمر فوق كل احتمال وخارج أى سيطرة .

حول هذه الفواجع قال الكاتب الأوربى ريت Ritt : لم تكن هناك قوة بشرية تستطيع أن تكبح جماح تلك الحركة " (٥٧).

واعترف كبير أطباء الشركة فى تقريره المنشور فى العدد رقم ٢٢١ من جريدة الشركة الصادر يوم ١٥ من سبتمبر ١٨٦٥ بأن الموقف قد أصبح فى غاية الخطورة حيث عجزت الإدارة الصحية عن الحصول على رجال ينقلون المرضى إلى مراكز الإسعاف أو يرفعون جثث الموتى ".

لقد اعتصرت الشركة كل ذرة نشاط لدى عمال الحفر، ولم تقدم لهم الرعاية اللازمة وتعددت أسباب إيذائهم، ومن ثم موتهم . ومن لم يمت عطشا أو من سوء التغذية مات إجهاداً أو مرضاً أو بلسعات الكرابيج أوضربات الشمس أو طلقات الرصاص. حتى إذا ما سلمنا بأن السخرة كانت أمراً معتاداً فى مصر، فإنه حسب القاضى الأمريكى كرابيتس CRABITES لم يحدث مطلقاً أن أسيء تطبيقها كما حدث فى حفر قناة السويس(٥٨).

إنها السخرة التى أزهقت أرواح ١٢٠ ألف مواطن مصرى من أجل شق هذه القناة التى عادت على مصر لأوقات طويلة، على حد تعبير عبد الرحمن الرافعى، بالويل والخسران(٥٩) .

وحدث أن مات سعيد باشا وأدلى الوالى الجديد إسماعيل باشا أمام القناصل الأجانب بكلمة كانت كفيلة بإثارة قلق دى ليسبس وشركته إذ انتقد فيها مبدأ السخرة، فلما طلب دى ليسبس من إسماعيل باشا أن يشرح له معنى تصريحه كانت إجابته " لا يوجد من هو أكثر حماسا للقناة منى، لكننى أريد أن تكون القناة لمصر، لا أن تكون مصر للقناة " .

قول بليغ يا عزيزى .. أليس كذلك؟

قول يليق بمن قبض لتوه على صولجان الحكم.. ربما كان صادقاً وهو يقوله، وربما كان يغازل به مشاعر الوطنيين من رعاياه..

فيا ليته نفذ ما قال، أو شرع فى تنفيذ ما قيل إنه كان يفكر فيه بشأن هذه القناة ؛ فقد قيل - والعهدة على الرواة - أنه فكر فى أن يتولى بنفسه تنفيذ المشروع، أى أن تتولى مصر حفر وإدارة القناة، لكنه لم يفعل أى شيء بهذا الاتجاه، واستمرت أعمال المشروع على نفس الوتيرة. وشحذ دى ليسبس قدراته على المناورة ومهاراته فى عمليات الاستمالة فاقترح إطلاق اسم الإسماعيلية على مدينة التمساح لأنه فى هذا " توحيد فى المستقبل لاسمى سعيد وإسماعيل العزيزين على قلوبنا " ؛ ولأنه استشف فى إسماعيل رغبة – سلفه – فى اكتساب رضا الأوربيين ونيل إطرائهم، فقد انهمك فى مغازلته واستمالته ليعاضد المشروع ويسانده ،وهذا ما كان من إسماعيل بالفعل، فلولا جهوده وإنعاماته على المشروع لفشل دى ليسبس فى إنجازه.

لكن القسطنطينية، بتأييد من بريطانيا العظمى، عاودت سنة ١٨٦٣م. الهجوم على المشروع وطالبت بإلغاء السخرة فى برزخ السويس فما كان من دى ليسبس إلا أن دافع عن تطبيق نظام السخرة تحت إشراف شركته، وهون من خسائر هذا النظام بزعم أن أسلوب السخرة لدى شركته أكثر إنسانية من مثيلاتها وضرب مثلاً بالسخرة التى استخدمت فى تشييد خط سكك حديد الإسكندرية – القاهرة – السويس وأفنت آلاف المصريين.

وهل السخرة إلا سخرة ؟

وهل فرنسا وانجلترا إلا أسد وذئب يعبثان بشعب ظنه رعاته خرافاً لا تملك حتى حق المأمأة إذ تفترس ؟

أين كان أولو الأمر ؟

ماذا فعل إسماعيل باشا صاحب مقولة " .. أريد أن تكون القناة لمصر، لا أن تكون مصر للقناة ؟

هو أيضاً كان فى طور التثعلب، وكان مهموماً باستخلاص مصر من بين أنياب العثمانيين ليضع خرافها بين أنيابه وحده دونما شريك .

لكن كيف والأسد والذئب الأوربيان المتصارعان منجذبان نحو ذات الخراف ؟

إنه لأمر مؤرق فعلاً.

وفعلاً كان إسماعيل مؤرقاً بأربعة أمور نص عليها الفرمان الثانى، ورأى أنها مجحفة

بحقوق مصر والمصريين وهذه الأمور هى :

١- تعهد الحكومة بتقديم العمال الذين تحتاج إليهم الشركة لغاية عشرين ألفاً باستمرار (تم تجاوز هذا العدد أكثر من مرة)، وزعم الشركة أن لها مطالبة الحكومة بتعويض فى حال تقصيرها أو عجزها عن تقديم هذا العدد.

٢- ملكية الشركة لترعة المياه العذبة التى كُلفت بإنشائها واستغلال رى الأطيان المملوكة للأفراد على جانبيها مقابل أجر تقبضه منهم حسب تقديرها.

٣- ملكية الشركة لجميع الأراضى التى ترى أنها فى حاجة إليها لحفر القناة، وإنشاء الترعة العذبة، وإعفاؤها على الدوام من دفع الأموال الأميرية عليها، وملكيتها لجميع الأراضى التى تستصلحها وتزرعها، وإعفاؤها من دفع أموالها مدة عشر سنوات.

٤- اضطرار الحكومة إلى نزع ملكية الأطيان المملوكة للأفراد إذا احتاجت إليها الشركة لاستغلال امتيازها (٦٠) .

وقد ضخم الأسد البريطانى من هذا القلق بهجومه على شركة قناة السويس من محورين جانبيين هما: السخرة وامتيازات الأراضى الواسعة على ضفتى القناة؛ فالسخرة عمل لا إنسانى تقوم به شركة ذلك الفرنسى . فعلت بريطانيا هذا على الرغم من أن الشركات البريطانية مثل شركة " بينيسولار والأورينتال " تستخدم نظام السخرة، مما أوضح النفاق البريطانى فيما يتعلق بالسخرة فى حفر قناة السويس، وعلى الرغم من أن امتيازات الأراضى التى تضع يدها عليها تهيئ لها إقامة مستعمرة بريطانية عند نقطة عظيمة الإستراتيجية فى الإمبراطورية التركية، فهل تقبل تركيا هذا؟.. وهل تتحمل مصر هذا التهديد لسيادتها؟.. وهل تتحمل بريطانيا عدواً كامناً على الطريق القصير المؤدى إلى الهند ؟

هناك من يرى أن بريطانيا العظمى قد أخطأت فى هجومها على الشركة من خلال هذين المحورين، فعملية إنشاء القناة كانت على وشك الوصول إلى اللحظة التى أصبح فيها من الممكن – بل من المناسب - الاستعاضة عن عمل السخرة بعمل الآلات والكراكات، وأن سحب السخرة لن يصيب الشركة بضربة قاتلة ؛ أما محور امتيازات الأراضى فالمخاوف بشأنها قد تتحقق فى المدى البعيد لكن فى وقت الهجوم فلم يكن للامتيازات أهمية جدية. وقد كان لنشأة المدينتين الجديدتين - بورسعيد والإسماعيلية - تأثير إيجابى على المستثمرين. وحسب ديفيد لاندز لم يصب التشويش الجانبى على الشركة فى خزائنها بقدر ما أصابها فى حساسيتها، وأنه كان ينبغى على بريطانيا أن تعرف أن دى ليسبس كان يفاوض بعض شركات المقاولات والهندسة الفرنسية على بناء واستخدام كراكات القناة منذ

سنة ١٨٦٢م. (٦١). وعلى أية حال فقد بدا سنة ١٨٦٣ م . أن حالتى السخرة وامتيازات الأراضى هما القضيتان الأساسيتان، وفى لندن وباريس والقسطنطينية والقاهرة بدأت المعركة حولها (٦٢).

وقام نوبار باشا الذى أعاده إلى السلطة إسماعيل باشا كوزير للخارجية بجهد مكوكى، إذ أخذ على عاتقه مهمة إلغاء السخرة، وطالب بإعادة طرح الاتفاقيات المتعددة بالبحث والتفاوض لاسيما أن العدد الفعلى لمن تم تسخيرهم من المصريين وصل إلى رقم الستين ألفاً، باحتساب دوران العمل بين الذين يقدمون إلى مكان الحفر ومن يغادرونه، وفى هذا يقول نوبار باشا " كان سكان مصر محكوماً عليهم أن يعطوا الشركة بالمناوبة بين شهرين وثلاثة من وقتهم ومن عملهم ومن حياتهم بلا أى مرتب ؛ لأنه بالرغم من الاتفاق الجارى الذى بموجبه يجب دفع فرنك عن كل يوم عمل فإن الشركة كانت تطردهم بلا أى مرتب، بل وحتى يدفعون ثمن الغذاء على حسابهم "(٦٣).

وتنقل نوبار باشا بين تركيا وفرنسا من أجل تخفيف شروط الامتياز وخاطب الشركة موضحاً مطالبه التى يمكن تلخيصها فيما يلى :

١- إنقاص عدد العمال الذين تلتزم الحكومة بتقديمهم للشركة إلى ستة آلاف لأن تسخير العدد الحالى (٢٠ ألفاً) يضر بالبلاد والزراعة.

٢- زيادة أجورهم، وجعلها فرنكين لكل عامل فى اليوم، لكى يعوض الفلاح ما يخسره من ترك بلده وأرضه وما يبذله من الجهد للعمل فى حفر القناة.

٣- إلغاء امتياز ملكية الشركة للأراضى، وفى مقابل ذلك تأخذ الحكومة المصرية على عهدتها إتمام الترعة العذبة، وأن تعوض الشركة قيمة النفقات التى بذلتها فى القسم الذى أنشأته منها .

وقد عارضت الشركة هذه المطالب، بحجة أن إنقاص عدد العمال من عشرين ألفاً إلى ستة آلاف يعطل إتمام المشروع، ويطيل مدة العمل من ثلاث سنوات إلى عشر، مما يُكبِّد الشركة خسائر جسيمة، وأن القناة، من المسائل الجوهرية، التى لا تنازل عنها(٦٤).

وتعقد الموقف .. مصريون تفنيهم السخرة، وفرنسيون يتباهون بإنسانيتهم ويتشبثون بمكاسبهم وحكومة ترغب فى حفظ ماء وجهها وباب عال يهدد وإنجليز يتربصون ويتلمظون انتظاراً، والنتيجة هى الغيظ العنيف الذى رَجَّ دى ليسبس رجاً، وردود الأفعال من الأطراف المختلفة التى أدت إلى تفاقم الأوضاع وتزايدت حدة المطالبة بإلغاء السخرة وبعودة قناة المياه العذبة إلى المصريين هى وأجزاء من الأراضى التى هيمنت عليها الشركة، وظل الوضع يسير من تأزم إلى تأزم حتى أُدخل نابليون الثالث للتحكيم بين

المتفارقين، وكأن الطرف الفرنسى فى النزاع لا يخضع بالتبعية إلى نابليون هذا، فلكأنما سلَّمَت الحكومة المصرية بقبولها هذا التحكيم " الذئب مفتاح الكرار " حسب التعبير المصرى الشائع . وأثبت الذئب أنه بالفعل ذئب، فبعد أنَّ شكل نابليون لجنة لدراسة الموضوع، واطلع على نتائج أعمالها ،أصدر حكماً ذئبياً بتعويض تدفعه مصر للشركة مقداره ٨٤ مليون فرنكا إذا ما استعادت قناة المياه العذبة و٦٠ ألف هكتار أى حوالى ١٤٨ ألف فدان من الأراضى المروية جزئياً.

وقد أصدر نابليون الثالث حكمه هذا فى ٦ يوليو سنة ١٨٦٤م. وتفصيله كما يلى :

١- إبطال حق الشركة فى مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين، وإلزام الحكومة فى مقابل ذلك بتعويض مالى تدفعه للشركة ومقداره ٣٨,٠٠٠,٠٠٠ فرنك.

٢- تنازل الشركة للحكومة عن كل حق فى ترعة المياه العذبة، والتزام الحكومة بإتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها، وإلزام الحكومة مقابل هذا التنازل بأن تدفع للشركة تعويضاً قدره ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك .

٣- جعل الأراضى المملوكة للشركة واللازمة للمشروع ٢٣٠٠٠ هكتار تقريباً منها ١٠,٢٦٤ هكتاراً على جانبى القناة البحرية وملحقاتها، و٩٦٠٠ هكتار للترعة العذبة وثلاثة ألاف هكتار لمبانى الشركة.

٤- إعادة الأراضى الأخرى التى اتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦٠,٠٠٠ هكتار، مقابل تعويض تدفعه الحكومة وقدره ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك.

وجملة هذه التعويضات بالجنيهات المصرية تعادل ٣,٣٦٠,٠٠٠ جنية مصرى بيانها كالتالى:

١,٥٢٠,٠٠٠ مقابل إعفاء الحكومة من تقديم العمال المصرين لحفر القناة.

٦٤٠,٠٠٠ مقابل تنازل الشركة عن حق إنشاء الترعة العذبة.

١,٢٠٠,٠٠٠ مقابل تنازل الشركة عن دعواها فى ملكية الأراضى.

٣,٣٦٠,٠ مجموع التعويضات.

وإذا علمتَ أن رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه أمكنكَ أن تقدر فداحة التعويضات التى حكم على مصر بأدائها، وأنها تبلغ على وجه التقريب نصف رأس مال الشركة(٦٥). وهكذا عرف الذئب الفرنسى كيف يأكل الكتف المصرية.

وعلى الرغم من كل المكاسب التى جنتها الشركة من الحكومة المصرية لم تنس لا للحكومة ولا للخديو أنها اضطرت بسبب إلغاء السخرة إلى استخدام الأجانب بأجور باهظة، ودفعت أجوراً للراغبين من المصريين فى العمل بساحات الحفر، وبدأت فى إحضار

الماكينات البخارية والكراكات التى صُنعت فى فرنسا خصيصاً من أجل أعمال الحفر بالقناة. لذا دأبت على المبالغة فى طلب التعويضات كلما عملت مصر على استرداد بعض من حقوقها.

ومن عجيب أن أهل الحل والعقد فى مصر كانوا يستجيبون لمطالب الشركة فها هو الخديو لما عقد والشركة اتفاقاً آخر فى ٢٣ أبريل ١٨٦٩م. ألغى فيه الشرط الخاص بإعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية، أعطاها مقابل ذلك تعويضاً قدرة عشرون مليون فرنك، وعندما تنازلت الشركة للحكومة عن بعض المبانى والمستشفيات تقاضت عشرة ملايين فرنك (٦٦) .

ولما تم حفر القناة وأصبحت جاهزة للافتتاح كانت مواصفاتها كما يلى:

الطول ١٦٤ كيلومتراً

العمق ٧,٥ المتر

العرض عند مستوى سطح الماء ٥٢متراً

العرض عند القاع ٢٢متراً

الغاطس المسموح به ٢٢,٥ قدما

توقعتُ منكَ عزيزى القارئ سؤالاً لكنك لم تسألنيه؟

لماذا سميت بورسعيد بهذا الاسم؟

ربما كانت الإجابة جاهزة لديك، فوفرت على نفسك مشقة السؤال . أنا أيضاً أعلم أنك إن أجبت ستقول إن المدينة نسبت للوالى سعيد . هذا صحيح.. لكن من الذى أطلقه ؟.. ومتى ؟.. ولماذا؟..

هنا أتدخل فأجيب بأن اللجنة الدولية التى تكونت من فرنسا وانجلترا وهولندا وروسيا والنمسا وإسبانيا وبيدمونت (مقاطعة إيطالية) هى التى أختارت فى اجتماعها بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٨٥٥م. هذه التسمية للثغر المقترح إقامته شمال القناة، واختارتها باللغة والأحرف الأجنبية ومبرر التسمية جاهز ومعلن، فهل هناك ما يفوق التيمن بحاكم مصر وقتها .. الوالى محمد سعيد باشا ؟

وطبعاً لم تخرج المسألة من دائرة التملق والنفاق .

ومع هذا جدلت الأحداث الجسام الاسم فى وجدان المصريين وعشقه الوطنيون قبل الأجانب.

الفصل الثالث

طفلة اسمها بورسعيد



كثيرة هى الكتابات التى تناولت افتتاح القناة وجميعها محتشد بالتفاصيل وتفاصيل التفاصيل. وما كان ينبغى لى أن أتحدث عن هذا الافتتاح لولا أنه دشن مدينة بورسعيد وجعلها محط أنظار الكافة وأعطاها شرعية النمو. صحيح أن نشأتها بدأت يوم الاثنين الموافق ٢٥ أبريل ١٨٥٩م. مع أول ضـربة مـعـول فى أرض الموضع الذى خطط ليكون مجرى القناة، بل منذ الإعداد لهذه الضربة، وصحيح أيضاً أن نموها استمر على مختلف الأصعدة، تنظيماً وعمراناً وإدارة، على الساحل المنبسط الضيق الذى أقيمت فوقه الخيام والأكشاك الخشبية والأبنية البسيطة منذ الضربة الأولى إلى ما قبل الافتتاح، لكن الأصح أن هذا الافتتاح كان إيذاناً واقعياً بالإعلان عن اكتشاف عبقرية مدينة ناشئة فى مكان قلما يجود كوكب الأرض به على سكانه . وإذا كانت بورسعيد، هذه الطفلة الملفوفة فى أقمطتها، هى نتاج العلاقة – الشرعية – بين الطبيعة والمواطن المصرى، فإن حفل الافتتاح كان بمثابة " سبوع المولود " بما يحتويه من ضجيج ومفردات تتفق وصحيح ومفردات الطقس المصرى العريق .

وُضعت بورسعيد الطفلة على " مَنْخُل " المكان عند الطرف الشمالى لقناة السويس ومعها فى ذات المنخل: الذهب للسعد، والملح لمنع الحسد، والقرآن لنشدان البركة . وفى أجواء تتردد فيها أهزوجة " الصلاة عليه الصلاة عليه.. جبنا المولود وفرحنا به " تصاعدت

النصائح التقليدية من قبيل " اسمع كلام أبوك، ما تسمعش كلام أمك ".

لا تظن يا عزيزى أن ما قلته لك عن المنخل وما فيه مجرد تصورات أديب خصب الخيال.. لا .. نح هذا الظن، فلو قارنت حجم وكمية ونوعية البذخ الذى صاحب الاحتفال لماثلته أنت بالذهب الذى تحرص الأسرة المصرية ذات المنبت الشعبى على وضعه مع المولود، وإن اضطرت إلى استعارته من الغير . وهذا عين ما حدث عند الاحتفال الشهير بدءاً من الدعوة الفخمة التى كُتبت على رق الغزال وانتهاء بالولائم والحفلات الباذخة، التى استمر ترتيبها نحو أربعين يوماً، وأقيمت على شرف ضيوف مصر، وفى مقدمتهم الإمبراطورة أوچينى زوجة نابليون الثالث، والإمبراطور فرانسوا جوزيف إمبراطور النمسا، وملك المجر، والأمير فريدريك ويلهلم ولى عهد بروسيا، والأمير هنرى أخو ملك هولندا، والأميرة قرينته. ووفقاً لتعبيرات من أرَّخوا لهذه الاحتفالات، فإن التاريخ لم يعرف ما يدانيها فى الإسراف والتبذير، فقد بلغت نفقاتها على أصح تقدير – حسب عبد الرحمن الرافعى – ١,٤٠٠,٠٠٠ جنية بأسعار ذلك الوقت طبعاً(٦٧).

لن أحكى لك عن تفاصيل هذا البذخ فبالتأكيد أنت تعرفها . وإنْ لم تكن تعرفها فالمراجع بشأنها كثيرة. وإسماعيل ما أنفق كل هذا إلا مباهاة، كما قلتُ، واستمتاعاً بعلامات الانبهار التى شاعت فى ملامح كل من شاهدوا الاحتفالات أو سمعوا بها أو قرأوا عنها. وأيضاً أنفق ما أنفق طلباً للسعد، كما توخى، فقد أراد أن يُرَسِّخ لدى الكافة أنه خديو كامل الأهلية ومكتمل المقومات، وأنه يصلح لأن يكون ذئباً بين طعان الذئاب . وهذا ما استشعرته تركيا وأغضب سلطانها عبد العزيز، الذى اعتبر عدم توجيه الدعوة له ليرأس تلك الاحتفالات إغفالاً لواجب الولاء نحوه، فى حين أن الواجب كان يقتضى ـ بحكم هيمنة تركيا على مصر وشئونها ـ ألا توجه تلك الدعوات إلا عن طريق الباب العالى . وترجم السلطان هذه الغضبة بمنشورات أرسلها إلى جميع السفراء العثمانيين لدى الدول الغربية يأمرهم فيها بالاحتجاج على عمل والى مصر واعتباره خارجاً عن حدود اللياقة والسيادة التى لتركيا عليه. وربما كان هذا هو سبب عدم حضور ملكة بريطانيا وملوك بروسيا وهولندا وروسيا الذين أنابوا عنهم من يحضر الاحتفالات بدلاً عنهم ؛ كما أن إمبراطور فرنسا نابليون الثالث رفض فى أدب الدعوة متعللاً بانشغاله بأمور الدولة، وأرسل أوچينى بدلاً منه. وقد أرجع عدد من المؤرخين سبب اعتذاره بأنه علم بالخطة التى كان ينوى إسماعيل تنفيذها بإعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية، فخشى أن يُوقعه ذلك فى صدام معها، وبالفعل كان استقلال إسماعيل بمصر هو السعد الذى يرجوه من وضْعه كل ذلك الذهب فى منخل المولود الجديد.

أما الملح فكان ذلك الممتزج بعرق الفلاحين والشغيلة، مُلاَّك القناة الأصلاء، فهم أصحاب الأرض، وهم الذين كدوا وضحوا فى سبيلها، هؤلاء الذين تجمعوا خارج نطاق دائرة الاحتفال بأزيائهم الشعبية أو بأسمالهم البالية مع حميرهم وجمالهم وأدوات الحفر التى لم تبرد قبضاتهم عليها، هؤلاء الذين لا يملكون سوى متعة النظر - إنْ تمكنوا - لا المشاركة . وكيف يمكنهم أن يشاركوا بما هم عليه من وهن وإدقاع ومسغبة، مادام إسماعيل قد حشد نحو ٤٠ ألفاً من كبار رجالات مصر وأعيانها وعمدها ومشايخها ورجال الإدارة فيها وأغنياء أقاليمها وزعامات القبائل لينالوا شرف الدخول فى دائرة الاحتفالات؟.. هم إذن فى الهامش، دوماً فى الهامش، لكن لا ضير من وجهة نظر خديو البلاد من أن يستخدمهم كنوع من أنواع الفولكلور والبهرجة المهرجانية ليضفى نقوشاً، غير مألوفة للزوار، على الصورة الذهبية لعصره التى يبغى أن يرسخها لديهم، هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى ليعرض على ضيوفه الأنقاء نوعية البشر الذين يحكمهم، ليعلموا ـ ولو بالباطل ـ مدى ما يعانيه من أجل أن يجعلهم أكثر تحضراً وتمدناً فلا يحسدونه على ما استعرضه أمامهم من مظاهر الأبهة والنعيم .

وهذا ما ترجمه الخديو إسماعيل عملاً لا قولاً، إذ أوعز إلى مديرى الأقاليم بإرسال أعداد من الأهالى بنسائهم وأطفالهم وأدواتهم البيئية، فانتشروا على جانبى القناة من عُربان وفلاحين وصعايدة وسودانيين وغيرهم، وقفوا أمام الأكواخ والعشش، وركبوا خيولهم ونوقهم وحميرهم، وبذلك تمثلت جميع الأزياء المصرية والسودانية من كل الألوان فى المشاهد التى حضرها الضيوف المترفون، حتى إن الإمبراطورة أوچينى أبرقت إلى الإمبراطور نابليون الثالث تخبره فور وصولها بأن الاستقبال كان فخماً وأنها لم تر فى حياتها ما يماثل ذلك. لم تنتظر وهى الإمبراطورة حتى تهبط إلى البر، بل أسرعت من فرط انبهارها بالإبراق إلى زوجها وهى بعد على ظهر " الإيجل " . وطلقات المدافع ترسل تحياتها وأمامها تتكاثف دلائل الاحتفاء وتتبدل مظاهر الاستقبال الحافل قالت لزوجها الموجود فى فرنسا " استقبال ساحر. لم أر فى حياتى مثل ذلك "(٦٨).

أما نشدان البركة الدينية فقد توفرت مقوماته بالدعاء للخديو فى المساجد ومن فوق المنصتين الضخمتين اللتين أقيمتا إلى يمين ويسار منصة الملوك والأمراء وكبار المدعوين . التى إلى اليمين خصصت لرجال الدين الإسلامى، وفى مقدمتهم الشيخ مصطفى العروسى والشيخ محمد المهدى والشيخ إبراهيم السقا ؛ والتى إلى اليسار خصصت لرجال الدين المسيحى يتصدرهم المونسنيور باوير مرشد قصر التويلرى . وتأكيداً لطلب البركة بُدئ الاحتفال بتلاوة قرآنية ثم ألقى شيخ الإسلام خطبه دعا فيها بنجاح المشروع . وإذا كان

علماء الدين الإسلامى حسب روبير سوليه قد أدوا الخدمة الدينية بسرعة واتزان فإن المونسنيور باوير وكان يرتدى رداءً أرجوانياً وطاقية مربعة وألقى موعظة طويلة ومغالية فى التشدق، فبعد أن حيا إسماعيل ومنح أوچينى ثناءً جسوراً " روحك الشجاعة تفعل أكبر الأشياء فى صمت " قام الكاهن بالإشادة بفرنسا " الكريمة النبيلة التى أظهرت جميع طبقاتها الاجتماعية حماساً لشق برزخ السويس ومنحت هذا العمل ملايينها وأذرعها وذكاءها وطاقتها ومهندسيها وعمالها ومستخدميها ومعداتها ..."، ولم يبخل باوير بنعوته وأوصافه المتباهية فقال " من المباح التأكيد بأن الساعة التى حانت ليست فقط من ساعات هذا القرن الأكثر مهابة، لكنها الأكثر عظمة وحسماً من بين الساعات التى شهدتها الإنسانية منذ أن أصبح لها تاريخ على الأرض. إن هذا المكان الذى تتجاور فيه إفريقيا وأسيا من غير أن يتماسا إطلاقاً، وهذا العيد الكبير للجنس البشرى، وهذا الحضور المهيب والجامع لمختلف أجناس الأرض، وجميع الأعلام والرايات التى ترفرف فى بهجة تحت هذه السماء المشرقة والصليب المنتصب فى مواجهة الهلال وسط احترام الجميع. كم من معجزات، وكم من مفارقات مدهشة وكم من أحلام معروف بأنها خيالية أصبحت وقائع ملموسة "(٦٩).

وقبل أن يلقى دى ليسبس خطبته تلا رجال الدين المسيحى صلاة شكر شاركهم فيها المسيحيون من الحضور.

أما عن بقية الطقس، بالطريقة التى أنهيتها إليك وظننتَ أنها خيال أديب، فإننى أزعم أن الأب فى النصيحة الشعبية المحذرة للمولود " اسمع كلام أبوك، ما تسمعش كلام أمك " يحتمل أحد معنيين أو كليهما معاً ؛ المعنى الأول أن الأب المعنى بالنصيحة هو إسماعيل باشا والأم هى تركيا ؛ أما المعنى الثانى فينصرف إلى وطنيى مصر، فمع هذا المولود الجديد الذى جاء أنثى اسمها بورسعيد، ومع إرهاصات استقلال مصر عن الباب العالى، بانت نذر التسابق الغربى على التهام الكعكة المصرية فكان لابد من تحذير للاحتراز مما عساه أن يأتى فى قابل الأيام من مخاطر ظهرت نذرها فى هذه الاحتفالات الباذخة، لكن فيما يبدو أن أحداً ما كان يرى - وسط بهرجة الاحتفال - الأخطار المحتملة على وجه الدقة، وإنْ رآها لم يدرك هولها وبشاعتها.

التفاصيل جد كثيرة ومتعددة الروافد حتى لأكاد أظن أنه لانهاية لها. وقد يكون من الأوفق، حتى لا تجرفنا التفصيلات وتفصيلات التفصيلات فى تيارها، أن نعود إلى ما كنا قد وصلنا إليه بالحديث عن بدايات النشأة، وبواكير منشآتها . وقد سبق أن ذكرتُ أن البداية كانت مع الخيام، ثم تم ردم بعض الأماكن السبخة بالرمال الناتجة من الحفر، وفوق

مناطق الردم هذه أقيمت الأكشاك الخشبية ثم المنازل المصنوعة من الأخشاب المستوردة والقرميد الأحمر ثم المبانى، التى استخدم فيها الطوب المحروق المصنوع من الطمى المستخرج من قاع بحيرة المنزلة، وذكرت لك أنه إلى جوار بحيرة المنزلة، فى مكان يبعد عن المدينة التى يسكنها الخواجات، كانت قرية العرب حيث العشش المصنوعة من البوص، وحيث الفقر والمرض وافتقاد مقومات الحياة الإنسانية الكريمة.

لكن أى الأعمال الإنشائية غير السكنية كان أسبق إلى الظهور ؟

أسمعك تجيب بأنه من الطبيعى أن تكون الأعمال التنظيمية والمينائية والورش اللازمة لها والأبنية التى تقدم من خلالها الخدمات للعاملين فى القناة هى الأجدر بأولوية التشييد.

هذا عينه ما كان، فقد تم من الناحية التنظيمية تحديد أرض المدينة ببعض الشوارع الرئيسة التى كانت تمثل فى جملتها أرصفة أو جسوراً تحيط بالمدينة التى كان شكلها مستطيلاً فى ذلك الوقت(٧٠).

كان الرصيف الشمالى مطلاً على ساحل البحر وموازياً له وهو أول رصيف تم إنجازه عام ١٨٥٩ وقد أطلق عليه فيما بعد عند افتتاح القناة سنة ١٨٦٩م. رصيف أوچينى، وبفعل ظاهرة طرح البحر، وسوف أحدثك عنها فيما بعد، ابتعد البحر عن هذا الرصيف.

وكان الرصيف الجنوبى، الذى عرف وقتها برصيف البحيرة، يحد المدينة من ناحية الجنوب، لكنه لم يعد كذلك بعد اتساع المدينة على حساب البحيرة وتحول شأن سائر الأرصفة إلى شارع.

ووازى الرصيف الشرقى القناة ـ الضفة الغربية للقناة ـ وأطل على الميناء، وأُطلق عليه عند الافتتاح رصيف فرنسوا جوزيف نسبة إلى إمبراطور النمسا الذى كان ضمن ضيوف إسماعيل كما سبق أن أخبرتك.

أما الرصيف الغربى فكان يمتد من غرب رصيف أوچينى شمالاً حتى غرب رصيف البحيرة جنوباً وعرف برصيف الترسانة.

وجميعها تحول إلى شوارع وتغيرت أسماؤها فرصيف أوچينى أضحى شارع أوچينى ثم أصبح فيما بعد شارع صفية زغلول؛ ورصيف البحيرة أضحى شارع البحيرة وتحول إلى شارع رقم ١٠٠ ثم أصبح بعد حرب ١٩٧٣م. شارع المشير أحمد إسماعيل على ؛ ورصيف فرنسوا چوزيف أضحى شارع فرنسوا جوزيف ثم أصبح شارع السلطان حسين فشارع شكرى القوتلى ثم شارع فلسطين ؛ وكذلك كان الأمر مع رصيف الترسانة فقد أصبح شارع الترسانة ثم تغير ليكون شارع الأمين ثم شارع محمد سرحان.

وقد كان لهذه الأرصفة التى انقلبت إلى شوارع دوراً ووظيفة، أما الدور فهو تحديد

المدينة تحديدا طوبوغرافيا بيسر تجهيز الأراضى وتقسيمها، وأما الوظيفة فهى حماية المدينة الناشئة من أمواج البحر وفيضان البحيرة . وكى تقوم هذه الأرصفة بوظيفتها فقد روعى عند إنشائها أن تكون على ارتفاع من سطح البحر يتراوح بين المترين والمترين ونصف المتر. وبسبب التوسع العمرانى تجاوزت المدينة حدود هذه الشوارع باستثناء الشارع الشرقى الذى تحاذيه القناة من ناحية الشرق، ومع هذا فيمكن اعتبار بورفؤاد امتداداً عمرانياً للمدينة الأصل باتجاه الشرق، فلكأن القناة لم تحد من التوسع العمرانى وإنما أكدت عليه وتسببت فيه.

وإذا كان إنشاء هذه الأرصفة عملاً تقتضيه الاعتبارات التنظيمية والعمرانية، التى سأحدثك عنها فيما بعد، فهو عمل يتسم بالمحدودية والخطية والنمطية وعدم التعقيد ؛ أما أعمال الإنشاءات البنائية فعلى النقيض تماماً إذ تتصف بالكثرة، وعدم الخطية، وعدم النمطية والتعقيد، إنْ على مستوى التخطيط أو التنفيذ، لاعتبارات منها التكنولوجى والهيدروليكى والإدارى وهى اعتبارات متداخلة ومندمجة إلى أقصى حد . ومن هذه الإنشاءات ما يرتبط برسو السفن أو حماية الميناء من الإطماء أو هداية السفن واستقبالها أو إيصال المؤن إلى المدينة أو حمايتها وحماية مصر من الأمراض التى تفد من الخارج عند مرور السفن بالقناة، وكذلك ما يتعلق بأنظمة الجمارك والتجارة الخارجية .

وبالطبع ما يتعلق بأمن البلاد وسلامتها.

فيما يتعلق بالميناء وبرسو السفن فقد أنشىء مرسى من الخشب بطول ٢٦٠ متراً يمتد داخل البحر حتى عمق ثلاثة أمتار يتيح نقل التموين ومهمات الحفر ومواد البناء لاسيما الأحجار التى كانت ترد من الإسكندرية وقد مُدت على هذا المرسى قضبان حديدية تسير عليها عربات تُدفع بالأيدى بعدما تُحمَّل بما يتم تفريغه من السفن، ويتم تحريك هذه العربات إلى حيث الورش والمستودعات(٧١).

ولحماية الميناء من الإطماء بفعل الرواسب والرمال التى قد يدفعها التيار البحرى، ولضمان هدوء مياه الميناء وعدم ارتفاع الأمواج داخله، تم إنشاء حاجزين أحدهما غربى والآخر شرقى . وإنشاؤهما تم بكتل حجرية كانت تستجلب من محاجر المكس بالإسكندرية، ثم ما لبثت الشبكة أن تعاقدت مع شركة داسو أخوان لعمل الأحجار الصناعية لتصنيعها محلياً.

وقد تم تصنيع مائتين وخمسين ألف متر مكعب من الصخور الصناعية، وكان يتم عملها على هيئة بلوكات زنة البلوك الواحد عشرون طناً، وكانت تصنع من خرسانة الدقشوم والجير المائى والرمال، وبُدئ فى تصنيع هذه البلوكات داخل بورسعيد وغمرها

فى الماء اعتباراً من أغسطس سنة ١٨٦٥م. حتى تم الانتهاء من الحاجز الذى بُدئ العمل به اعتباراً من عام ١٨٥٩ واستمر بناؤه حتى بلغ طوله أوائل سنة ١٨٦٩م. نحو ٣٥٠٠ متر وارتفع عن سطح الماء بمقدار مترين ووصلت نهايته إلى نقطة يبلغ عمق المياه عندها عشرة أمتار، وأطلق عليه رصيف دى ليسبس وكان مبدأه نقطة التقاء رصيف أوچينى برصيف فرانسوا چوزيف (٧٢).

وبسبب هذا الحاجز نشأت ظاهرة طرح البحر، فقد أدى تراكم الرواسب غربى هذا الحاجز إلى تكوين أراض جديدة شمالى شارع أوچينى الذى كان موازياً للبحر ومواجهاً له مما نتج عنه إضافة مساحات أخرى توسعت بمقتضاها المدينة باتجاه الشمال، وشُقت فيها شوارع عديدة موازية لشارع أوچينى باتجاه البحر، وعليه فقد كانت إطالة هذا الحاجز مطلباً تكرر أكثر من مرة حتى يصل إلى العمق التى كان عليه من قبل .

أما الحاجز الشرقى فقد بدأ تنفيذه اعتباراً من ١٨٦٦م. واستمر العمل فيه حتى ١٨٦٨م. وبلغ طوله ٢٥٠٠ متر ووصلت نهايته إلى نقطة يبلغ عمقها ثمانية أمتار ونصف المتر وتتقارب نهايتى هذين الحاجزين من بعضهما عند مدخل الميناء(٧٣). وبهذا تكونت ببورسعيد ميناء خارجية مساحتها المائية حوالى مائة فدان بعيدة عن تأثير الرياح وتأثر التيارات المائية وتأثير الرواسب النيلية (٧٤).

ولهداية السفن كان لا بد من وجود فنار، لذلك تقرر سنة ١٨٥٩م. إنشاء فنار مؤقت صنع من الخشب وكان يضىء لمساحة عشرة أميال. وكان يفى بالغرض من بنائه أثناء فترة الحفر، إلا أنه بعد إتمام بناء الحاجز الغربى فى أوائل سنة ١٨٦٩م. لم تعد إنارة هذا الفنار كافية فأقيم فنار جديد على الحاجز الغربى وتم إنشاؤه فى مارس ١٨٧٠م. وقد بُنى من الخرسانة وكان ذا لون رمادى(٧٥) . كما أقيم عند نهاية الحاجز الشرقى فانوس صغير فوضع فوق مصطبة لإضاءة مدخل الميناء ليلاً (٧٦) . وكان الفنار يضاء بغاز الاستصباح ويضىء لمسافة ٢٠ميلاً بحرياً.

ومما يذكر هنا، أنه تم بناء أربعة فنارات على ساحل البحر المتوسط بين الإسكندرية وبورسعيد لتهتدى بأنوارها السفن القادمة لميناء بورسعيد من الإسكندرية أو التى تغادره إليها. وقد أقيمت هذه الفنارات فى رشيد، البرلس، عزبة البرج بالإضافة إلى بورسعيد . وقد جعلت قواعد هذه الفنارات على ارتفاع ثمانية وأربعين متراً وبين نهاية القاعدة وقبة آلات الضوء نحو سبعة أمتار، ونور كل منها يُرى على مسافة عشرين ميلاً بحرياً (٢٦ ألف متر) وأنوارها متواصلة، بمعنى أنه متى غاب عن السفن ضوء أحدها، ترى الضوء الأخر فلا ينقطع عنها الاهتداء بأنوارها، والفنارات الثلاثة الأول صُنعت من الحديد، أما فنار

بورسعيد فمن الخرسانة. وكان لكل فنار ضوء خاص به سواء من حيث اللون أو سرعة الحركة(٧٧). ولنا عن فنار بورسعيد حديث آخر.

وحدث أن استقبل الميناء عام ١٨٦١م. نحو ١٣٥ سفينة، فأنشئت ثلاثة أحواض داخلية على الضفة الغربية للقناة لتستقبل أعداد السفن المتزايدة، واكتملت هذه الأحواض الثلاثة سنة ١٨٧٠م. وهى أحواض: التجارة، الترسانة، وشريف . وخصص الحوض الأول لرسو القوارب الصغيرة وبلغ طوله ٢٠٠ متر وعرضه ٢٠٠ متراً وعمقه ١٦ متراً وخصص لمهمات الشركة وبه مرسى المعدية التى تربط بورسعيد ببورفؤاد وكان الركوب فيها مجاناً لغاية ١٩٣٧م. ثم قررت الشركة تحصيل بضعة مليمات من كل راكب نظير هذه التعدية وعلى أرصفة هذا الحوض أقيمت دار الجمرك ودار بوليس الميناء وفى الجهة الأخرى مبنى إدارة شركة القنال، وسوف أحدثك عنه إن شاء الله ؛ والرصيف الثانى طوله ٣٥٠ متراً وعرضه ١٧٥ متراً وعمق مياهه ١٦ متراً وبه كثير من المراسى والسقالات والمواعين والكراكات وبه كثير من المراسى والسقالات والمواعين والكراكات، وعلى ضفته سراى استراحة ضباط البحرية الإنجليزية النى.إى هاوس واستراحة شركة القنال ومنزل باشمهندس شركة القنال ؛ أما حوض شريف فطوله ٤٣٥ متراً وعرضة ٢٩٠ متراً تقريباً ومساحته حوالى ثلاثين فداناً وعمقه ١٦ متراً وخصص لرسو السفن التجارية الضخمة، وعلى أرصفته مخازن الاستيداع ووابور لتبريد اللحوم الخاص بالجيش الإنجليزى .

ومع ازدياد النشاط فى الميناء أنشئت أرصفة أخرى منها رصيف للفحم وآخر للمازوت والبترول. وأنشئ حوض عباس حلمى بطول ٨٠٠ مترا وعرض ١٥٠ متراً وعمق ١٦ متراً؛ وقد قامت على أرصفته مخازن الفحم والمازوت ومستودعات شركات الغاز ومحطات البنزين ونقطة تموين السفن بالمياه العذبة(٧٨) .

أما الأحواض الخارجية فأهمها الحوض الخارجي للملتهبات وطوله حوالى ٩٠٠ مترا وعرضه حوالى ٧٠٠ مترا وعمق مياهه كان أيضاً ١٦ متراً ومسطحه حوالى ١٥٠ فداناً وعلى أرصفته كان المنار الخشبى القديم وورشة الأحجار الصناعية . ويليه الحوض العمومى لورش ومخازن شركة قناة السويس وطوله ٦٠٠ مترا وعرضة ٣٧٥ متراً وعلى أرصفته ورشة تصليح الكراكات وورش ومخازن الشركة وبه حوض تصليح المراكب وبه الحوض الجاف ومستودعات الأسمنت ومخزن الجير ورصيف لتخزين مهمات الكراكات واللنشات ومخازن أدوات الكهرباء والزلاقات والدينامو ..الخ . ويلى ذلك حوض إسماعيل وأحواض مواعين الفحم (٧٩) .

ولكى تتمكن يا عزيزى من تكوين صورة شبه كاملة للميناء وقتها، ولتقف على مدى ما

كانت تمثله مشكلة رسو السفن وتفريقها من أهمية فإننى أذكر لك أنه تقرر فى سنة ١٨٦٠م. إنشاء جزيرة .. نعم جزيرة .. جزيرة بعرض خمسة أمتار وعمق نصف المتر وطول يبلغ نحو ستين متراً وتمتد من الساحل فى خط مستقيم نحو البحيرة .

ولم يكن الهدف من إنشاء هذه الجزيرة مجرد حماية السفن وتفريغها، وإنما أيضاً استخدامها كمدخل للثغر واستغلالها كمستودع للبضائع . وعلى الرغم من أن من أن قرار إنشاء هذه الجزيرة يعود إلى سنة ١٨٦٠م. فإن الإقدام على إنشائها كان فى مارس ١٨٦٣م. واستمر حتى سبتمبر من نفس العام حيث أصبحت جاهزة لاستقبال السفن(٨٠).

ويدهشنى أن أحداً ما عاد يذكر الجزر التى كانت قائمة وسط الميناء، على الرغم من أنها لم تُزل إلا فى وقت قريب . وكنتُ وأبناء جيلى نمر بها عند التوجه إلى بورفؤاد أو عند العودة منها. وكانت تستخدم كمراس أو كمحطات للإصلاح وأماكن للورش والمخازن، وكانت لها أرقام ووظائف.

فالجزيرة رقم (١) البحرية والجزيرة رقم (١) القبلية بها مراسى شركة قناة المنزلة والملاحات ومخازن الفحم ومخازن اللنشات وأندية التجديف والحمامات البحرية ؛ والجزيرة رقم (٢) بها زلاقات لتصليح الفلايك وورش شركة بورسعيد ؛ والجزيرة رقم (٣) بها ورش تصليح صالات المياه العذبة لتموين السفن وتصليح الفلايك وكثير من المراسى والزلاقات ؛ والجزيرة رقم (٤) بها كثير من مخازن الفحم ومخازن البضائع والورش الميكانيكية ؛ والجزيرة رقم (٥) بها أيضاً مخازن للفحم بالإضافة إلى جزيرة الشنتبيه القديمة التى كانت تستخدم كورشة للأحجار الصناعية، واستخدمت فيما بعد لرسو الفلايك، وكانت بها زلاقات ومخازن لأدوات المراسى(٨١).

غير أنها أزيلت فى النصف الثانى من القرن العشرين بغرض توسيع الميناء وتيسيير مرور قوافل السفن وعبور المعديات من وإلى بورسعيد وبورفؤاد.

واستلزم الأمر حفر قناة بطول ٢١٠٠ متر وبعمق نحو نصف المتر وبعرض خمسة أمتار لتصل بين منشآت الميناء وبين بحيرة المنزلة وذلك لتيسير نقل مياه الشرب ومواد التموين والبناء إلى المدينة مباشرة بواسطة القوارب والصنادل. ولم يكن يفصل هذه القناة عن البحر سوى ٦٠متراً.

وفى سنة ١٨٦٠م. تم حفر قناة بعرض يتراوح بين ١١ و١٢ متراً وبعمق ١,٥ المتر واتصلت هذه القناة سنة ١٨٦٢م. بالبحر لتتمكن الوحدات البحرية التى يتم تفريغ السفن البخارية بها من الاحتماء بالبحيرة .

وفى سنة ١٨٦٥م. تم الاهتمام بقناة تسمح للسفن الصغيرة بالدخول إلى المدينة وعرفت هذه القناة بقناة المدخل أو القنال الداخلى . وكان عرضها ٧٠ متراً وعمقها ٢,٥ المتر، واتصلت ببحيرة المنزلة وبقناة السويس عن طريق ممر الرسوة المائى . وظلت هذه القناة قائمة حتى تحولت المدينة وأصبحت مدينة حرة اقتصادياً، حيث أدت الطفرات العمرانية إلى ردمها؛ وكانت قد أقيمت على ضفتيها ورش لتقطيع الأخشاب ولصناعة سفن الصيد والوحدات العائمة صغيرة ومتوسطة الحجم وكذا أقيمت منشآت خدمات صيانة السفن، فضلاً عن استيعابها للمؤن ومواد البناء التى كانت ترد إلى المدينة.

فى مايو من سنة ١٨٦٥م. بُدئ فى اتخاذ إجراءات الحجر الصحى بهدف الوقاية من الأمراض والأوبئة التى تحملها السفن القادمة من الخارج وتحصيل العوايد عليها . وكانت بورسعيد قد ابتليت بوباء الكوليرا فى ساحات الحفر فى صيف هذا العام، كما سبق أن أخبرتك، وقَدِم هذا الوباء من الهند عن طريق الحجاج مما أدى إلى هرب الكثير من الأجانب من سكان الإسماعيلية والزقازيق إلى بورسعيد فانتشر الوباء بها وتزايدت أعداد الوفيات. ومنذ سنة ١٨٦٧م. أُخذ بنظام تطعيم الأطفال من الأجانب والمصريين ضد هذا الوباء، ومع هذا انتشر هذا الوباء ببورسعيد مرة أخرى لاسيما بقرية العرب سنة ١٨٦٨م.(٨٢) .

ولم تكن هناك أماكن مناسبة لعزل الأشخاص والبضائع والمواشى . وأمكن بعد لأى تخصيص بعض الخيام بالبر الشرقى لإقامة الحجاج بها مدة الحجر الصحى وبموافقة شركة القناة. ولم يتم إنشاء تخشيبة للمواشى إلا فى سنة ١٨٧١م. ومخزن البضائع فى سنة ١٨٧٦م.، وكان على إدارة صحة بورسعيد مواجهة تحديات الجزارين الأجانب على محل الحجر الصحى للمواشى، حيث كانوا يأخذون مواشيهم دون إتمام إجراءات الحجر الصحى (٨٣).

ولم يتم إنشاء مبنى خاص للحجر الصحى لعزل المرضى والعناية بهم، لاسيما الأجانب، إلا عام ١٩٠١م.، واختير موقعه عند الكيلو ٤,٥ من الضفة الشرقية للقناة، واشتهر باسمه الأجنبى (الكارنتينا).

ظل ميناء بورسعيد منذ افتتاح القناة، ولعدة سنوات، بدون دائرة جمركية ؛ بل لم يكن هناك سور يفصل الميناء عن المدينة مما سهل الدخول والخروج إلى البلاد ومنها بدون رقيب، وقد أدى هذا الوضع إلى دخول العديد من الأجانب إلى مصر بغير طرق مشروعة واستقرارهم فى بورسعيد.

وبمرور الوقت ظهرت فكرة إنشاء المنطقة الجمركية وبمقتضى هذه الفكرة تم إنشاء

سور من الخشب، بدا كأنه سور رمزى، وكان منخفضاً، ولم تكن له أبواب. وفى سنة ١٨٩١م. استبدل سور من الحديد بالسور الخشبى . ومع هذا لم يكن من السهل على العاملين بجمرك بورسعيد مباشرة أعمالهم، حيث تمتع الأجانب بامتيازات أتاحت لهم التهرب من سداد الرسوم الجمركية.

وقامت شركة القناة بإدخال وارداتها غير المعفاة من الجمارك ضمن طرود المهمات المعفاة. ومع أنه قد تم أخذ التعهدات على مشايخ المطرية وأشتوم الجميل بعدم الإفراج عن البضائع المهربة، والتنبيه على وكلاء قناصل الدول الأجنبية ببورسعيد بمنع رعاياهم من التهرب من الجمرك أو تهريب البضائع، فإن التهريب وتجارة الممنوعات ظلا منتشرين بالمدينة . والأدهى أن دى ليسبس - على الرغم من عدة اتفاقات - أعلن قناصل الدول الأجنبية بأن جميع الواردات إلى بورسعيد هى حق الشركة وليس للحكومة أى حق فيها، وعليهم التنبيه على رعاياهم بعدم دفع أيه رسوم على بضائعهم إلى الحكومة المصرية(٨٤).

وعلى الرغم من اتفاقات تالية مع الحكومة المصرية تقضى بإخضاع جميع البضائع الواردة للرسوم الجمركية فقد امتنعت شركات " وُرمُس "، " بازان "، " ولس " وشركة الفحم عن دفع الرسوم الجمركية على الفحم الحجرى (٨٥) .

وحينما طلبت محافظة بورسعيد من وكلاء قناصل الدول الأجنبية إقناع رعاياهم بضرورة التعاون وسداد الجمارك رفض وكيلا انجلترا وفرنسا القيام بهذه المهمة (٨٦).

ومنذ افتتاح القناة ظل النزول إلى أرصفة الميناء من السفن الراسية يقتضى استخدام الفلايك إلى أن قامت الشركة فى أبريل من سنة ١٩٢٧م. بتشغيل كبارى عائمة للقيام بذات الوظيفة التى كانت تقوم بها الفلايك(٨٧)، وهى عبارة عن مجموعة من البراطيم أو المجوفات الحديدية شبه اسطوانية ومغلقة من كل الجوانب على ما بها من هواء فتعوم، ومن ثم تربط إلى بعضها البعض حتى تصل بين سلم السفينة ورصيف الميناء. وهذه الكبارى كانت دائمة الترجرج لمجرد أن لنشاً أو أية عائمة ذات محرك تمر فى الميناء، مما كان يؤدى إلى تأرجح الماشين فوقه.

هوامش الباب الثانى

الفصل الأول:

(١) د. زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد: تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.، ص ١٥ .

(٢) جون مارلو، تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية ١٧٩٨م إلى الاحتلال البريطانى ١٨٨٢م.، ترجمة د. عبد العزيز رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م. ص ٥٦ .

(٣) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص١٦ .

(٤) جون مارلون، مرجع سبق ذكره ،ص٥٨-٥٩ .

(٥) عبد الرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، الجزء الأول، الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م. ص٥٩ .

(٦) المرجع السابق، ص٥٩ .

(٧) جون مارلو، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠-٦١ .

(٨) محمود صالح منسى، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفردينان دى ليسبس، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧١م.، ص١١٢-١١٣ .

(٩) روبير سوليه، مصر: ولع فرنسى، ترجمة لطيف فرج، دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٩٩م.، ص ١٢٤ .

(١٠) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٦ .

(١١) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٤- ١٢٥ .

(١٢) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٦ .

(١٣) عبد الرحمن الرافعى، مرجع سبق ذكره، ص ٦١ .

(١٤) المرجع السابق، ص ٦١، نقلاً عن أصول قناة السويس ص ١٥ .

(١٥) محمد الشافعى و محمد يوسف، قناة السويس : ملحمة شعب.. تاريخ أمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٣١، ص ٤١ .

(١٦) المرجع السابق، ص ٣١ .

(١٧) محمود صالح منسى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٥ - ٢٢٨ .

(١٨) المرجع السابق، ص ٣٠٤ - ٣١١ .

(١٩) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٥ .

(٢٠) عبد الرحمن الرافعى، مرجع سبق ذكره، ص ٦٣ .

(٢١) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٣ .

(٢٢) عبد الرحمن الرافعى، مرجع سبق ذكره، ص٦٦ .

(٢٣) المرجع السابق .

(٢٤) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٠ .

(٢٥) ديفيد لاندز، بنوك وباشاوات، ترجمة د. عبد العظيم أنيس، كتاب الأهالي، حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، القاهرة، العدد السابع، ١٩٨٥م.، ص ١٦٢ .

(٢٦) المرجع السابق.

(٢٧) المرجع السابق، ص ١٦٣ .

(٢٨) المرجع السابق.

(٢٩) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٤١ - ١٤٢، نقلاً عن:

Nubar Pacha, Memoires, introduction et notes de Mirrit Boutros - Ghali, Bayreuth, 1983.

(٣٠) المرجع السابق، ص ١٤٤ نقلاً عن:

Mohammed Sabry, L'empire Egyptien saus Ismail et L'ingerence anglo francaise, Paris, Gauthier 1933.

(٣١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى :

- د. مصطفى الحفناوى، قصة قناة السويس، الطبعة الثانية، ذاكرة الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- حسن رفعت عبد الجواد، ٢٥ عاماً إرادة وإدارة مصرية، دار الجامعى العربى، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص ١٧ .

(٣٢) هنرى لورنس، المملكة المستحيلة : فرنسا وتكوين العالم العربى الحديث، ترجمة بشير السباعى، سينا للنشر والانتشار العربى، القاهرة وبيروت، ١٩٧٧م، ص ٦٩ .

الفصل الثانى:

(٣٣) عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، ط٢، تاريخ المصريين، العدد رقم ٢٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٥١ .

(٣٤) زين العابدين شمس الدين نجم ،مرجع سبق ذكره، ص ٢١ نقلاً عن:

Reymond, Paul, Le Port de Port-Said, Le Caire, 1950, P.33-34.

(٣٥) عبد الرحمن الرافعى، مرجع سبق ذكره، ص ٦٧ .

(٣٦) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦ .

(٣٧) المرجع السابق ،ص ٢٧ نقلاً عن:

La cour, Raoul, L`Egypte, Paris,1871 .p 458-60.

(٣٨) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره ،ص ١٥٨ .

(٣٩) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢ .

(٤٠) ضياء الدين حسن القاضى، موسوعة تاريخ بورسعيد، الجزء الأول، المستقبل للطباعة، بورسعيد، ١٩٩٧، ص ٣٩، نقلاً عن: أمين سامى باشا، تقويم النيل: عهد محمد سعيد، ص ٢٥٩ . (النص منقول بحذافيره بما به من أخطاء لغوية وركاكة).

(٤١) المرجع السابق.

(٤٢) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ص ٥٦ - ٥٧، نقلاً عن:

Fitzgerald Percy: The Great Canal at Suez. Its Political, Engineering and Financial History, 2 vols, London, 1876, t, I, p. 171.

(43)زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٣-٢٤ .

(٤٤) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ص ٦٤-٦٥، نقلاً عن:

Voisin Bey: Le Canal de Suze, t. 7 vols, Paris, 1902-1906, VI, pp. 149-150.

(٤٥) ضياء الدين حسن القاضى، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢ .

(٤٦) المرجع السابق ،ص ٣٨، نقلاً عن:

أمين سامى باشا، تقويم النيل، مجلد عباس الأول ومحمد سعيد ص ٣٢٦ .

(٤٧) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩ .

(٤٨) محمد الشافعى ومحمد يوسف، مرجع سبق ذكره، ص٥٣ .

(٤٩) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٧ .

(٥٠) فتحى رزق، قناة السويس الموقع والتاريخ، دار النصر للطباعة الإسلامية، شبرا مصر، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٥٨ .

(٥١) زين العابدين، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٩-٣٠ .

(٥٢) المرجع السابق، ص ٤٠، نقلاً عن:

Ritt , Oliver, Histoire de Suez , Paris, 1869 , P.225 Fol , W.Notice Sur L,etat actuel des travaux de Lsthme de suez , Geneve ,1,1863,p.15.

(٥٣) المرجع السابق، ص ٤٢ .

(٥٤) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ,٢٧١

(٥٥) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٠ .

(٥٦) عبد العزيز الشناوى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٩ .

(٥٧) المرجع السابق، ص ٢٧٧ نقلاً عن:

Ritt, Oliver, Op. Cit.p. 320.

(٥٨) محمد الشافعى ومحمد يوسف، مرجع سبق ذكره، ص ,٥٧

(٥٩) عبد الرحمن الرافعى، مرجع سبق ذكره، ص ,٦٩

(٦٠) المرجع السابق، عصر إسماعيل، ص ,٩٤

(٦١) ديفيد لاندز، مرجع سبق ذكره، ص ص١٦٥- ,١٦٦

(٦٢) المرجع السابق، ص ,١٦٦

(٦٣) روبيرسوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٣، نقلاً

Nubar Pasha, Memoires, Introduction et Notes de Mirrit Boutros-Ghabli, Beyrouth, 1983

(٦٤) عبد الرحمن الرافعى، مرجع سبق ذكره، ص ٩٥ .

(٦٥) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:

- وزارة الخارجية، جمهورية مصر، الكتاب الأبيض فى تأميم شركة قناة السويس، المطبعة الأميرية،

القاهرة، ١٢ أغسطس سنة ١٩٥٦ م. ص٦ (بالكتاب مجموعة من الوثائق الهامة عن قناة السويس منها: فرمان الامتياز الأول الصادر من القاهرة فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤م.، فرمان الامتياز الثانة بشأن شروط إنشاء واستغلال قناة السويس البحرية الكبيرة وملحقاتها لبصادر بالإسكندرية فى ٥ يناير ١٨٥٦م. اتفاقية ٢٢ فبراير ١٨٦٦م. المحددة للشروط النهائية التى صدق عليها الباب العالى، اتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨م. المحددة للوضع النهائى للقناة، القرار الجمهورى رقم ٢٨٥ الصادر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦م. بتأميم الشركة العالمية لقناة السويش البحرية ومذكرته الإيضاحية) .

- عبد الرحمن الرافعى، مرجع سبق ذكره، ص ٩٥ – ٩٦ .

(٦٦) المرجع السابق، ص٩٩ .

الفصل الثالث:

(٦٧) المرجع السابق.

(٦٨) روبير سوليه، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٧ .

(٦٩) المرجع السابق، ص ص ١٨٩–١٩٠ .

(٧٠) مصطفى محمد البغدادى، مدينة بورسعيد: دراسة فى جغرافية المدن، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٥م.، ص ٢٧ نقلاً عن:

Reymond , p, " le port de port-said ", le caire, 1950 pp. 49-50.

(٧١) المرجع السابق، ص ,٣١

(٧٢) فؤاد فرج، المدن المصرية وتطوراتها مع العصور، مجلد ٢، منطقة قناة السويس، مكتبة و مطبعة المعارف، القاهرة، بدون تاريخ نشر (وإن كانت بداخله إشارة إلى أن الكتاب حرر فى عهد محمد عزيز أباظة محافظ القنال، وباعتبار أن محمد عزيز أباظة بك (باشا فيما بعد) عين محافظاً للقناة فى يناير ١٩٤٢م.ونقل مديراً لأسيوط فى ديسمبر ١٩٤٣م.، وبالرجوع إلى ما ورد فى الكتاب من مواد وأحداث فإنه يُرجح أن يكون تاريخ الإصدار ١٩٤٢م.)، ص ,١٤١ (ويود الباحث أن يشير كذلك إلى أن مؤلف هذا المرجع الهام قد ذكر فى الصفحة رقم ٢١٨ منه أن طول هذا الحاجز هو ٢٥٠٠متر).

(٧٣) المرجع السابق . (ويشير الباحث إلى أن المؤلف عاد وذكر أن طول هذا الحاجز هو ١٩٠٠متر، ص ٢١٨).

(٧٤) المرجع السابق .

(٧٥) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠ .

(٧٦) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ١٤١ .

(٧٧) مصطفى محمد البغدادى، مرجع سبق ذكره، هامش ص٣٣، نقلاً عن: على مبارك، الخطط التوفيقية ص٢٩ ـ ٣٠ .

(٧٨) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٧٩) المرجع السابق، ص ٢٢٨ .

(٨٠) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨، نقلاً عن:

Voision, Pey, op. cit., p162.

(٨١) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٨ .

(٨٢) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٠٧– ١٠٨ .

(٨٣) المرجع السابق، ص ١٣٩ .
(٨٤) المرجع السابق، ص ١٤٢ .
(٨٥) المرجع السابق، ص ١٤٣ .
(٨٦) المرجع السابق، ص١٤٤ .
(٨٧) ضياء الدين حسن القاضي، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠ .
ما لم يرد بشأنه هامش فالعمدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة وخبرته بالموضوع.

الباب الثالث



الفصل الأول

من فوق الفنار



سأريك مشهداً قلما رآه من أراده.

سأصعد بكَ أعلى مكان فى بورسعيد القديمة، والحديثة إلى زمن قريب، وأضع بورسعيد كلها تحت ناظريك ،إلا من بعض أماكن أخفتها العمائر العالية التى أقيمت هنا أو هناك. قد تحجب عنك هذه العمائر قليلاً من المناظر، لكنها على أية حال مناظر قليلة جداً، لا تكاد تؤثر على المشهد برمته.

ما دمتَ قد رغبتَ فى رؤية المشهد الذى وعدتك به فهيا بنا.

سنرتقى سلماً حلزونياً ارتفاعه ١٨٥ قدماً أو ما يعادل ٥٦ متراً تقريباً داخل عمود خرسانى ثمانى الأوجه . السلم رأسى وبسطاته ليست بالاتساع المرجو،هذا صحيح، لكن الصحيح أيضاً أنَّ هذه البسطات تتيح لنا التوقف إذا ما أتعبنا الصعود ، توقفاً يسيراً ريثما نلتقط أنفاسنا ونتصالح مع الجاذبية الأرضية إذا ما وهنت منا قوانا.

أنتَ قارئ ذكى . لقد عرفتَ المكان الذى أدعوك للصعود إلى قمته وقلتَ هو الفنار. نعم هو الفنار، أو " الفنيار" بلغة الشعبيين من أهل البلد، وإنْ كنتَ مهتماً ببلاغة اللغة ورصانتها فهو المنار. دعنا نستخدم اللفظة الوسط، اللفظة الشائعة فى السواحل والموانئ ودنيا الملاحة البحرية، الفنار.

إنه الفنار الذى سبق أن أخبرتك أن تشغيله تم سنة١٨٧٠م، لكن هناك من يقول إن

تشغيله بدأ مع افتتاح القناة سنة ١٨٦٩م. وأنَّ بناءه كانْ قد تم سنة ١٨٦٨م(١). هاأنتذا تراه الآن معطلاً. نعم نحن بالنهار، لكنه فى الحقيقة معطل والدليل هذه اللافتة التى تصدرت واجهته المطلة على القناة . اقرأ المكتوب عليها.. " الهيئة المصرية للسلامة البحرية". هذا ما فعلت مصلحة الموانى والمنائر بأشهر فنار فى حوض البحر الأبيض المتوسط. فى البداية كان لونه رمادياً. أظن إننى قلت لك هذا، ثم طليت أوجهه باللونين الأبيض والأسود فى أشكال مستطيلة، ثم أصبح جزء أصفر اللون فاقعاً فيما ظل الجزء الآخر محتفظاً بمستطيلاته السوداء والبيضاء. أيا ما كان الأمر، وحتى لا يستغرقنا الحديث عن وظائف الألوان وتأثيراتها الجمالية ويشغلنا عما انتوينا، هيا بنا نصعد إلى قمة الفنيار .. أقصد الفنار.

أرأيت كم كان سهلاً صعودنا الحلزونى؟ .. وقفات قليلة وقفناها وها نحن فى الأعلى غير مكروشى الأنفاس. قبل أن نتطلع للبيوت والشوارع الموزعة أسفل منا تطلع معى إلى الغرفة الزجاجية التى هى علامة على هذا الفنار وعلى أغلب فنارات الدنيا . انظر، إنها خالية الآن. فيما مضى كان بداخلها المصباح والعدسات التى كانت تساعد على تكبير الأشعة وترسلها إلى أبعد المسافات. فى البداية كانت تلك العدسات تعمل بالكهرباء، ثم حدث سنة ١٩١٥م أن استبدل غاز الاستصباح بها، والسبب هو الانقطاع المتكرر للكهرباء، ثم ما لبثت أن أعيدت إليها مرة أخرى ؛ لكن العمائر التى ارتفعت أدت إلى إطفاء نور المصباح واقتلاع العدسات ونقلها إلى الفنار الحديدى القمىء الذى أقيم فى الفراغ الذى كان متاحاً قبالة الاستاد الرياضى فى مواجهة البحر. ولأن بقاء الحال من المحال فما لبثت مبانى قرية الكنارى السياحية الناشئة حديثاً أن سَدَّت هذا الفراغ وحاصرت الفنار الحديدى حتى أصبح وجوده وسط مرتادى القرية مشكلة يبحثون لها عن حل جمالى ليتفق ونمط البناء فى القرية السياحية . كما أن استغلال الفنيار.. اقصد الفنار.. الذى نقف على قمته الآن أصبح مشكلة أيضاً، وأقصى ما فكر فيه مسئولو مصلحة الموانى والمنائر هو تسليم واجهته للهيئة المصرية للسلامة البحرية، وتحويل المبانى المحيطة بقاعدته إلى مكاتب وإيواءات لسكن ونوم موظفيها تخيل !! .

تخيل أن يتحول هذا المكان الأثرى عظيم الأهمية، الذى ارتبط بتاريخ المدينة وشهد أمجادها وانكساراتها، إلى ثكنة أقصى وظائفها إيواء مجموعة من الموظفين سواء فى مكاتب أو غرفٍ للنوم!!

ولقد بُحَّ صوتى يا عزيزى، كما بُحَّت أصوات آخرين، من أجل تحويل الفنار ومبانيه إلى مُتحف لقناة السويس أو للموانئ أو للملاحة أو حتى للكائنات والأحياء البحرية. لكن ما

من مستجيب، وأخشى ما أخشاه أن تستيقظ المدينة ذات يوم على فاجعة إزالة وهدم الفنار تحت أى دعوى من الدعاوى، وطرح موقعه فى المزاد لتُبْنَى عليه مجموعة من المكعبات الخرسانية يحتلها علية القوم وأثرياؤهم.

لنعد إلى وقفتنا فوق قمة فنار ١٨٧٠م. أو ١٨٦٩م.

هل ترى هذا الصارى وتلك الكرة السوداء التى تتوسطه ؟.. هذه الكرة كانت تستخدم لتحديد الوقت، فكانت تتحرك كل أربع ساعات، وتسقط مرة فى الساعة الثامنة صباحاً وثانية عند الظهر تماماً وثالثة فى الساعة الرابعة بعد الظهر وهكذا .وقيل أنها كانت متصلة اتصالاً كهربائياً بمرصد حلوان(٢). وإنْ أردتَ معلومات أكثر عن موقع هذا الفنار وموقعنا الآن فوقه فهو يقع على خط عرض ٥٠ ١٥ ٣١° شمالاً و ٤٢ ١٨ ٣٢° شرقاً، ودورة الضوء كانت تستمر ١٠ ثوان، وكان ضوؤه يُرى على بعد ٢٠ميلاً عندما يكون الجو صافياً، وقوة هذا الضوء كانت مليون شمعة(٣).

ودخل هذا الفنار ثقافة الوطنيين الشعبية، لتحتويه هذه الثقافة وتحوله إلى مفردة من مفردتها. وصور هذا الاحتواء متعددة.

أولاها أنه تحول فى لغة المخاطبة اليومية لديهم إلى فنيار. لماذا الفنيار وليس الفنار.. لا أدرى .. لعلها عادة لسانية.. لكنها ليست متكررة فيمكن رصدها وإطلاق وصف العادة عليها.. وأصْدقكَ القول حاولتُ البحث عن نطق شبيه فى مفردات أخرى فلم أجد سوى مفردة النورس.. طائر النورس الذى حللتَ فى هيئته أول هذا الكتاب.. الشعبيون فى بورسعيد ينطقون اسمه " نيرس " وعدا هاتين المفردتين " الفنيار " و" النيرس " لم أجد.. وأتمنى لو أن المختصين فى اللهجات واللسانيات اهتموا بتحليل سبب هذا التحريف اللسانى .

وثانيتها أنه فى جلسات الفحش والفجور يوصف هذا الفنار الذى أصبح فنياراً بأنه"... العُوُن "، فإذا كان العُوُن فى الثقافة الشعبية هو المارد العملاق الذى يخرج من مصباح علاء الدين عند حكه فإن الكلمة المحذوفة تأدباً منى هى كلمة فاحشة يوصف بها عضو الذكورة لدى هذا العُوُن، وهو تعبير شعبى جنسى فج يؤدى وظائف دلالية فى مواقف بعينها.

وثالثة هذه الصور أنه أصبح دليلاً على أوقات الرخاء التى كانت تعم المدينة، فبنوره الذى تستهتدى به السفن كانت ترتزق طوائف غير قليلة من السكان .

ورابعها أنه أصبح فى الثقافة الشعبية رمزاً للصمود ومواجهة المعتدين بأنفته وشموخه وقامته التى تتعالى على الانهزام.

ومع هذا كله، وبالإضافة إليه، تحول إلى موتيفة بارزة فيما تتغنى به الحياة الشعبية داخل المدينة؟ .. فإذا ما بدت على شخص ما إمارات الانشراح والسعادة أُشير إليه – أو أشار هو إلى نفسه– بعبارة لها مدلولها الواضح لدى أفراد الجماعة الشعبية " أصل البلية فوق "، أى أنه رائق المزاج منشرح الصدر وتبدو عليه علامات البهجة وإشارات السعادة . والبلية هى الوصف الذى أسبغته هذه الجماعة على الكرة السوداء التى تجاورنا الآن ويتم بها تعيين الوقت، وحدثتك عنها منذ قليل.

وينسج الشعبيون حكايات قد تقترب من تخوم الأسطورة عن بلورة هذا الفنار وكيف أن المحتلين سرقوها وهم ينسحبون من المدينة فى حرب ١٩٥٦م حنقاً وغضباً لأنها من الكريستال الصافى الذى ارتقى به الشعبيون إلى مستوى الألماس قيمة.

انظر إلى الأسفل، إنَّ الفنار يحتل ومرفقاته مربعاً تنظيمياً بأكمله وتحيط به أربعة شوارع . من الشرق شارع فلسطين الذى هو فرانسوا جوزيف، ومن الجنوب شارع الجبرتى، ومن الشمال شارع الطائف، ومن الغرب شارع محمد صدقى . انظر باتجاه الشرق.. هاهو الميناء أمامك، بل تحتك، يمتد من داخل البحر بين الحاجزين الحجريين اللذين كلمتك عنهما، من الشمال حيث انفساحة البحر، إلى الجنوب حيث لا نهاية للمدى.. ولاحظ أنه لا موج ولا دوامات، لا عند البوغاز ولا داخل الميناء ؛ فقط سفن من كل نوع، وفُلْك ولنشات وشمندورات وفوانيس، وعلى الضفة الشرقية منه تلوح الترسانة الحالية لهيئة قناة السويس بأحواضها العائمة والجافة وأوناشها الضخمة، وإلى الجنوب منها بيوت بورفؤاد الضاحية الأسيوية لبورسعيد الإفريقية . هذه التى تظهر أمامك.. لكن اسمح لى سنتحدث عن بورفؤاد الأسيوية فى حديث مفصل فيما بعد. ولنركز حديثنا الآن على هذه البقعة الأفريقية التى تقع فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى من القارة السوداء.

كل الكتب القديمة ذكرتْ أنَّ رصيف أو شارع أوچينى المواجه للبحر هو الحد الشمالى لبورسعيد وهذا صحيح، ومنه كانت تتفرع الشوارع الموازية للقناة – وما أقلها وقتها ـ ورصدت هذه الكتب ثلاثة شوارع منها لها أسماء أجنبية كشارع (cannebiere كانيبيير) وأطلق عليه الأهالى اسم ميدان الميناء ؛ وشارع (scierie منشر الخشب) لوجود منشر قديم فى هذا المكان . وكان يخترق شارع منشر الخشب هذا ميدان ديليسبس، الذى كان يمثل النقطة المركزية للمدينة وقتها (ميدان المنشية الحالى)، ويمتد حتى الورش ؛ والشارع الثالث هو شارع (Arsenal الأرسينال) وهو مواز للشارعين السابقين بنفس الطول والعرض(٤).

وحدثتك من قبل عن حدود المدينة التى كانت وقتها تشبه المستطيل وتمثلت هذه الحدود

فى شوارع أوچينى فى الشمال وفرنسوا چوزيف فى الشرق والترسانة فى الغرب والبحيرة فى الجنوب. هذا ما كان فى البداية الأولى، لكن سرعان ما تبدلت الأوضاع وانتشر العمران خارج هذه الحدود فى الأرض الجديدة ،التى جاءت طواعية، مثلما حدث مع طرح البحر شمالى شارع أوچينى، أو مع الأراضى التى اقتنصت اقتناصاً من بحيرة المنزلة، كما حدث غربى شارع الترسانة أو جنوبى شارع البحيرة. ولأنه لا يمكن ولا يعقل أن تُبنى شرقى شارع فرانسوا چوزيف أية عمائر لأن معنى هذا أنها ستبنى فوق مياه القناة، التى هى الأساس الأيكولوچى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى والثقافى لكل ما يمور فى هذه المنطقة، فقد امتدت يد العمران إلى المنطقة الواقعة شرقى القناة فوق الجزء المشطور من بحيرة المنزلة والمردوم بالرمال الناتجة عن الحفر.

ومن ثم فقدت هذه الشوارع الحدودية أهميتها التى كانت عليها قديماً، بالإضافة إلى أن التعريب قد نالها ـ كما سبق أن أخبرتك ـ ومن هنا اضمحل ذكراها على ألسنة أبناء المدينة باستثناء شارع واحد ضاعت أهميته الحدودية، هذا صحيح، لكن اسمه مازال يتردد على ألسنة العامة وهو شارع أوچينى وينطق بالعامية (أوچينا) فهذا الاسم يتردد ـ ما زال ـ جنباً إلى جنب الاسم الحديث الذى أطلق عليه، وهو اسم السيدة صفية زغلول المحفور فى الذاكرة الوطنية، فلو سألتَ حتى أكبر المعمرين من أبناء المدينة سناً عن أى من شوارع فرنسوا چوزيف أو الترسانة أو البحيرة أو كانيبير أو.. أو.. لما ذكره أو تعرف على موقعه، لكن اسأله عن شارع أوچينى الذى هو شارع صفية زغلول سيشير لك باتجاهه على الفور، ودلك على مبتغاك.

ولم يكن يوازى شارع أوچينى (صفية زغلول الآن) حتى سنة ١٨٧٥م أى شارع عرضه ٣٠ متراً سوى شارع واحد فقط هو شارع دى ليسبس الذى كان يبدأ من شرق المدينة ويعبر الميدان المسمى باسمه (ميدان المنشية حالياً) وينتهى بالتقائه مع نهاية شارع محمد على، الممتد من المدخل الجنوبى للمدينة من عند الرسوة حتى هذه النقطة. أما الامتداد الذى ظهر بشارع دى ليسبس مع تنامى قرية العرب والتحامها بالمدينة وتحولها إلى حى .. ذلك الامتداد الذى استمر حتى الحد الغربى للقرية التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المدينة، فقد كان يُعرف بشارع الجامع التوفيقى. وكلا الشارعين أو قسمى هذا الشارع، باسميه ديلسبس والجامع التوفيقى، دمجهما الوطنيون بتسمية واحدة هى الشارع الثلاثينى، ولمَّا أطلق عليه كله اسم سعد زغلول احتفظ له الوطنيون بالاسم الدال على عرضه، وما لبث أن ظهرت الشوارع الموازية لشارع أوچينى.. شماليه بفعل طرح البحر وجنوبيه بفعل التعمير. ومن الشوارع التى وازته من ناحية الشمال شارع عباس (محفوظ

العجرودى الآن) وشارع توفيق (أحمد عرابى الآن) وشارع كتشنر(٢٣ يوليو الآن) وكورنيش البحر(عاطف السادات الآن) وجميعها من نتاج طرح البحر ولم يكن لها أى وجود عند نشأة المدينة.

ومن الشوارع الموازية لشارع أوچينى وتقع إلى جنوبه شارع التجارة ويقع بين شارعى أوچينى وديليسبس ويمتد من شارع فرانسوا چوزيف حتى شارع محمد على. وكان يعرف بالشارع نمرة (١) على الرغم من أنه ليس أول الشوارع إنشاءً، وتغير اسمه إلى شارع الأمير فاروق ثم النهضة ليطلق عليه أخيراً اسم الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض . ومن الشمال الغربى لشارع محمد على وعبر حى العرب والمناخ حتى شارع الترسانة يمتد شارع السلطان عبد العزيز المعروف شعبياً بالشارع التجارى . وجنوبيه يمتد شارع السلطان عبد الحميد المعروف بالشارع الحميدى، على الرغم من أن اسمه الجديد هو شارع أحمد ماهر . وإلى جنوبه، بدءاً من منطقة الجمارك حتى شارع محمد على يمتد شارع مصطفى كامل ؛ ثم ابتداء من غرب شارع محمد على حتى شارع الأمين يمتد شارع كسرى (محمد فريد الآن). وشارع السواحل ومازال محتفظاً باسمه . وشارع البحيرة الذى أصبح شارع ١٠٠ ثم (المشير أحمد إسماعيل الآن).

ومن الشوارع الحديثة: الناصر، عادل الشربينى، عبد الحليم محمود، عبد الرحمن شكرى، الزعيم مصطفى كامل وهكذا تزايدت الشوارع الموازية لشارع أوجينى شمالاً وجنوباً بازدياد رقع العمران إما على الأرض التى أهداها البحر للمدينة شمالاً وإما انتزاعاً من جسم بحيرة المنزلة جنوباً.

أما الشوارع التى تتوازى مع قناة السويس وتتعامد أو تتقاطع مع شارع أوچينى فأولها أسفلنا تماماً، وسبق أن حدثتك عنه مراراً، هو شارع فرانسوا جوزيف (فلسطين حالياً)، فاتركه الآن وول وجهك شطر الغرب لأريك أهم الشوارع الموازية له. ما دمنا ننظر الآن باتجاه الغرب فأسفل منا شارع محمود صدقى (أمريكا سابقاً) . وهاك على بعد مسافة قصيرة منا شارع السلطان عثمان الذى تغير اسمه إلى شارع فؤاد الأول (الجمهورية حالياً) . وشارع القسطنطينية (الجيش حالياً)، ثم شارع منشر الخشب الذى أصبح (رمسيس حالياً)، ثم شارع فرعون الذى أصبح (الشهيد محمود طه عطعوط حالياً)، ثم شارعا إسماعيل والأهرام اللذان أصبحا (جمال عبد الناصر حالياً) ،ثم شارع المغرب الذى أصبح (شارع الشهيد نقيب محمود محمد أبو راية)، ثم شارع المشرق ومازال محتفظاً باسمه، ثم شارع أفريقيا الذى أصبح شارع (مختار محمود سعيد) . فى هذا الشارع عاش الشاعر الكبير عبد الرحمن شكرى الذى مثل بشعره ونثره قاعدة مثلث

المدرسة الديوانية، وهناك شارع محمد على، الذى كان ينتهى عند التقائه بشارع أوچينى، أما امتداده باتجاه الشمال فى منطقة طرح البحر فكان يسمى بشارع المحروسة، أى أنه شأنه شأن الشارع الثلاثينى وشوارع كثيرة كان يتكون من قسمين لكل منها اسم مختلف هما محمد على والمحروسة، وقد وحد المجلس البلدى اسم الشارع فجعله كله باسم محمد على، وبعد حرب ١٩٥٦ أطلق عليه اسم شارع الشهداء لكثرة من سقط فيه من شهداء إبان هذه الحرب.

مد بصرك إلى ما بعد هذا الشارع سترى المبانى، بحكم المسافة واتساع الرؤية، أكثر تلاصقاً ؛ واعتباراً من الحد الغربى لهذا الشارع .. هناك .. يبدأ حى العرب كما سبق أن أخبرتك، ذلك الحى الذى كان مجرد قرية ويبعد عن هذا الشارع بنحو ٥٠٠ متر. ومن أهم شوارعه الوفائية، وقد تحول اسمه إلى نبيل منصور، ذلك الصبى الشهيد الذى قتله الإنجليز، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشر مَن عمره، بعدما أحرق خيام معسكرهم فى ١٦ أكتوبر١٩٥١م.، وكان يسكن فى هذا الشارع . وإلى غربى هذا الشارع شارع دمنهور فأبو الحسن فالمقدس فالروضة (شهداء القناة حالياً) فالغورى فالدقهلية فالجيزة فالمنيا، والشارع الأخير يمثل نهاية حى العرب الإدارية ليبدأ من حده الغربى حى المناخ وتتوازى معه شوارع هذا الحى، ومن أهمها: أسوان وبنى سويف ونبيه وعدلى والترسانة الذى أصبح الأمين ثم (محمد سرحان حالياً) هناك حيث، يبدأ نمط العمارة فى التغير، فتظهر المكعبات الإسمنتية التى أصبحت علامة على ما يطلق عليه المساكن الشعبية . ومن الشوارع المستحدثة شارع ستالنجراد (فولجراد حالياً) و٢٣ ديسمبر وعبد الهادى الحديدى والشارع الأخير يمثل نهاية حى المناخ الإدارية ليبدأ من حده الغربى حى الزهور، وهو أحد الأحياء المستحدثة بالمدينة، ويمتد غرباً ليستوعب بعض تجمعات الصيادين فى القرى الملحقة بالمدينة ومنها: الجرابعة والمناصرة والديبة، ويطل فى امتداده غرباً حتى حدود دمياط الشرقية، ويلتقى جنوباً بالحد الغربى لحى الضواحى، والحد الشمالى لحى الجنوب، الحى الأحدث بالمدينة، الذى أنشئ لإدارة شئون المناطق التى ضُمَّت إلى بورسعيد من محافظتى الإسماعيلية والشرقية والدقهلية.

لنعد إلى حيث نقف .

بالطبع ما تقوله صحيح.. فما ذكرتُ لك من الأسماء إلا أقل القليل فالشوارع من الكثرة بحيث يستحيل عرضها فى الدقائق المتاحة لنا للوقوف فى مكاننا المرتفع هذا، ثم هى مشكلة الزهايمر وأفعال الخذلان التى تأتيها ذاكرة شيخ مثلى . ويريحنى فى هذا الصدد أنْ أحيلك - إنْ طلبتَ المزيد - إلى المراجع التى اهتمت بأسماء شوارع المدينة. صحيح أنها

قليلة، لكنها تفى بالغرض، لاسيما فيما يتعلق بما طواه التاريخ . ثم إننى بهذا أوفر بعض الوقت لأحدثك عن أمور أراك متشوقاً لمعرفتها.

ولعلك قد رأيتَ رأى العين الدقة الهندسية فى تقسيم المدينة القديمة، وكيف أن شوارعها تتصف بالتوازى والتقاطع والاتساع . أقول المدينة القديمة، أما ما أضيف إليها من المساكن والأحياء الجديدة فللأسف فلسوف يتغير النسق، فالشوارع التى تفصل أو تربط بين شوارع المناطق والأحياء الجديدة لم تتأسس بسيمترية شوارع المدينة القديمة. فبدت نشازاً غير مستملح، فى حين أن النسق التنظيمى القديم كان ذا هندسة واضحة الدقة والصرامة.

انظر مثلاً إلى شوارع حى العرب ودقق النظر، ستجد التقسيم البديع للمربعات السكنية، فثمة شرايين وأوردة تتقاطع طولياً وعرضياً على الترتيب التالى: شارع عرضه ١٥ متراً فشارع عرضه ١٠ أمتار ثم شارع عرضه ١٥ متراً فشارع عرضه ١٠ أمتار وهكذا، وبين كل شارع وآخر حارات عرضها أربعة أمتار. ويتميز شارع سعد زغلول بعرضه الذى يبلغ ثلاثين متراً ومن ثم اكتسب اسمه الشعبى (الثلاثينى)، ونتيجة لهذا التراتب الدقيق تخلقت مربعات سكنية صحية مسكونة بضوء الشمس ويتخللها هواء البحر ويسهل الاستدلال عليها فيكفى أنْ تذكر اسمى الشارعين أو الشارع والحارة المتقاطعين لتستدل على العقار الذى تبغيه. وسهَّل هذا كثيراً أعمال رجال البريد والسائقين والحنطفرجية ورجال الإطفاء والأمن ومحصلى العوائد وشيوخ الحارة وغيرهم من رجال البلدية، إضافة إلى الأغراب والوافدين .

هذا التخطيط التنظيمى الدقيق للحى تم سنة ١٨٦٩م، فى ظروف الحريق الهائل الذى شب بالقرية . وقد سبق أن أخبرتك أن تحديد الأرصفة القديمة الأربعة أعطى المدينة الناشئة شكلاً أقرب إلى المستطيل، لكن إخضاعها للتخطيط العمرانى أعطاها شكلاً مثلثاً قاعدته إلى الشرق أى قناة السويس ورأسه ناحية الغرب وزاويته القائمة – تقريباً – متوازية مع البحر وساقطة على قناة السويس، ووتره ممتد بامتداد بحيرة المنزلة وساقط أيضاً على قناة السويس. ربما وقع انبعاج هنا أو هناك، لكنه فى الإجمالى العام كان مثلثاً هندسياً بديع التكوين يتماشى وطوبوغرافيا المكان ويرتبط بوضعية اللسان الرملى الساحلى الذى حدثتك عنه منذ البداية، ذلك اللسان الذى نشأت عليه المدينة وتضيق مساحته كلما اتجهنا ناحية الغرب . وإنْ أردتَ رأيى، كان التخطيط جيداً لأنه يفتح صدر المدينة على هواء البحر.

وما دمنا فى أعلى الفنار ما نزال فاسمح لى بأن أدعوك لأن تتجاهل الإضافات

العمرانية غير المتسقة هندسياً مع التخطيط العمرانى للمدينة القديمة، مثلما أدعوك إلى أن تركز انتباهك معى.

لنبدأ بالمثلثات الكبيرة . هاهو شارع كتشنر (٢٣ يوليو) يلتقى مع شارع الثلاثينى (دى ليسبس والجامع التوفيقى – سعد زغلول) عند مستشفى الحميات، ليكونا رأس المثلث الأكبر داخل حى المناخ عند الاستاد الرياضى ومستشفى الحميات، أما القاعدة فعند قناة السويس. وشارع أوچينى(صفية زغلول) يلتقى بنفس شارع الثلاثينى عند مدرسة جمال يوسف وأمام سينما مصر ليكونا رأس مثلث كبير قاعدته أيضاً عند قناة السويس . وانظر أيضاً .. هاك شارع عباس يلتقى مع شارع أوچينى عند بداية شارع المحروسة (الذى أصبح شارع الشهداء) أمام المسجد العباسى ليكونا مثلثاً صغيراً قاعدته شارع إسماعيل (صلاح سالم – جمال عبد الناصر) وكذلك شارع توفيق (عرابى) يلتقى مع شارع الثلاثينى عند شارع الترسانة (الأمين – محمد سرحان) عند مقهى راس البر ليكونا مثلثاً سكنياً أخر قاعدته شارع المحروسة (محمد على – الشهداء).

أما المناطق السكنية الجديدة فشوارعها المستقيمة قليلة، وغالباً ما تكون غير مكتملة، والكثير منها غير المستقيم متعرج أو قصير المدى . كثيرها أكثر اتساعاً من الشوارع القديمة، لكن هذا الاتساع مرتبط بكثافة وضخامة وثقل وسائل النقل الحديثة وبمدى قربها أو بُعدها عن وسط المدينة، والعمائر الحديثة التى تبنيها الحكومة فى هذه المناطق لاسيما تلك التى تُسمى بالشعبية لا تتفق والسياق العمرانى الأصلى للمدينة لا فى شوارعها ولا فى أسواقها العشوائية ولا فى أنماط وطرز البناء، الأمر الذى أدى إلى اضطراب وحدتها البنائية، وتشوه تركيبها الداخلى، وكرس الفوضى بدلاً من التنظيم، ومن ثم بدت هذه المناطق كما لو كانت منبتة الصلة بالعناصر العمرانية الأخرى .

وتقتضى الأمانة العلمية الإقرار بأن شركة القناة اهتمت ـ منذ البداية ـ بتنظيم المدينة الناشئة وبتخطيطها العمرانى، وكانت تتشدد إزاء حالات الخروج على خطوط التنظيم التى وضعتها على خرائط خاصة . ومن صور تشددها بهذا الخصوص أنها كانت تتدخل لدى محافظة بورسعيد لإزالة العشش التى يقيمها الأهالى إذا ما كانت خارجة عن خطوط التنظيم . وكان لا بد من الحصول على ترخيص منها قبل إقامة أية مبان مهما كان نوعها سواء كان فى المدينة أو القرية، ولم يكن للحكومة دور فى هذا الشأن(٥).

وإذا كان إبعاد الحكومة عن شئون التنظيم العمرانى للمدينة والقرية أمراً مثيراً للدهشة، فإن ما يضخم من هذه الدهشة أن شركة القناة كانت تسيطر على ما يخص شوارع بورسعيد تنظيمياً ومالياً، فكانت تقوم بتحصيل ستة قروش عن كل منزل فى المدينة

تحته مطعم، وخمسة قروش عن كل دكان، وقرشين ونصف عن كل عشة بقرية العرب(٦)، بالإضافة إلى ما كانت تقوم بتحصيله ممن يرغب فى البناء نظير قيامها بردم أراضى بورسعيد لإعدادها للبناء، وغالباً ما كانت هذه الأراضى ضمن أملاك الحكومة، فإذا كانت الأرض منخفضة كلفت الأهالى الراغبين فى البناء عليها بردمها وإصلاحها (٧).

وقد استسلمت الإدارة المصرية - وقتها - لما تقوم به الشركة من إجراءات بالنسبة للتنظيم دون مراجعة لعلامات أو حدود التنظيم، بل أمرت رعايا الحكومة بعدم الخروج عليها، وقامت بنقل بعض الأهالى الذين أقاموا بعض العشش لهم فى المدينة إلى القرية تنفيذاً لطلب الشركة، وفى المكان الذى حدده مهندسوها. وراعت الشركة أيضاً عدم تسكين الأجانب فى قرية العرب. وكان يتم إخلاء الشوارع والطرق من المتسيبين (من الباعة الجائلين)(٨).

ومنعاً لأى خروج على خطوط التنظيم قامت الشركة بالاشتراك مع المحافظة بوضع أوتاد بجميع الحارات لمراعاتها عند البناء. وكان يتم تغريم البنائين والنجارين الذين يقومون بأعمال تخالف خطوط التنظيم أو لعدم الحصول على إذن بإجرائها (٩).

وإذا كنا نستملح تشدد الشركة إزاء الالتزام بخطوط التنظيم والتخطيط العمرانى للمدينة، فإننا نستهجن تخاذل الحكومة وتنازلها عن حقها السيادى الأصيل بسماحها أو عدم اعتراضها على الشركة عندما فرضت رسوماً على المبانى وحصلتها لنفسها . والأدهى هو تمادى الشركة فى سياسة التحصيل هذه فكانت تُحَصِّل عوايد على العربات التى كانت تمر بالشوارع، وعلى عربات الكارو وكانت قيمتها خمسة فرنكات شهرياً على العربة ذات الحصان الواحد وثمانية فرنكات على العربة ذات الحصانين وتقل عن ذلك بالنسبة للعربات التى تجرها البغال والحمير(١٠).

وعندما اتفق الخديو مع دى ليسبس حول شئون التنظيم بالمدينة احتكرت الشركة كل ما يتصل بهذه الشئون، فكانت تقوم بتبليط الشوارع وتخصم التكاليف من حساب مصلحة الأملاك المشتركة وكذلك تكاليف أعمال الترميمات المختلفة .

غير أن ضبط المخالفين كان يتم بالمشاركة بين الشركة والحكومة، وقد كُلف مأمور النظام التابع للشركة بالاشتراك مع مفتش البوليس بالقيام بعمل محاضر لجميع المخالفين لأصول التنظيم مثل: إهمال أصحاب الفنادق والحانات للإضاءة وإلقاء القاذورات فى الشوارع، وإطلاق النيران بها، وعدم الحفاظ على انتظام المرور بوقوف العربات والباعة وسط الطرق، وغيرها من المخالفات وكانت هذه المخالفات تُحال إلى محكمة الإسماعيلية لنظرها . أما المحلات التى يُسمح لها بشغل أماكن أمام محلاتهم - إذا كانت لا تزاحم

الطرق – مثل المخازن أو المقاهى فكانت الشركة تفرض رسوماً على أصحابها نظير ذلك(١١) .

وهكذا كانت الشركة إذن دولة داخل الدولة.

منذ البداية واجهت بورسعيد مشكلة عدم توفر مواد البناء ومنذ البداية أيضاً اتجهت جهود الشركة إلى التبكير بإيجاد مكان صالح لرسو السفن التى تجلب إلى جانب أدوات ومعدات الحفر ومواد البناء والصخور اللازمة لبناء الحاجزين الغربى والشرقى لمدخل القناة الشمالى. ولأن جلب الأحجار من جبل عتاقة كان أمراً شديد العسر وقتها فقد اتجهت الشركة إلى جلب الحجارة من محاجر طره عن طريق فرع دمياط، ومن دمياط إلى بورسعيد، لكن لأن ذلك يستغرق وقتاً فقد جلبت الشركة الأحجار من محاجر المكس بالإسكندرية إلى بورسعيد مباشرة عن طريق البحر ولهذا جهزت المرسى الخشبى الذى كلمتك عنه وبعد أن تم استجلاب ٥٣٠,٠٠٠ قدم مكعب من هذه الأحجار حتى سنة ١٨٦٤م. تم الاتجاه إلى تصنيعها محلياً عن طريق داسو كما سبق أن عرفتَ، لكن حجارة داسو كانت مخصصة لحاجزى الأمواج ولم تكن تصلح للبناء، فكيف يصلح للبناء حجر زنته ٢٠ طناً ؟

لذا كان يتم إحضار الأخشاب من القنطرة، أو من المحطات القائمة بامتداد القناة، أو غيرها من البلاد، وكذلك إحضار الطوب من دمياط أو من الخارج . وكان البناء خشبياً خالصاً فى البداية، ومع مرور الوقت وتقدم وعمار بورسعيد حلَّت المنازل والدكاكين والورش المشيدة من مواد البناء، التى دخل فيها الطوب والإسمنت والجص . وكانت دعامات المبانى وقتها من الخشب، الذى كان يقوم مقام حديد التسليح، فكانت عروق الخشب هى التى تحدد بدايات ونهايات الطوابق، ومنها تتشكل الأسقف والأرضيات، ولبناء الجدران الطوبية كانت العروق الخشبية تنصب متقاطعة مع بعضها البعض ثم يتم ملء الفراغات فيما بينها بالطوب والمونة التى قوامها الرمل الذى يستجلب من صحراء الإسماعيلية والإسمنت الذى يرد من الخارج، أما التراسينات (الشرفات) الخشبية فقد كانت تقوم على أعمدة خشبية غليظة وتبطن أرضياتها بالغاب الذى يغطى بطبقة من الجص فيما كان يعرف وقتها بطريقة (السدة واللياسة). وبعض المنازل كانت شرفاتها تُبنى بالحجارة أو بالحديد الكريتال وترتكز على أعمدة حجرية .

إلا أنَّ البناء بالخشب و" بالسدة والليّاسة " أخذ فى التراجع رويداً رويدا لصالح البناء بالطوب وحديد التسليح وبدأت أنماط وطرز عمارة القرن التاسع عشر تتسم بالندرة لا سيما بعدما فنى فنيوها وعمالها حتى إن قطعة من تراسينة أو شباك قد تُكسر فلا يمكن

لساكن البيت أو مالكه تعويضها.

وقد يكون من المفيد أن نذكر هاهنا أن المكان الذى لم يكن فيه سوى بضع خيام عند ضرب أول معول بلغ عدد المنازل فيه سنة ١٨٦١م نحو ٢٠٩ منازل وعدد الأكشاك والعشش ١٣٢ كشكاً وعش، وفى سنة ١٨٦٥م وصل عدد المنازل إلى ١٦٠٠ منزل فى المدينة وحدها دون قرية العرب، وفى سنة ١٨٧٢م أى بعد ثلاث سنوات من افتتاح القناة كان يوجد بالمدينة ٢٠٠٥ منازل وبقرية العرب ٩٩٠ مسكناً فقط مع أن عدد الأهالى كان يفوق عدد الأجانب (١٢).

منذ نشأة المدينة ومساحة العمران بها تتسع وتتزايد بالاتجاهين الرأسى والأفقى، ففى الفترة من ١٨٥٦م، حتى ١٨٦٦م، كانت مساحة العمران حوالى ٠,٧٤ كم٢، وفى الفترة من ١٨٦٧م. حتى ١٩٢٩م بلغت زيادة مساحة العمران حوالى ١,٨ كم٢ فإذا ما أضيفت هذه المساحة إلى المساحة السابقة نجد أن إجمالى مساحة العمران فى هذه الفترة قد بلغ ٢,٥٤ كم٢، وفى الفترة من ١٩٣٠م حتى ١٩٥٥م زادت مساحة العمران بنحو ٢,٠٢ كم٢ أى أن إجمالى المساحة العمرانية وصل آنذاك إلى ٤,٥٦ كم٢ . وفى الفترة من ١٩٥٦م حتى ١٩٧٤م بلغت الزيادة فى المساحة العمرانية ٥,٢ كم٢ وكادت تقترب من حجم الزيادة فى المراحل الثلاثة التى سبقتها وبذا يكون إجمالى المساحة العمرانية ٩,٧٦٠كم٢, وزادت فى الفترة من ١٩٧٥م حتى ١٩٩٩م زيادة بلغت ٧٦,٦كم٢ فبلغ إجمالى المساحة العمرانية ٥٢,١٦كم٢ أما فى الفترة من ٢٠٠٠م حتى الآن (٢٠٠٦م.) فقد زادت المساحة العمرانية بنحو ١٦,٢٧ كم٢، وهو ما يكاد يعادل إجمالى المساحة العمرانية منذ النشأة حتى سنة ١٩٩٩م وبذلك تصبح جملة المساحة العمرانية فى الوقت الحالى ٣٢,٧٩كم٢(١٣).

لا تظن أن ما أضيف إلى المساحة العمرانية، على ضخامته بالقياس إلى مساحة العمران التى كانت متاحة عند النشأة، بكاف لاستيعاب احتياجات سكان المدينة . على العكس فإن العبء السكانى ظل فى تزايد مستمر ضاقت عنه مساحتها الكلية، ولعل هذا هو الدافع الرئيسى لصدور قرار رئيس الجمهورية رقم ٦٥١ لسنة ١٩٧٥ بإضافة مساحات من الأراضى إلى بورسعيد استقطاعاً من محافظات الإسماعيلية والشرقية والدقهلية ودمياط، وكذا صدور قراره رقم ٨٤ لسنة ١٩٩٧ باستقطاع مساحات من محافظة شمال سيناء وضمها إليها والحقيقة أن هذه المحافظات لم تتنازل عن أراضيها بسهولة، وإنما نشأت بينها وبين محافظة بورسعيد حروب أطلقتُ عليها وصف الحروب الحدودية وما تزال مناوشات هذه الحروب قائمة للآن .

لأحدثك فى عجالة عن تطور التقسيم الإدارى لمدينتنا، فما دمنا قد تحدثنا عن خطوط

التنظيم فمن باب أولى أن أحدثك، ولو باختصار، عن الوعاء الذى احتوى هذا التنظيم، وأقصد به الإدارة، ففى سنة ١٨٦٣م وبسبب من تزايد مخطط الأطماع الخارجية، لاسيما الأطماع التركية والبريطانية، وبتأثير من تعارض ممارسات الشركة والمتطلبات التى توجبها سيادة الحكومة المصرية على أراضيها، ولأن الشركة كانت ترى أن الأراضى المحيطة بالقناة ملك لها، وأن علاقة الحكومة المصرية بهذه الأراضى لا تكون إلا عن طريق ممثل رسمى، بالإضافة إلى وقوع الحوادث والفتن والمشاجرات بين الأروام والأهالى، بسبب من هذا كله أصدر إسماعيل باشا أمراً بإنشاء محافظة للقناة، وجعل الإسماعيلية عاصمة لهذه المحافظة، وعين إسماعيل حمدى باشا محافظاً لها . ولا يرجع سبب اختياره للإسماعيلية - فى رأيى - إلى أنها سميت باسمه، بعد أن كان اسمها مدينة التمساح، فقط .. وإنما أيضاً لقربها من مركز حكمه فى القاهرة، وكانت بورسعيد وقتها مجرد مأمورية لها مأمور تم تعيينه أواخر سنة ١٨٦٤م وأوائل سنة ١٨٦٥م. وكان تابعاً لمحافظة القناة بالإسماعيلية .

ونتيجة لنموها المتسارع عرفت بورسعيد كمحافظة فى ٣٠ أغسطس ١٨٦٦م حين صدرت إرادة سنية بتعيين مصطفى بك محافظاً لها وتعيين وكيل للمحافظة أيضاً، واكتمل لها الاستقلال الإدارى والمالى فى سبتمبر ١٨٧٠م. حين صدر الأمر العالى بإجراء أعمال حسابات المحافظة بها، وإمكان تبادل المخاطبات مع جميع الجهات دون توسط محافظة القناة .

وصارت محافظة الإسماعيلية تابعة لمحافظة بورسعيد منذ يوليو سنة ١٨٧٦م، وأشرف محافظ بورسعيد على محافظة السويس إشرافاً مؤقتاً طبقاً للأمر العالى فى مايو ١٨٧٧م. وفى أوائل سبتمبر ١٨٧٩م اتسعت دائرة المحافظة ذاتها لتشمل بالإضافة إلى قرية العرب وضواحى المدينة - مثل بر الإنجليز والبر الشرقى وغيرها - محطة الدهبية المعروفة برأس العش والقنطرة وتوابعها والمحطات من أرقام ٢٤حتى ٣٤، والمحطات التى كانت تابعة لمحافظة الإسماعيلية، أما أشتوم (بوغاز) الجميل فكان يتبع مصلحة المطرية وصحة دمياط(١٤) .

وحتى سنة ١٩٢٧م. كانت بورسعيد تضم قسمين اثنين هما الإفرنج والعرب، وضَمَّ الأخير منطقة المناخين اللذين سيضمهما فى ٢٤ مارس ١٩٧٥قسم ثالث تحت مسمى قسم المناخ ، وكذا نشأ قسم للميناء وضم شياخات بورفؤاد والدائرة الجمركية والترسانة(١٥).

وفى أكتوبر ١٩٥٩م. أصبحت بورسعيد محافظة مستقلة بعد إنشاء محافظة

الإسماعيلية وضَم القنطرة إليها بموجب القرار الجمهورى بقانون رقم ٩٤٩ الصادر فى ١٨أكتوبر١٩٥٩م(١٦).

وحسب تعداد ١٩٦٠م، أصبح التقسيم الإدارى لبورسعيد كما يلى (١٧):

قسم الشرق: وكان يضم شياختين هما الإفرنج شرق والإفرنج غرب.

قسم العرب: وكان يضم شياخات أبو الحسن- الجامع التوفيقى، الجامع العباسى، القابوطى، ومنتزه سعد .

قسم المناخ: ويضم شياخات الجلاء - السراى- المناخ - عدلى .

قسم الميناء: وكان يتكون من شياخات بورفؤاد - الميناء - الجمرك.

وفى سنة ١٩٧٥م. تم تعديل نطاق محافظة بورسعيد بموجب القرار الجمهورى رقم ٦٥١ لعام ١٩٧٥م. وفى ٨ أغسطس ١٩٧٦م. صدر قرار وزير الداخلية رقم ١٦٨٩ بضم الكاب والتينة وما يتبعهما حسبما ورد بالقرار الجمهورى رقم ٦٥١ لسنة١٩٧٥ إلى نطاق شياخة مصطفى حمزة بقسم الشرق فصلاً عن مركز القنطرة محافظة الإسماعيلية(١٨).

وأصبح التقسيم الإدارى للمحافظة مقصوراً على ثلاثة أقسام هى (١٩):

قسم الشرق: ويضم شياخات إبراهيم حسنين (الإفرنج شرق سابقاً) مصطفى حمزة (الإفرنج غرب سابقاً) وبورفؤاد.

قسم العرب: ويضم شياخات:أبو الحسن - التوفيقى - العباسى - منتزه سعد.

قسم المناخ: ويضم شياخات الجلاء و السراى والمناخ وعدلى.

وحسب تعداد ١٩٨٠م. كان التقسيم الإدارى للمحافظة كما يلى(٢٠):

قسم الشرق: يضم شياخات: إبراهيم حسين، مصطفى حمزة، مناطق رأس العش، التينة، الكاب الجديدة - الكاب القديم - أم خلف - بحر البقر، وبعض جزر بحيرة المنزلة.

قسم بورفؤاد: بعدما انفصل عن حى الشرق

قسم العرب: ويضم شياخات:أبو الحسن - التوفيقى - العباسى - القابوطى

قسم المناخ: ويضم شياخات: الجلاء، السراى، المناخ وضُمت إليه قرى غرب: الجرابعة، المناصرة، الديبة، وبعض جزر بحيرة المنزلة.

وذلك بالإضافة إلى ميناء بورسعيد .

وفى ١٨ يناير ١٩٧٩م صدر قرار وزير الداخلية رقم ٢٠٣ بإنشاء قسم شرطة بورفؤاد فصلاً عن حى الشرق (٢١).

وفى ١٥ أبريل ١٩٨٦م صدر قرار وزارة الداخلية رقم ١٦٠ بإنشاء قسم شرطة الضواحى، فصلاً عن أقسام العرب والمناخ والشرق وبورفؤاد، وضم بحر البقر والكاب وأم

خلف ورأس العش والتينة والقابوطى والجلاء وجزر بحيرة المنزلة له .

وعن رئيس مجلس الوزراء صدر القرار رقم ١٠٤٤ لسنة ٢٠٠٠م بإنشاء حى الزهور وضم المناطق السكنية الواقعة غربى شارع عبد الهادى الحديدى وجنوبيه، وكذا قرى الغرب: الجرابعة والمناصرة والديبة، حتى الحدود مع دمياط .

وبعد سنتين أى فى سنة ٢٠٠٢م. أصدر رئيس مجلس الوزراء قراره بإنشاء حى الجنوب فصلاً عن حى الضواحى(٢٢) .

مما سبق يتضح أن بورسعيد تضم الآن سبعة تقسيمات إدارية تحت مسمى أحياء هى: الشرق(الإفرنج)، العرب، بورفؤاد، المناخ، الزهور، الضواحى، والجنوب.

وقد يعطيك ذكر مسميات بعض المناطق السكنية الشعبية التى أضيفت إلى خطوط التنظيم فى المدينة القديمة صورة أكثر وضوحاً . وأغلب المناطق السكنية التى سأذكر لك أسماءها شعبى حكومى، وقليلها أهلى، وأقل قليلها أهلى أو حكومى فاخر ؛ فمثلاً بعد حرب ١٩٥٦م واعتباراً من ١٩٥٧م قام عبد اللطيف البغدادى الذى أشرف على وزارة شئون بورسعيد ببناء ثمانى مناطق سكنية شعبية أخذت الأرقام من (١) حتى (٨) بالإضافة إلى منطقتى الحرية (مساكن الصيادين) والأمين، ومنها ما تم على ردم جزء إضافى من بحيرة المنزلة، وكلها حكومى باستثناء المنطقة الثانية تعمير التى خصصت للأهالى، وكان يوجد بالمنطقة السابعة عدد من العمارات سبق أن أقيمت قبل حرب ١٩٥٦م. ؛ وفيما بعد أقيمت مساكن اللوكس (حكومى فاخر) ومساكن الموظفين، وعقب العودة من التهجير القسرى بعد انتهاء حرب ١٩٧٣ وذلك فى سنة ١٩٧٤ تم بناء الكثير من المساكن الشعبية فى أنحاء الأحياء المختلفة مثل: ناصر،السلام، السلام الجديد، السلام تمليك، منطقة التصنيع،٦ أكتوبر، العاشر من رمضان ،النهضة، أرض اللاسلكى، اللنش، مشروع الأمل، أمل الجبل وعلى بن أبى طالب ،عثمان بن عفان ،عمر بن الخطاب، عمر بن عبد العزيز، خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، بلال بن رباح، الصفا، المروة، زمزم، فاطمة الزهراء، السيدة نفيسة، السيدة خديجة، السيدة زينب، حرفيين الزهور، أرض العزب (تعاونيات وأهالى)، الزهور (تعاونيات)، الـ ٥٠٠٠ وحدة(تعاونيات)، الجولف (استثمارى وأهالى)، بنك الإسكان (استثمارى)، والجوهرة(استثمارى)، شباب الخريجين (تعاونيات)، القابوطى ،مساكن الأمل بالشاطئ (أهالى)، ومبارك (استثمارى)، البودرة (أهالى)، قبضايا (أهالى)، الجوهرة (استثمار) أرض قبضايا (حكومة وتعاونيات وأهالى) ؛ ومعاشات العاملين بهيئة قناة السويس والبحيرى وشباب المدينة والأسر الجديدة وأبراج محمد على والعبور والسوق الجديد، والمناطق السبع الأخيرة

تقع فى بورفؤاد.

أغلبها كما ترى مساكن شعبية حكومية موحدة الطرز، ولا تخرج - حتى مع تغير أوصافها ما بين منخفضة التكاليف ومميزة وطاقة شمسية إلى آخر هذه الأوصاف - عن كونها غابة من المكعبات الإسمنتية تفتقر إلى اللمسات الجمالية التى كانت تتمع بها مساكن المدينة القديمة، وللأسف فإن المساكن الأهلية الحديثة - بما فيها المساكن التعاونية - ليست سوى أبراج تفتقد لجماليات البناء، أى أنها كتل إسمنتية مشوهة وتتراوح ارتفاعاتها بين عشرة طوابق واثنى عشر طابقاً فى حين أن المساكن القديمة كانت فريدة الجمال، ولم تزد ارتفاعاتها عن ثلاثة وخمسة طوابق، ومساكن عمال شركة القناة لم تزد ارتفاعها عن طابق واحد يعلو الطابق الأرضى، وقد أدى سموق الأبراج إلى قفل السماء فى مناطق تواجدها بعدما كانت بورسعيد كلها تتميز بأنها ذات سماء مفتوحة، ولأن الأبراج - وأغلب المساكن الحديثة المشوهة - قريبة من الساحل فقد أخفت بكثافتها وارتفاعها البحر عن الراغبين فى النظر إليه، بالإضافة إلى تدميرها لمرافق البنية الأساسية التى لم تصمم أصلاً لاستيعاب أحمال هذه الأبراج وغير هذه الأمور من المساوئ الكثير والكثير.

الفصل الثانى

فى شوارع ثلاثة

فى شارع فلسطين (فرانسوا جوزيف ـ السلطان حسين ـ شكرى القوتلى):

مادمنا ما نزال فوق قمة الفنار، والوقت ما يزال نهاراً، ولأن الإشراف على هذه البانوراما المشهدية العريضة ما يزال أمراً متاحاً، فاسمح لى بأن أشير إلى بعض الأبنية الظاهرة لنا الآن فى موقعنا هذا وبعض البعيد المتنائى . ولنبدأ بالأقرب، وليس أقرب إلينا من شارع فرانسوا جوزيف (فلسطين) فها هو يمتد أسفل منا من ناحية الشرق.

تاج محل بورسعيد:

أرسل ببصرك جنوباً سترى المبنى الذى أصبح رمزاً لقناة السويس ويكاد يضارع – على الأقل فى نظرى – رسوخ وجمال قصر تاج محل . صحيح أن مساحته أقل، وجدرانه ليست من المرمر، ولا تحيط به الحدائق الغناء ذوات الزهور، ونوافذه وأعمدته البيضاء وشرفاته المتناسقة أقل، لكنه بطرازه الإسلامى وقبابه اللازوردية وأعمدته وعقوده وفسيفسائه الدقيقة يُبهج نفس كل ناظر.. المقيم والعابر.

إنه الأثر الأشهر فى بورسعيد، وبناؤه يعود إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، فقد وُضع الأساس فى سنة ١٨٩٣م، ليكون مبنى لإدارة شركة القناة، وصمم بحيث يشمل فيما يشمل مكاتب الخزينة ومكاتب الإدارة ، وأثناء بناء هذه القباب الجميلة مات فى أقل من عام سبعة عمال بسبب تساقط الحجارة عليهم، منهم الإيطالى فالنتينو . والمبنى محاط

بالماء من ثلاثة أوجه، من الشرق مياه القناة ومن الشمال مياه حوض التجارة ومن الجنوب مياه حوض الترسانة وشريف، أما من ناحية الغرب - حيث الباب الرئيسي - فالمبنى يطل على شارع واجهورن (مصطفى كامل) عند تقاطعه مع شارع السلطان عثمان (الجمهورية). وشرع في تجديده سنة ١٩٢٥م وانتهى التجديد في سنة ١٩٢٦م.

وقد دخل هذا المبنى كثيرون من حكام مصر ودول العالم منهم الملك جورج الخامس والخديو عباس وجوزيف مارشال تيتو وجمال عبد الناصر وأنور السادات وغيرهم كثير كما اتخذ منه استكويل قائد القوات المعتدية على بورسعيد سنة ١٩٥٦م. مقراً له. وفي يوم الخميس من ديسمبر ١٩٥٦م، تسلمت قوات الأمم المتحدة هذا المبنى وأنزل العلمان البريطاني والفرنسي من فوقه وقصف المبنى عبر الجو خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأعيد ترميمه(٢٣).

- **دار بوليس الميناء:**

وفي مواجهته من ناحية الشمال خارج سور حوض التجارة أي عند أول نقطة في شارع فرانسوا جوزيف (فلسطين) وعند التقائه ببداية شارع دي ليسبس (سعد زغلول) تجد مبنى قسم الميناء(دار بوليس الميناء)، وقد شيد في الثلاثينيات من القرن العشرين وبالتحديد بعد سنة ١٩٣٢م، على أنقاض مبنى الجمرك القديم الذي نقلت مكاتبه إلى مكان يطل على بحيرة الترسانة. ومبنى بوليس الميناء يتضمن أيضاً مكتب جوازات الميناء، وفي أعلاه برج لمراقبة دخول البواخر للميناء، وكما تراه هو الآن في حُلة قشيبة لأنه خضع للترميم ودُشن بعد هذا الترميم في عيد الشرطة (٢٥يناير) سنة ٢٠٠٣م.

محلات وشركات وسبيل:

وإن أرسلتَ بصرك إلى الشمال رأيتَ في نفس الصف - صف قسم شرطة الميناء وصفنا - عمارة المساجرية قائمة ما تزال. وهي وغيرها من عمارات هذا الشارع عامرة منذ نشأتها بمحلات بيع الأنتيكات للسائحين الأجانب . وهذا هو محل سيمون أرزت الذي ظل لفترة أكبر مركز تجاري ببورسعيد . والشارع محتشد بمكاتب شركات التوكيلات الملاحية، وأشهرها مبنى شركة القناة للتوكيلات الملاحية الضخم، وشركات الشحن والتفريغ، والخدمات الملاحية والسياحية، كما شغلت الشركة المصرية للاتصالات هذا المكان الفريد على ناصية الشارع مع شارع صفية زغلول بعد إعادة بنائه، وكان يخص ترنزيو مندوب شركة اللويدز النمساوية وعلية كان منزله، ثم انتقلت ملكيته لشركة التلغراف الإنجليزية Eastern Tellegraph co.، وقد قصفت الطائرات المغيرة في الحرب العالمية الثانية هذا

المكان كما قُصف بضربة مباشرة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م(٢٤).

وعند تقاطع الشارع مع شارع أوجينى وعلى رصيف الميناء وبالقرب من الباب رقم (٨) كان يوجد تمثال صغير شهير للملكة فيكتوريا (١٨١٩م. - ١٩٠١م) فقد أبى البريطانيون إلا أن ينصبوه فى هذا المكان رمزاً لتواجدهم فى منطقة القناة. وقد اشتملت قاعدته على أربعة تماثيل صغيرة على هيئة أسود تنصب منها المياه الصالحة للشرب . لذا أطلق العامة على هذا التمثال اسم " سبيل فيكتوريا ". وقد هُدم التمثال عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦م.

وهناك.. انظر.. فى أقصى الشمال توجد حديقة بورسعيد السياحية التى يطلق عليها اسم حديقة التاريخ، وهى حديقة حديثة أنشئت فى أواخر القرن الماضى ، وكما ترى هى حديقة منسقة بشكل جيد وتلتصق بزاويتها الشمالية الشرقية، قبالة تمثال صغير جيد التقليد لتحتمس الثالث، نافورة معطله لعيوب فنية لم تكتشف إلا بعد تنفيذها.

متحف المدينة القومى:

وفى مواجهة الحديقة متحف بورسعيد القومى الذى يضم مجموعة من الآثار التى تغطى الحضارة المصرية منذ القدم حتى العصر الجديد من الآثار المصرية القديمة . به عدد من الأوانى الفخارية يرجع عمرها إلى ٦ آلاف سنة قبل الميلاد، وكذا رأس للملك منقورع مصنوعاً من الألباستر، ورأس للملكة حتشبسوت بشكل أبى الهول، ومجموعة من التوابيت المهمة، ومن آثار العصر الحديث به الأدوات التى كانت تستخدمها أسرة محمد على، ونموذج رائع لواحدة من العربات التى كان أفراد هذه الأسرة يستخدمونها فى تنقلاتهم. وإزاء الشروخ التى ظهرت على جدرانه(٢٥)، فإنه يجرى حالياً الإعداد لمشروع تطويره وتوسعته بهدف إدراجه بخطة ٢٠٠٦- ٢٠٠٧م. بتكلفة ٢٠مليون جنيه، بحيث يشتمل ،إلى جانب قاعات العرض المُتحفى، على معامل وغرف للترميم والأمن والمراقبة، وغرف للمولدات والمحولات الكهربائية، ومكتبة ومخزن وكافتيريا وصالونات انتظار، بالإضافة إلى قاعة للهوايات وأخرى للعرض المكشوف . ومنحدرات للمُقْعَدين من ذوى الاحتياجات الخاصة، وكذا تجهيز حديقتين مُتحفيتين : الأولى أمام المتحف والثانية يحتويها فناؤه الداخلى(٢٦) . وللإسف فإن هذا المتحف الذى ينفرد بكونه الوحيد من بين المتاحف الذى يتواجد - حسب علمى - فى منطقة التماس مع قارات ثلاثه هى إفريقيا وأسيا وأوروبا، أفسدته الأبراج السكنية، فالمشهد الذى يُفترض أن المتحف يمثل بؤرته،حوصر بالعمارات الشاهقة التى أظهرته بمظهر القزم المستذل أمام جبروت الأسمنت والألمونيوم.

فندق وكازينو بالاس:

وقد رأت مصممة حديقة التاريخ، د.م. دليلة الكرداوى، أن يكون تنسيقها ذا دلالات رمزية تتكئ على التاريخ الوطنى فزودتها برموز وموتيفات تدل على هذا التاريخ وتشير إليه، لكن جهة الإدارة رأت أن تغلقها خشية أن يدمرها الأطفال.

فى مكان هذه الحديقة كان يوجد مبنى فندق وكازينو بالاس المملوك لعائلة سيمونينى الإيطالية . وكان سيلفيو سيمونينى قد أقام هذا البناء فى الأرض التى استأجرها من شركة القناة بعد هدم السلخانة التى كانت تشغلها (من سنة ١٨٨٥م حتى سنة ١٩٠٠م). وعائلة سيمونينى هى إحدى العائلات التى هاجرت إلى بورسعيد مع مطلع القرن التاسع عشر وعاشت فى الشوارع الخلفية للحى الإفرنجى وكانت تدير فندقاً متواضعاً ثم يوماً وراء أخر نقلت مواقعها إلى شارع الميناء وأصبحت وكيل أكبر شركات السفن الإيطالية(٢٧). وفندق وكازينو بالاس هذا كان أول مبنى يصافح عيون القادمين بالبواخر من المدخل الشمالى للقناة . واجهته الشمالية كانت تطل على البحر مباشرة، وكانت هناك صخور قد وضعت فى هذه الواجهة كمصدات للموج، ولمَّا انحسر البحر وأهدى المدينة قطعة أرض قبالة الكازينو، احتلتها طابية السلام وكانت بطاريتها تطلق ٢١ طلقة تحية لأية سفينة حربية تدخل الميناء أو تمر بالقناة. وحدث فى سنة ١٩٥٦م، عند جلاء القوات المعتدية، أن رفعت قبل انسحابها الرايتين الإنجليزية والفرنسية أعلى سارية الطابية، وحتى يظلا مرفوعين فى مكانهما أطول فترة ممكنة قامت هذه القوات بطلاء الصارى بطبقة سميكة من الشحم تحول دون تسلقه، إلا أن فدائياً اسمه سعيد الضو - لسمرته الشديدة كان الأنجليز يطلقون عليه لقب الجن الأسود - تمكن من تسلق الصارى وانتزاع العلمين وتلطيخهما بالشحم الذى كان على الصارى ثم حرقهما. وقد حكى لى هو ونفر من الفدائيين، بقدر كبير من المرارة، كيف أن المخابرات المصرية أخذت تستجوبه استجواباً مؤلماً حول علاقته باليساريين الذين أدخلهم إلى المدينة أثناء العدوان عبر مسارب غير معروفة وأخفاهم وأسلحتهم بمنطقة القابوطى، نفس الأمر فعله رجل مسن (٦٥ سنة) اسمه أحمد الكومى بنزعه العلم الإنجليزى من فوق سارية مماثلة فى نفس المكان ورفع بدلاً منه العلم المصرى لتتزاحم الأقدام تدوس علم المنسحبين.

نعود إلى فندق وكازينو بالاس، فقد شهد أفراحاً وحفلات ومآدب كثيرة، وحلت فيه شخصيات عظيمة الشأن عديدة، شخصيات لملوك وأمراء ورؤساء مجالس وزارات ووزراء وزعماء يشار إليهما بالبنان . وممن حل به سعد زغلول ومصطفى النحاس وحافظ إبراهيم والزعيم الهندى جواهر لال نهرو . وفى الخمسينيات من القرن الفائت كنا دائمى

الانجذاب إلى هذا المبنى، وكم حاولنا اختراقه، فإذا كانت واجهته الشمالية تطل على الطابية، فإن نوافذه الخلفية كانت تطل على حديقة واصف باشا (نسبة إلى المحافظ حسين واصف باشا) الذى أنشأها، وكان فى هذه الحديقة حوض للأسماك يحتل جهتها الغربية . هذا كل ما أمكننى وأقرانى الفوز به من محاولات الاختراق، لذا كنتُ وهم نتلصص على المرقص المزدحم بالغوانى وقباطنة السفن وبحارتها .. فقط نتلصص .

نُصب القتلى الأجانب :

إلى جوار الحديقة والفندق أقيم نصب تذكارى لتخليد قتلى الحرب العالمية الأولى من الاستراليين والنيوزلنديين الذين مروا ببورسعيد فى طريقهم إلى الدردنيل فيما بين سنة ١٩١٦م وسنة ١٩١٨م(٢٨). وكان الميجور هدسن من الجيش الاسترالى قد تقدم بطلب أوضح فيه رغبة جيش بلاده فى إقامة تمثال يخلد جنوده الذين ماتوا أثناء الدفاع عن القناة وشبه جزيرة سيناء(٢٩).

وفى ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ رُفع الستار عن تمثال الجنود الاستراليين والنيوزلنديين المشتركين فى الحرب العالمية الأولى وحضر هذا الحفل بالإضافة إلى المندوب السامى البريطانى، السير بيرس لورين رئيس الوزراء الاسترالى السابق، و المستر هيوز ورئيس الجيش البريطانى فى مصر ورئيس الوزراء المصرى إسماعيل صدقى باشا وسعيد ذو الفقار باشا موفداً من قبل الملك فؤاد، وقناصل الدول، وكثير من سكان المدن(٣٠).

وقد دمر المواطنون عقب انتهاء حرب ١٩٥٦م هذا التمثال، وبالتحديد بعد ثلاثة أيام من انسحاب آخر فلول المعتدين، أى فى السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٥٦م، فى البداية كانوا سينسفون التمثال بالديناميت، إلا أنهم عدلوا عن ذلك لئلا يؤثر الانفجار على المبانى المحيطة بالتمثال وفى مقدمتها مبنى فندق وكازينو بالاس، ومن ثم استخدموا ما وصل إلى أيدهم من أدوات، واستغرق منهم الهدم وقتاً طويلاً، وحتى ظهر ذلك اليوم لم يكن قد تم هدم سوى نصف التمثال (٣١) ولم يتم الإجهاز عليه كاملاً إلا فى اليوم الثامن والعشرين من نفس الشهر، وفور هدمه تم رفع علم التحرير فوق قاعدته(٣٢).

ميناء للصيد ومارينا لليخوت:

وبعد المتحف يوجد المُجَمَّع التجارى العصرى وفندق سونيستا السياحى وغابة من العمائر السكنية العالية وجميعها توجد فوق المكان الذى كان يحوى الطابية والمحطة العسكرية. وإلى الشمال من هذا كله ميناء الصيد الذى أنشئ - وفقاً لرواية ضياء الدين القاضى - فى عهد المحافظ عبد الهادى غزالى بك بناء على إحدى مواد اتفاقية ٧ مارس ١٩٤٩ المبرمة بين الحكومة المصرية وشركة قنال السويس العالمية وكانت قد تعهدت فى

نطاق البرنامج السابع للأعمال الكبرى بمنطقة القنال بإنشاء حوض خاص لرسو مراكب الصيد بمساحة ٤٤٠ متراً طولاً و ١٧٥ متراً(٣٣).

ومع هذا، فإن كل من هم من أبناء جيلي يعلم أن مراكب الصيد كانت ترسو في مدخل قناة السويس إلى يمين رصيف دى ليسبس، داخل القناة، حتى عام ١٩٥٧م. ؛ وكان رسوها هذا يتيح لنا متابعة الطقوس التي يمارسها الصيادون عند إقلاعهم أو رسوهم، وكذا أساليبهم في شد وتنفيض وجمع ورتق الشباك، وإنزال السمك إلى الرصيف وتحميله على العربات التي كانت وقتها عربات تجرها الخيول والحمير.. وكنتُ وكثيرون غيري نستمتع أيما استمتاع بسماع أغانيهم أثناء ممارستهم لأعمالهم على الرغم من أجواء الاضطراب التي كانت تحدثها حركة مراكبهم في الميناء عند مرور السفن والبواخر العابرة، وهناك تسجيلات فوتوغرافية وفيلمية رصدت هذا..

وما نعرفه أنه أصبح للصيادين ميناء ترسو فيه مراكبهم بشكل منظم بعد التجهيزات التي أقيمت في عهد جمال عبد الناصر عام ١٩٥٧م. فأتاحت لمراكبهم أربعة أحواض المساحة البحرية لكل حوض منها ٤٠٠٤٠ م ، أما المساحة البرية فتبلغ ٦٠م عرضاً × ١١٥٠م طولاً، وأن العمق بلغ ٩ أمتار، وزود الميناء - فيما بعد - بمنارين يعملان بالطاقة الشمسية، وقد أتاحت هذه التجهيزات لنحو ٢٠٠ مركب صيد ألى تتراوح قدراتها بين ١٠ حصان و ٤٢٥ حصان الدخول إلى هذا الميناء، كما يسرت تموينها بالوقود والثلوج والأطعمة والوقود وأتاحت لجهة الإدارة، التي آلت منذ سنة ١٩٨٨م إلى الهيئة العامة للثروة السمكية، إجراءات التفتيش البحري لضمان سلامة المراكب وصلاحيتها للإبحار ؛ إلا أن يد الإهمال ما لبثت أن طالت هذا الميناء، وقد استتبع هذا الإهمال إجراء بعض الإصلاحات من حيث تنظيف بعض الأحواض وتعميقها وتجديد محطات الوقود وإنشاء وحدة لصناعة الثلج لكنها لم تكن كافية . وها هي جهة الإدارة تدرس نقل هذا الميناء إلى مكان آخر و تخصيص جزء من أرصفته لمشروع سياحي كبير، هو مشروع إنشاء مارينا اليخوت(٣٤). وأُعلن - بما يعني أن دراسات المشروع قد تمت - أن المساحة المخصصة للمارينا تبلغ ١٢٠٠٠متر مربع وأنها تستوعب ٥٠٠ يخت(٣٥). ولّا كانت جهة الإدارة لم تحدد المكان البديل لرسو مراكب الصيد، كما امتنعت عن عرض نتائج دراسات الجدوى للمشروع - مما استدعى الشك في قيامها بإجراء هذه الدراسات - فضلاً عما يمثله الاستيلاء على هذا الميناء لصالح الأثرياء من عنت للصيادين، فقد قمتُ أنا محدثك باستهجان ما أقدمتْ عليه جهة الإدارة(٣٦)، فسكتت عنه، لكنها أعادت طرحه بعد نحو عشرين سنة بعدما حددت المكان البديل للصيادين ومراكبهم.

رصيف وقاعدة وتمثال:

وفى مواجهة المتحف والمجمع التجارى العصرى والفندق، الموجودة الآن، حتى ميناء الصيد يمتد رصيف دى ليسبس الذى ينتهى بقاعدة تمثال دى ليسبس الخالية . والرصيف والقاعدة اليوم غيرهما بالأمس. فلم يكن الرصيف بالشكل الذى هو عليه الآن فقد كان عبارة عن حاجز للأمواج وحام للقناة من الرواسب البحرية التى كان أغلبها من طمى النيل، وتم تجميل هذا الحاجز بعمل فتحات أسفل منه ليمر الماء بين البحر والقناة من خلالها، كما عُمل له سوران حجريان قصيران ليتيحا أماكن لجلوس من يتنزهون فوق اللسان، وذلك قبل يوم ١٧ نوفمبر ١٨٩٩م.، تاريخ احتفال شركة القناة بالعيد الثلاثين لافتتاح القناة وإزاحة الستار عن تمثال دى ليسبس الضخم، وبعد أن كان مجرد حاجز غير منتظم للأمواج صُنع بالصخور التى استجلبت من المكس أو بتلك التى صنعها المقاول ديسو، أصبح ممشى للمتريضين، ومقاول إيطالى هو الذى قام بهذه العملية. وأوكلت الشركة للمثال الفرنسى عمانويل فريميه أن يصمم تمثالاً تخلد به الشركة دى ليسبس. وقد كان، فجسَّد دى ليسبس مرتدياً عباءة ورافعاً يده اليمنى داعياً السفن إلى المرور من القناة، وبيده الأخرى يمسك وثيقة مشرع القناة. وجاء التمثال مفككاً داخل تسعة صناديق على ظهر الباخرة دوق باكنجهام Duc of Bucingham وقد وصل ارتفاع هذا التمثال من سطح البحر حتى نهاية قمته ١٩,٥٢ متر وطول الجسم البرونزى فيه ٧,٥٠ متر(٤٠ سم للقاعدة البرونزية، ٤,٣٠ متر للجزء الأسفل من التمثال، ٢,٨٠ متر للجزء الأعلى من التمثال).

أما القاعدة الحجرية فيبلغ ارتفاعها ١٢,٠٢ متر (٢,٦٢ متر ابتداء من سطح البحر، ٩,٤٠ متر للقاعدة الحجرية الموضوع عليها التمثال، وكان وجه التمثال يطل على الجنوب الشرقى للميناء وعلى القاعدة الحجرية المستديرة وضعت له لوحة برونزية كتب عليها باللاتينية Aperire Terram Gentibus ومعناها نفتح الأرض لجميع الدول(٣٧).

وشهد حفل إزالة الستار من كبار رجال الحكم فى مصر: الخديو عباس حلمى الثانى والغازى مختار باشا، والبرنسان عمر طوسون وعزيز بك حسن، ومن النظار: رئيس النظار مصطفى فهمى باشا وحسين فخرى وبطرس غالى - بطل مذبحة دنشواى ومؤيد مد الامتياز الذى أفرغ فيه الشاب المصرى " إبراهيم ناصف الوردانى " سبع رصاصات فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠م. - وأحمد مظلوم ومحمد عباس وإبراهيم فؤاد، ومحافظ عموم القناة حسين واصف بك، وغالبية محافظى مصر، ومندوبى الصحافة المصرية، وكبار ضباط الجيش، وجميع أساقفة الكنائس ؛ ومن الأجانب البرنس دارنبرج رئيس مجلس

إدارة شركة القناة السابق وحرمه، وجي. بزيه G.Pzeit رئيس شركة اللويدز، واللورد كرومر المعتمد البريطاني فى القطر المصرى، ورجال السلك الدبلوماسي، وجميع قناصل الدول الأجنبية فى بورسعيد، وكبار ضباط الجيش البريطاني فى مصر ومندوبي الصحف الأجنبية(٣٨) .

وفى أوائل ١٩٢٣م. قامت شركة القنال بسد الفتحات أسفل رصيف دى ليسبس بسبب انتقال طمى النيل إلى مجرى قناة السويس عبر موج البحر مما إدى إلى إطماء أجزاء من القناة خصوصاً تلك المجاورة للرصيف . ولأسباب اقتصادية، حيث أن التكريك المستمر كان يكلف الشركة مالاً وجهداً، قامت بسد هذه الفتحات.

ومما يذكر - عزيزى القارئ - أن عملية إنزال جنود ومركبات القوات البريطانية والفرنسية، الآتية من البحر، الغازية لمدينة بورسعيد فى حرب ١٩٥٦م.، تلك التى عُرفت بحرب السويس تمت عند هذا التمثال، وكذلك انسحابهم المخز.

وفور اندحار القوات المعتدية على بورسعيد " طافت بشوارع بورسعيد مظاهرة ضخمة قوامها ١٠ آلاف مواطن وانطلقت إلى ميدان المحطة للاحتفال بيوم النصر يتقدمها السيد/ خالد محيى الدين ومرت بتمثال دى ليسبس ونزعت الأعلام البريطانية والفرنسية وأحرقتها وسط الهتاف بحياة مصر والأحرار "(٣٩). وكان المعتدون قد وضعوا فى يد التمثال العلمين الفرنسى والبريطانى، وقاموا بتثبيتهما بلحام الأكسجين، فصعد عدد من المواطنين على سلم وأحرقوا العلمين(٤٠). بعدها اندفعت الجماهير المنتصرة إلى التمثال الذى ظل جاثماً على المدخل الشمالى لقناة السويس ٥٨ عاماً رمزاً للاحتكار والاستغلال والسيطرة الأجنبية، وحاولوا تحطيمه عن طريق سحبه بالحبال، فتقدم من الفدائيين كل من يحيى الشاعر وشقيقه عبد المنعم وحسنى عوض وآخرون والرائد سمير غانم وبدأوا عملية هدم التمثال هائل الضخامة، ونسفوه على ثلاث دفعات فى الأولى استعملوا عشرة قوالب من الديناميت، وفى الثانية استعملوا ثمانية عشر قالباً، ولمَّا لم يسقط وضعوا تحته ١٨ قالباً لتسقط الغطرسة الأجنبية المجسدة فى تمثال دى ليسبس فى " صال " ضخم - ماعون عائم يستخدم فى شحن وتفريغ السفن بالحمولات المختلفة من البضائع - كان متروكاً بالمصادفة بضفة القناة إلى جوار قاعدة التمثال(٤١)، ومن فورهم اندفع الفدائيون والمواطنون إلى " الصال " قفزاً ووطأوا الحطام بالأقدام . ومن الأمور التى تلفت الانتباه ما قاله لى أحد الذين اشتركوا فى تدمير التمثال، هو عبد المنعم الشاعر، وأكده فى شهادته أمام المؤتمر العاشر لأدباء إقليم القناة وسيناء الثقافى الذى عقد ببورسعيد احتفالاً باليوبيل الذهبى لانتصارها، من أن القيادة المركزية بالقاهرة وجهت - فيما كان هو ورفاقه

فى طريقهم إلى هدم التمثال ـ بعدم الهدم لاعتبارات سياسية، ومع هذا واصل الفدائيون سيرهم وهدموا التمثال (٤٢).

وحدث بعد مرور ثلاثين سنة على هذه الواقعة أن التقى بالإسكندرية فى صيف سنة ١٩٨٦م. كل من السفير الفرنسى وبطرس بطرس غالى ومحمد سامى خضير الذى كان يستعد لحلف اليمين الدستورية قبل توليه منصب محافظ بورسعيد. وأفصح السفير الفرنسى فى هذا اللقاء عن رغبة بلاده فى إعادة التمثال، فلما أجابه خضير بأن ما رُفع نتيجة فورة شعبية لا يُعاد لموقعه، فأظهر السفير قناعته، إلا أنه ناور وطلب عرض نصفه العلوى على الأقل (!!) أو ليأخذه إلى قرية صاحبه. ورفع خضير تقريراً بهذه الرغبة إلى مؤسسة الرئاسة، ولمَّا كنتُ حاضراً الاجتماع الذى أثار فيه خضير هذا الموضوع بصفتى الإعلامية صحفياً بجريدة الأهالى المعارضة، وكانت الكتابات المشبوهة الداعية لعودة التمثال إلى قاعدته قد واكبت هذا الاجتماع، فقد نشرت الحقائق التى سردها محافظ المدينة كاملة، ولم أترك مناسبة (مؤتمرات انتخابية، ندوات، أمسيات، ملتقيات) إلا أثرتُ فيها الأمر، وكان أن ثار جدل كبير، وتدخل كتاب كبار فى القضية منهم على سبيل المثال : رجاء النقاش، كامل زهيرى، د. عبد المغنى سعيد وغيرهم.

وكان عظيماً يا عزيزى أن التفت كل القوى الوطنية وكثير من أحزاب المعارضة حول الحملة ـ التى أزعم أننى كنتُ أول من أثارها فى بورسعيد ـ ضد إعادة التمثال إلى قاعدته، مما دفع بمحافظ بورسعيد محمد سامى خضير لأن يُعلن فى ديسمبر من نفس العام عن عدم الموافقة على إعادة تمثال دى ليسبس إلى قاعدته ؛ غير أن الكتابات المشبوهة عاودت الظهور سنة ١٩٨٧م. لتخمدها مواجهات الرافضين، أو هكذا ظننا، لنفاجأ فى سنة ١٩٨٩م. وبعد مرور نحو ٣٣ عاماً على تدميره بمجموعة من الإجراءات العملية المتسارعة أخرجت حطامه من إحدى صالات البضائع حيث كان مركوناً، وأدخلته ترسانة بورفؤاد البحرية، لتبدأ على الفور عمليات ترميمه تحت إشراف الفرنسى " ديفيد بورجوان " المتخصص فى الآثار المعدنية، وإذا بالشدَّات تُرفع حول القاعدة الخالية، وبدأت الاستعدادات لجعل إعادة التمثال إلى قاعدته أمراً واقعاً ، وقيل وقتها إن التكاليف بلغت ٢٠ ألف دولار ساهمت فيها بعض الشركات الفرنسية مع المركز الثقافى الفرنسى بالقاهرة وهيئة قناة السويس وبعض البنوك . حُدد للانتهاء من عملية الترميم ١٤ شهراً ، لكن جهة ما غير معلومة قررت إعادته فى أقل من ذلك وخفضت المدة إلى ٩ أو ١٠ شهور على الأكثر(٤٣).

وإزاء غضبة القوى الوطنية أكد محمد عزت عادل رئيس هيئة قناة السويس وقتها نفيه

لأية علاقة بين الهيئة والتمثال وقال إنه ليس للهيئة دخل بالأمر سوى أن بقاياه موجودة فى مخازنها، وألقى بالمسئولية على المحافظة. وبلغ من قوة الموقف الوطنى فى هذه السنة أن صرح دبلوماسى فرنسى بأنة يخشى من إعادة التمثال إلى مكانه، ويخشى على العلاقات بين مصر وفرنسا، ويخشى أن يوضع التمثال على الرغم من إرادة الشعب فيقوم بعض الوطنيين بهدمه مره أخرى (٤٤).

وبالفعل كان السيد عسران، أحد أشهر فدائيى بورسعيد سنة ١٩٥٦م.، قد أعلن أنه وبعض الوطنيين سوف يقومون بتدمير التمثال إنْ أعيد إلى مدخل قناة السويس.

عندئذ مارست فرنسا بعض أساليب الضغط المعتادة علها تنفع، فربطت بين إعادة التمثال وتمويل مُجَمَّع الإبداع الدولى داخل المدينة، لكن الرفض الوطنى من مثقفى المدينة لعودة التمثال كان قاطعاً فأعيد التمثال إلى مخازن هيئة قناة السويس وأزيلت الشدَّات التى أقيمت حول القاعدة، ومن ثم سحبت فرنسا اقتراحها بالتمويل.

ولعله أطول سيناريو يمكن كتابته لقضية ما، ففى عام ١٩٩٦م. أى بعد نحو أربعين عاماً عاد دعاة التبعية ومعهم ذريعة جديدة بعدما فشلت الذرائع التاريخية والسياحية، فهدم التمثال يعد هو أيضاً تاريخاً، واختزال مقومات السياحة فى تمثال هو نوع من الاستهانة بقدرات رجل الشارع قبل المثقف . والذريعة الجديدة هى التجميل فى إطار التجديدات التى شملت كل ما هو قريب من رصيف دى ليسبس وقاعدته . هذه المرة تشكلت لأول مرة " اللجنة الوطنية لمقاومة إعادة تمثال دى ليسبس عند مدخل القناة " ؛ وأثيرت القضية تحت قبة البرلمان وكان أن أعلن مصطفى صادق محافظ بورسعيد براءته من الموضوع، وأنه لا يفكر فى إعادة التمثال إلى القاعدة الخالية. أكثر من هذا أصدر توجيهاً بتصميم تمثال مصرى لوضعه على القاعدة الخالية، وأخطر مدير أشغال هيئة قناة السويس بهذا التوجيه مرتين أولاهما بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٩٦م. والثانية بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩٩٦م.

وإزاء هذا وفى سنة ١٩٩٨م. قدَّمت الحكومة الفرنسية طلباً رسمياً للحكومة المصرية طالبت فيه باسترداد التمثال الحائر طالما لم تتم إعادته إلى موضعه الأصلى بمدخل القناة، وبما أنه أحد مواطنيها فمن ثم من حقها استرداده، إلا أن الحكومة المصرية ردت على هذا الطلب برفض رد التمثال لأنه يمثل أثراً تاريخياً مصرياً لا يجوز لأى دولة المطالبة به لأى سبب، وكان هذا القرار ثمرة جدل ثار بالمدينة حول هذا الطلب (٤٥).

وفى سنة ١٩٩٩م. وبمناسبة تسليم مكتبة الإسكندرية صور وثائق شركة قناة السويس قبل وبعد الحفر، زار بورسعيد وفد من جمعية أصدقاء دى ليسبس الفرنسية، ضمن

زيارتها لمحافظات أخرى، وأثار رئيس الجمعية " جان بول كالون " فى الحوار الذى أجرته " جريدة أخبار اليوم " وكان موضوعه تمثال دى ليسبس، وقد أبدت الجريدة فى هذا الحوار تعاطفاً غريباً بهذا الخصوص وأفردت للحوار صفحة كاملة ووضعت له عناوين مريحة لفرنسا، من نوع " كان دى ليسبس يعشق مصر. وفرنسا تتمنى عودة تمثاله لمكان لائق " وفى هذا الحوار عبر " كالون" عن تفهم رفض أهالى بورسعيد لإعادة التمثال بعد تحطيمه وقال بالحرف " نحن نعرف أنَّ عودته إلى قاعدته فى بورسعيد ربما تكون استفزازاً بعد تحطيمه بعد التأميم " ؛ والصحيح هو أن التحطيم تم نتيجة العدوان الفرنسى الإنجليزى وليس عقب التأميم، ولم يفت كالون أن يطالب بوضع التمثال فى مكان يليق به وليكن بالإسماعيلية (!!). وكأنه الكيروسين يسكب على نار هى متأججة أصلاً نشط المثقفون للرد عَلى " كالون " والجريدة ومن لف لفهما(٤٦).

وفى سنة ٢٠٠١م. حدثت حركة التفاف جديدة أُسبغ عليها رداء العِلم باستقصاء قام به المعهد العالى للخدمة الاجتماعية ببورسعيد وحرص المعهد على تدوين ما يفيد أن هذا الاستقصاء إنما يتم بالتعاون مع محافظة بورسعيد، وذلك على استمارة الاستقصاء.

وتضمنت الاستمارة عدداً من الأسئلة أبسط ما يقال بشأنها أنها أسئلة موجهة ومنحازة لعودة التمثال صيغت بطريقة مراوغة تستهدف خداع المستقصى منهم بربطها إعادة التمثال بالسياحة وبمعانى الوفاء، باعتبار أنَّ دى لبسبس هو صاحب فكرة شق قناة السويس ؛ وقمتُ بنقد هذه المحاولة فاضحاً انحياز القائمين عليها وافتقادها لأبسط قواعد العلمية، وأزعم أن ما نشرتُه بهذا الخصوص قد ساهم فى إبطال هذه المحاولة(٤٧).

ومما يُذكر مشفوعاً بالاحترام رفض رئيس جمعية تنمية الثقافة المصرية الفرنسية، الدكتور ريمون الطويل، لإعادة التمثال إلى القاعدة وإعلانه لهذا الرفض أمام اجتماع حاشد انعقد خصيصاً بمبنى المجلس الشعبى المحلى للمحافظة لمناقشة هذه القضية - ونقله تليفزيون القناة الرابعة يوم الاثنين ٢ يوليو ١٠٠٢م. عبر برنامج (تحت الأضواء) - وقوله إننا إذا كنا نشجع الثقافة الفرنسية فنحن لسنا عملاء لفرنسا، وإنه لا يعلم عن تمثال أسقط عن قاعدته فى أى مكان بالعالم وأعيد إلى القاعدة التى كان يرتكز عليها، وإن إعادة هذا التمثال لا تمثل أية أهمية سياحية، وإذا كنا نريد أن نفتخر بالشخص الذى حفر القناة فلا بد من وضع تمثال الفلاح المصرى مكان التمثال المدمر، وأشار إلى مشروع بارتولدى ورفْض أسرة محمد على له لأنهم لم يتصوروا وضع تمثال فلاح عند مدخل القناة.

وعادت جريدة أخبار اليوم - بإصرار غريب - فأثارت موضوع إعادة التمثال مرات

أخرى فى أكثر من عدد بمانشيتات عريضة تتصدر ليس فقط الصفحات الكاملة التى خصصتها لحملتها داخل الجريدة، وإنما تصدرت أيضاً صفحتها الأولى ومن هذه المانشتات: " دى ليسبس يحلم بالعودة إلى بورسعيد "، " ديليسبس صانع شريان الحياة فى مصر يحلم بالعودة لقناة السويس"، و" المحافظ: ديليسبس يستحق التكريم لأنه حقق حلماً عظيماً للمصريين "، " أبناء المدينة الحرة: التمثال رمز حضارى وعودته يؤدى لرواج اقتصادى وسياحى "، " المثقفون: يجب احترام التاريخ وإعادة التمثال ليست دعوة للاحتلال "، و" احتلال الشعوب يكون بالجنود وليس بالتماثيل ". وأفرَدتْ للموضوع الصفحتين المتقابلتين بالجريدة (الدُبْل) - داخل العدد الصادر فى يوليو ٢٠٠٣م. - ولاحظ كثيرون أنها قزَّمَت فى المقابل آراء المعارضين - ومنهم محدثك يا عزيزى - واختزلتها إلى أدنى حد ممكن، وكأن تزييف الحقيقة هو ديدن ما نشرته الجريدة لتطابق هوى رئيس تحرير الجريدة وقتها (٤٨).

ولا تزال قاعدة التمثال الحجرية الخالية تثير الجدل على الرغم من مرور نحو ٥٠ عاماً على تحطيم التمثال الذى كان يعلوها . وعلى الرغم من الأصوات التى تنادى بإقامة تمثال للفلاح المصرى الذى حفرها، أو الجندى المصرى الذى دافع عنها، أو المواطن المصرى الذى احتضنها بين جوانحه، أو الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذى أعادها للمصريين فوق هذه القاعدة، فإن أى من المؤسسات المعنية، ومنها مؤسسة الرئاسة، لم تحسم هذا الأمر بما يدعم مطالب الوطنيين.

وأذكر أنه فى النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى افتتح السادات معرضا لتخطيط بورسعيد عام ٢٠٠٠ ضم تصميماً لنُصُب تجريدى انسيابى عصرى، يُوضع فوق القاعدةِ الخالية، وكان من تصميم المثال صلاح عبد الكريم . وبعد هذا المعرض أعلنت وزارة الثقافة المصرية أكثر من مرة عن اتجاهها نحو شغل القاعدة بتماثيل تُمجد الروح الوطنى يصممها فنانون مصريون وأجانب. وفى صيف عام ١٩٨٩م. نشرت صحيفة الأهرام خبراً تحت عنوان "أكبر تمثال للمواطن المصرى بمدخل قناة السويس "، وأوضحت من خلاله أن اتفاقاً تم بوزارة الثقافة على إنشاء نُصُب من تصميم المثّال المصرى آدم حنين بارتفاع ثمانية أمتار يُمثل المواطن المصرى حاملاً الدرع تعبيراً عن دفاعه عن منجزاته الحضارية(٤٩).

وحدث أيضاً أن حضر المثال الروسى الشهير (سادوفكى أوليج) من مدينة فولجوجراد إلى بورسعيد أكثر من مرة، فى آخرها عرض مجموعة من اللوحات ومجسما للنُصُب الذى اقترح أن يوضع على بعد كيلو ونصف الكيلو متر شمالى القاعدة الحالية، أى بالقرب من

بداية حاجز الأمواج الغربى، وقد راعى فى تصميمه أن يكون النُصُب ذا وظيفة ورامزاً فى نفس الآن، فارتفاعه يبلغ ٧٣ متراً وموقعه المتقدم نحو الشمال يجعل منه أول شىء يراه القادم من البحر، ليبرهن على أن أبناء مصر هم من حفروا القناة وهم حراسها أيضاً. ويتضمن النُصُب فى الدور الأرضى كافيتريا ومجموعة من المحلات التى تبيع الهدايا وغيرها، وعلى ارتفاع ٥٦ متراً قاعة معركة ١٩٥٦م. تروى قصة البطولة وتلاحم الشعب والجيش معاً فى مواجهة غارات الدول الثلاث، ثم يرتفع البناء إلى ٦٧ متراً ليروى قصة معركة ١٩٦٧م.، التى - على مرارة نتائجها - لا ينبغى أن تسقط من الذاكرة، وعبر المصعد ينتقل الزوار إلى صالة ١٩٧٣م. (قمة النُصُب) لتكون شاهدة على نصر أكتوبر ١٩٧٣م. ومن خلالها تُروى قصص البطولة الرائعة لحرب الست ساعات، وفى أقصى ارتفاع يثبت رمز صغير يعبر عن السلام (٥٠).

وفى مقابل هذه المقترحات والتصميمات ارتفعت أصوات تطالب بالإبقاء على قاعدة التمثال خالية كما هى باعتبارها الأثر الوحيد الباقى، الذى يدل على فترة هى بكل المقاييس من أهم فترات الكفاح الوطنى فى مصر، وباعتبار أن الجدل الذى يثيره بقائها خالية يجعل الذاكرة الوطنية متقدة فلا تخمد، وتتيح للقادمين الذين يثيرهم مشهد القاعدة الخالية فرصة للتساؤل عن سر خلوها، فإذا ما حصلوا على الإجابة انطبعت فى أذهانهم صورة ما حدث فى مدينة كانت وظلت مدينة مقاومة.

لكن أين نذهب بالتمثال ؟ .. هل نتركه هكذا فى مخزن من مخازن هيئة قناة السويس؟ أيضاً هذا التخزين أو التشوين ليس فى صالح الذاكرة الوطنية.

لهذا يطالب المعتدلون - واعتبرنى يا عزيزى منهم - بوضع التمثال فى متحف المدينة القومى الملاصق لرصيف دى ليسبس، مع ذكر لظروف إقامته وظروف تحطيمه، و التأكيد على أن دى ليسبس لا ينتمى إلى فرنسا الثقافية وإنما إلى فرنسا الاستعمارية.

وإننى لدهش من أولئك الذين يستهجنون وضع التمثال (أو حطامه) فى متحف المدينة فى حين أن فرنسا تحفظ تمثالين شديدى الضآلة والقِصر لفردينان دى ليسبس بمتحفى فرنسا وفرساى، أحدهما، حسبما روى ديفيد بورجوَان، طوله ٦٣ سم وهو المحفوظ فى متحف فرنسا، والآخر طوله ٢٠٠ سم وموجود فى متحف فرساى (٥١). ويحضرنى هنا أن ثلاثة من أعضاء المجلس البلدى بباريس طلبوا عقب هدم تمثال فردينان دى ليسبس إقامة تمثال بديل يقام فى باريس عوضاً عن تمثاله المحطم ببورسعيد(٥٢)، إلا أن شوارع باريس خلت للآن من أى تمثال له . إذن فلا توجد فى شوارع وميادين ومداخل قرى ومدن فرنسا كلها تمثال واحد لهذا الفردينان، فلماذا يستصغر الفرنسيون - هم وأشياعهم من

المصريين - وضع التمثال أو حطامه داخل متحف المدينة ؟.. ولماذا نكرمه فى بلادنا وقد فعل بها الأفاعيل خداعاً، ومماطلة، ونهباً، واستنزافاً، وخيانة؟ .. وبأى منطق نطالب بتبجيله وتوقيره واتخاذه رمزاً للمدينة التى سام أوائل من سكنوها سوء العذاب؟.. وكيف نكرمه وقد جرده أبناء جلدته من صفته الدبلوماسية، وحكموا عليه فى فبراير من سنة ١٨٩٣م. هو وابنه شارل بالسجن والغرامة لقاء ما ارتكباه من جرائم نصب واحتيال وتقديم رِشا ؟(٥٣). ولماذا نذهب بعيداً ؟.. ألم يصفه نائبهم العام بأنه أكبر محتال فى التاريخ؟..

الأسئلة الاستهجانية كثيرة، لكن السؤال الأكثر إلحاحاً، الذى لم نجد إجابة له حتى الآن، يدور حول الأسباب التى تمنع أهل العقد والحل فى مصر من ترجمة أمانى الشعب المصرى وحسم قضية القاعدة الخالية والتمثال المحطم لصالح تحقيق هذه الأمانى ؟..

البيت الأبيض الأمريكى:

لا أعرف كيف نسيت أن أريك البيت الأبيض الكائن فى ذات الشارع وفى نفس الصف الموجود به الفنار، بل فى أقرب منطقه منه . ملامحك توحى بأنك تستوحى صورة البيت الأبيض الأمريكى القائم فى واشنطن D.C. وتحاول الربط بين بياض كل من البيتين. وأراك قد أفلحت. صحيح أنه شتان بين البيتين، لكن البيت الذى يجاورنا أمريكى أيضاً، وكان فيما مضى مقراً لقنصلية الولايات المتحدة الأمريكية فى بورسعيد. هو مهجور الآن، لكنه كان فيما مضى يعج بالحركة . وكانت انعكاسات الأحداث البغيضة التى تتسبب فيه سياسات الولايات المتحدة الأمريكية المعادية للعرب تجد صداها هنا أمام وحول هذا البيت، فكم من مظاهرة شاركتُ فيها، وأنا بعد فتى يافع، أمام هذا المبنى ومن حوله، وكذا أمام وحول القنصلية البريطانية الواقعة أمام حديقة فريال . وحدث ذات مظاهرة اندلعت فى الستينات من القرن الفائت - ولا أذكر سبباً لعدم مشاركتى فيها - أن غضب المتظاهرين ووصل غضبهم إلى مداه فاقتحموا القنصليتين ودمروا وأحرقوا ما فيهما .

وعلى الرغم من إزالة آثار حريق البيت الأبيض، فقد انتقلت القنصلية إلى مكان آخر وظل هذا البيت مهجوراً حتى الآن .

الممشى السياحى ومحطة استقبال ركاب السفن:

ولعلك تذكر، قبل أن نستدير ونغادر الشارع والقناة بأبصارنا، ما سبق أن أخبرتك به عن السور الحديدى للميناء الذى أقيم سنة ١٨٩١م،، والكبارى العائمة المكونة من مجموعة من البراطيم التى استخدمت سنة ١٩٢٧م. وعن المظلة التى امتدت بطول الميناء سنة ١٩٥٢م. هذه المعالم اختفت ولم يعد لها وجود كما ترى، فالسور هُدم فى نهاية القرن

العشرين، وبالتحديد سنة ١٩٩٧م. وأنشئ بدلاً منه الجسر أو المشى السياحى الذى تراه ممتداً أمامك بامتداد الميناء لأهداف ثلاثة، أولها تجميل المنطقة باعتبارها الواجهة السياحية للمدينة وأول ما يشاهده القادمون من مدخل القناة الشمالى إلى مصر، وثانيها استغلاله كمتنزه للمشاة يتيح لهم رؤية القناة وحركة السفن فيها من منظور علوى، وثالثها إنشاء سوق تجارية محاذية للقناة .

صمم هذا المشى المهندس البارع ابن بورسعيد الدكتور جمال بكرى بتمويل محلى من الجهاز التنفيذى للمنطقة الحرة القائم بالمدينة، وقام بتنفيذه جهاز مشروعات الخدمة المدنية بالقوات المسلحة عن طريق الشركة الوطنية للمقاولات العامة والتوريد التابعة له. وقد تم هذا فى إطار خطة جريئة لتطوير الجانب الشمالى من الميناء وشارع فلسطين الملاصق له . والمشى كما ترى يضم عدداً كبيراً من المحلات ليس فقط بالاتجاه الغربى، المطل على شارع فلسطين، ونراه أنا وأنتَ بوضوح، ولكن أيضاً بالاتجاه الشرقى الذى يدخل فى صميم تكوين الميناء. وقد خُصصت غالبية المحلات المطلة على الميناء وعددها ٢٠٠محل لتجار البحر والبمبوطية، بعدما أُزيلت صناديقهم التى كانت تزحم رصيف الميناء ومراسى اللنشات بطريقة قبيحة وفجة، وقليلها خصص لشرطة الميناء وشرطة السياحة، أما المحلات المطلة على شارع فلسطين وعددها ١٠٠ محل فقد تم شغلها كما ترى بالمطاعم ومحلات بيع الأنتيكات والمرطبات والعطور والتليفونات المحمولة وغيرها.

وكما ترى، فإن المشى يحاذى قناة السويس ويمتد بامتداد شارع فلسطين (فرنسوا جوزيف قديماً) ويبدأ من رصيف دى ليسبس شمالاً وينتهى بمرسى معديات بورفؤاد جنوباً ؛ ويبلغ طوله ٨٥٠ متراً، وعرضه ٦ أمتار.

ولأن المشى يضم هذه المحلات لذا فهو مرتفع عن مستوى الشارع وعن سطح القناة بما مقداره أربعة أمتار ونصف المتر . ويقتضى التنزه فوقه صعود سلالم وهبوط سلالم لأنه ليس ممشى واحداً، وإنما هو مجموعة من الماشى المنفصلة عن بعضها البعض بسبب ضرورة وجود أبواب الميناء . وقد حافظ مصمم المشى على أماكن الأبواب القديمة للميناء وكذا أرقامها .

وعلى الرغم من جمال المشى المصنوعة واجهاته من الجرانيت الرمادى إلا أننا نأخذ على مصممه– رحمه الله – عدم توافق طراز وخامات ممشاه وطراز وخامات ممشى أو رصيف دى ليسبس، الذى بدا شديد الانخفاض، مختلف اللون، وتكون من جراء هذا مشهد بصرى يفتقد للتجانس. يُضاف إلى هذا أن ارتفاعه متضافراً مع ارتفاع الأبراج السكنية أدى إلى حجب رؤية القناة والسفن - الراسية فيه أو العابرة له - عن المشاة فى

الطريق الملاصقة للميناء أو الطرق القريبة منه أو المؤدية إليه . فى حين أنَّ السور القديم ما كان ليحرمك من رؤية القناة والسفن الراسية فى الميناء والحركة التى تشغو حولها، سواء كنتَ فى أقصى غرب أو جنوب أو شمال المدينة، طالما وجهتَ بصركَ تجاه الشرق ؛ أما الآن فهذا أمر غير ممكن . وأخذ عليه أيضاً أنه مع ارتفاع الممشى وتعدد مرات الصعود والهبوط لم يراع ظروف المعاقين بدنياً وكبار السن، فلم يُضَمِّن تصميمه مصاعد أو حتى زلاجات تمكن الجالسين فوق المقاعد المتحركة الصعود إلى الممشى والهبوط منه. وأعجبُ كيف فاته – وهو المهندس الخبير ذائع الصيت – هذا الأمر . وتأتى جهة الإدارة بعد ذلك فتمنع لأسباب أمنية وجمركية الصعود إلى الممشى فى الفترة المسائية لتحرم المواطنين من التمتع بمشهد القناة وأضوائها التى تتلألأ كل ليلة.

أما المظلة ـ مظلة اللنشات وقوارب اليمبوطية ـ فقد بلغت من الرثاثة حداً ما كان ينبغى أبداً الصبر عليه، لا سيما أن سقفها صار موئلا لنفايات أصحاب اللنشات والقوارب، فكثر فوقه الركام، وأكل الزمان أجزاء كثيرة منه وشرب، مما أوجب إزالته تماماً .

ولتطوير الأداء فى الميناء كان ينبغى أن تُرفع الكبارى العائمة وبراطيمها من الخدمة، وأن تستعوض بمراسى خرسانية لتتراكى سفن الركاب عليها مباشرة. وهذا ما حدث، إذ مَوَّل الجهاز التنفيذى للمنطقة الحرة إنشاء عدد منها بإشراف الهيئة العامة لميناء بورسعيد، واستتبع هذا التطوير تطويراً أخر فى مستوى الخدمة التى تقدم للسياح وركاب السفن الهابطين إلى المدينة، فتم مد رصيف الميناء الشرقى بموازاة ممشى أو رصيف دى ليسبس حتى قاعدة التمثال الخالية، وتم سنة ٢٠٠٢م. بناء عدد من الوحدات الجمركية والأمنية والسياحية ضمن مشروع عُرف باسم مبانى الخدمات السياحية، وقد مثلت هذه المبانى فى مجموعها محطة لاستقبال ركاب السفن ؛ ومن ثم تغيرت التضاريس الشمالية للميناء فأطلقتْ عليه جهة الإدارة اسم الميناء السياحى.

فى شارع محمود صدقى (أمريكا):

مدرسة العصفورى الإعدادية:

إذا التفتنا من مكاننا فوق الفنار صوب الغرب، فإن أول شارع نراه هو شارع محمود صدقى (أمريكا سابقاً) ومن موقفنا الآن تجده أسفل منا بالضبط . وأمامنا عند تقاطع شارع الطائف شارع محمود صدقى تجد مبنى صغيراً له فناء أيضاً صغير وعلى بوابته لافته مكتوب عليها مدرسة العصفورى الجديدة هذه المدرسة لها مكانة خاصة عندى فقد تلقيتُ فيها جزءاً من تعليمى الإعدادى فى سنوات ما بعد حرب ١٩٥٦ لذا كانت الصداقة بينى وبين الفنار الذى نعتليه عميقة ووطيدة. كنا وقتها نعيش فترة مليئة بالأحداث الجسام،

منها المفصلى، ومنها غير المفصلى، سواء على مستوى العالم أو الأمة العربية أو مصر أو حتى مستواى أنا الشخصى ؛ فقد كنتُ فى أوج مراهقتى، وبحنان بالغ تغمرنى الآن ذكريات هذه المرحلة، منها مثلاً تصرفات ناظر مدرستنا الشيخ الحلوجى، رجل دين طيب وودود، لكنه كان يغتاظ ـ ربما لأسباب دينية ـ كلما رأى شعرى الناعم طويلاً ومنسدلاً على جبهتى فينادى على ساعى المدرسة ليأتى بالمقص بنداء صار شهيراً به "أسرع يا بكر أسرع "، ولم يكن بكر يأتى، ولم يحدث أن قص شعرى أبداً، وإذا ما شاهد خدوشاً أو قلوباً محفورة تخترقها سهام المحبين فى خشب الدمرج الذى اجلس إليه فى الفصل هتف " هو مال مجوس؟! "، ثم ينادى بكر ليأتى بالخيرزانة، ويتبعها بالعبارة العلامة " أسرع يا بكر أسرع "، وكالعادة لم يكن بكر ليأتى..ولم يحدث أن ضربنى أبداً.

فى هذه السن الباكرة كنتُ أكتب لمجلة الحائط، قصصاً مسلسلة ساذجة، وكان الفنار أحد أبطالى، أدخله فى مغامرات عجيبة وأنسج حوله حكايات أعجب، وكان زميلى خالد حجازى يبهجنى بترجمته هذه القصص إلى رسوم كتلك التى تزخر بها مجلات الأطفال المصورة . ومازلت أذكر الأذرع والسيقان والعيون والأفواه التى يضيفها إلى الفنار، فيحول عضو العون هذا إلى كائن يحاكى البشر فى تصرفاتهم ؛ ويجعلنى بل يدفعنى إلى أن أوغل فى كتاباتى العجيبة الساذجة عنه.

ومن الحوادث التى يمكن اعتبارها حوادث مفصلية فى حياتى، حادثة كنت أنا بطلها فى هذه الفترة وكان عمرى وقتها ثلاثة عشر عاماً. حينها كان الخلاف على أشده بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم بسبب موقف الأخير من الكويت، وغيرها من الأسباب، وكان عبد الناصر يُشهِّر بعبد الكريم قاسم تشهيراً عنيفاً، ويصفه بـ " الزعيم الأوحد " و " قاسم العراق " أو " قاصم العراق ". ووقتها لم أكن قد انفتحت على المذاهب والتيارات السياسية انفتاحاً كاملاً، لكن الإعلام المصرى المتمثل فى الراديو والصحف والمجلات كان يهزنى بالحديث عن المصاحف التى يمزقها عبد الكريم قاسم ويحرقها فى العراق، وكان صوت المذيع أحمد سعيد يجلجل عبر إذاعة صوت العرب وبرنامجه الشهير وقتها " أكاذيب وحقائق " منددا بقاسم العراق ؛ ولأن اسمى هو قاسم فقد بدأ الأولاد فى المدرسة يعاكسوننى ولا ينادوننى بغير قاسم العراق ويستفزوننى بعبارات من نوع " عبد الناصر حايموتك ".." عبد الناصر حايشنقك " .. " اسكت يا قاسم العراق".. " ابعد يا قاسم العراق " .. ولأن عبد الناصر كان معشوقى مثلما كان معشوق كل الصبيان، ولدرء معاكسات الأولاد قمتُ، لا أعرف كيف، بقيادة أول مظاهرة فى بورسعيد للتنديد بعبد الكريم قاسم، فمن هذه المدرسة الصغيرة التى تقع أسفل منا هتفت أثناء الفسحة" يسقط قاسم

العراق ".. " يسقط الزعيم الأوحد " ومن خلفى هتف الأولاد.. وأزحنا عم بكر الساعى عن باب المدرسة وخرجنا نطوف بشوارع المدينة ونُخرج التلاميذ من المدارس التى تواجهنا أثناء مسيرتنا، وعثرنا على نعش فارغ بجوار أحد المنازل فحملناه، وصرنا نتزايد فى العدد كلما مشينا حتى وصلنا إلى المدرسة الثانوية فرحنا نهتف " أين رجالك يا ثانوية " وخرج رجال الثانوية وصار الحشد رهيباً حتى غطى ميدان الشهداء أمام المحافظة فخرج إلينا المحافظ ومعه رجال كبار خطبوا فينا خطباً حماسية أججت فينا المشاعر فرحنا نهتف بسقوط قاسم العراق وبحياة جمال عبد الناصر . وفى صباح اليوم التالى طلعت علينا الصحف بعناوين مثيرة عن هذه المظاهرة ومما أثار دهشتى أن إحدى الصحف كتبت تقول إن بورسعيد مشت فى جنازة صامته احتجاجاً على مواقف عبد الكريم قاسم فى حين أن الصمت كان أبعد ما يكون فى مظاهرتنا .. أقصد مظاهرتى . وفى خريف العمر وقفت أحاسب نفسى .. هل كنتُ محقاً فيما فعلتُ وقتها ؟

نادى المسرح:

وعلى مقربة، عند تقاطع شارع النصر بشارع محمود صدقى فى ذات الصف الذى نحن فيه يقع مبنى نادى المسرح ولنشأة هذا المبنى قصة، شأن الكثير من مبانى المدينة، ففى سنة ١٩٢٧ تأسست فرقة رمسيس المسرحية، وأزعم أنها من أقدم الفرق المسرحية إن لم تكن الأقدم، وعلى العموم هى ثانى فرقة مسرحية تحمل اسم رمسيس بعد فرقة يوسف بك وهبى الشهيرة وقد ضم هذه الفرقة ناد اسمه النادى الأهلى الذى غير اسمه فيما بعد إلى رمسيس . وحدث أن استقال منها فى سنة ١٩٤٠م. عدد من الأعضاء المنتمين إلى الحزب السعدى وكونوا فريقاً مستقلاً تحت اسم نادى المسرح سنة ١٩٤٠م. وذلك حسب رواية ضياء الدين القاضى عن سنده . وهنا تحضرنى ملحوظة لافتة للانتباه مؤداها أن النادى كان يذكر فى مطبوعاته أنه تأسس سنة ١٩٣٠م. وأحياناً سنة ١٩٣١م. وأخرى سنة ١٩٣٦م. وعلى الرغم من أننى أميل إلى رواية ضياء الدين القاضى فالأمر يقتضى المراجعة الدقيقة التى تتطلب وقتاً.

وقد اتخذ هذا الفريق من مسرح الليرا، الكائن عند تقاطع شارع بنما وفؤاد الأول الجمهورية الآن مقراً له. وفى عام ١٩٥٠م. تمكن الفريق من الحصول على قطعة أرض لإقامة مقر ثابت له، هو هذا المقر، وقد ساهم فى تمويل أعمال البناء المجلس البلدى بعد مناقشته بجلسته المنعقدة الثلاثاء ٢٣ مايو ١٩٥٠م. كما ساهمت شركة قناة السويس فى التمويل بمقدار الثلث، وهى نسبة أعضاء النادى من العاملين بالشركة. وقد تم الاحتفال بوضع حجر الأساس فى أول أبريل ١٩٥١م. بحضور المحافظ عبد الهادى غزال بك وفى

٢٠ أكتوبر ١٩٥١م. فى عنفوان المد الوطنى بمنطقة القناة بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦م. تم الاحتفال بافتتاح المبنى . وبسبب تصاعد الأعمال الفدائية لم يتمكن المحافظ وحكمدار البوليس من حضور حفل افتتاح فأناب المحافظ القائم مقام محمد حسن يحيى وكيل حكمدار البوليس لينوب عنه(٥٤).

وقد ظل هذا المبنى مركز نشاط وإشعاع للثقافة والفن المسرحيين لفترة طويلة، لكن فترات كمونه كانت طويلة أيضاً ؛ وفى أواخر السبعينيات، وبقرار من السيد سرحان محافظ بورسعيد، تم تعيين مجلس إدارة جديد، وقامت المحافظة بتطوير النادى وتأثيثه بعد تجديده تجديداً شاملاً ليستأنف النادى نشاطه المسرحى والثقافى، وفى سنة ١٩٩٤م. تم تجديد المسرح مرة أخرى وافتتحه بعد التجديدات فخر الدين خالد عبده محافظ بورسعيد فى الخميس ١٩٩٤/١٢/٢٩ وما لبث النادى أن أنشأ مسرحاً مكشوفاً فى حديقته قدمت عليه العروض المسرحية، لكن حدث انقلاب فى النادى مضاد للثقافة وتبعته مطالبة مالك قطعة الأرض المجاورة بجزء من حديقة النادى باعتبار أن هذا الجزء يدخل فى زمام أرضه وحكمت له المحكمة بأحقيته فيها وبعدها- وربما قبلها أيضاً - توقف النادى عن ممارسة نشاطه المسرحى وانصرف الأعضاء إلى ممارسة أنشطة أخرى كلعب البلياردو وتنس الطاولة والبريدج والشطرنج . ولى حديث ضاف معكَ عن المسرح فى بورسعيد، وسيكون لنشاط فرقتى رمسيس ونادى المسرح نصيبا فيما سأحدثك به.

الكازا إيتاليا:

وإلى الشَمال من نادى المسرح، حيث يتقاطع شارع عبد السلام سابقاً(عادل طه حالياً) مع شارع محمود صدقى، يقع مبنى كازا ايتاليا التابع للقنصلية الإيطالية. وهو مبنى عريق حضر افتتاحه سنة ١٩٣٨م. القائد الإيطالى موسولينى، وكان مركزاً إشعاعياً للثقافة الغربية، وكانت تشغل صالته الكبيرة سينما ديانا، وجناحه الغربى كانت تشغله المكتبة الأمريكية، وفى زمن ما بعد الثورة، فى أوقات التوتر السياسى - وما أكثرها - كان ببورسعيد موقعان ثقافيان إذا ما ارتادهما المواطن المصرى كان موضعاً للمراقبة، هذان الموقعان هما سينما ريو التى تعرض الأفلام السوفيتية بالعقار رقم ٦ بشارع الجمهورية، والمكتبة الأمريكية بمبنى كازا إيتاليا وما لبث المكتبة الأمريكية أن أُغلقت وسينما ديانا أن تعطلت. وطرأت على المبنى حالة من التدهور كبيرة ،لاسيما فى الفترة الممتدة من نكسة ١٩٦٧م. حتى أواسط الثمانينيات ؛ إلى أن تم ترميمه وأعيد تخصيصه للعاملين الإيطاليين فى جمهورية مصر العربية، وحضر حفل تدشينه بعد الترميم كل من محمد سامى خضير محافظ بورسعيد وچيوفانى ميليولو سفير إيطاليا لدى مصر، وكان ذلك فى ٢٤ ديسمبر

١٩٨٧م،، فى إطار احتفالات بورسعيد بعيدها القومى الحادى والثلاثين . بعدها استغلت قاعات المبنى كمعارض للفنون التشكيلية والبيناليات، كما عُرض على خشبته مجموعة من المسرحيات، واستضافت هذه الخشبة بعض الفرق المشاركة بالمهرجان المصرى للمسرح التجريبى، إلا أن ارتفاع البرج السكنى الضخم الذى أقيم إلى يمينه أدى إلى تصدعات عطلت العمل به مرة أخرى، ومن وقتها لا يزال المبنى مهجوراً، ولا يملك الناظر إليه إلا أن يتحسر على ما كان يزخر به هذا المبنى من نشاط .

فى شارع الجمهورية (النيل والسلطان عثمان ـ فؤاد):

عمارة لويس كولوفيتش:

أرسل بصرك إلى الغرب قليلاً وتوقف به عند تقاطع شارعى الجمهورية ٢٣ يوليو أو ـ على قديمة ـ شارعى النيل وكتشنر. ها هى تلوح أمامك عمارة من أفضل عمائر المدينة . إنها العمارة رقم ٧٦، عمارة المهندس لويس كولوفتش المبنية فى أوائل القرن العشرين، تزهو لا تزال بجمال تصميمها وبالناصية المتميزة التى تحتلها، وبطوابقها الخمسة وأعمدتها الفخيمة، وبلون جدرانها الأحمر، الأحمر الداكن، لون محتشم يوحى بالرقى والاحترام . انظر إلى تلك الاستدارة الخفيفة عند التقاء واجهتيها.. استدارة رشيقة تزيد المبنى جمالاً، وتضفى عليه انسيابية غير مبالغ فيها. أمامها على الضفة الأخرى من شارع الجمهورية عمارة حديثة البناء، هى عمارة " فلا " بُنيت بعد حرب ١٩٧٣م. بعدة أعوام، فى مكان المحطة العسكرية والقيادة البحرية بعدما نقلا منه، ومن قبلهما كان هذا المكان معسكراً للطوبجية . قارن بين العمارتين تجد أن القديمة تبز الحديثة جمالاً ودقة، وربما متانة .

مبنى البوستة:

وهذا البرج الأبيض الضخم مساحة وعلواً الذى تراه بعدما تسحب بصرك باتجاه الجنوب هو البرج الذى شاركت البريد فيه مكاتب التأمينات والمعاشات وجمعية تمويل المشروعات الصغيرة وبعض الشركات والمحلات التجارية . شغل هذا البرج المكان الذى كان يشغله مبنى البوستة القديم الذى وُضع أساسه عام ١٩٠٢م. بحضور محافظ القناة حسين ناصف باشا. كان مبنى حجرياً كلاسيكياً بلون الحجر الجيرى ؛ ولم يكن يرتفع لأكثر من طابق واحد يعلو طابقه الأرضى، ونوافذ الطابق الأول العلوى رأسيه مستطيلة، بينما نوافذ الطابق الأرضى وإن كانت تساوى التى تعلوها فى الاتفاع، إلا أن حدودها العلوية تأخذ شكل العقود ؛ وجميعها متساوق، مع ارتفاع الطابقين، فى هندسة بديعة تريح البصر وتوحى بالجلال . إن تجاوزتَ بوابته التى تتوسط واجهته المطلة على شارع

الجمهورية ومررتَ من بين أعمدتها الضخمة رأيتَ فى الداخل الفناء الجميل النظيف المفتوح على السماء، وطالعتك نوافذ تقديم الخدمات البريدية من استلام وتسليم الرسائل والطرود وبيع الطوابع والاستمارات وغيرها من الأنشطة البريدية. ولا أعرف لماذا كنتُ أستشعر الرهبة كلما دخلت هذا المبنى فى صباى وشبابى . ربما عاد الأمر إلى الجلال الذى كان يشع من عمارته . أول مرة دخلت فيها هذا المبنى أحسست بأننى إنما أدخل إلى محكمة . هذا المبنى دمره القصف الإسرائيلى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م. وإلى جنوبه من ناحية شارع بنما الذى أصبح شارع المرحوم محمد موسى فندق " دى لا بوست " بأعمدته وتراسيناته الخشبية الرشيقة ولونه الأبيض الزاهى وطوابقه الثلاثة، بخلاف غرف السطح والمقهى الذى كان يحمل اسم الفندق ثم تحول إلى حلوانى طمه. وقد سيطر مبنى البوستة على الشارع فظل لفترة طويلة لا يعرف إلا بشارع البوستة.

البيت الحديد:

استمر فى الاتجاه ببصرك جنوباً ستستوقفك قمم مجموعة من الأبراج السكنية المتلاصقة . أرجو أن تتوقف عندها قليلاً .. هنا عند شارع أوجينى ينتهى شارع النيل ويبتدئ شارع السلطان عثمان الذى أصبح أيضاً شارع الجمهورية . هذه الأبراج التى تقع إلى الجنوب الغربى من تقاطع شارع الجمهورية بشارع صفية زغلول (أوجينى)، بالكاد تم الانتهاء من أعمال تشيدها، تقع جميعها فى المربع الذى كان يشغله فندق ايسترن إكسيتشينج، وما أدراك ما فندق استرن إكسيتشينج. فى قناعتى وقناعة كثيرين غيرى كان هذا مبنى هذا الفندق تحفة معمارية ذات طابع هندسى فريد، فمادة بنائه الأصلية هى الحديد ومعدن الزهر، أعمدته وكمراته وأفاريز فرنداته وشبابيكه - المغطاة بالزجاج - كلها من الحديد ومعدن الزهر. لذلك لم نكن نعرفه بغير اسم واحد لا يتغير هو " البيت الحديد ".

عدد طوابقه ستة طوابق بخلاف الطابق الأرضى والروف . بناه الإنجليز عام ١٨٨٤م. ليكون مركزاً اقتصادياً وتجارياً، لكنه تحول لإلى فندق . بالطابق الأرضى من الفندق كنتَ تجد مقهى راقياً وصالة للموسيقى والرقص وبار وقاعة استقبال وصالة للشاى، ولم يكن يرتاد هذا الفندق سوى علية القوم والأشخاص البارزين . فى الحرب العالمية الأولى - حسب ضياء الدين القاضى نقلاً عن اليونانى ديمترى خالدوبيس - استولت على المبنى القوات البريطانية، ولم يكن قد صار فندقاً بعد ونُصبت على سطحه مدافع مضادة للطائرات ووضعت فيه محطة راديو لاسلكية لمقاومة الغارات الألمانية التى استهدفت المدينة والميناء .

بعد انتهاء الحرب استأجره المسيو سيلفيو سيمونيني، الإيطالى عمدة أعمال الفندقة فى بورسعيد، وأدخل عليه عدة تعديلات وصار به حتى جعل له شهرة واسعة، لدرجة أن الفيلد مارشال مونتجمرى حل ضيفاً على هذا الفندق عندما جاء إلى المدينة ليهنىء حكمدار بوليس القنال ابن بلدته (أبلت بك) بانتصار الحلفاء على قوات المحور فى معركة العلمين(٥٥). وفى الحديقة الخلفية للفندق تأسست سينما إيسترن الصيفية . وكنتُ أهوى عند مرورى بهذا الفندق، وبالسينما الملحقة به، قراءة الكلمات الإنجليزية الضخمة المثبتة عند الروف أو فوق الفرندات أو فوق الباب الذى يؤدى إلى السينما وتحريك لسانى - تعتعة - بما أقرأه، فى محاولة منى لتعلم الإنجليزية بمفردات تخرج عن المقرر المدرسى، وكان هذا يسعدنى فإنجليزية المدرسة ليست فيها كلمة ويسكى whiskyالتى تتضمنها عبارة إعلانية تعلو سطح الفندق، ولا كلمات مماثلة لأسماء الفرق التى ستحيى سهرات الفندق المكتوبة على البانوهات الموجودة أمام الواجهة وفوق الرصيف، لكننى ما لبثتُ بعد حرب ١٩٥٦م. أن كرهتُ الإنجليزية ومن يتحدثون بها، كما كرهتُ بائع التذاكر حينما عزمتُ على الدخول إلى سينما ايسترن وجمعت قروشى كلها وقدمتها له، فإذا به يدفعنى بازدراء عن شباكه ويصيح فى " إمش يا شاطر " . كان المبلغ يكفى ثمن التذكرة، وكنتُ ارتدى ثياباً أنيقة تضارع ثياب أولاد الخواجات وعلية القوم، ومع ذلك صرفنى هذا الرجل بتلك الطريقة المهينة. وفيما كنت أتراجع عن الشباك مغتاظاً سيطر علىَّ إحساس جارف بأن سبب حرمانى من دخول هذه السينما هو كونى من سكان حى العرب، وأن بائع التذاكر اكتشف هذا فخشى على الأجانب والمتفرنجين منى . كان هذا قبيل حرب ١٩٥٦م. بأسابيع، وقت أن كان الحضور الأجنبى لا يزال قوياً فى بورسعيد، وكنتُ قد تجاوزتُ الحادية عشرة من عمرى بشهور.

أتذكر هذه الحادثة الآن وأعجبُ من تصرف ذلك الذى طردنى وازدرانى لأننى رأيته فيما بعد يسكن فى عشة صفيحية بواحدة من أفقر المناطق العشوائية بالمدينة وأقصد بها عزبة فاروق التى كانت تقع، هى ومناطق عشوائية أخرى كعزبة النحاس وعزبة الحرية، على مشارف شارع رقم ١٠٠ (البحيرة سابقاً) هذا الشارع الذى كان يحد حى العرب وحى المناخ القديم من ناحية الجنوب . وأرجو أن تتاح لى فرصة الحديث عن هذه العشوائيات فيما بعد.

المهم تم تهشيم هذه التحفة المعمارية الفريدة لصالح نشاط المضاربة، وقامت على الأرض التى كانت عليها هذه الأبراج الأسمنتية، التى تحاول أن تكون جميلة وما هى كذلك. ويقال إن المقاول الذى هدم البيت الحديد وقع على كنز ثمين تمثل فى كمية هائلة من

مادة الرصاص (الخارصين) كانت تبطن أساسات الفندق.

الكونتننتال الذى كان:

وثمة تحفة معمارية أخرى كانت قائمة فى ذات الشارع وكانت تُستغل أيضاً كفندق راق، وكان يديره كذلك مسيو سيمونينى، واقصد به فندق الكونتننتال الكبير ذا الملامح الكلاسيكية المستقرة . كان هذا الفندق يتكون من ثلاثة طوابق لا غير ويتميز بفرنداته المكشوفة الممتدة الاتساع ولم يكن بغرفها نوافذ، وإنما أبواب تؤدى إلى الفرندات وجميع هذه الفرندات سور من الحديد المزركش . وكان هذا الفندق يموج بالحركة الدائمة وبالزوار من مختلف الجنسيات.

لا وجود لهذا الفندق الآن، ولكن يوجد فندق آخر أخذ منه اسمه وإن ألحق صاحبه به صفة تدل على حداثته. إنه فندق الكونتننتال الجديد، وشتان بين طراز معمارى كلاسيكى لمبنى أقيم فى بدايات القرن المنصرم، وآخر حديث لمبنى أقيم فى أخريات ذات القرن . المقارنة بكل أسف لصالح البناء القديم.

فندق آكرى:

لو استمررتَ فى الاتجاه ببصرك جنوباً حتى نقطة التقاء شارع الجمهورية بشارع الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض ستجد مبنى هادئا رزيناً يمتد جنوباً حتى شارع دجلة يتكون هذا المبنى من أربعة طوابق لا أكثر، ولونه كما ترى أصفر كزهرة عباد الشمس . هذا المبنى الذى يحمل رقم ٢٤ هو مبنى فندق أكرى لأصحابه أخوان نيقولا نديسن . لكنهم لم يعودوا أصحابه، فقد آلت ملكيته لإحدى شركات الاستثمار السياحى، وهى شركة قاهرية وغير معروف تحديداً كيف كان ستستغل الفندق المعطل فى الوقت الحالى .

بنوك ومقاهٍ وبارات وملاهٍ:

وبالشارع كثير من البنوك والمصارف، بل هو شارع البنوك والمصارف، وهو أيضاً شارع النزهات الليلية والمقاهى الراقية والملاهى الليلية الصاخبة .

من البنوك التى زالت ومُحيت: البنك العثمانى (وهو أقدم بنك أقيم فى ببورسعيد إذا أنشئ فرعه بها فى سنة ١٨٦٣م.)، بنك كوربلات، بنك الكريدى ليونيه، بنك باركليز، بنك الأنجلو إيچيبشيان، بنك كنتوار ناشيونال دى إسكونت دى باريس، البنك البلچيكى للخارج، بنك دى روما، وبنك يونيان . والموجود حاليا فى هذا الشارع من البنوك : مصر، القاهرة، بيريوس مصر، الأهلى سوسيتيه، الأهلى، المركزى والمصرف العربى الدولى .

ومن المقاهى : چيانولا (وهو اسم أول مُلاكه وكان سويسرياً إيطالياً) ودى لابوست وايزاكتش (جلال حالياً / مطعم). ومن المقاهى الحديثة التى أقيمت فى هذا الشارع ونالت

شهرة: پاپای، وبيتزا بينو.

ومن البارات والملاهي : اسبلندد وسيسل وبلوبيرد الذى حل محل مقهى وبار ريتش، وبعدها بمدة ملهى شهرزاد، وجميعها زال باستثناء سيسل . والبارات كانت كثيرة منها : نيوبار، ماچيستك (بار وكافيه)، بار براديس، التريانون، وغيرها . ولا يوجد منها الآن سوى سيسل .

الفصل الثالث

وصف المعمار



أنا رهن إشارتك عزيزى القارئ.

صحيح أن ما تطلبه قد يبدو عسيراً على غير المتخصص، لكن لدى فيما أزعم ما يمكننى من القيام بالمهمة .

أنت تستفهم عما شاهدته وتشاهده من آيات معمارية ما عادت تتكرر، وتسأل عن التشعب الهائل فى الطرز والنماذج التى أمتعت باصريك، وتستفسر عن سر التناغم بين ما يحيط بك من عمائر والبيئة التى زُرعت فيها، وكذا حالات النشوز العمرانى التى أخذت تستشرى فى ثنايا هذا الجمال، وتريد أن تحصل - فوق الإجابات التى تتوقعها منى - على أفكار أدق وأعمق، وأن تنال شروحاً أكثر وأشمل.

حسناً.

لن أطلب منك إلا أن تتابعنى . وإن شئتَ حدد أنتَ نقطة البدء، فأجيبك.

حسناً .. ما دمتَ قد تركتَ الأمرَ لى فاسمح لى بأن أبدأ بالعام غير المخصص . ولعلك لا تخالفنى الرأى إذا ما حددتُ الاتجاهات المعمارية الموجودة فى بلادنا بأربعة اتجاهات:

* أولـــهـا: يحافظ على العناصر المعمارية المحلية ولا يبغى عنها حوِلًا.

* وثـانيـها: يعيد تشكيل العناصر المعمارية المحلية بتطعيمها بعناصر معمارية غربية حديثة.

* وثـالـثـهـا: يبدأ بالعناصر المعمارية الغربية الحديثة ويُطعمها بعناصر تراثية محلية.

* أما رابعها: فيتجاهل كل ما هو محلى ويتبنى النموذج العالمى باعتباره محصلة التقدم المعمارى .

ويُفترض فى هذه الاتجاهات جميعاً أنها تبنى على أن العمارة هى المأوى أو المُغلَّف البنائى أو السياج المُشيد من قِبل فرد أو مجموعة، وأن المعمارى هو كل من شيد مأوى أو مغلفاً بنائياً أو سياجاً يسد حاجة فرد أو جماعة فى أى مكان وأى زمان(٥٦).

وطبعاً لن أخوض معك بحور التعريفات التى لا نهاية لها، لكن لنتفق بأن العمارة هى فن وعلم تشييد المبانى التى تغطى احتياجات الإنسان المادية (كالسكن والعمل)، والمعنوية (كالراحة والأمان)، وذلك باستخدام مواد وأساليب إنشائية مناسبة.

لن أزيد على هذا إلا فى الربط بين العمارة والحضارة باعتبارها ذات تأثير فعال ومستمر ما بقى المبنى المعمارى، وأنها - أى العمارة - بهذا المفهوم تشرح تاريخ الأمم، وتعبر عنه، وتعكس صورة المجتمع عبر مراحله المختلف، مثلما تعكس صور التغير الذى يطرأ عليه فى كل مرحلة من هذه المراحل .

وهذا ما يمكن تبينه فى أنماط وطرز العمارة ببورسعيد.

لا .. لا تتعجل وتقول إنكَ إنما ترى قطعة خالصة من أوربا، فبورسعيد ليست قطعة من أوربا، وبالمثل هى ليست مدينة مصرية نقية، لأنه - ببساطة - لا عمارة نقية على الإطلاق، هذا هو رأيى ؛ حتى حينما كان البناء يتم بأوراق وجذوع الأشجار، لم يكن هناك - أيضاً - بناء نقى، لأن البناء كان - وما زال وسيظل - معتمداً على الخبرات المتبادلة بين البشر سواء كانوا أفراداً أم شعوباً وأمماً .

وهذا هو حال العمارة فى بورسعيد . لذا فهى تعتبر بحق مرآة صادقة لصور الحياة الموجودة بالمدينة منذ نشأتها حتى الآن .

أتعرف لماذا ؟

* أولا: لأنها ترجمت أفكار المصممين المعماريين ترجمة عملية ملموسة ومرئية.

* ثانياً: لأنها لاقت قبولاً واستيعاباً من المجتمع الذى منحها وطناً للتواجد فيه، وشرفها أفراده باستخدامهم لها والعيش فيها ومن حولها.

إنه التنوع المعمارى إذن الذى يستبعد الاتجاهين الأول والرابع من الاتجاهات التى ذكرتها لك آنفاً، فالمعمار ببورسعيد لا هو محلى خالص ولا هو عالمى - أو أوربى - خالص، وإنما هو عَوان بينهما، لكن بأى اتجاه؟.. هل سار بالاتجاه الثانى الذى أعاد تشكيل العناصر المعمارية المحلية بعد تطعيمها بعناصر معمارية غربية حديثة، أم هو اتجه الاتجاه

الثالث - العكسى - الذى تبنى العناصر المعمارية الغربية الحديثة بعد تطعيمها بعناصر معمارية محلية ؟

أنا شخصياً أميل إلى الاتجاه الثانى، لكن متى كان ما يتمناه المرء يدركه ؟

بكل أسف، وأقولها دون حسرة كبيرة، لأن حتميات الجغرافيا والتاريخ لا مهرب منها، ساد الاتجاه الثالث على ما عداه ؛ وأصبحت العناصر المعمارية الغربية - بلغة الإحصاء - هى المتغير المستقل، والعناصر المعمارية المحلية هى المتغير التابع . وهذا أمر لا يتجافى والسياقات السياسية والثقافية والاجتماعية المصرية من قبل نشأة بورسعيد حتى الآن، فلماذا تنبو عمارة المدينة عن هذه السياقات، ونشأة المدينة ذاتها ما جاءت إلا فى كنف هذه التبعية، بل كان نشؤها - كما هو معروف - أحد أبرز تجليات هذه التبعية؟

من هنا فإننى أرى أن مجرد تغلغل العناصر المعمارية المحلية إلى تصميمات العمائر الغربية التى أقيمت فى المدينة لهو دليل كاف على حيوية الثقافة المصرية، وعلى أنها لم تستسلم تماماً للغربيين، وقد مثلهم الفرنسيون فى البداية ثم زاحمهم الإنجليز فشعوب دول أوربا المتوسطية وغير المتوسطية. ولعل ابن خلدون ما كان يتوقع أن تظهر بعد موته بعقود وعقود مدينة اسمها بورسعيد تتمرد على مقولته عن ولع المغلوب بتقليد الغالب فى شعاره وزيه ومعماره وسائر أحواله، ولا تطبقها التطبيق الكامل . وسوف ترى بنفسك الدليل فى عمائر المدينة إنْ لم تكن قد رأيتها بالفعل . سوف ترى أننى لا أحاول بهذا تجميل واقع المعمار المحلى من منطلق التعصب الوطنى، لأن الحقائق الموجودة بين الشوارع وفوق الأفاريز سوف تثبت لك هذا .

وفى نفس الوقت أنا لا أتشيع لأنماط البناء المحلى، ولا أعتبرها أنماطاً مثلى .. مطلقاً .. فقد ران عليها الجمود لآماد طالت، ونالها من القبح وفساد الذوق الكثير.

لا مندوحة إذن من الالتقاء بين الطرز المحلية والأجنبية.

المؤلم فى الأمر أن هذا الالتقاء لم يأت عبر منافذ الاتصال المعتادة من تجارة وترحال وتبادل سلمى للأفكار والمنافع، وإنما جاء مصحوباً بممارسات هى مزيج من القهر والجبر والخديعة والاستعلاء.

هو أمر مؤلم حقاً وجارح للشعور الوطنى.

وقد يُخفف من هذا الألم ويُرطب من ذاك الجرح - ولو مؤقتاً - إدراك أن أوربا نفسها أفادت بالمنجز المعمارى المصرى - تحديداً - فى العهود السحيقة وأن الحضارتين اليونانية والرومانية فيهما من المعمار المصرى الكثير، كما أفادت من المعمار العربى من خلال دولة الأندلس إفادتها من الأتراك عبر دول البلقان . معنى هذا أن أوربا استنبطت طرزها

المعمارية من هجين ما تجمَّع لديها من إنجازاتها وإنجازات الغير، ومن هذا الغير العرب بطبيعة الحال . فلماذا لا نقبل التقاء الطرز المعمارية والمحلية على أرض بورسعيد، ليس باعتبار هذا الالتقاء أمراً واقعاً، ولا باعتبار أنه يعنى رد بعض بضاعتنا إلينا، وإنما باعتباره أمراً حتمياً لا غنى للثقافة المعمارية عنه إذا ما أريد لها أن تنمو وتتطور؟

إن الاستبعاد سهل، والاحتواء صعب.

والصعوبة تكمن فى تعدد مستويات المعانى التى يطرحها المبنى، لاشتماله فى حالة الاحتواء على بؤر متعددة للتركيز البصرى، ومن ثم فإن قراءة عناصره تتطلب طرقاً شتى.

ومثل هذه الصعوبة أصبحت فى بورسعيد سلسة ميسورة.

يعود السبب، فى رأيى، إلى كون العمارة الموجودة بها عمارة عضوية، فقد راعى المصممون المعماريون القدامى البيئة الطبيعية، واجتهدوا ما أمكنهم الجهد حتى لا يدمروا هذه البيئة، وجعلوا من عمائرهم مُكملات لها . ربما بدا التكامل مع الطبيعة جنوحاً مثالياً، لكنه شهد تطبيقاً معقولاً فى بورسعيد .. القديمة بالطبع .. فقد أظهر هذا التطبيق قدراً من التوافق والانسجام بين الطبيعة والعمارة على الرغم من أن هذه العمارة قامت على أجزاء مغتصبة من بحيرة المنزلة (بالردم) وموهوبة من البحر المتوسط (بالطرح). ويتبدى هذا فى عدد من الصور منها:

* اتفاق العمائر مع طبيعة الساحل.
* إقامة العمائر القريبة من البحر والبحيرة على أعمدة.
* إتاحة رؤية البحر والبحيرة للسائر فى شوارع المدينة.
* السماء المفتوحة.

لقد كانت بورسعيد فى هذه الفترة موطناً للتجارب المعمارية، التى أرى أن أقل ما توصف به أنها كانت تجارب ناجحة، لما قدمته لبورسعيد من ثراء وتنوع معمارى من ناحية، وألفة وانسجام بيئيين من ناحية أخرى.

طبعاً حدثت تغيرات كثيرة، وما عاد ممكناً ما كان متاحاً، فقد ظهرت عمائر تختلف ملامحها عن ملامح البيئة المائية التى تحيط بالمدينة من كل جانب، وبعد أن دمر المعتدون فى حرب ١٩٥٦م. الكبائن الخشبية ذوات الأعمدة أنشئت مبان خرسانية متنافرة الطرز، واختفى البحر واختفت البحيرة حتى عن السائرين بمحاذاتهما، وأغلقت السماء بالعمائر التى وصلت ارتفاعاتها إلى اثنى عشر طابقاً بعدما كان أقصى ارتفاع لا يزيد حتى النصف الأول من سبعينيات القرن الفائت عن خمسة طوابق.

وللحقيقة فإن هذا التبدل لم يحدث بين يوم وليلة، ومنه أيضاً ما هو حميد، لكن الخبيث

أكثر عدداً وانتشاراً . وقد حدث التبدل الحميد قبل انتهاء القرن التاسع عشر، بنحو خمس عشرة سنة، وفى أوائل القرن العشرين . وعلى العموم فإننا لا نستطيع الحديث كثيراً عن الطرز المعمارية لما أنشئ منذ بداية الحفر سنة ١٨٥٩م. والافتتاح سنة ١٨٦٩م.، لأنه لم يتبق من هذه الإنشاءات سوى الفنار الحجرى الذى تعطل استخدامه لابتعاده عن مدخل القناة بسبب طرح البحر، ولعلو العمائر التى طاولته وتجاوزته فى الارتفاع.

ولا مرجعية للحديث عن هذه الفترة سوى قراءة التاريخ والصور التى كانت فى البداية رسوماً. وكانت البدايات الأولى مع الخيام المصنوعة من القماش المشمع الثقيل، وكانت خياماً مربعة ولها قمم هرمية، ثم ظهرت الأكشاك التى استجلبت من حرب القِرم وكانت خشبية ، مستطيلة، من طابق واحد، مساحات الأطراف أكبر من مساحات الأجزاء الوسطى، لها نوافذ طولها رأسى، وشرفات تعلو عن سطح الأرض بنحو المتر، وأسقفها المائلة متعددة الأضلاع بسبب كبر مساحات الأطراف، وهى أسقف ممتدة إلى ما دون الأسطح بنحو نصف المتر من ناحية الواجهات التى بها الشرفات لتوفير الظل لمن يجلس فيها، أما الواجهات التى ليس بها شرفات فتمتد الأسقف من ناحيتها لسنتيمترات قليلة، وكانت هذه الأكشاك على قدر من الجمال معقول، فللشرفات أسيجة ذوات حليات متكررة من الخشب المفرغ، وللأسقف المصنوعة أيضاً من الخشب كرانيش من نفس الخامة . كذلك كانت أسقف الورش التى بُنيت أيضاً من الخشب، وكان منها المستطيل وما يتخذ شكل حرف الـ (L) أو شكل (مربع ناقص ضلع)، ولأنها لم تعْد عن كونها مجرد عنابر عمل فقد انعدمت فيها الزخارف وقلت النوافذ وبدت على قدر من التقشف كبير . أما مساكن الوطنيين بقرية العرب فكانت غاية فى البؤس، ولم تخرج عن كونها أكواخاً مصنوعة من كل ما يمكن إقامته أو فرده من مخلفات العمل وبعض الخيام والهلاهيل، ولربما ظهر بالقرية بيت هنا وآخر هناك.

وحسب " مارى ـ لور كورنييه ـ لو كونت " فإن بورسعيد التى، نعرفها اليوم لا ترجع مبانيها إلى ما قبل سنة ١٨٨٥م. إذ أنه فى الحقبة التى تلت هذه السنة أخذت العمائر متعددة الطوابق، المشيدة من الطوب تحل شيئاً فشيئاً محل المنازل الخشبية . ويبدو لى، وهذا ما استشففته مما كتبته مارى ـ لور، أنها ارتكزت فيما ذكرته على ما ورد بدليل " بيدوكير " الألمانى فى طبعته لسنة ١٨٨٥م.بشأن وجود اثنتى عشرة قنصلية أوربية، وثلاثة بنوك (البنك الإنجليزى ـ المصرى، والكريدى ليونيه، والبنك العثمانى)، وفندقين (فندق هولندا، وفندق فرنسا، وكذا اللوفر)، وبعض أماكن اللهو: مثل مسرح إلدرادو، الجراند كازينو، ومقهى الپارادى(٥٧). وأرجو أن تكون قد لاحظتَ الفرق بين التاريخ الذى ذكره

ضياء الدين القاضى، ونقلته لك عنه، بشأن نشأة مسرح الأولدرادو والتاريخ الذى نقلته لنا مارى - لور عن دليل " بيدوكير "، فقد ذكر ضياء أن هذا المسرح أنشئ سنة ١٨٩٦م. فى حين ذكرت مارى - لو أنه أنشئ قبل سنة ١٨٨٥م. والفرق هنا كبير، ويحتاج إلى استقصاء.

على أية حال فإن العمائر الموجودة ببورسعيد الآن، ويمكن وصفها بالتاريخية، إنما تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فى هذه الحقبة ظهرت العمائر ذوات البواكى التى تتيح للمترجلين محاذاة الشوارع بطول امتداداتها فوق الأرصفة وبمنأى عن لفحة الشمس وبلل الأمطار، ليس هذا فقط وإنما أتاحت لهم أيضاً فرص التسوق من المحلات التى تشغل الطوابق الأرضية فى العمائر ذوات البواكى دون التعرض لمضايقات الطقس والمَرْكبات بأنواعها وأكثرها كانت تجره خيول .

وأساس البواكى هو الأعمدة التى ترفعها، وهى أعمدة مرتفعة عن سطح الأرض بحوالى ستة أمتار فى المتوسط . وتتنوع الخامات المصنوعة منها هذه الأعمدة مابين الأخشاب والأحجار والخرسانة، كما تتنوع أشكالها وحلياتها.

وكانت الجدران تبنى من الحجر الجيرى وقوالب الطوب الأحمر(الطوب المحروق)، وتقام على هياكل خشبية رأسية تأخذ شكل المربع أو المستطيل، وبخلاف القوائم كانت عروق خشبية تقسم المربع أو المستطيل إلى مثلثين، وتتقابل أحياناً هذه العروق فتكوِّن فى المربع أو المستطيل الواحد أربعة مثلثات، ونادراً ما كانت تُصَفُّ هذه العروق أفقياً داخل هذه المربعات والمستطيلات، أما الطوب المحروق والملاط فكانت تملأ بهما الفراغات بين الهياكل . وإنْ أردتَ رأيى كانت هذه العروق الخشبية أكثر صلابة وعمراً من الأسياخ الحديدية التى أصبحت من أهم عناصر عمائر فى عصرنا الحديث .

والشرفات، التى تعرف فى المدينة باسم التراسينات، تبدأ من الطابق الأول ولها أسيجة من الخشب، أو الحديد المشغول ،أو من الطوب أو الخرسانة - الخالصة أو المفرغة مع تزويدها بحليات من الجص - وتحمل هذه الشرفات على كوابيل خشبية أو حديدية أو خرسانية، إنْ لم تكن تحملها أعمدة البواكى، وعادة ما لا تزيد المسافة بين كل كابولين خشبيين عن نصف المتر أو المتر كحد أقصى، ومع الكوابيل الخرسانية تزيد هذه المسافة عن المتر بكثير، وقد تصل فى بعض الحالات إلى أربعة أمتار، وفى بعض العمائر قد يُكتفى بكابولين اثنين فقط يحملان الشرفة من ركنيها، اقتربا أو بعدا، أما الكوابيل الحديدية فتأخذ شكل الحلية عادة وتستخدم فى المنازل الخشبية ذوات الشرفات المسيجة بالحديد المشغول بنفس الطريقة، وهذا النوع من الكوابيل يُثَبَّت عادة بالأعمدة الخشبية والكمر

الخارجي للشرفة، وسوف أحدثك عنها فيما بعد .

وأرضيات العمائر الخشبية تكون أيضاً من الخشب، وتتكون من ألواح طويلة ملتحمة بعضها بالبعض بتلبيس اللوح منها في الآخر المجاور له بعد إعداد الألواح بالطريقة المعرفة بـ " الدكر والنتاية "، وتثبت فوق القواطع الخشبية السميكة المتقاطعة مع بعضها البعض مكونة لأساس الأرضية أو " العضم " الذى ستلتصق به هذه الألواح ؛ ولأن هذه القواطع تمثل أسقفاً لما هو دونها، وحتى لا تظهر للناظر، ولإضفاء لمسة جمالية، فقد كانت تغطى بحصائر من عيدان الغاب الرفيع المشدود إلى بعضه البعض ثم تغطى بالجبس، وهذه الطريقة تعرف بـ " السدة واللياسة ".

والأسقف في ذلك الوقت كانت مرتفعة وعدد الحجرات في الشقة السكنية الواحدة بحى الإفرنج كان يتراوح بين ثلاث حجرات وخمس، على العكس من عمائر حى العرب فقد كان أغلبها شديد الضيق، حتى أنّ منها ما لا يسع سوى حجرة واحدة شديدة الضيق . والحجرات مضاءة بالشمس بفضل النوافذ الكبيرة وأبواب الشرفات إلا من بعضها، وكان يُطلق على الواحدة من هذا البعض وصف " خزنة "، ومن السكان من كان يستخدمها بالفعل لتخزين المتعلقات المنزلية من أطعمة ومنقولات لا تستعمل، وفى هذه الحالة تعرف بـ " أوضة الخزين " . وكل نافذة كانت - وما زال كثيرها كذلك - مزودة بشيش خشبى يخفف الضوء ويكفل التهوية، وكذلك أبواب الشرفات . والشيش مُؤلف - فى العادة - من مصراعين وأحياناً من ثلاثة أو أربعة مصاريع، ويتم فتحها بالسحب إلى داخل الحجرة، والإغلاق يتم بدفعها إلى النافذة، و يسمى الرتاج الذى يُحكم به إغلاق الشيش " سبيونة " ؛ غير أن أشياش بعض النوافذ كانت من نوع مغاير، نوع مثبت فى أعلى حلق النافذة وينسدل إلى أسفل، وكانت هذه الأشياش مصنوعة من الخشب الخفيف ولها إطارات صلبة وتفتح بالدفع إلى الأمام باتجاه فضاء الشارع ويُسند كل شيش بقائمين حديدين مفصليين مثبتين إلى جانبى قاعدة النافذة ، فيصنع مع حلق الشباك شكل المثلث قائم الزاوية، أما غلقه فيتم بثنى مفاصل القائمين.

ومن عمائر المدينة القديمة ما كان لكل نافذة بواجهاتها مظلة قصيرة لا تزيد على سنتيمترات قليلة، لتقى الناظرين عبرها من وقدة الشمس، وتكون إما مائلة ومغطاة بالقرميد أو مستوية ومصنوعة من الخرسانة الخالصة . وشرفات الطوابق العليا تغطيها مثل هذه المظلات، لكنها تكون ممتدة فى الفضاء الذى يعلو الشرفة لمسافة أطول لتوفير ظل أطول وحماية من الأمطار أكبر بالمدى الذى يتناسب ومساحة الشرفة.

ولكل مدخل عمارة باب عال من الخشب أو الحديد تعلوه " شمسية "، وكذا أبواب

الشقق السكنية فى البيوت القديمة . والشمسية إما مربعة أو مستطيلة أو نصف دائرية، وتزخرف عادة بالحديد المشغول، ووظيفتها إدخال الشمس بالنهار وأضواء الشارع بالليل عبر الزجاج الملون . ودرجات السلالم إما من الرخام الخالص أو الموزايكو الذى كانت تدخل فى صناعته الأصداف المستخرجة من البحر . وكانت أسيجة السلالم - الدرابزينات - تصنع فى الغالب من الزهر المصبوب فى أشكال زخرفية أو من الحديد المشغول (الكريتال) ولها مساند خشبية، وأحياناً ما تصنع من الطوب، وكانت الشقق السكنية متماثلة وأبوابها متلاصقة أو متواجهة، وأعلى السلم عند السطح كانت (اللقافة) أو (الشخشيخة)، ووظيفتها هى تهوية السلم بـ " لقف الهواء " فى الصيف ودرء الأمطار عنه فى الشتاء، وكذا توفير الضوء والتحكم فيه بـ " شخشخته " فى أوقات النهار، لذا فقد كانت تصنع من الزجاج الملون بالأصفر والأزرق والأخضر والأحمر، وأغلبها كان بلون واحد، وتنوعت أشكالها ما بين المربع والمستطيل والدائرة والمسدس أو المثمن، ومنها أيضاً ما كان يأخذ الشكل الهرمى.

وثمة أمران تميزت بهما عمائر حى الإفرنج ويندر وجودهما فى عمائر حى العرب هما :

* الطوابق " المسحورة " أو كما تسمى أحياناً " المسروقة " وهى الطوابق التى تكون دون الطوابق الأولى وأعلى من الطوابق الأرضية، وكثيرة هى العمائر المشتملة على هذه الطوابق، وهى بلا شرفات ونوافذها كبيرة وقد تكون لها بروزات تمتد لسنتيمترات قليلة ولها سياج من الحديد الكريتال يُعطى المظهر الرمزى للشرفة.

* الجرابين التى تكون أسفل العمائر ولها أغراض منها التخفيف من آثار الرطوبة على الشقق السكنية التى تعلوها، وجعلها مستودعات للأشياء غير المستعملة، وأحياناً ما تخصص للبوابين أو تؤجر لمن يريدها ومع ارتفاع مستويات الطرق والأرصفة تبدو هذه الجرابين الآن دون مستوى الأرض، وكثيراً ما تعرضت لمياه الأمطار والطفح.

وفى مجال رصد الملامح المفارقة بين عمائر الحيين ، وليكن الرصد هذه المرة من زاوية حى العرب، الفلقة الثانية للمدينة القديمة، نجد ما يلى :

* المربع السكنى فى حى العرب يضم عدداً من العمائر أكبر من نظيره بحى الإفرنج بسبب ضيق مساحات العمائر بالحى الفقير.

* لم تكن عمارات هذا الحى - المشيدة من الخشب فى الغالب - تخلو من " الصندرة " وهى مكان كان يتصدر بئر السلم ويستخدم فى تخزين المتروكات.

* ما من شقة سكنية بالعمائر القديمة بهذا الحى كانت تخلو من " مَقعَد " - إذا كان سكانها من أصل صعيدى - أو " مندرة " - إذا كان أصلهم يعود إلى ريف الوجه البحرى -

ويكون هذا " المقعد " أو تكون هذه " المندرة " بمعزل عن الشقة ومفصولة عنها ولها بابها المستقل لأنها المكان الذى يستقبل فيه رب الأسرة ضيوفه الأغراب.

* تكثر بأسطح بيوت هذا الحى " دواير " تربية الحمام شاهقة الارتفاع حتى باتت كأنها مكملات معمارية لها.

* تكثر المحلات والحوانيت بالطوابق الأرضية فى أغلب عمائر هذا الحى الأمر الذى جعل شوارعها أكثر حركة وازدحاماً وضجيجاً من حى الإفرنج الذى نعم بالهدوء، لأن أغلب عمائره بدون محلات، ولأنه خصص مكانين مخصوصين ومتقاربين للتسوق.

* انتظام الشوارع والحارات بهذا الحى أدق وأكثر صرامة منه بحى الإفرنج، وكما سبق أنْ ذكرتُ لك فقد شقت هذه الطرق على النحو التالى : شارع عرضه ١٥متراً ثم شارع عرضه ١٠أمتار ث ثم حارة عرضها ٤ أمتار، ويحدث هذا فى الاتجاهين الأفقى والرأسى، الأمر الذى لا يسهل فقط الاستدلال على عناوين العمائر، وإنما يوفر- أيضاً - إضاءة وتهوية سليمين، وييسر إدارة شئون المرافق والمرور وغيرها من الأمور التى تخص المدن.

نعود إلى الطرز المعمارية .

لعلك رأيت أثناء تجوالك فى مدينتنا تنوع الطرز المعمارية وتعدد مصادرها والتجانس فيما بينها . وكنتُ قد أخبرتك عن الجاليات الأجنبية التى عاشت هنا ردحاً طويلاً من الزمن.

لكل جالية كانت عمائرها، ومن ثم طرزها، لكنها توالفت مع بعضها البعض من ناحية، ومع الطرز المعمارية المحلية من ناحية أخرى، حتى أن الفصل بينها بات مهمة لا يصلح لها إلا الخبير؛ إلا أنه ما زال ممكناً الربط بين بعض العمائر - ومن ثم طرزها - وبعض أبرز الجاليات التى كانت موجودة بالمدينة كالجاليات الفرنسية، الإنجليزية، اليونانية والإيطالية،

فمنطقة إبلات عمال ومستخدمى شركة القناة الموجودة على حدود حى الإفرنج مع حى العرب بطابقيها وشرفاتها الخشبية المحمولة على كوابيل خشبية وحدائقها الخاصة وأسقفها المائلة المصنوعة من القرميد والتصاقها ببعضها البعض داخل مربعات تحدها الطرق المرصوفة، وبخلوها من الزخارف هى منطقة فرنسية خالصة و هى منطقة ذات طابع وظيفى بحت وكذا بعض المبانى الأخرى كالفنار الحجرى القديم ومشتملاته بشارع فلسطين والمبنى الملاصق لإدارة الإطفاء المطل على شارع صفية زغلول ومبانى شارع مصطفى كامل ومبنى " الفارماشية " بالقرب من ميدان السكة الحديد ومبنى مستشفى " الدلفراند "، كلها يمكن الربط بينها وبين التواجد الفرنسى بالمدينة. ويمكن تلمس طرز

العمارة الإنجليزية فى مبان مثل مدرسة بورسعيد الثانوية العسكرية بميدان الشهداء فقد بنيت على طراز ثكنات قصر النيل، ومستشفى بورسعيد الأميرى بشارع صفية زغلول ومستشفى المبرة بشارع ٢٣ يوليو، فعلى الرغم من الإضافات والتطويرات التى لحقت بها إلا أنها لا تزال مميزة بالطابع الإنجليزى . والعمارة اليونانية لها أكثر من شكل وأكثر من مكان منها مثلاً شكل العمائر المكونة من عدة طوابق كما هو الحال فى حارة " الكاشوتية " - نسبة إلى جزيرة كاسوس - ومنها الخشبية محدودة الطوابق كما هو الحال بالجزء الشرقى من شارع الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض. أما العمارة الإيطالية فتبدو واضحة فى مبنى مسرح الليرا بشارع المرحوم محمد موسى أفندى، ومبنى كازا إيطاليا عند تقاطع شارعى محمود صدقى وعادل طه، ومبنى القنصلية الإيطالية وغيرها من المبانى الكائنة بشارع الجمهورية وشارع عبد السلام عارف. وجميعها يقع بحى الإفرنج. وطبعاً لم أحدثك عن دور العبادة الخاصة بكل جالية على توفر السمات المعمارية الدالة عليها لأننى سأخصص حديثاً مثقلاً لها.

لقد استخلصت بورسعيد من هذا كله ما رأت أنه يخصها وأضافت إليه من عندها لتكوِّن ما يمكن وصفه بملامح شخصيتها المعمارية المميزة .. ملامح كوزموبوليتانية فيها من الوطنية الكثير.

وإذا نظرنا إلى معمار المدينة من الزاوية المدرسية فاسمح لى يا عزيزى بأن أخبرك من البداية بأن " الباروكية " بزخارفها والحليات المبالغ فيها ليس لها وجود ملموس فى عمائر المدينة، ربما لطابع العملية الذى طبع المدينة منذ نشأتها، والوظيفية التى حكمت تنظيمها التخطيطى، وربما لأنها بحكم جغرافيتها لم تعرف صور الإقطاع الريفى، أو لأن جل أثريائها إن لم يكن كلهم رجال أعمال ارتبطوا بالعمل فى الميناء وما يتصل به من صناعات وخدمات . ولعل غياب الباروكية أفضل من وجودها لأن وجودها ومن تقليدها ربما أصاب العمارة فى بورسعيد فى مقتل أو نالتها " اسفكسيا الزخرف "(٥٨).

لكن هناك تأثيرات أو فلنقل استعارات هامة استعارها المعماريون وهم يصممون عمائر المدينة . من هذه الاستعارات ماهو يونانى ورومانى وقوطى ومصرى قديم وإسلامى. وكما قلتُ لك من قبل فإن الاستعارات المحلية جاءت محتواه فيما هو أوربى، وقد لجأ إليها المعماريون الأوربيون لأنها فرضت نفسها عليهم فرضاً من مداخل عدة أوجزها فى : جماليتها، وظيفيتها، روحانيتها، واتفاقها مع البيئة الاجتماعية للوطنيين من سكان المدينة وكانوا قد بدأوا يشكلون فريقاً هائلاً له متطلباته. ويضاف إلى ما سبق عاملان أحدهما جغرافى والآخر سياسى، فمن الناحية الجغرافية فإن هذه العمائر ستقام فى مدينة تلتقى

مع ثلاث قارات ومن ثم يجب ألا يغفل المعماريون الأوربيون بعضاً من عناصر العمارتين الإفريقية والآسيوية وبما أن العمارة فى منطقة الالتقاء هذه إسلامية إذن فلا ينبغى السهو عن دمج بعض عناصرها في تصميماتهم، ومن الناحية السياسية فإن هذه المدينة خاضعة لسياسة دولة هى مصر، لذا فمن الواجب مراعاة العمارة المصرية ومن هنا كانت بعض اللمسات المحلية التى قد تعود أحياناً إلى العمارة المصرية القديمة.

إنه إذن الطابع الانتمائى الذى ميز ويميز معمار المدينة.

ويمكن تلمس طرز البناء اليونانى الحديث فى أكثر من مبنى منها على سبيل المثال المبنى الإدارى التابع لهيئة قناة السويس الكائن عند تقاطع شارعى فرعون وصفية زغلول وفى المنزل الكائن عند تقاطع شارعى ممفيس وسعد زغلول، كما تظهر فى عدد من الأعمدة الكورنثية والأعمدة ذات التيجان الحلزونية المتضمنة زهرة الأنتيمون اليونانية التى لها وجود واضح فى معبد البارثينون كما رصدتها إحدى الباحثات (٥٩).

ويمكن الوقوف على التأثيرات الرومانية فى الواجهة الرائعة لمبنى مسرح الليرا على من التشوهات التى طرأت عليها بتعليتها من بعد السطح بقوالب من الطوب الأحمر التى رصت فوق بعضها البعض بطريقة غاية فى البدائية والقبح، كما يتبدى هذا التأثير فى الأيونية والرؤوس الآدمية المنحوتة فى تيجانها(٦٠) .

أما الطراز القوطى الرفيع الرشيق بزواياه المدببة فموجود وبارز ويعلن عن نفسه صراحة، ليس فقط فى مبنى الكنيسة الإيطالية، وإنما أيضاً من خلال فيللا " فرناند " بشارع عبد السلام عارف، تلك الفيللا التى بنيت عام ١٩٤٠م. لتكون باسم فرناند روز مارى اسييه ابنة مالكها . وفى هذه الفيللا حشد من عناصر الطراز القوطى من حيث العقود المدببة والمخروطات ذوات الرؤوس المدببة والنوافذ المستطيلة الضيقة والسقف المائل وغيرها(٦١) .

لقد أدت أفكار المعماريين الغربيين بعمقها التاريخى، الذى أوضحت لك بعضاً من تجلياته فيما شرحته لك آنفاً، إلى مجموعة من التغييرات فى أنماط البناء المحلى لا يصلح لوصفها نعت سوى الهيكلية . من هذه التغييرات :

* الانفتاح على الخارج بدلاً من الإطلال على الداخل، ومن ثم تلاشت الشرفات والنوافذ التى كانت تطل على الأحواش فى النمط البنائى المصرى.
* الأخذ بنظام البواكى بديلاً عن الشوارع المغطاة.
* استحداث الشرفات العريضة المفتوحة على الشارع.
* استبدال الأسطح المائلة بالأسطح المستوية.

* استخدام خامات جديدة فى عمليات البناء مثل القرميد.
* الاستفادة من أساليب الزخرفة الأوربية.

ومع فيما يتعلق بالطراز المصرى القديم (الفرعونى) نجد بعضاً من ملامحه فى واجهة المسرح الإيطالى متآلفاً مع طرز أخرى وممثلاً على هيئة عمود عند الزاوية اليمنى للواجهة، كما نجد هذه الملامح فى تيجان الأعمدة النخيلية التى تحمل شرفات بعض العمائر(٦٢)، ونجده أيضاً فى مبنى الترسانة البحرية ببورفؤاد وسوف أريكه.

أما النمط الإسلامى فمظاهره واضحة فى أغلب عمائر بورسعيد سواء كانت تستخدم للسكنى أو للعمل أو للترفيه، مثال ذلك المبنى الإدارى لهيئة قناة السويس الذى أضحى رمزاً لقناة السويس ولبورسعيد إنه المبنى الذى شبهته بقصر تاج محل ـ مع الفارق طبعاً ـ وكذلك مبنى محكمة الاستئناف عند مدخل بورفؤاد وهو مبنى ذو طابع إسلامى مراكشى وسوف أريك إياه عندما آخذك إلى بورفؤاد، والواجهة الثرية بتشكيلاتها الجمالية .. واجهة المسرح الإيطالى .. فكما أن هذه الواجهة زاخرة بعناصر رومانية وفرعونية بها أيضاً زخارف إسلامية تمثلها الأفاريز التى تأخذ شكل أطر أفق رأسية وأفقية، وهى أفاريز من نوع الميم المستخدم فى الزخرفة الإسلامية. وكثيرة هى العناصر الإسلامية المستخدمة فى عمائر المدينة سواء تلك التى سكنها الأجانب أو سكنها الوطنيون لاسيما فى الشرفات (التراسينات) والأعمدة والكوابيل والأبواب وأسيجة السلالم (الدرابزينات).

فالشرفات رُكِّبت فيها السواتر الخشبية لتحقيق الخصوصية، وهذه السواتر ما هى إلا المشرفيات أو (المشربيات) وهى من نوع السواتر (البغدادلى) ومهمتها مزدوجة : إدخال الضوء وحجب نظرات الفضول إلى نساء البيت، وأسيجة الشرفات متنوعة الخامات والأساليب فمثلما قد تكون من الخرسانة المسلحة قد تكون من الحديد أو من الخشب. وإذا كان السياج من الخرسانة المفرغة فإنه يتم شغل هذا الفراغ بالبرامق الجصية، وإذا كانت من الحديد فإن الفراغ يشغل بتكوينات من معدن الزهر أو الكريتال تأخذ أشكالاً هندسية أو نباتية، أما إذا كانت من الخشب فإما أن يغطى الخشب سائر السياج أو تشغل فراغ السياج بعرائس خشبية كتلك تتواجد بكثرة على أفاريز أسطح المساجد. وعادة ما يكون فوق كل باب من الأبواب القديمة شمسية.

والمقرنصات هى أهم ما يميز الأعمدة من العناصر الإسلامية الداخلة فيه وقد تم رصد هذه المقرنصات فوق تيجان أعمدة أكثر من مبنى (٦٣).

أما الكوابيل ، تلك الدعامات التى تقوم عليها الكتل المعمارية وتستخدم لحمل الشرفات، وكنتُ قد حدثتك عنها من قبل، فقد تنوعت زخارفها الإسلامية تنوعاً كبيراً سواء كانت من

الخشب أو الحديد أو الخرسانة، وتجاوزت فى تنوعها الخطوط الهندسية المجردة والتشكيلات النباتية إلى معطيات البيئة فخرجت بعض كوابيل الشرفات على الشكل (القرموطى)، ولأن الطراز إسلامى فهى لم تأخذ من سمكة القرموط شكلها وإنما أخذت التواءاتها فقط.

ومن الأبواب ما تحول إلى لوحات إسلامية ومنها أيضا ما يدل على أن شاغلى الوحدة السكنية من القبط، ويبدو هذا من زخرفات الباب فبالنسبة لأبواب المسلين فالنقوش المحفورة أو البارزة للأشكال الهندسية والنباتية من الغنى بحيث تغطيها، أما القبط ولا يكون هذا إلا فى البيوت التى يكون مالكوها وشاغلوها من الأقباط فتنقش عليها الأيقونات والصلبان بكيفية فنية تميزها عن أبواب الإنجيليين . ومع هذا تواجدت أبواب تغلق وتفتح على أسر مسلمة وقبطية لا يوجد فيها هذا التمايز.

وقد سبق أن حدثتك عن (الشمسيات) والسلالم و(الدرابزينات)، وبعد إضافة واحدة هى أن حلياتها كانت إسلامية، لا داعى لتكرار الحديث.

من هم معماريو بورسعيد ؟

طرحت مارى ـ لور هذا السؤال، وكنتُ أود لو أضافت وصف (القديمة) إلى سؤلها لأن هذا هو ما كانت تقصده بالفعل. على كل حال أجابت هى على سؤالها بوضوح، وقالت إن هويتهم ستظل لغزاً، وأن الزعم بأن المهندسين الفرنسيين و أو مهندسى شركة القناة الفرنسية هم بناة بورسعيد، مردود عليه بأنه لا يوجد دليل يؤدى إلى الافتراض بأن المعماريين غير المرتبطين بهيئات فرنسية معينة ممن كان يُعهد إليهم بتصميم المنشآت التى لم تشيد بمبادرة من الشركة هم من الفرنسيين، فالمهنة ـ مهنة التصميم المعمارى ـ تضم بالضرورة تنويعات متعددة الجنسيات لاسيما اليونانية والإيطالية. وقالت إنه باستثناء المنشآت التى قامت شركة القناة بتولى العمل فيها كمسئول عن التنفيذ، لا يوجد دليل على أن الفرنسيين هم منشئوه. وقالت أيضاً إن أسماء المعماريين الذين بنوا بورسعيد غير معروفة باستثناء لوى ـ جان ـ هولو (١٨٧١ ـ ١٩٥٩م.) Louis-Jean Hulot مصمم كاتدرائية بورسعيد وكان مهندساً معمارياً بالحكومة الفرنسية وعمل مهندساً معمارياً لشركة القناة(٦٤).

نعم .. زحفت بعد ذلك العمائر التى شوهت المشهد المعمارى القديم، وعانت المدينة من التصميمات المشوشة، و الرؤى المرتبكة، والاتجاهات المعمارية المتعارضة حتى اقتربت أو كادت من حافة الكارثة، وظل المبرر هو الاقتصاد والوظيفة، لكن متى كان الجمال يتعارض مع الاقتصاد والوظيفة ؟.. بل متى لم يكن الجمال داعماً للاقتصاد والوظيفة؟.. إنَّ اتجاه

العمارة لأن تكون ذات نفع لا يخرجها عن نطاق الفن وجمالياته، لكن ما حدث هو أن المالك والمقاول اتفقا على المعمارى وانتصرا عليه . حدث هذا منذ الستينيات من القرن الماضى حتى الآن.

والمُلاك فى الحالة البورسعيدية هم الحكومة والجمعيات التعاونية الإسكانية والمصالح التى توفر المسكن لبعض عمالها وتتصدرها هيئة قناة السويس . وكلهم تبنى النماذج الاقتصادية والوظيفية فغاب الجمال وانزوى الابتكار وتشوه المشهد المعمارى بكتل خرسانية هى القماءة بعينها.

وبالإضافة إلى التشوهات التى اعترت المشهد العمرانى ببورسعيد بفعل الكتل الخرسانية التى أطلق عليه المناطق السكنية الشعبية، اتجه تفكير المستثمرين إلى إنشاء منتجعات للأثرياء تحت مسمى " القرى السياحية "، وأغلب قاطنيها ومرتاديها ما قطنوها ولا ارتادوها إلا بغرض المنظرة وبيان مستوى الثراء . واحتلت هذه القرى المساحات الساحلية دون الالتزام عند تخطيطها بالذوق ومتطلبات البيئة . وبفرض أنه قد توفرت فى هذه القرى بعض سمات من جمال - على الرغم من مجافاتها للمعايير البيئية - فهو جمال مقلّد، ليس هذا فقط لكنه أيضاً مُسَوَّر، أى مشوه بالحجب، فأى جمال يمكن أن يضفيه سور هو أيضاً يؤدى وظيفة، لكنها وظيفة الإخفاء وتصدير الإحساس بمرارة التفاوت الطبقى . فلكأن الفقر والغنى قد اجتمعا على تشويه المدينة إذن.

لكن لأن من المعماريين المحليين من استهول بشاعة الحال التى آل إليه المشهد المعمارى فى المدينة، ورأى أن التخلص من حصار القبح لا يكون إلا باستشراف المستقبل، فقد انبرى هذا النفر لتصميم مبان مغايرة، ومنهم المعمارى - ابن المدينة - د.م. جمال بكرى الذى قام بتصميم : مبنى نقابة المهندسين والغرفة التجارية ،والسور الجديد للإستاد الرياضى، والممشى السياحى بشارع فلسطين. ومع الإقرار بحداثية هذه التصميمات التى أعرضت تماماً عن جميع أنواع الزخرفة، وبتميزها بنوع من الحساسية المتصلة بروح العصر ؛ مع الإقرار بهذا، إلا أنها - من وجهة نظرى - ليست بتصميمات ابتكارية خالصة، وإنما هى بعض من تجليات مدرسة " الباو هاوس " الألمانية . ومعروف أن نشأة مدرسة" الباهو هاوس " المعمارية إنما ظهرت سنة ١٩١٩م. على يدى المعمارى الألمانى فالتر غروبيوس، وانتشرت ولها أشياعها. وهذا ليس مكمن المشكلة، فمكمنها الحقيقى فى عدم تجانسها مع ما يحيط بها، الأمر الذى يبدو أنه ترجمة عملية للمقولة - الحداثية - التى تؤكد على أننا نعيش عصر العمارة التى لا يمكن التكهن بشكلها. وكأنما تأثيرات الثورة التكنولوجية على فنون العمارة قد طالت بورسعيد، وأنه قد أزف الوقت الذى

يجب أن نتوقف فيه عن البكاء على الطرز والمدارس المعمارية، لأن عمارة الألفية الثالثة أصبحت خارج الطراز، ولأن الثورة التكنولوجية جعلت من الصيغة المدرسية مسألة غير صالحة للتطبيق فى مجال العمارة.

وهنا يحضرنى سؤال أطرحه عليك عزيزى القارئ، وعلى المعماريين المصريين.

أيهما الأجدى فى مجال المعمار.. أن نفكر كونياً ونعمل محلياً، أم نفكر محلياً ونعمل كونياً ؟.. ولا أتعجل الرد.

الآن وقد أجبتكَ لطلبك، فاسمح لى بأن أصطحبك فى " حنطور " نستأجره ونتجول به فى أرجاء المدينة لأريك ما شرحته لك وأقف بك أمامه.

هوامش الباب الثالث

الفصل الأول:

(١) ضياء الدين حسن القاضي، موسوعة تاريخ بورسعيد ،الجزء الأول، المستقبل للطباعة، بورسعيد، ١٩٩٧م، ص ١٣٢ .

(٢) فؤاد فرج، المدن المصرية وتطوراتها مع العصور، مجلد ٢، منطقة قناة السويس، مكتبة ومطبعة المعارف، القاهرة، ص ٢٣١ .

(٣) المرجع السابق، ص٢٣٢ .

(٤) زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد : تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ص ٣٣-٣٤ .

(٥) المرجع السابق، ص ٣٠ .

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

(٨) المرجع السابق، ص ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٩) المرجع السابق، ص ٣١ .

(١٠) المرجع السابق، ص ص ٣١ ـ٣٢ .

(١١) المرجع السابق، ص ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(١٢) المرجع السابق، ص ص ٣٨-٣٩ .

(١٣) عبد المنعم حنفى، المقومات الجغرافية لتنمية بورسعيد، بدون ناشر، ٢٠٠٥م، ص ص ٢٦-٣١ .

(١٤) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٧٩ -١٨١ .

(١٥) مصطفى محمد البغدادى، مدينة بورسعيد: دراسة فى جغرافية المدن، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٥، ص ص ٥٢- ٥٣ .

(١٦) المرجع السابق، ص ٥٢ .

(١٧) المرجع السابق، ص ٥٣ .

(١٨) د.عبد المنعم حنفى، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٣ - ٢٤ .

(١٩) مصطفى محمد البغدادى ، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤ .

(٢٠) المرجع السابق، ص ص٥٤- ٥٥ .

(٢١) د.عبد المنعم حنفى، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤ .

الفصل الثانى :

(٢٢) المرجع السابق، ص ٣٤ .

(٢٣) ضياء الدين حسن القاضى، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١ .

(٢٤) المرجع السابق، ص ١١١ .

(٢٥) أقيم المتحف فى مبنى سبق أن أصيب بعدة قذائف فى الحرب الأخيرة.
(٢٦) جريدة القاهرة ،وزارة الثقافة، القاهرة، ٦ مايو ٢٠٠٦م.
(٢٧) عبد الحميد أبو بكر، قناة السويس والأيام التى هزت الدنيا، (مذكرات)، دار المعارف، القاهرة،١٩٨٧م، ص١١٤ .
(٢٨) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .
(٢٩) ضياء الدين، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٧ .
(٣٠) المرجع السابق.
(٣١) جريدة الجمهورية، القاهرة، ٢٧ ديسمبر ١٩٥٦م.
(٣٢)جريدة الشعب، القاهرة، ٢٩ ديسمبر ١٩٥٦م.
(٣٣) ضياء الدين القاضى، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٩ .
(٣٤) محافظة بورسعيد، الخريطة الاقتصادية لمحافظة بورسعيد، بورسعيد، يونيو ١٩٨٦م، ص ١١٢ .
(٣٥) محافظة بورسعيد، بورسعيد جوهرة مصر، مطبعة بورفؤاد، بورسعيد، ديسمبر ١٩٩٧م، ص ٧٥ .
(٣٦) قاسم مسعد عليوة، مارينا أهل الكافيار ومارينة عم أحمد، جريدة بورسعيد الوطنية، حزب التجمع الوطنى التقدمى، بورسعيد، العدد الأول، ٦ يونيه ١٩٩٢م. ص ٥ .
(٣٧) ضياء الدين القاضى، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٤٣–١٤٤ .
(٣٨) المرجع السابق، ص ص ١٤٤ـ ١٤٥ .
(٣٩) مجلة المصور، دار الهلال، القاهرة، ٢٧ ديسمبر ١٩٥٦م.
(٤٠) جريدة الشعب، القاهرة، ٢٤ ديسمبر ١٩٥٦م.
(٤١) أبو الحجاج حافظ، صفحات من التاريخ السرى لمعركة بورسعيد، دار الميثاق للطباعة، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ص ١٣٩ .
(٤٢) مؤتمر أدباء إقليم القناة وسيناء الثقافى، الدورة العاشرة، بورسعيد، ٢٠ـ ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٦م.
(٤٣) جريدة الوفدى، حزب الوفد، بورسعيد، أكتوبر ١٩٨٩م.
(٤٤) جريد الأهرام، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٣ سبتمبر ١٩٨٩م.
(٤٥) للوقوف على بعض التفاصيل يمكن الرجوع إلى :
- طارق حسن وآخرون، استطلاع حول تمثال ديليسبس، جريدة المدينة الحرة، بورسعيد العدد ١٦، أول مارس ١٩٩٨م، ص ٥ .
- جريدة المدينة الحرة، بورسعيد، منتصف مايو ١٩٩٨م.
(٤٦) للوقوف على بعض التفاصيل يمكن الرجوع إلى :
- جريدة أخبار اليوم، مؤسسة الأخبار، القاهرة، ١٢ يونيو ١٩٩٩م.
- السعيد السويركى، دعوات خبيثة لنقل تمثال المحتال ديليسبس للإسماعيلية، جريدة العربى، القاهرة، العدد ٤٠١ يوليو ١٩٩٩م.
- قاسم مسعد عليوة، بعض الخجل يا أتباع ديليسبس : فضائح بالجملة، جريدة العربى، القاهرة، العدد ٤٠٢، ١٦ يوليو ١٩٩٩م.
- جريدة الرأى البورسعيدى، بورسعيد، ديسمبر ٢٠٠٠م.

(٤٧) قاسم مسعد عليوة، إعادة تمثال دى ليسبس على استمارة، جريدة القاهرة، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠ مارس ٢٠٠١م.

(٤٨) جريدة أخبار اليوم، مؤسسة الأخبار، القاهرة، ١٢ يوليو ٢٠٠٣م.

(٤٩) جريدة الأهرام، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٩ أغسطس ١٩٨٩م.

(٥٠) جريدة الحدث البورسعيدى، بورسعيد، يناير ١٩٩٩م.

(٥١) جريدة الوفد، حزب الوفد، بورسعيد، أكتوبر ١٩٨٩م.

(٥٢) جريدة الشعب، القاهرة، ٢٩ ديسمبر ١٩٥٦م.

(٥٣) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:

http://en.wikipedia.org/wiki/Ferdinand_de_Lesseps

http://www.bbc.com.uk/historic_figures/Lesseps_Ferdinand_de.shtml

(٥٤) ضياء الدين حسن القاضى، موسوعة تاريخ بورسعيد، الجزء الثانى، المستقبل للطباعة، بورسعيد، ٢٠٠٠م.، ص ٨٦ .

(٥٥) ضياء الدين حسن القاضى ، مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٢٦ .

الفصل الثالث:

(٥٦) رفعة الجادرجى، حوار بنيوية الفن والعمارة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ـ لندن، ١٩٩٥م، ص ص ٢٢ ـ٢٣ .

(٥٧) مارى ـ لور كورييه وآخرون، بورسعيد: عمارة القرن التاسع عشر والقرن العشرين، " التاريخ والمعمار "، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٥٨) التعبير مأخوذ عن المهندسة / الشاعرة فاطمة ناعوت فى معرض تناولها العمارة المملوكية، العمارة والشعر، الثقافة الجديدة، القاهرة، يناير ٢٠٠٥م.

(٥٩) عبير الحسينى أحمد موافى، الوحدة الفنية ذات التعددية فى عمارة بورسعيد القديمة كمصدر لاستلهام أعمال تصوير، رسالة ماجستير، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، القاهرة، ٢٠٠٢م. ص١٠٠ .

(٦٠) المرجع السابق، ص ٩٩ .

(٦١) أثير حول هذه الفيللا فى عام ١٩٩٢م، لغط أثارته تكهنات خاطئة تماماً تنسب إقامتها إلى فردينان دى ليسبس بسبب تشابه الاسمين الأولين فى بعض الحروف، وتكرر هذا اللغط فى مستهل الألفية الثالثة، وكان للباحث إسهام فى إعادة الحقيقة إلى نصابها بمقال نشرته إحدى الصحف المحلية. (الباحث)

(٦٢)عبير الحسينى أحمد موافى، مرجع سبق ذكره، ص ٩٨ .

(٦٣) المرجع السابق، ص ١٠١ .

(٦٤) مارى ـ لوركورييه، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٣ ـ ٤٦ .

ما لم يرد بشأنه هامش فالعمدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة ورصده الميدانى وخبرته بالموضوع.

الباب الرابع



الفصل الأول

فى المجون وأساليبه



ما دمنا قد تطرقنا إلى الملاهى، وبما أن المبانى المرتفعة بدأت تُخفى عنا – متضافرة مع بعد المسافات – الكثير من معالم المدينة فهيا بنا نهبط السلم الحلزونى الذى صعدناه، وخلال هبوطنا وربما لمسافة أمتار نمشيها فى الشوارع سأحكى لك شيئاً عن أساليب التسرى والتلهى التى كانت تمارس فى المدينة .

بداية أقول لك إن الأجانب كانوا يحتفلون بجميع مناسباتهم ويتمتعون بأوقات راحاتهم ويستمعون إلى الموسيقى والرقص، لاسيما فى أعيادهم وكان (البالو) علامة من علامات تواجدهم فى المدينة، وشكلت شركة القناة فرقة موسيقية قوامها مجموعة من عمالها، وكانوا يرتدون ملابس على هيئة ملابس الجنود، واحتفالاتهم كانت تقام فى أماكن مخصوصة بالإضافة إلى الأماكن المفتوحة على الهواء الطلق، كمسابقات القوارب ذوات المجاديف والأشرعة، ومسابقات العدو والجرى والسير على عمود أفقى مطلى بالشحم، وغيرها من الألعاب والمسابقات والحركات البهلوانية، وكذا الاحتفال بتشغيل الدهبيات . وكانت ترفع الأعلام العثمانية والفرنسية، وتضاء المدينة بالمصابيح الساطعة، وتطلق الصواريخ النارية . وكان هذا يحدث فى مناسبات متعددة كاحتفال الشركة مثلاً بعيد الروبوبليك، أو بعيد ميلاد إمبراطورة فرنسا، أو بمناسبة استقبال الخديو إسماعيل عند زيارته للمدينة . وفى المناسبة الأخيرة أقامت شركة القناة (بالو) رائعاً حفل بمختلف الأشكال والألوان والملابس (١) .

وكان الأجانب مغرمين بإقامة (البالو) فى مختلف المناسبات، حتى إنهم كانوا يحتفلون بمناسبة بداية فصل الخريف الذى كان يُعد عطلة وعيداً عند سكان ضاحية شارنتون الباريسية، وهى ضاحية كانت توجد بها مصحة للأمراض العقلية وباسمها سموا إحدى المناطق ببورسعيد ؛ وإن كُنتَ من هواة المسرح مثلى فسوف تتذكر مسرحية الكاتب الألمانى بيتر فايس التسجيلية الشهيرة بعنوانها مفرط الطول " اضطهاد واغتيال جان بول مارا كما قدمته فرقة تمثيل مصحة شارنتون تحت إشراف السيد دى صاد " (٢) .

لعلك تسأل نفسك الآن عن العلاقة بين بورسعيد وضاحية شارنتون هذه حتى تتسمى إحدى مناطق مدينتنا الوليدة باسمها ؟.. هل هى حالة الذهان التأوربى التى اعترت حكام مصر قبل الحفر وأثنائه وبعده، أم هى حالة الفوبيا التى أصابت الأكثرية ممن تم تسخيرهم فى أعمال الحفر والإنشاء من فلاحى مصر البسطاء ؟ أم هو الإيغال فى فرنسة المدينة لا أكثر ؟.. أياً ما كان فقد كان الفرنسيون فى عطلة الخريف الشارنتونية يقومون بأنواع مختلفة من الألعاب والمسابقات والحركات البهلوانية، وفى المساء كانت تقام ألعاب ضخمة ويرقص الرجال والنساء على أنغام الموسيقى (٣) .

وقد وجدت بالمدينة فرقٌ أجنبية للعزف الموسيقى لعل من أشهرها فرق " الإنترناسيونال" و" الإفترا " و" الليرا "، وكانت تعزف موسيقاها فى الأماكن العامة والمحلات المخصوصة . كما وُجدت بالمدينة محلاتٌ للتمثيل الهزلى والغناء والبغاء، ولعل أول كاباريه أنشأه الأجانب ببورسعيد هو كباريه [Cabaret La Cigale لاسيجال]، ومعنى الكلمة هو الخنفسة . وأنشىء عام ١٨٦٨م أى قبل افتتاح القناة (٤) . وكان يقع عند تقاطع شارعى أوجينى وأمريكا(صفية زغلول ومحمود صدقى حالياً) فى المبنى الذى أصبح فيما بعد مقراً للبوستة الفرنسية قبل إلغاء البريد الخاص . ثم شغلته شركة النصر للتليفزيون، والآن هو طلل خرب.

ولم تكن معظم احتفالات الأجانب تمر دون حوادث شغب أو مشاجرات ومعارك فيما بين بعضهم البعض أو بينهم وبين الأهالى وكان بعض الأجانب وخاصة الأروام والفرنسيين يقومون بالاعتداء على النساء البغايا بمحلاتهم أو بالمقاهى . وقد كثرت شكوى هاتيك النسوة من كثرة الاعتداء عليهن، وعندما كان يتم القبض على مرتكبى هذه الاعتداءات وإحالتهم إلى قناصلهم لمعاقبتهم فإنه كان يفرج عنهم فوراً (٥).

وفى عهد الاحتلال بات البغاء رسمياً، تصرح به الحكومة، وتحمى ممارسيه والقائمين به، وقد ازداد خطر البغاء أثناء الحرب العالمية الأولى وتعاظمت ظاهرة سير سكارى الأجانب وهم يتوجهون إلى محلات الدعارة، وتزايدت مع تعاظم هذه الظاهرة شكاوى

الوطنيين، لاسيما أن من هؤلاء السكارى من كانوا يخطئون الدَّق على الأبواب. وحدث أن قامت السلطات البريطانية بإصدار فى يونيو ١٩١٦م قراراً بإنشاء محكمة للنظر فى الجرائم المخلة بالآداب التى تصدر من القوادين أو الشبان الذين يعاكسون النساء فى الطرقات وغيرها منَ الجرائم، إلا أن السلطات المحلية عجزت عن وضع حد لها، لأن قرار تشكيل هذه المحكمة نص على أنها غير مختصة بالنظر فى الجرائم التى تقع من الأجانب، وكان هذا الاستثناء أول وأهم عائق أمام الأمانى الوطنية ، فالأجانب كانوا يتخذون من الامتيازات ستاراً يرتكبون من ورائه العديد من الجرائم، ومن الوطنيين المفتونين بسلوكيات هؤلاء الأجانب وأنماط معيشتهم من كانوا يحتمون بهم ليفلتوا من العقاب.

وتُرَدُّ ظاهرة البغاء ببورسعيد إلى كثرة أعداد الأجانب بها، وتمتعهم بحرية إقامة المحلات العامة والملاهى والخمارات والمقاهى، وتشبُّه بورسعيد بالمدن الأوروبية . والبغايا كن من جنسيات مختلفة فمنهن الإيطاليات والروميات والتركيات والحبشيات ومنهم أيضاً العربيات القادمات من الشام والسودان ؛ والمصريات كن فى الغالب من دمياط إلا أن إحداهن كانت من القاهرة وكن يعملن طرف بعض النساء أو فى الأماكن التى يديرها الأجانب ـ رجالاً أو نساءً ـ وبخاصة من النمساويين والإيطاليين(٦) . وقد طالب الوطنيون بقرية العرب بإبعادهن عن القرية، وبالفعل تم نقلهن إلى مكان أعد خصيصاً لهذا وعُرف هذا المكان باسم (محطة النساء الفواحش)، وعين على هذا المكان أحد الخفراء، وكان يتم الكشف عليهن بواسطة طبيب صحة بورسعيد للتأكد من خلوهن من الأمراض(٧) . واشتهرت هذه المحطة لدى العامة حتى قبيل إلغاء البغاء بكرخانات الفجالة . وبالإضافة إلى المشاجرات وحوادث الاعتداء التى كانت تقوم فى هذه المحطة بين الأجانب والوطنيين، أو بين الأجانب وبعضهم البعض، أو بين الوطنيين بعضهم البعض بسبب هاتيك البغايا، فإنهن كن يتعرضن أحياناً للقتل أو لسرقة ما يمتلكنه من مجوهرات وأموال .

ولمَّا تعددت هذه الحوادث وزادت خطورتها حُظر عليهن مغادرة محلاتهم أو المرور ليلاً، وإلا أودعن السجن. وقد تم إبعاد عدد منهن عن المدينة، إلا أن بعضهن عدن ثانية إليها. ولأن منهن من كن يرغبن فى ترك هذه المهنة، فقد كان عليهن تقديم (ضمانة) بأنهن صرن من النساء ذوات العرض مع مراقبة سلوكهن . وقد أدى وجود ظاهرة البغاء ببورسعيد إلى انتشار بعض الأمراض السرية مثل الزهرى، وقد أصيب به عدد من القواصة (٨) .

وكان جنود الإنجليز يكثرون من التردد على أماكن ومحلات البغاء .

وحكتْ لى أمى أن أخى الأكبر (يكبرنى بنحو خمس سنوات) اختفى ذات مرة من أمام البيت، فلما سأل أبى عنه، أخبره الأولاد بأنهم رأوه يمشى وراء دورية من الجنود الانجليز،

وأنه اتجه معهم إلى الفجالة فاشتعل يافوخ أبى وتأبط شمروخاً، وجاراه عدد من شباب الشارع، وانطلقوا صوب محطة البغايا ليشاهدوا أخى واقفاً بينهن والجنود الانجليز، وفى يده لوح شيكولاته أعطاه الإنجليز إياه.

ولم يتوقف الأمر عند حدود البغاء، وإنما امتد إلى الاتجار وشرب الخمور فانتشرت الخمارات فى المدينة ، حى الشرق كان مقراً للخمارات التى تبيع الويسكى والكونياك والبراندى والجن والشمبانيا والفودكا وما شابه، فى حين كان كل من حى العرب والمناخ مكاناً للمخانات والغرز التى تتعامل بخمور مثل: الويسكى والكونياك والبراندى ومعها الزبيب والعَرَقى، ولعل أشهرها مخانة" السبع حصون " التى كانت موجودة بالمناخ الفوقانى، إلا أن بيع البوظة كان أكثر تداولاً باعتباره الخمر الشعبى الأرخص والأكثر ألفة.

وكانت الخمارات ميداناً للمشاحنات بين الأجانب و بعضهم البعض، وبين الأجانب والقواصة، وبين الوطنيين وبعضهم البعض، وبين الأجانب والوطنيين، وبين الأجانب والوطنيين والقواصة؛ وكانت هذه المشاحنات تنشب لأوهى الأسباب ؛ ولم يكن النيل من الأجانب أمراً ممكناً، وغالباً ما كانت تنال المحافظين ، سواء كانوا محافظين لعموم القنال أو محافظين للمدينة وحدها، الإهانة تلو الإهانة من قناصل الدول الأجنبية - أو من وكلائهم - إذا ما تجرأوا على التحقيق مع مثيرى الشغب فى الخمارات من الأجانب.

وبات تداول الخمور أمراً معتاداً على مقاهى المدينة وفى النواصى . وجارىَ كثيرون من الوطنيين الأجانب فى إقبالهم على تعاطى الخمور حتى لم تخل منها احتفالات الوهم بالأعياد والأعراس، ولم تخل منها الولائم وجلسات السهر. وإلى جوار الخمور المستوردة كانت هناك خمور يتم تصنيعها محلياً ولها محلات للتوزيع، أذكر واحداً منها ظل مفتوحاً حتى بداية الستينيات بشارع النهضة (الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض) بالقرب من بازار حى الإفرنج، وكان يبيع الخمور معبأة وسائبة وانتقل - قبل أن يغلق أبوابه - إلى بيع الخل.

وكان البعض من الوطنيين ينافس باعة الأنتيكات على العملات الأجنبية ببيع زجاجات الخمر للبحارة والسياح، ومن هذه الزجاجات ما هو مغشوش . وصانعو الخمر المغشوش كانوا منتشرين بكل من حى العرب والمناخ، ومن بقايا هؤلاء فى الخمسينيات من القرن الفائت " السيد سبرتو " الذى كان يقيم بالدور الأرضى ببيت متهالك يقع عند التقاء حارتى الورشة والعروسى بدائرة حى العرب، وكنا نراه - ونحن صبية - إذ يصنعها ويبرشمها ويغلفها حتى تصبح بهجة للناظرين من شاربى الخمر، فيما صنعها صنعاً من

السبرتو وعصير البصل وبعض الصبغات والسوائل التى لم نكن نعرفها فنُطلق عليه وصف منقوع البراطيش أحياناً، وأحيانا نسد أنوفنا ونُظهر علامات الاشمئزاز على وجوهنا ونتصايح: " أف .. دى صنَّة " !!

بعد افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية بنحو عشر سنوات، وبالتحديد فى سنة ١٨٧٩م، صدر أمر عال بتحريم استيراد الحشيش وزراعته فى مصر. وفى تشريع سنة ١٨٩١م. وصلت عقوبة زراعة الفدان - أو جزء منه - إلى خمسين جنيهاً، لكن تجارة الحشيش فى مصر، ومن ثم فى بورسعيد، ظلت رائجة، وأقدم الأجانب على الاتجار بالحشيش والأفيون ونشرهما بين الوطنيين محتمين بمظلة الحماية العريضة المفرودة فوقهم، وكان اليونانيون هم أكثر المهربين نشاطاً، ليس إلى بورسعيد فقط، ولكن إلى غيرها من المدن المصرية الواقعة على شاطئ المتوسط. وأغلب ما ضبطته مصلحة خفر السواحل - بتواتر شبه يومى - من سفن هؤلاء المهربين كان أمام ساحل بورسعيد، وكانت القنصلية اليونانية - شأنها شأن سائر القنصليات - تتدخل بالاحتجاج على تعطيل السفن التى تحمل أعلامها، وتقدم تبريرات بطلان دعوى التهريب لينجو المهربون من العقاب (٩).

ومن المشاهد التى ظلت مألوفة حتى منتصف الستينيات مشهد صبية وشباب المدينة وهم يهرولون صوب البحر لمشاهدة إطارات الكاوتشوك أو الصفائح المحشوة بطُرب الحشيش وكميات الأفيون، التى رمت بها الأمواج إلى الساحل قبل أن يتلقفها الذين ينتظرونها من التجار. وقد شاهدتُ بنفسى العديد من هذه الحالات . وحتى تلك الفترة كانت تجارة الحشيش والأفيون أكثر من رائجة فى المدينة، وتجارهما كانوا معروفين سواء كانوا تجاراً للجملة أو للتجزئة ؛ وإذا ما كان تجار الجملة متمركزين فى أماكن بعينها، فإن تجار التجزئة كانوا موزعين على كل ناصية من نواصى شوارع وحارات حيى العرب والمناخ، ومتغلغلين فى عِزب فاروق والنحاس والحرية ؛ وانتشرت بين أعشاش هذه العزب وفى شوارع وحارات كل من الحيين الشعبيين أماكن تدخين الحشيش والأفيون، تلك التى عُرفت بمسميات متنوعة مثل : الغُرزة، العَرْق، النَصْبَة، والمخانة. وكان " ناضورجية " كثيرون يراقبون ويؤمنون عمليات التوزيع والتدخين.

. ونادراً ما كان يمر أسبوع دون أن تتداول المدينة قصة من قصص المطاردات والصدام بين رجال الشرطة وتجار المخدرات . وفى الخمسينيات ذاعت شهرة ضابط شرطة يُدعى "عبد الحليم بركات "، وكانت تحكى عما يفعله حكايات أقرب إلى الأساطير، سواء وهو يرتدى بزته الرسمية أو يتنكر فى ملابس الصعايدة أو الفلاحين أو يرتدى ملابس النساء . شيء يشبه ما نشاهده فى أفلامنا المصرية الآن . وكان يُحكى عنه أنه لا يخشى جبروت

تجار المخدرات الكبار، وأنه لا يستنكف أن يتنكر فى هيئة زبال أو شحاذ أو لَمّام سبارس، ولم يحدث أن رأيناه غير مهندم أو فى هيئة تنكرية، وكنا إذا ما شاهدناه ـ نحن الأولاد ـ يمر بعربة البوليس الصغيرة ذات الصالون الخشبى الأنيق فى شوارع المدينة، نُفسح له الطريق ونلوح له محيين، لأننا كنا نوقن أنه إنما ذاهب إلى مغامرة جديدة سنستمع إلى تفاصيلها فى المساء . فى مرات غير قليلة رأيناه يهجم شاهراً مسدسه على أوكار الأشرار، وإذا ما شهر مسدسه فهذا يعنى أنه إنما يقود حرباً حقيقية، فنحبس أنفاسنا ونتابع جنود الشرطة الحذرين وهم يتحركون وراءه، بخوذاتهم وصداداتهم وبنادقهم الطويلة المشهرة، وفى مواجهته تجار المخدرات وصبيانهم يقذفونه هو وجنوده بكل ما تطوله أيديهم من الأحجار والأخشاب وزجاجات المياه الغازية، وقد يصل الأمر بهم إلى القذف بكريات القماش المشتعلة وزجاجات المولوتوف. وقد شاهدتُ عدداً من هذه المعارك وهى تصل إلى درجة الالتحام، منها ما كانت ميادينها شوارع : " الجيزة " ـ تحت منزلنا بالتمام ـ و" الشرقية " و" الغورى" بدائرة حى العرب، أو فى شارع " عدلى " و" السوق السودا " و " سوق العصر " بدائرة حى المناخ، وذلك بخلاف معارك أوكار المناطق العشوائية التى كانت تتصدرها أوكار عِزب " فاروق " و" النحّاس " و " الحرية ". وكدتُ أضيع ذات مرة فى واحدة من هذه المعارك، وهى معركة سوق العصر بشارع السواحل بحى المناخ، ووجدتنى - مدفوعاً لإنقاذ نفسى - أطوح بالحجارة فى كل اتجاه، ومن أول فُرجة بين الأجساد فررتُ إلى منزلى ولو لم أفعل هذا لأصابنى أذى كثير.

ومن كثرة ما ضيق " عبد الحليم بركات " هذا خناقه على تجار المخدرات والحشاشين انتشر دور غنائى يشكو فيه الحشاشون الحال الذى آلو إليه، وتغنى به الصحبجية على آلة السمسمية، منه :

" يلعن ميتيينك يا جُوزة
شرُبْك ما عدش له عُوزه
حا نحشش فين؟ "

وانتشرت المقامرات فى المدينة، وكان للأجانب دور كبير فى هذا، واستخدمت بعض المقاهى أوكاراً للعب القمار، وكثيراً ما تحولت هذه المقاهى إلى ميادين للشجار بسبب غضب هذا أو ذاك من المقامرين . البداية كانت مع الأجانب ثم انتقلت إلى الوطنيين . وكانت أوكار الفقراء أكثر عمومية من أوكار مقامرى الطبقة الوسطى أو المقامرين من الأعيان، فهى تقع إما عند مداخل البيوت أو على رؤوس نواصى الشوارع والحارات أو بداخل الخرائب. وفى حارات العيد كانت مشاهد حلقات المقامرة أمراً مألوفاً، وكانت لعبة

" الثلاث ورقات" هى الأبسط من أشكال القمار، وكذا لعبة " الطَّسة " وهى التسمية المحلية للعبة " ملك والا كتابة " التى كانت تُجرى بقطعة عملة معدنية، لكن لعب الورق ذاته هو الذى كان يستهلك أوقات المقامرين، ومن أشهر مقامرات الورق: " الكومى "، " السويسية"، " الجوكر "، " البوكر "، " سيف ". واستخدم النرد - " الزهر " - فى لعب القمار مجرداً، ومن خلال ألعاب الطاولة بتسمياتها المختلفة . وكما دخلت ألعاب "الدومينو" حلقات القمار هى و" الشطرنج " و " الضامَّة " دوائر المقامرة دخلت أيضاً المباريات الرياضية، لاسيما مباريات كرة القدم، وكان من الأمور شبه المألوفة رؤية مجموعات من المتراهنين على الفرق المتنافسة وهم يحتدون فى النقاش وإبراز أوراقهم النقدية قبيل مباريات النادى المصرى، أو وهم يتشاحنون على ذات النقود بعدها . إن كل ما هو برىء بات مادة للمقامرة، وباتت من المشاهد المتكررة كبسات البوليس على المقاهى ورؤوس الشوارع والحارات، إن لم يكن بغرض القبض على تجار ومدخنى المخدرات فبغرض القبض على المقامرين.

وفى وقت شاعت أوراق اليانصيب " أو " اللوتارية "، وكان مستهلكوها من الكثرة والانتشار بحيث لم يخل منهم مقهى أو محل أو مكتب أو ورشة أو بيت، والحجة جاهزة على ألسنة مكاتب الإصدار، وإن لم تصدقها أفئدة المستهلكين، دعم التعليم والعمل الاجتماعى، ومع هذا فلم يمنع التيقن من زيف هذه الحجة من الإدمان هذا الأسلوب ذى المسحة الرسمية إلى مدى استمر حتى الربع الأول من عقد الستينيات من القرن الفائت.

أما مقامرات النخب من طبقة الأعيان وكبار الموظفين، أولئك المتصلين بالأجانب فى الغالب، فكانت تتم داخل الملاهى، وفى بعض أندية الجاليات الأجنبية الموصوفة بالاجتماعية، وبالخُلوات الخاصة ؛ ولم يكن البوليس يجرؤ على المساس بهم ، بل إن بعض ضباط البوليس كانوا يرتادون هذه الأماكن .

الفصل الثانى

فى مديح المقاهى

ها أنت قد نطقتها.

تريد أن تتعرف على مقاهى المدينة.

أنت قارئ أريب . تريد أن تتعرف على مجتمع المدينة من خلال مقاهيه، لأنك تدرك تمام الإدراك أنها الأماكن المثلى لمعايشة الناس ومتابعة أحوالهم.

أنا معك، فالمقهى لا يختزل المدينة والوطن - الذى هو مصر - فحسب، وإنما يختزل العالم كله.

أينما وليتَ وجهك فى بورسعيد ستجد بدل المقهى اثنين وثلاثة وأربعة. وكما ترى، فإن المقاهى حولنا كثيرة . وهى منتشرة فى جميع أحياء المدينة، قديمها وجديدها، غنيها وفقيرها . إنه الانتشار الذى يجعلها قاسماً مشتركاً لكثير من مظاهر الحياة بها.

فيها يتم إزجاء أوقات الفراغ، وفيها يصنع الكسل ويستثمر لإدرار أكبر وأكثر متع ممكنة. منها متعة الراحة بعد الكد، والصفاء بعد الكدر، والتحرر بعد الكبت ؛ لكنها أيضاً أماكن لعقد الصفقات وإبرام الاتفاقات. فيها يلتقى أصحاب المهن والعاطلون عن العمل والمتمردون والثوريون والبصاصون وأذناب كل سلطة.

ومن مقاهى مدينتنا - مثلما هو الحال مع مقاهى المدن الأخرى - ما تحول إلى مراتع للصوص والخارجين على قوانين وأعراف وعادات وتقاليد، ففى زواياها توضع خطط

سرقات البيوت والمحلات، وفيها توزع الأسلاب، وبأركانها يُدخن الحشيش ويُحتسى الخمر، وعلى موائدها تمارس ألعاب القمار، وعلى الجالسين فوق كراسيها يبصبصون للماشيات والواقفات فى الشرفات والنوافذ توزع أوراق اليانصيب وأمامها وداخلها تنشب المشاجرات. لذا، فهى هدف دائم لداهمات الشرطة، وهى أماكن تجتهد الحرائر فى الازورار عنه، وهن يمشين فى الطرقات، تجنباً لمعاكسات قد تصل إلى حد ترك الكراسى والمشى ورائهن.

لكن المقاهى ليست دائماً من هذا النوع، بل كثيرها ليس من هذا النوع، ورواد هذا الكثير أبرياء فى ممارساتهم لكسلهم اللذيذ، مخلصون فى قتلهم للوقت، يحتسون القهوة والشاى والحلبة وللأيسون والنعناع والزنجبيل والسحلب والقرفة والكركديه والعصائر والمشروبات الغازية، ويلعبون بالورق والطاولة والدومينو والشطرنج بحمية وجد ودونما مقامرة . يقهقهون ويسعلون ويتفلون ويشعلون السيجارة من عقب السيجارة مع كل "قَشَّة" ولد " أو جَنْبَة " كومى " أو رمية " زهر " أو الإطاحة " بحصان " أو إزاحة " طابية " أو ككشة " ملك " . يفعلون كل هذا وهم يشاهدون أفلام الفيديو أو ما تبثه شاشات التليفزيون ويتبادلون مع بعضهم البعض التعليقات الفجة والعفيفة.

هذا هو حال رواد المقاهى فى بورسعيد . هكذا هو غالباً، سواء كانوا من الموظفين أو من الطلبة أو من العيال " الصِّيَع " أو ممن أصبحوا حكماء بحكم بلوغهم سن الإحالة إلى المعاش . ومع هؤلاء وأولئك يتعايش المنتمون للأحزاب السياسية السرية والعلنية والدعاة الدينيون والمهووسون بسرد أسرار وجهاء المدينة وتحليل تصريحات رجال الدول والتنبؤ بالفائزين فى مباريات كرة القدم محلياً والدولية ومن يمتلكون - ادعاءً بالطبع - المفاتيح الضرورية لحل مشكلات العالم . ووسط هؤلاء جميعاً يندس المرشدون والمخبرون، فليس أدسم ولا أشهى من رواد المقاهى طعاما يمكنهم تقديمه لضباطهم وأمريهم.

هذه هى مقاهينا ملتقيات للغرباء من الكادحين والمثقفين والغاضبين والمغضوب عليهم فى مخادع البيوت، أو فى الورش ومكاتب العمل، أو فى ميادين الدين والثقافة والسياسة . هى ملتقيات تجدل فيها وتضفر معطيات إيجابية وسلبية كثيرة، معطيات أغلبها ثنائى ضدى، فقد تكون مفرحة أو محزنة، منتمية أو لا منتمية، عظيمة أو تافهة، جليلة أو حقيرة، جميعها يضفر فى بعضه البعض ليخرج معطى جديداً فى هيئة مغايرة لازمة لبداية نشاط إنسانى فعال.

نعم .. أعرف يا عزيزى أنك تعرف هذا، مثلما أعرف أنك ستصدقنى إنْ قلتُ لك إن المقاهى فى مدينتنا ليست فقط أماكن لصناعة الكسل اللذيذ وكل ما قلته لك عنها، لكنها

أيضاً مستودعات بشرية لأنماط متعددة من الشخصيات والأفكار . وأعجبُ لمن يتعرض لمؤسسات المجتمع المدنى ويتجاهل المقاهى، لكأن ما يدور فيها لا يوازن بين الحكام والمحكومين، ولكأنها بما تحتويه من بشر وما يصطخب بها من أفكار لا توازى الأحزاب السياسية والجمعيات الأهلية والنقابات العمالية والمهنية فى الأهمية.

وإن أردتَ وصفاً خاصاً بى للمقاهى فإننى سأسوقه لك فى ثلاث جمل مبنية على بعضها البعض، ثلاث جمل تؤكد على بلاغة المعنى لا بلاغة اللفظ، اثنتان منها خبريتان أما الثالثة فاستفهامية . هل توافق؟ .. حسناً..

" المقاهى عندى هى مراكز لحرية التعبير".

" .. لذا، فهى بؤر اهتمام قامعى هذه الحرية".

" .. فأين نحن دعاة الحرية من المقاهى ؟ ".

ثم إنَّ المقاهى هى الميادين التى ينسحب عبرها الأفراد من الخاص إلى العام، فهى نقاط انطلاق إلى دوائر اهتمام مغايرة لدائرة الاهتمام بالأسرة والمهنة شديدتى الضيق، وهى أماكن ينفتح الوعى فيها على العديد من الآفاق التى ربما بدت بعيدة وقصية، فإذا بها فى المقهى تقترب وتدنو، وهى أيضاً مناط نشوء واتصال علاقات إنسانية متشابكة ومتراكبة تنتقل بمرتاديها من الطرف والهامش إلى القلب والمركز، ثم هى تبتدع الندماء وتخلق شركاء المآسى وتبتكر أشكالاً من التواد وتهيئ الظروف للارتفاق فى المصير الإنسانى.

وإذا كنتُ قد قلتُ لك آنفاً إن المقاهى هى مستودعات بشرية للشخصيات والأفكار، فهى أيضاً أماكن تبرهن على صيرورة الزمن، ليس بوصفه تاريخاً ماضوياً، ولكن بوصفه حركة كونية مطردة ومنتظمة. وهذا موضوع يطول شرحه، ألا ترى معى أن المقهى بالنسبة لرواده - أو لبعضهم على الأقل - يكاد يكون هو مركز الكون كله ؟

انهض بنا الآن وهيا أريك مقاهى مدينتنا . وبداية أقول لك إننى لن أريك كل المقاهى، فهى جد كثيرة ومتنوعة . منها الشهير والمغمور، ومنها الكبير والصغير، ومنها القديم والحديث . وكان بودى لو استأجرتُ لك ولى دراجتين نطوف بهما على المقاهى الموزعة داخل وعلى أطراف أحياء المدينة السبعة، لكن الدراجة ما عادت تصلح لمثل هذه المهمة بعدما اتسعت المدينة اتساعاً كبيراً. فلنستقل تاكسياً إذن، ولنطف به الأحياء القريبة منا، واسمح لى سنترك بورفؤاد إلى وقت لاحق، لأن الوصول إليها يقتضى عبور قناة السويس، وكذا سنترك حى الجنوب - أحدث أحياء المدينة - لأنه ريفى الطابع ويقع خارج المنافذ الجنوبية للمدينة حتى حدودها مع محافظة الإسماعيلية.

حى الشرق (الإفرنج):

ابدأ بنا أيها السائق الطيب من حى الشرق ؛ لكن قبل أن نبدأ طوافنا على مقاهى هذا الحى الذى كان يشكل قوام بورسعيد / النواة، أخبرك - عزيزى القارئ - أن عدداً من مقاهيه قد زال إما بجواريف الزمن أو أزاميل التجارة التى استوحشت بعد تحويل المدينة إلى قاعدة لما يسمى الانفتاح الاقتصادى. على سبيل المثال أزيل مقهى البسفور الذى كان يقع على حدود هذا الحى فى مواجهة حى العرب عند تقاطع شارعى صفية زغلول ومحمد على بفعل الزمن مثله مثل الكثير من مقاهى بورسعيد / النواة، وتحول مقهى دى لا بوست الذى كان يقع عند تقاطع شارعى الجمهورية وبنما (المرحوم محمد موسى) إلى محل للحلويات، وتحول مقهى اللوفر إلى محل لبيع الملابس الجاهزة ثم ساءت حالته وأغلق بالضبة والمفتاح، ومقهى فريال الذى كان يقع عند تقاطع شارعى سعد زغلول ومحمد على تحول إلى محل للعب الأطفال، ومقهى أطلانطا الواقع عند ميدان المنشية تحول إلى بوتيك، ومقهى الغزل الذى كان يقع بشارع ٢٣ يوليو أمام مسجد عبد الرحمن لطفى هدم وأنشئ بدلاً منه برج سكنى، ومقهى الضظوى الذى كان يقع عند تقاطع شارعى سعد زغلول والمغرب أصبح طللاً بعد عين.

آه .. أيها السائق أنتَ بدأت بشارع الجمهورية .. إنه الشارع الذى حكيتُ لك قارئى الكريم عن بعض مقاهيه .. لقد مضت أيام معظم هذه المقاهى .. وعلى كل حال سأريك الموجود منها .. مُرْ بنا أيها السائق الكريم على مقاهى:

چيانولا	عند التقاطع مع شارع دمياط
پاپاى	عند التقاطع مع شارع سعد زغلول
بيتزابينو	عند التقاطع مع شارع ٢٣ يوليو

ثم مل بنا إلى مقاهى الحى الأخرى، ومن أهمها :

العروسة	بشارع ٢٣ يوليو
زيزينيا	بشارع حافظ إبراهيم
براديس (البلياردو سابقاً)	عند تقاطع شارعى رمسيس وبابل
البرنسيسة (الجلاد سابقاً)	عند تقاطع شارعى صفية زغلول وفرعون
سمارة	عند تقاطع شارعى صفية زغلول وإفريقيا
أبو طرية	بميدان المنشية
عبد التواب	بميدان السكة الحديد

وطبعاً ما يحيط بها أو يسبقها من مقاه يصعب على تذكر أسمائها.

حي العرب:

ما دمنا قد وصلنا إلى مشارف حي العرب فاسمح لى بأن أذكر لك عزيزى القارئ أنه من المقاهى التى أزالتها جواريف الزمن وأزاميل الانفتاح الاقتصادى مقهى الشاعر وكان يقع عند تقاطع شارعى محمد فريد (كسرى) والغورى وكان ملتقى " سَمِّيعة " السير الشعبية التى يلقيها عليهم شعراء الربابة، ومقهى الاتحاد وكان يقع عند تقاطع شارعى سعد زغلول والهلالية وقد تحول إلى عدة محال، ومقهى ترك وكان يقع بالقرب من تقاطع شارعى سعد زغلول والمنيا وتحول إلى محل تجارى، ومقهى اللنش وكان يقع عند تقاطع شارعى الحميدى والغورى وقد قصف فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م. وتباع فى مكانه الملابس الجاهزة .

الآن طف بنا أيها السائق الخبير بما تعرف من مقاهى هذا الحى، ولا يفُتك الطواف بنا على المقاهى التى سأذكرها لك مثل :

الصحافة	عند تقاطع شارع محمد على وحارة البنا
الفلاح	عند تقاطع شارعى محمد على وصفية زغلول
الصاوى	عند تقاطع شارعى سعد زغلول وأبو الحسن
أحمد عبد الله	عند تقاطع شارعى سعد زغلول ودمنهور
الروضة (الفقهاء)	عند تقاطع شارع شهداء القنال وحارة البوصيرى
الجبالى	عند تقاطع شارعى محمد فريد وإبراهيم توفيق
يعقوب	عند تقاطع شارع السواحل وحارة العروسى
البذرة	عند تقاطع شارعى السواحل والمنيا
زهرة الشاى	بشارع الناصر بأرض العزَب
ليلى زمان	بشارع نهضة مصر بأرض العزَب
بصلة	عند تقاطع شارعى نهضة مصر والصباح
أبو ريان	عند تقاطع شارعى الناصر وتونس
الفوال	طرح البحر

حي المناخ:

وعندما تصل بنا أيها السائق الماهر إلى حى المناخ، مُرّ بنا على أبرز مقاهيه لاسيما المقاهى التى أعرفها مثل:

السعيدية	عند تقاطع شارعى المنيا وسعد زغلول
رأس البر	عند التقاء شارعى أحمد عرابى وسعد زغلول
الحمامصى	عند التقاء شارعى عدلى وسعد زغلول
النزهة	عند التقاء شارعى الأمين وسعد زغلول
الجيزى	بشارع سعد زغلول (عمارات ١٥ مايو)
قلفوط	عند تقاطع شارعى بنى سويف محمد فريد
وادى النيل	عند تقاطع شارعى المنيا ومحمد فريد
الفيشاوى (البارودى سابقاً)	عند تقاطع شارعى الجعفرية والسواحل
العَزَب	عند تقاطع شارعى أسوان والسواحل
أبو طارق	بشارع أسوان (منطقة الكويت)

حى الزهور:

لن أتعبك أيها السائق الكريم فى هذا الحى . هى منطقة واحدة ستمر ببعض مقاهيها، ثم شارع واحد ستقطعه لأنه يمر بأكثر من منطقة سكنية . فأما المنطقة فهى منطقة التعاونيات، وأما الشارع فهو شارع عبد الحليم محمود الذى يمر بمناطق سكنية كثيرة اخترت لضيفنا القارئ العزيز بعضاً من مقاهيها.

لنبدأ بمقاهى منطقة التعاونيات، وما اخترته منها هو المقاهى الآتية:

أبو رياض	ميدان بنزرت
الزهور	شارع الأمل
الإسراء	شارع بدر
الخديو	شارع طيبة
دوار العمدة	شارع طيبة

ومن مقاهى شارع عبد الحليم محمود مُرْ بنا على المقاهى الآتية:

الباشا	منطقة المروة
الفردوس	منطقة المروة
وادى الملوك	منطقة خالد بن الوليد
أبو طارق	منطقة أبو طالب

حى الضواحى:

اعلم أن حى الضواحى يقع أقصى جنوب المدينة، واعلم أيضاً أن سائقين كثيرين يضجرهم الذهاب إلى هذا الحى إذا كانوا فى قلب المدينة أو فى أطرافها، لكننا الآن فى

حى الزهور وهو لصيق لحى الضواحى من ناحية حدوده الشرقية، ثم إن مقاهى هذا الحى قليلة بحكم أنه حى حديث النشأة، وأغلب هذه المقاهى متركز فى منطقة مساكن بنك الإسكان حيث سوق قطع غيار السيارات المستعملة المشهورة بلغة أهل الكار بـ (المدبوح) . فلنتوجه إلى هناك، ولنيسر لقارئنا الضيف مشاهدة مقاهى هذا الحى ومنها:

– هابى – نور الصباح – سمبل – العمدة – هانى – ليالى الحلمية

وإن كان لدينا وقت فاعرج بنا إلى منطقة تعاونيات الشباب وأره مقهى الجوهرة السمراء ثم اتجه إلى منطقة الصفا وأره مقهى أبو حشيش.

شكراً لك أيها السائق الطيب، أنزلنا هنا عند هذا المقهى، وتفضل مشكوراً أجرة التوصيلة، وكما ترى هى أكثر مما نصت عليه تعريفة المرور داخل المدينة، وأرجو أن أكون قد عوضتك عما كبدتك إياه من مشقة.

أيها النادل .. لو سمحت .. ايتنى بكوب من الأيسون أو النعناع وانظر ماذا يطلب ضيفنا القارئ العزيز .

لعلك قد تيقنت الآن يا عزيزى من أن المقهى عنصر أساسى من عناصر بنية بورسعيد الحضارية . لقد أريتك نماذج من مقاهى المدينة .. المتبقى من التقليدى الطاعن فى الزمن، والحديث الذى نشأ مع نشأة المناطق العمرانية الجديدة . وإذا كان الباحثون لا يملكون ما يحددون به تحديداً قاطعاً الزمن الذى ظهرت فيه المقاهى بمصر، فإن الأمر مختلف مع بورسعيد، فهى بالقطع ظهرت مع نشأة المدينة وخروجها إلى الوجود . وأنا لم أقطع بهذا، على الرغم من أننى لا أميل عادة إلى الصياغات اليقينية، إلا اتكاءً على أمرين، أولهما أن مصر عرفت المقاهى قبل نشأة بورسعيد بأزمان وأزمان، ولعلك تعلم أن كتاب وصف مصر، الذى كان الثمرة الثقافية الأشهى والأنضج للحملة الفرنسية كثيرة المساوئ، قد تضمن أوصافاً للمقاهى المصرية، وثانيها الرسوم والصور التى نقلت لنا جلسات المقاهى الشعبية بالمدينة منذ كانت فى طور النشأة سواء كانت تفرش بالحصر أو ترص فيها الكراسى المصنوعة من الخشب والقش.

وهى دائماً عامرة بروادها، فى الشتاء يفرد أصحابها المظلات المصنوعة من القماش المشمع الثقيل ـ أكثرها أصبح الآن من البلاستيك ـ وفى الصيف تُرص الكراسى فوق الرصيف وتهبط إلى أسفلت الطريق المرشوش بالماء لترطيب الجو. وروادها يأتونها طوال اليوم، لكن الازدحام يبدأ عادة بعد المغرب وأوقات الذروة تكون بعد العشاء إلى ما بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين . ويتكاثف هذا الزحام أضعافاً مضاعفة فى الليالى الرمضانية وفى المقابل ينعدم روادها تماماً نهارات هذا الشهر لدرجة أن الغالبية العظمى

منها تغلق أبوابها إلى وقت المغرب.

وكما رأيت، فإن من المقاهى ما لا يتسع إلا للقليل جداً من الكراسى ومنها ما يتسع لمائة كرسى مثلا . وعادة ما ترص الكراسى والترابيزات على الأرصفة أمام المقاهى وفى أنهار الطرقات . وها أنت ذا قد رأيت أن مقاهى الموسرين والفقراء تتشابه فى أشياء كثيرة، فما من مقهى إلا له نصبة وبه كراس وترابيزات وطقاطيق، والأكواب والصوانى وصناديق المياه الغازية والثلاجات تحيط بكل نصبة، وركن العادة الشرقية التليدة .. عادة تدخين التمباك والمعسل وغيرهما مما يتم تدخينه .. موجودة بأغلب المقاهى، وتتجاور فيهما النرجيلة والشيشة والجوزة ومناقد الفحم وكراسى الدخان.

ومن هذه المقاهى ما يستخدم أصحابها الماركات لمحاسبة صبيانه الذين يتعاملون نيابة عنه مع الزبائن، وبعضهم لا يستخدم الماركات وإنما يتعامل بالنقود مباشرة . الفرق الواضح بين مقاهى الموسرين ومقاهى الفقراء يتضح أكثر ما يتضح فى نوعية الديكورات والأثاثات ومستويات النظافة وهيئات مقدمى الخدمات وملابسهم .. ففى مقاهى الموسرين ينادى على الواحد منهم بـ " المِتر " اختصاراً لـ" المترودتيل " أ و بـ " الجرسون ". أما فى مقاهى الفقراء فينادى بالـ " واد " أو بـ " الصبى " ؛ وتزيد مقاهى الموسرين على مقاهى الفقراء بأنها تقدم لروادها المشروبات التى يطلبونها مقترنة بقطع الجاتوه باعتبار أن المقهى لا يقدم " الطقم " إلا كاملاً، وهذا هو الحال مع مقاه كثيرة مثل: چيانولا وپاپاى والعروسة وأبو طرية، بل إن منها ما يقدم مأكولا ت أخرى مثل مقهى بيتزا بينو.

وأجهزة التليفزيون والفيديو والكاسيت أصبحت أكثر شيوعاً الآن أكثر من أى وقت مضى، وقد أسقطت هذه الأجهزة جهازى الراديو والجرامفون من فوق عرشيهما مثلما اكتسحت المنشدين وشعراء الربابة، بل إن موضة جديدة آخذة فى الانتشار السريع هى موضة مقاهى النت، وهى تتزايد تزايد الذرَّة بفعل التسلسل الانشطارى. والجلوس فى المقاهى الشعبية لا يستنكفون سماع مفردات قديمة لم تمت بعد من قبيل : البكرج (تطلق على البرَّاد) والطوبسى (تطلق على طبق الفنجال) والراكية أو الكانون والمنقد (تطلق على موقد الفحم) والماشة (تطلق على ملقاط الفحم) والشفشق (تطلق على دورق المياه). والتعميرة كلمة بريئة تعنى إعداد النرجيلة أو الشيشة أو الجوزة للتدخين، لكن التعميرة "المغمسة " تعنى تطعيم التمباك أو المعسل بالحشيش والعياذ بالله. وطبعاً هناك مفردات أخرى متصلة بالسيم أو الشفرة التى يتفاهم بها القهوجية مع بعضهم البعض ومع عامل النصبة بما لا ينبغى أن يفهمه الزبون.

ومهما تنوعت مسمياتها ـ كما لاحظتَ بكل تأكيد ـ ما بين مقهى وكافتيريا وكوفى شوب

وريستوران فهى جميعها مقاه، ولعلك لاحظت أنه لا يوجد ضابط لهذه التسميات وهى موجودة فى المناطق الشعبية وجودها فى غيرها . إنها الموضة لا أكثر . لكن المقاهى الأكثر أصالة، تلك التى تشعرك بأنك فى مكان يختزن خبرات وثقافات جديرة بالاحترام، فهى المقاهى التى تحمل لافتاتها مفردة (مقهى) أو مفردة (بورصة) ؛ فالمقهى تعطى إحساسا بالبيئة العربية ثقافة وكرماً ودفئاً، أما البورصة فتبدو أليق بالأفنديات ممن تتصل حيواتهم بالتجارة وبمؤسسات الأعمال والمصالح الحكومية، ولا غرو فالكلمة نفسها تعنى - كما تعلم - السوق الذى تعقد فيه صفقات بيع وشراء الأوراق المالية والقطن، وبما أنه لا سوق للأوراق المالية فى بورسعيد ولا أقطان، فلا بأس من التمسح باللفظة على الأقل لإعطاء غطاء للصفقات والأعمال التى تتم بالمقهى . ومن تلك التى ما تزال تحمل اسم البورصة :

*** حى الشرق :**

بورصة براديس (البلياردو سابقاً)

بورصة الصحافة

بورصة أحمد عبدالله

*** بحى العرب:**

بورصة الصاوى

بورصة الروضة

بورصة الفلاح

*** حى المناخ :**

بورصة النزهة

بورصة رأس البر .

بورصة الحمامصى

بورصة وادى النيل

*** حى الضواحى :**

بورصة هابى

بورصة نور الصباح

بورصة سمبل

طبعاً لدى حكايات تحكى عن بعض هذه المقاهى، فمثلاً كانت هناك نية لإقامة مقهى فى قلب ميدان دى ليسبس (المنشية) سنة ١٩١٦م، فقد نقل إلينا ضياء الدين القاضى أن أجنبياً اسمه مانولاكس - يونانى فى الغالب - تقدم بتاريخ ١٣ مايو ١٩١٦م. بطلب إلى

المجلس البلدى لاستئجار حديقة الميدان بغرض إقامة مقهى لمدة خمس سنوات بإيجار سنوى ٣٦ جنيهاً، ولا أعرف إن كان هذا المقهى قد أقيم أم لا، فلا توجد أدله تثبت هذا، فضلاً عن قيام البلدية بإعادة تنظيم الميدان عام ١٩١٨م.

وكثيرة هى المقاهى التى كان يجتمع فيها الأدباء منها على سبيل المثال مقهى البسفور الذى كان محلاً لالتقاء الأدباء من الرعيل الأول بالمدينة، وكذا خطباء ثورة ١٩١٩م، ومقهى الاتحاد وكان محلاً لالتقاء الوفديين منهم، ومقهى أطلانطا، ومقهى ترك . وكنتُ في مقتبل عمرى أختلف إلى هذين المقهيين لألتقى بزمرة من أصدقائى الأدباء.

أما مقهى اللوفر فقد كان رواده من أبناء أعلى شرائح البرجوازية فى المدينة أولئك الذين يرتدون الچاكت والبابيون، والأجانب كانوا يتقبعون البرانيط أما أبناء المدينة فكانوا مطربشين، وجلهم كان يمسك بالمجلة أو بالجريدة أو بالمنشة جلدية المقبض التى يذب بها ذباباً لم يكن يأتى إلى هذا المكان . وجلهم - أيضاً - كان يضع الساق فوق الساق ليبرز جوربه الأوروبى من تحت البنطلون المصنوع من الصوف الإنجليزى وفوق الحذاء الذى يجمع بين الأبيض المدهون بالإسبيداج والأسود أو البنى المورنش بنفس لونه. وفى الخمسينيات كنتُ أرى رجلاً ذا هيئة فولكلورية .. ملتاثاً، نحيلاً، تخطى الأربعين، بوجهه وبالأجزاء الظاهرة من تحت كميه المشمورين باستمرار آثار ندوب وآثار جروح .. وكان يمسك دائماً بجريدة مطوية ويقف أمام رواد المقهى ويردد عبارة لا يغيرها أبداً نصها هو " على باشا الشافعى ضد كل شيوعى فى الأرض " . ولا أعرف السبب فى لوثة هذا الرجل مثلما لا أعرف مصيره، لكنه كان بائساً إلى حد كبير.

ومثلما يحتشد مقهى سمارة فى الوقت الحالى بالسياسيين اليساريين الملتفين حول النائب السابق البدرى فرغلى، كانت هناك مقاه قديمة تكتظ بالسياسيين . وعدد كبير من المشاركين فى المظاهرات التى اندلعت بالمدينة إبان ثورة ١٩١٩م، إنما شارك فيها انطلاقاً من المقاهى . ورواد مقهيى البسفور والاتحاد كانوا من الوفديين المتحمسين فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الفائت، واليساريون اختاروا مقاهى فريال وأطلانطا والفلاح وترك فى الستينيات والسبعينيات من نفس القرن، ومن خلال المقهى الأخير(ترك) تأسس منبر اليسار فى بورسعيد الذى تحول إلى حزب التجمع، وفى الثمانينيات اشتهر مقهى الفوال باختلاف السياسيين إليه من كل التيارات .

ومثلما كانت المقاهى مصايد للمرشدين والمخبرين كانت أيضا ميادين للمعارك الانتخابية، إليها ينتقل المؤيدون للمرشحين فى الانتخابات المحلية والقومية فرادى وزرافات وحشوداً، وبها تلقى الخطب وتعقد المؤتمرات والندوات والمحاكمات، و بداخلها وأمامها

وحولها تنشب المشاجرات بين أشيا ع هذا المرشح ومؤيد ى ذاك. ومن أصحاب المقاهى من أصبح لا يقيم المؤتمرات الانتخابية أو توابعها إلا إذا قبض مقابلاً نقدياً من المرشح أو أحد وكلائه.

وكما أضحت مقاهى بورسعيد ساحات لالتقاء الأدباء والسياسيين، أضحت كذلك منتديات للمهتمين بالرياضة التى تختزل دائماً فى كرة القدم، وعلى الرغم من أنه توجد فى بورسعيد فرق تمارس هذه اللعبة فإن فريق النادى المصرى هو الوحيد ذو الشعبية داخل المدينة. ولا يخلو مقهى من هؤلاء المشجعين ومن المحاكمات التى يعقدونها للحكام واللاعبين والمدربين والمديرين الفنيين وأعضاء مجلس إدارة النادى ، بل لمشجعين من زملائهم، وصولاً إلى أعضاء مجلس إدارة الاتحاد الموجود بجبلاية الزمالك بالقاهرة. وفى المقاهى يدبرون وسائل السفر خلف ناديهم لتشجيعه فى ملاعب المدن الأخرى، وفيها يبتكرون عبارات التشجيع والتنديد ويرسمون الخطط التى تحقق الفوز وينتقدون الخطط التى أدت إلى الهزيمة. ومن المقاهى التى برزت من هذه الناحية مقهى الضيظوى (هُدم) . والضيظوى كما تعرف عزيزى القارئ هو أشهر ثعالب كرة القدم المصرية ، وقد انتقل إلى النادى الأهلى بعد صولات وجولات فى النادى المصرى . ومنها أيضاً مقهى رأس البر ومقهى الحمامصى ومقهى النزهة لقربه من الاستاد الرياضى، وداخل هذه المقاهى وأمامها تباع تذاكر النادى بشروط السوق السوداء، كما تباع الرايات والطواقى والكوفيات الخضراء (لون فانلات لاعبى النادى)، وكذا مستلزمات التشجيع من رتالات ومزامير وطراطير، والطبول أحياناً.

وحتى منتصف الستينيات تقريباً مَثلت المقاهى محطات تنقل يومى للحواة ولاعبى الأكروبات وعازفى آلة البيانولا، يؤدون ألعابهم ومعزوفاتهم ويتلقون ما يتعطف عليهم به رواد المقاهى من قروش قليلة . وما زالت سيرة " نوال كبريت " تتردد على ألسنة من شاهدوها . وكانت امرأة غير جميلة بالمرة، هزيلة شديدة الهزال، قصيرة أقصى ما يكون القصر، لكنها ليست قزمة، ترتدى الملابس الزاهية على رخصها، بنطلون واسع وبلوزة أوسع، والسجائر لا تكاد تغادر شفتيها، وأمام المقاهى كانت تقذف من فمها ألسنة اللهب تجاه أوجه الرواد وتقوم ببعض الحركات البهلوانية لتكسب قروشها القليلة. معها - وأحياناً بدونها - كان بعض الصبية والصبايا يؤدون بعض الحركات الصعبة التى تظهرهم كما لو كانت أجسامهم بدون عظام أو أن هذه الأجساد عصية على الإحساس بلسع النار أو وخز المسامير. وغير عازفى البيانولا ما كان أحد من هؤلاء يجرؤ على المرور أمام المقاهى الموجودة بشارع الجمهورية بحى الإفرنج.

ومن الذين كانت - وما تزال - المقاهى المصدر الأساسى لأرزاقهم ماسحو الأحذية وبائعو الفول السودانى والمناديل الورقية والشحاذون.

ونادرة هى المقاهى التى تقتصر على فئات بعينها . فما من مقهى ترتاده فئة بعينها أو يتجمع فيه ممارسو مهنة محددة إلا استقبلت مَن هم من خارج هذه الفئة أو المهنة .. فى الماضى كانت هناك مقاه للبرابرة والبحارة والبمبوطية وتجار سواقط البحر والصيادين والسماكين والعربجية وقارئى القرآن (الفقهاء) وموزعى الصحف وعمال التراحيل وعمال البناء، الآن اختلط الكل بالكل، ولا يكاد يتميز فى هذه الناحية من المقاهى إلا المقهى الذى يجتمع فيه قارئو القرآن (قهوة الفقهاء - الروضة) والمقاهى التى يرتادها تجار قطع غيار السيارات المستعملة(مقاهى المدبوح بمنطقة بنك الإسكان). والسبب هو التغيرات التى طرأت على المدينة، فامتدادات النواة اتسعت بما كان بعيداً عن أى تصور، والتحويرات عميقة والوافدون إليها كُثر والتفريعة الشرقية لقناة السويس استولت على جزء كبير من طاقة المجرى الرئيس والميناء المحورى أثر على حركة الميناء القديم، وحركة العمران شتتت أصحاب المهنة الواحدة، ومهن اندثرت أو فى طريقها إلى الاندثار، ثم هناك الحروب والهجرات الإجبارية لسكان المدينة.

ولقد شهدت المقاهى من مآسى الحروب الكثير.

واسمح لى بأن أصف لك مشهدين اثنين من آخر الحروب التى شهدتها مقاهى المدينة، وأقصد بها - بالطبع - حرب - كتوبر١٩٧٣م. ؛ فقد قصفت الطائرات المغيرة المنطقة المحيطة بمقهى الاتحاد، وكان أن أمسكت النيران فى خيول الجر التى كانت مربوطة إلى عربات الكارو والحناطير على مقربة من المقهى فاندفعت باتجاه المقهى تصهل وترفع رؤوسها وأعناقها إلى أعلى وأعرافها تتطاير لهبا فى مشهد غاية فى الوحشية لا يولد غير الاضطراب والفوضى والأسى . ولم تفلح محاولات إنقاذها بإطفاء النيران الناشبة فيها، لا بالمياه - على ندرتها - ولا بالأتربة وهلاهيل الأقمشة، لتنفق أمام المقهى وتظل روائح احتراق الشعر والجلد وشواء اللحم الحى فى أنوف من وقفوا على هذا المشهد حتى الآن.

وقعت أحداث المشهد الآخر فى مقهى اللنش، فقد قصفت الطائرات الإسرائيلية المنطقة الموجود بها المقهى قصفاً عنيفاً فدمرت عدداً من المنازل وزاوية للصلاة وقتلت الكثيرين من عمال تحسين البيئة بديوان عام المحافظة الذين كانوا قد تجمعوا فى المقهى ليصرفوا رواتبهم من مندوب الخزينة الذى اختار هذا المقهى مكاناً يؤدى فيه وظيفته لأن التعليمات كانت تقضى بالانتشار فى المدينة وترك المبنى المؤقت للمحافظة (مدرسة بورسعيد الثانوية العسكرية) الذى قصف هو الآخر.

وكما تعلم فإن المقاهى فى كل بلاد الشرق ظاهرة ذكورية، وهى كذلك فى بورسعيد، منذ النشأة الأولى وحتى الآن . وعبر كل ما طرأ عليها من تحولات ظلت كما هى، لكن ثمة ظاهرة ثانوية بدأت تظهر وتتغلغل داخل المدينة منذ النصف الثانى من سبعينيات القرن الماضى، أى بعد تحويل بورسعيد إلى منطقة حرة اقتصاديا، وتحويلها إلى سوق استهلاكى للبضائع المستوردة .. سوق جاذب للنشطاء من المسوقين الأجانب والمتسوقين المصريين .. هذه الظاهرة تمثلت فى اعتياد المرأة على ارتياد المقاهى . البداية كانت من قِبَل الأسر الوافدة التى أتعب التجوال أفرادها من ذكور وإناث فالتمست الراحة فى المقاهى . وبدأت النسوة المتعبات اللائى يأتين إلى المدينة منفردات فى الجلوس بأركان المقاهى . الأجنبيات من مندوبات تسويق البضائع المستوردة فعلن بالمثل، وما لبثت فتيات بورسعيديات أن قلدن ما رأينه وصرن من رواد المقاهى ، لكن الظاهرة لم تستفحل ولم تتجذر حتى الآن، وغير معروف ماذا عساه أن يحدث فى قابل الأيام.

لعلى أكون قد وفقتُ فى مهمتى، وتكون أنت قد كونت صورة ذهنية واضحة عن أوضاع مقاهى مدينتنا ومرتاديها.

أراك قد انتهيتَ من مشروبك، إنْ أردت أن نمكث فى المقهى ريثما نتناول مشروباً آخر فلا بأس، وإن أردتَ أن ننهض لمهمة أخرى فلا بأس أيضاً.



الفصل الثالث

صدح الموسيقى



فى سنة ١٨٧٣ صُرِّح بإقامة كشك للموسيقى فى حديقة المنشية (ميدان دى ليسبس) وتم توسيعها لهذا الغرض . وكانت فرق الموسيقى بالسفن الحربية مثل السفينة (دنقلة) والسفينة(سير جهاد) وغيرهما من السفن التى تقيم فى الميناء هى التى تتولى عزف الموسيقى فى يومى الجمعة والأحد من كل أسبوع للأجانب والوطنيين، وقد تم إنشاء هذا الكشك بالفعل سنة١٨٧٨م. وكذلك فرق الجاليات الأجنبية، التى ذكرتُ لك بعض أسمائها آنفاً، ولم تكن الموسيقى تُمنع فى المدينة إلا لأسباب وظروف طارئة مثل وفاة كريمة الجناب العالى، أو وفاة طوسون باشا. وكان يعاد العزف فور انتهاء الحداد فى المحال والأماكن المعدة لذلك (١٠).

وقد نقل كشك الموسيقى هذا من ميدان المنشية (ميدان دى ليسبس) إلى حديقة التربية التى عُرفت لدى العامة بحديقة الباشا ـ نسبة إلى محمد محمود باشا محافظ القنال ـ وكانت على مسافة شديدة القرب من مبنى عموم المحافظة، ويُطل عليها من ناحية الجنوب نادى العمال، ثم ما لبثت المبانى الإسمنتية أن اقتحمت الحديقة ابتداء من مبنى مجمع المحاكم ثم مبنى السنترال فأحد المخابز ثم نادى العمال نفسه الذى تخلص من بنيانه الخشبى الجميل واتخذ هيئة إسمنتية جديدة، واندثرت الحديقة التى لى فيها ولغيرى من أبناء جيلى و الأجيال الأسبق ذكريات لا تنسى .

وتعاقد المجلس البلدى مع فرق الجاليات الأجنبية الموسيقية ليستمر العزف بهذا الكشك كما كانت العادة معه فى مكانه القديم بميدان دى ليسبس، أى فى يومى الأحد والجمعة من كل أسبوع، وكذا فى أيام الأعياد، وطنية كانت أم أجنبية ؛ لكن هذه الفرق لم تكن تنتظم فى مواعيدها، وحسب ضياء الدين القاضى فقد وصل عدم الانتظام هذا إلى حد أن المجلس البلدى لم ير حلاً لهذه الورطة سوى التعاقد مع الفرقة الموسيقية للأورطة البريطانية المرابطة فى بورسعيد، مما دفع بالمحافظ حسن فهمى بك رفعت إلى التفكير فى إنشاء أول فرقة موسيقية نظامية بالمدينة، واقترح هذا بالفعل على المجلس البلدى الذى رحب بالاقتراح ووافق عليه فى الثلاثينيات من القرن الفائت.

وفى بداية الخمسينيات كنتُ أستمع إلى فرقة موسيقى البوليس المصرى وهى تعزف، بشكل رسمى، فى هذا الكشك بحديقة الباشا مرة كل أسبوع على الأقل، بالإضافة إلى أيام المواسم والأعياد، وأشهر ما كانت تعزف فيه مواكب الرؤية والمولد النبوى والتشريفتين الصغرى والكبرى، وشاركتها العزف فى هذه الحديقة وتلك المناسبات فرقة موسيقى ملجأ الأيتام، وكان أعضاء هذه الفرقة مهندمون يرتدون ملابس - قريبة من ملابس الضباط - غاية فى الأناقة، ولأنهم صغار السن وبارعون فى العزف ومهندمون فقد كانوا مصدر إبهار لكل من يشاهدهم أو يستمع إليهم، ومن ثم كانت الشرائح العليا والوسطى من سكان المدينة تحرص على استقدامهم لإحياء حفلاتهم فى مختلف المناسبات لاسيما فى حفلات الزواج.

وتميزت هاتان الفرقتان بأنهما كانتا تقدمان المعزوفات الآلية البحتة غير المصحوبة بالغناء أو الحركات الجسدية (الرقص) اللهم إلا حركة الدبوس بفرقة موسيقات البوليس المصرى الذى كان يمسك به أحد الماهرين فى تحريكه بين أصابعه وحول ذراعيه وفوق رقبته ويحيط جسده به أو يقذف الهواء به ثم يتلقفه بمهارة ورشاقة، وقد ذكر لنا ضياء الدين القاضى فى الجزء الثانى من موسوعته أسماء بعض لاعبى الدبوس وهم أحمد عبد الرحمن، محمد عبد المجيد، وعلى سويلم، والأول طعن بدبوسه أحد الشباب فقتله.

لكن الموسيقى لا تكون دائماً عزفاً آلياً بحتاً، وإنما تصاحبها فى أحايين كثيرة نصوص شعرية غنائية وحركات جسدية راقصة، وهذا ما كان متوافراً دائماً فى الموسيقى الأجنبية والوطنية داخل المدينة سواءً بسواء، فكلاهما صاحبه الغناء والرقص.

وإذا كانت للأجانب فرقهم الموسيقية التى رعوها وحرصوا على الاستماع إليها فى البارات والكباريهات والصالات ومن أشهرها: سيجال، بلو بيرد، نيوبار، ماجيستك، براديس، التريانون، اسبلندد، مرجريتا، الليرا، الأولدرادو، سيسيل، كما قلتُ لك ؛ فقد

تميزت صالة فندق وكازينو بالاس بميزة الانكشاف للمارة فى شارعى كتشنر والسلطان حسين، فلم تكن ترتفع عن مستوى إسفلت الشارع بغير خمس درجات، وسورها الخشبى كان قصيراً ورمزياً مما يجعل التطلع إلى ما بداخلها أمراً ميسوراً للمتطفلين من الفتيان وغير الفتيان من الوطنيين.

وقد مثلت لنا هذه الصالة فرصة، طالما اغتنمناها، لمشاهدة كل مايدور فيها والاستماع إلى الموسيقات الأجنبية، التى غالباً ما كان رواد الصالة ينهضون فور عزفها . وهذا النهوض لم يكن يعنى لنا سوى أننا سنشاهد الرجال الأنيقين - وأغلبهم بَحَّارة - وهم يضمون النسوة الحاضرات إلى صدورهم، ويدورون بهن كالفراشات أو يميلون إليهم ميل السكارى. وكان أعضاء الباند الغربى ينوعون ما يرتدونه ما بين الردنجوت والقمصان المشجرة، وأحياناً كنا نراهم وقد ارتدوا الجلابيب الإفريقية، وأدوات الموسيقيين كانت تشدنى شداً، صحيح أنَّ منها ما أعرفه مثل البيانو والكمان والإكسلفون ؛ لكن منها أيضاً ما لم أكن أعرفه، ولم يكن بإمكانى أن أعرفه، لولا تلصصى على هذه الصالة، مثل آلات التشيلو والساكسفون والهارب، الذى كنتُ أطالع صورته أحياناً فى بعض الكتب والمجلات دون أن أراه بعينىَّ أو أستمع إليه بأذنىَّ، رؤية واستماعا حقيقيين، وكم كان صوت هذه الآلة عذباً رخيماً ؛ لكن ما كان يهمنا وقتها ويشغل مساحات عريضة من نقاشاتنا هو أجساد الرجال والنساء المتلاصقة فى المرقص.

ولدى الوطنيين من العامة كانت هناك ثلاثة أنواع من الموسيقات بخلاف الموسيقى الشعبية وما يصاحبها من غناء ورقص، وهذه الأنواع الثلاثة هى: موسيقى التخت، موسيقى الآلات النحاسية، والموسيقى الدينية . أهم أدوات النوع الأول كان العود والقانون والناى والرق والطبلة والصاجات، وأهم أشخاصه المطرب والراقصة التى تجيد إثارة غرائز الرجال وغيرة النساء . وأبرز أدوات النوع الثانى آلات النفخ ذوات الأبواق والنقرزان والصنوج النحاسية الضخمة التى كان يُطلق عليه الطاسات لتشابهها مع " طاسات حلل الطبيخ " (أغطية أوانى الطبخ)، وأهم الأشخاص كبير العازفين الذى غالباً ما يمسك بعصاه قصيرة تشبهاً بما يفعله المايسترو فى فرق الموسيقى الفلهارمونى الكلاسيكية، وهو لا يمسك فى الغالب بأية آلة ليكون حراً فى تلقى النقوط ورفع العقيرة بأسماء مُقدميه . أما النوع الثالث فأبرز أدواته الطبل والكاسات والبيارق المكتوب عليها عبارات التوحيد وأسماء الخلفاء الراشدين وأسماء الطرق الصوفية، وأهم الأشخاص كبير المنشدين الذى غالباً ما يمسك بالصنوج ويقود عملية الإنشاد .

واشتهر من مطربات ومطربى وراقصات النوع الأول - من الخمسينيات وما بعدها -

كثيرات وكثيرون منهم : زينب بغدادى والباتعة ونعيمة ولعة ولواحظ وأختها محاسن والأسطى نبوية مصطفى، ونعمت مختار (اكتشفتها الأسطى نبوية قبل الانتقال إلى شارع محمد على بالقاهرة ومنه إلى شاشات السينما) وعزيزة بنت أم رجب وكريمة أبو زيتون وحسن صفراته وعلى زوبة ومحمد خلف وحسن الزجال وغريب أيوب والعربى سأسأ ومحمد الفطايرى، ومِن المطربين مَن كان يؤدى أغنياته الخاصة به هو بالإضافة إلى أغنيات المطربات والمطربين المعروفين وأغنيات الأفراح المشهورة، ومنهم من كان يؤدى المونولوجات. ومن منظميهم اشتهر الدُّع ولطفى أبو زيتون وصلاح غازى، وانتشرت أغلب محلاتهم بشارع الشرقية فى المنطقة المحصورة بين السرايا الصفرا وشارع الغورى وقليلها كان خارج هذا النطاق . ويكاد نشاط الفرق، التى تقدم هذا النوعية من نوعيات الموسيقى والغناء والرقص، يقتصر على إحياء الأفراح المتصلة بالخطوبة وعقد القران. وفى نفس المنطقة تقريباً كانت تتواجد محلات الآلاتية، وفيها كان يتم الاتفاق مع فرق الموسيقات النحاسية التى كان أعضاؤها يرتدون الملابس الشبيهة بالملابس العسكرية بما فيها البيريهات ويتزينون بإكسسوارات ونياشين وهمية . وكان ميدان نشاط الفرق من هذه النوعية هو الشارع ويبدأ من زفة العروسين وحفلات افتتاح المحلات الجديدة والإعلان عن الأفلام التى تعرضها دور السينما ويمتد إلى الاحتفال ببراءات المتهمين والإفراج عن المسجونين وطهور الذكور. أما طبول وكاسات الموسيقات الدينية فقد كانت حِكراً على جماعات الطرق الصوفية وأشهرها الطريقة الرفاعية والطريقة الشاذلية، كما هو حالهما فى سائر البلاد. وكان لهاتين الطريقتين وجودهما البارز فى موكبى المولد النبوى وليلة الرؤية ـ رؤية هلال رمضان ـ وكذا عند استقبال الحجيج وفى حفلات الذِكْر والنذور، وكان الاتفاق مع من سيقوم بأداء طقوس المناسبة يتم فى مقار الطرق الصوفية، أما الأدوات فكانت تُجلب من أماكن تخزينها فى محال عمل وإقامة مستخدميها.

وإذا كان وصف الرسمية هو الوصف الذى يليق بما ذكرنا من أنواع الموسيقى والغناء والرقص، باعتبار أن المجتمع بأغنيائه وفقرائه ـ والوطنيين فيه والأجانب عنه ـ قد تواطأ على قبولها وارتضاها للتعبير والتسرية عن قطاعات منه، فقد تزامنت الأنواع الشعبية من الغناء والموسيقى والرقص مع هذه الأنواع الرسمية داخل المدينة، وبالتحديد فى حيى العرب والمناخ. وواقع الأمر أنه لا يمكن مع الشعبيين الفصل بين هذه الضروب الثلاثة فكل ضرب منها مندمج بالآخر ومتسبب فيه ومترتب عليه، فعندما تُذكر الموسيقى الشعبية فإنما يُذكر الغناء والرقص الشعبيان، وعندما يُذكر الغناء الشعبى فإنما تُذكر الموسيقى والغناء الشعبيان، وبالمثل حينما يُذكر الغناء الشعبى .. ويمكن تصنيف الفنون الشعبية المتصلة

بالموسيقى والغناء والرقص - تلك المنصهرة فى سبيكة واحدة - فى تصنيفين اثنين أحدهما عام وافد، والآخر خاص أصيل ؛ فأما العام الوافد فأذكر منه : السِيَر، التحطيب، ترقيص الخيول، الزار، العديد، وعروض الفرجة ؛ وأما الخاص الأصيل فالضمة والسمسمية.

من العام الوافد شاهدتُ واستمعتُ بنفسى إبان الخمسينيات من القرن الفائت إلى كل ما ذكرتُه لك آنفاً، وما دمتَ تريد فيسعدنى أن أسرد عليك نُبَذاً عن محتويات كل تصنيف بالقدر الذى يعطيك فكرة ولو يسيرة عنها:

عن العام الوافد:

السِيَر:

وأعنى بها السير الشعبية من نوع : " أبو زيد الهلالى سلامة "، " عنترة "، " سيف بن ذى يزن "، " الظاهر بيبرس "، " الأميرة ذات الهمة " و " حمزة البهلوان". والأداء الذى استمعت إليه وشاهدته، وقت صباى، كان غناءً وموسيقى وإلقاءً للشعر وسرداً للقص . ورواة السير أو منشدوها كانوا يأتون من الريف وأغلبهم من الصعيد، إلى المدينة فى كل وقت، ولم يرتبط قدومهم بأية مناسبات، وعرفوا بالشعراء، وكن ببورسعيد مقهى يعرف بمقهى الشاعر تخصص فى استضافة شعراء الربابة، وكان يطل على شارع كسرى (شارع محمد فريد) فى منطقة تَجَمُّع الصعايدة بالقرب من حدود حى الإفرنج . وكما هو معروف فإن آلة العزف الموسيقى المصاحبة للسيرة هى الربابة المشهورة فى الريف المصرى، ولم أشاهد آلة أخرى إلى جوارها . وكنتُ أقف مشدوهاً، ضمن مشدوهين آخرين، وأتابع انبهار جمهور المقهى بمهارات شاعر السيرة إذ يعزف ويغنى وينظم الشعر ويسرد القصص - منفرداً - باقتدار ومكْنَة، ولم أشاهد رقصاً مصاحباً لأدائه، اللهم إلا حركات المستمعين الجسدية وارتفاعات وامتدادات أذرعهم المعلنة عن بهجتهم وإعجابهم بأداء الشاعر.

التحطيب:

قلما كان الغناء يصاحب رقصة التحطيب، وكان الصعايدة يتبارون فى استعراضهم لمهاراتهم فى استخدام (النبابيت) من خلال هذه الرقصة، التى كانت تُمتعنا كثيراً متابعة حلقاتها. وكان المزمار البلدى (الصعيدى) هو أبرز آلات العزف المصاحبة للرقصة هى والطبلة البلدى، وربما اقتصرت آلات العزف عليها دون غيرهما إذا ما استبعدنا التصفيق بالكفوف. وكانت هذه الرقصة منتشرة - بحدود - فى حى العرب حتى نهاية الخمسينيات من القرن الفائت . وكنتُ مولعاً بمشاهدتها وتتبع حلقاتها فى سنى الصبا . وقد شاهدتُ عدداً منها يؤدى فى قلب نهر شارع محمد على الذى يفصل بين حيى العرب والإفرنج.

ترقيص الخيول:

قليلة هى رقصات الخيول التى كانت تؤدى داخل بورسعيد، وكانت مقصورة على الصعايدة، ومثلما هو الأمر مع رقصة التحطيب فإن المزمار والطبلة البلديين كانا أهم آلات العزف والتوقيع لهذه الرقصات . وممتطى صهوة الحصان كان يُسمى " الرَكّيب "، وأحياناً ما كان يتم ترقيص حصانين معاً وسط الحلبة، وأثناء الترقيص يتم استعراض رشاقة أداء كل حصان وقدرة كل " رَكّيب " على التحكم فى حصانه، وأحياناً ما كان يشهر كل "رَكّيب" نبوته فى مواجهة منافسه، وينخرطان فى استعراض مهارتيهما على أداء رقصة التحطيب من فوق صهوتى الحصانين . ولم أكن أشاهد هذه الرقصات فى غير أماكن رقصة التحطيب.

الزار:

كانت هذه الرقصة الطقسية تُقام داخل البيوت فى جميع أنحاء الحيين الشعبيين : العرب والمناخ، ولا تفرقة بين سكان هذه البيوت سواء كانوا من البحاروة أو من الصعايدة؛ والهدف منها هو إخراج الجان من أجساد من يتلبسونهم أو فك الأعمال الشريرة وغيرهما من الأمور التى تنغص على بعض الأفراد من الشعبيين حيواتهم ؛ وأكثر الملبوسين بالجان كن من النساء . أما أبرز آلاتها فالطنبورة والطار والمثلث . و" الكودية " هى الراقصة الأولى وقائدة المحفل بأكمله ويعاونها عادة عدد من العازفين هم فى الغالب من السودانيين أو النوبيين . وبالإضافة إلى وحشية الإيقاعات التى هى عماد هذه الرقصة، وحالات الهوس الجسدى والصوتى التى تعترى المشاركين فيها، كانت المطالب اللازمة لترضية الجان أو إخراجه عنوة من جسد من تتلبسه كثيرة ومتنوعة، فقد تبدأ بما هو فى حجم النملة وتنتهى بما هو فى حجم الجمل أو العجل السمين. وقد قلَّت هذه الرقصات كثيراً ووصلت إلى حد الندرة.

المديح النبوى:

كان يقوم به " الصييتة " القادمون من الوجه البحرى فى الغالب، وأسباب استقدامهم متعددة، منها ما يتعلق بإعلان مظاهر الابتهاج بذهاب أو عودة الحجيج من وإلى الأراضى الحجازية، أو احتفاء الأسر بالمولد النبوى أو بشفاء مريض وأحياناً ما يستدعى " الصييت" فى حفلات الزفاف أو سبوع المولود أو طهور الذكور أو لقضاء نذر . وأبرز الآلات التى كانت تصاحب " الصييت " الناى والسلامية والأرغول والدُف، وأحياناً ما كانت تظهر مع العازفين آلتا الفيولينا والأوكورديون من الأدوات الموسيقية الغربية . وغلب استجلاب "الصييتة " فى الأماكن التى يقيم فيها الدمايطة والمطاروة والمنازلة ـ نسبة إلى القادمين من

دمياط والمطرية والمنزلة ـ داخل المدينة ومعظم هذه الأماكن كان محصوراً فى المنطقة الواقعة غربى حى العرب وشرقى حى المناخ.

العديد:

كان العديد منتشراً فى الحيين الشعبيين: العرب والمناخ، وإن ازدادت جلساته كثافة فى أماكن إقامة الصعايدة بحى العرب . وكانت جلسات العديد تُعقد عقب حالة الوفاة، قبيل الدفن وبعده، أو عند حلول ذكرى الأربعين أو السنوية، أو فى الأعياد والمواسم. وتُمارس طقوسها جلوساً فى بيت الميت، أو فى الشارع بجوار مدخل البيت إما بسفور وانكشاف على المارة أو وراء " كُذُك " من القماش أو ملاءات تفرد على حوامل . و" الندَّابة" كانت واسطة العقد فى جلسات العديد التى كنتُ أشاهدها، واقتصرت هذه الجلسات على النساء المتشحات بالسواد، كلهن كن عجائز مغضنات الوجوه مجعدات الجباه منظرهن يؤلم من يراهن، وكثيراً ما اعتقدتُ وأنا أستمع إليهن وأشاهدهن أن نهاية العالم توشك أن تقع . " الندابة " هى قائدتهم تقول وتغنى وتُعَدِّد مناقب الميت فيرددن وراءها بنفس بحة الصوت وبنفس قوة وضعف ولوعة مستويات النواح الذى يصدر عنها فأتخيل أن أمعاءهن ستخرج من أفواههن . وكن مع " الندابة " يوقعن ما يقلنه أو يخرجنه من أجوافهن من تأوهات باللطم على خدودهن المطلية عادة بالنيلة الزرقاء والتصفيق بالأكف والضرب على الأفخاذ .

عروض الفُرجة :

وأقصد بها عروض : الحواة والقرداتية والبهلوانات. وأغلبهم كان يأتى إلى بورسعيد من ريف وعواصم محافظات الوجه البحرى، ومنهم من كان يأتى من أحياء القاهرة الشعبية، وجُلهم جَوَّابو آفاق، جوالون، لم يتركوا شارعاً من شوارع حى العرب وحى المناخ إلا قدموا فيه عروضهم، أما حى الإفرنج فما كانوا يدخلونه إلا نادراً. " النقرزان " كان هو الأداة الرئيسة التى تصاحب الحواة ومعها " الرق "، وقد يُلقى الحاوى ببعض الكلمات المنظومة أو المسجوعة بين فقراته ؛ و" الطار " هو ما كان يوقع عليه القرداتية لترقيص قرودهم ونسانيسهم ؛ وعلى إيقاعه كانوا يتغنون بالأغنيات المشهورة عنهم ؛ أما البهلوانات فعلاوة على " الرق " ـ و" الطبلة " أحياناً ـ كانت آلة " البيانولا " هى البطل الرئيس فى عروضهم القديمة، ثم ما لبثت هذه الآلة أن تلاشت واختفت تماماً من المدينة.

عن الخاص الأصيل:

مع الضمة والسمسمية الأمر مختلف ؛ صحيح أن البدايات عامة وافدة، إلا أنها ما لبثت أن تزاوجت واستولدت هذين النوعين من الفنون اللذين أصبحا من علامات الفنون

الشعبية المصرية ؛ الأولى تنسب بصفة حصرية إلى مدينة بورسعيد دون غيرها من المدن، والثانية تُنسب إليها بصفة رئيسة وإلى عموم مدن منطقة قناة السويس بصفة ثانوية. ولى فى هذين النوعين من أنواع الفنون الشعبية بحوث ودراسات ومقالات منها ما هو منشور، ومنها ما هو فى طور الاستكمال ؛ فإنْ رغبتَ فى الرجوع إليها فإنكَ تغنينى عن ذكر تفاصيل كثيرة، وعلى النهج السابق سأذكر لك نُبذاً أرجو أن تعطيك فكرة ولو يسيرة عنها.

الضمة:

ثمة خلط يسيطر على الكثير من الكتابات التى تتناول فنون الموسيقى والغناء والرقص الشعبى فى مدينة بورسعيد ،حيث تعرض لمصطلحى " الضمة" و" السمسمية " باعتبارهما مصطلحين مترادفين للتعبير عن نوعية واحدة من الفنون الشعبية، واقع الأمر أنهما، وإنْ كانا متلازمين فى كثير من المواقف، إلا أنهما مختلفان، فالضمة هى مجموعة من الأفراد ـ من ذوى الأصول الشعبية ـ انضموا إلى بعضهم البعض بهدف السمر والغناء . ويعرف هؤلاء الأفراد بـ " الصحبجية " نسبة إلى وجودهم فى صحبة ؛ وأحياناً ما تنسب هذه التسمية إلى كلمة " الصهبجية " المشتقة من الصهباء أى الخمر، لا سيما أن الشراب المُسْكِر (البوظة فى الغالب) وتدخين الحشيش كانا أمرين شائعين فى جلسات الضمة، وما أراه أنه مادامت الصحبة شرطاً من شروط الأداء فإن رد التسمية إليها هو الأمر الأوفق . أما " السمسمية " فهو اسم الآلة التى جابت سمعتها الآفاق، وأصبحت تُدَرَّس فى أكاديميات البحث العلمى المختصة بالفنون الشعبية، ليس فى مصر وحدها وإنما فى الوطن العربى والدول الأجنبية أيضاً . وقد تستعين " الضمة " بـ " السمسمية " وقد لا تستعين، فإنْ استعانت بها غلب عليها اسم الآلة فتسمى " سمسمية "، وإنْ لم تستعن بها ظلت كما هى " ضمة ". وقد تستخدم آلة السمسمية فى العزف المنفرد باعتبارها آلة للعزف الموسيقى البحت، وقد تصاحب الغناء أو الرقص، أو تصاحبهما معاً، مثلما قد تصاحب أنواعاً من السرد القصصى، باعتبار أنغامها موتيفة فنية مكملة للأداء السردى .

وارتبطت الضمة بالأيام الأولى لحفر القناة، بالسخرة وبإعمار المدينة وبالعمل فى الميناء وداخل المدينة الناشئة . أى أنها ارتبطت بالعمل، وبتعبير أدق بأوقات الراحة من العمل . تحت هذه الشروط التقى الغرباء، سواء كانوا من المصريين أو العرب أو الأفارقة أو الأسيويين أو الأوربيين . المصريون كانوا من الفلاحين (بحاروة وصعايدة) والعُربان والمهنيين والقواصة والطوبجية وبعض الصفوة ؛ والعرب كانوا شواماً ومغاربة ويمنيين فى الغالب ؛ وكان يُطلق على الأفارقة لفظ البرابرة ، وهم إما من السودانيين والنوبة السفلى أو من العبيد المستجلبين من دول إفريقية متنوعة ؛ والأتراك والإيرانيون والهنود

مثلوا قوام الأسيويين ؛ أما الأوربيون فكانوا يتبعون دولاً غير قليلة كفرنسا واليونان والنمسا وإيطاليا وإنجلترا وبلجيكا وهولندا وبروسيا وغيرها . جميعهم ترك موطن إقامته والتقى بالآخرين فى هذه المدينة التى نشأت بأيديهم . التقوا وهم يقومون بالوظائف التى حُددت لهم، الأجانب والحكام وأهل الصفوة لهم وظائف الإشراف والمتابعة والحراسة، والفقراء لهم وظائف : الحفر والبناء والجر والحمل والسقاية وسائر الخدمات التى تتطلبها أعمال الحفر والبناء .

فى هذه الظروف ـ ظروف السخرة وما تلاها ـ اقترب الكادحون من بعضهم البعض واجتمعوا فى (ضَمَّات) للسمر والتسرية عن أنفسهم، ومن خلال هذه الضمات أخرجوا ما يجيش بصدورهم من لواعج الأشواق إلى ذويهم، وما يحسونه من آلام وتباريح الغربة وأحزان وآمال وتشوفات فى أغنيات شجية وبتوقيعات غاية فى البساطة والبدائية، تبدأ بالتصفيق بالأكف، والدق بالأرجل، والتنغيم الصوتى، وتمر بالنقر بالأصابع على الأجسام الصلبة المسطحة كالترابيزات و الدكك، والطرق المنتظم بالملاعق والأكواب، وتنتهى بالطبلة والرق ؛ وفى فترة تالية ونقلاً عن الموسيقى الكنسية استخدم الصحبجية المثلث المعدنى . وصارت الضمة مجالاً للتفريج عن أزمات الصحبجية والإعلان عن أفراحهم وأتراحهم وفيوضاتهم النفسية، وامتزجت فيها تراتيل الموت والجنائز والأناشيد الدينية والابتهالات الصوفية بالنكات الفجة والأغانى المرحة والرقصات التعبيرية وحركات المهيصة التهريجية والمساجلات اللفظية بمفاخر الأفراد وطوائفهم والبلاد التى أتوا منها.

فى البداية كان عدد الضمات محدوداً وعدد الصحبجية قليلاً لقلة أعداد الطوائف التى كانوا ينتمون إليها، فكان أغلبهم من الحَفارة والفعلة والنجارين والطباخين والسفرجية، ثم ما لبث أعدادهم أن زادت، وانتماءاتهم أن تنوعت، بازدياد أعداد وأنواع الطوائف التى استجدت بمواقع العمل، ومن أهمها طوائف : الاشكاربية (الفحامة)، البرشمجية، القلافطية، الفلايكية، العطشجية(الأتشجية)، البمبوطية، القماشة، الخياطون، الحدادون، السمكرية، الإسكافية، الحلاقون، النحاسون، المبيضون، النقاشون، الفرانون، العياشة، الصيادون، السماكون، الحَمَّارَة، الجَمَّالة، الخضراتية، المنجدون، الصباغون، القبانية، القهوجية، الشرباتلية، الحلوانية، الدخاخنية، التراجمة، الخدامون، البوابون، الفراشون، وغيرهم.

ولأنه من الطبيعى أن تختلف كل طائفة من هذه الطوائف فى ثقافتها وقانونها و" السيم" الخاص بها، عن ثقافات وقوانين و" سيم " سائر الطوائف الأخرى، مثلما هو من الطبيعى أن تختلف تأثيرات ثقافات بلاد المنشأ التى وفد منها أفراد كل طائفة، فإنه من

العادى والمتوقع أن تختلف ردود الأفعال والتعبيرات الفنية التى يبديها أفراد هذه الطوائف فى جلسات الضمة التى تجمعهم؟ .. وبسبب من هذا الاختلاف ظهرت فى البداية ضمات : (الصعايدة) و (الشراقوة) و (المطاروة) و(الدمايطة) - نسبة إلى القادمين من : الصعيد، محافظة الشرقية، مدينة المطرية دقهلية، ومحافظة دمياط - وكانت ضمة الدمايطة هى الأشهر ؛ ثم ظهرت ضمات أصحاب المهن ؛ وضمات العائلات؛ وما لبثت ضمات (المقاهى) و(نواصى الحارات) أن ظهرت هى الأخرى للوجود، ويحسب للضمات من النوعين الأخيرين توحيدها للصحبجية وإعلائها لما هو فنى على ما هو عرقى أو مهنى.

وثمة شواهد عديدة تدل على اشتراك الأتراك والشوام والمغاربة فى هذه الضمات، فقيام هؤلاء بأعمال الملاحظة فى ساحات الحفر والبناء وإدارة المرافق والإشراف على الخدمات، وشعورهم بوطأة الغربة، يسر عليهم متابعة جلسات سمر الوطنيين المرهقين هم والعبيد والخدم الذين يشاطرونهم إرهاقاً بإرهاق، ويدعم هذا الاستنتاج شيوع أنماط الغناء التركى والشامى والمغربى فيما تغنى به الصحبجية جنباً إلى جنب أنماط الغناء الوطنى والعربى والإفريقى .

ويتضح هذا فى اللزومات التركية التى كان يرددها الأتراك المنتشون بسماعهم للأدوار المغناة من نوع : " أمان .. أمان .. أمان " و " يا للى .. يا للى .. ياللى " تلك التى دمجها الصحبجية فى أدوارهم الغنائية مثلما دمجوا الموسيقى التركية التى كانت مسيطرة على الأذن المصرية فى ذلك العهد.

وتخاطب الصحبجية فى ضمتهم مع الشوام بأكثر من دور غنائى، منها:

يا رايحين لحلب..

حبى معاكم راح

يا محملين العنب..

تحت العنب تفاح

ومنها :

متى يا كرام الحى عينى تراكمو

واسمع من تلك الديار نداكمو ؟

وغيرها كثير.

وفعل الصحبجية ذات الأمر مع الموشح الأندلسى القادم مع المغاربة بتأثيرات تركية بحكم وصول الاستعمار العثمانى إلى تخوم بلاد المغرب، وما أكثر أدوار الموشحات التى تغنى بها الصحبجية بعدما هجنوها بألحانهم التى داخلها الكثير من ألحان الكنيسة

الأرثوذكسية، وبطريقتهم التى لا تعترف بقواعد النحو أحياناً وتلتزم بها التزاماً صارماً أحياناً أخرى، مثلما هو الحال مع دورى " أهوى قمر " و " قاسى ما قاسى " وغيرهما .

وإذا كانت التطعيمات اللحنية التركية ومخاطبات الشوام والمقتبسات المغربية من الأمور المبررة وقت نشوء هذا الفن، لتشابه الظروف التى خضع لها المصريون والشوام وقطاع من المغاربة لسنين طويلة، تلك الظروف التى فرضها الاحتلال العثمانى، فإن المدهش هو صهر الصحبجية للأغانى والألحان التى تنتمى إلى بلاد لم تخضع لهذا الاستعمار ؛ ويتبدى هذا فى الأدوار التى قوامها مفردات وإيقاعات إفريقية مثلما هو الأمر مع دورى "علشان چيركو .. وعلشان چيركى "، و" تك تك براتك شنجلا " - والدور الأخير مُزج ببعض المعطيات الليبية - وهناك أدوار يمكن ردها إلى أصلها اليمنى ومنها دور " يا مركب الهند يا أم دقلين .. يا ليتنى كنتُ ربانك " . أكثر من هذا دمج الصحبجية بعض المفردات المتصلة بالجزيرة والخليج العربيين بما يتغنون به، مثلما هو الحال مع دور " يا لدانا ". ونص هذا الدور كما يلى :

آه يا لدانا يا لدانا
حنت جليب العاشقين
آه يا لدانا يا لدانا
الله يعين الصابرين
أنت الذى عزمتنى يا لدانا
أنت الذى قد خنتنى
يا ليت جلبى دلنى يا لدانا
أنت على جتلى نويت
أسمر ملك عجلى وروحى
يا لدانا أسمر وزودنى حنان
ما تحن يا جلبه على يا لدانا
أصل المحبة من زمان
آه يا بنات املوا وشيلوا
يا لدانا لـَنهار يطلع عليا
آه يا خوفى المحبوب يقابلنى
يا لدانا آه وأبويا محرج عليا

وقد أضاف الصحبجية إلى هذا الدور بيتين تحية لأسرة عبد العزيز آل سعود بتأثير

من أنباء نجاحهم فى توطيد أركان حكمهم للحجاز ونجد. وفيما يلى نص البيتين:

مكة تقول للمدينة يا لدانا

لما حكم أبو السعود

آل يحيى ومرعى يا لدانا

وآل الشريف عبد العزيز

ولأنه فى الغناء الشعبى قد لا يُهتم بالقافية مثلما لا يُهتم بسلامة اللغة، لذا فقد جاء البيتان المضافان على هذا النحو .

و" الدان " و" اللدانا " و" الدانا " استهلالات فى الغناء الخليجى، دخلت فى نسيج هذا الدور من أدوار الضمة البورسعيدى، وعادة ما تستخدم استخدام لفظة " أوف " فى الغناء الشامى، و" يا ليل يا عين " فى الغناء المصرى .

والرأى عندى هو ما سبق أن أخبرتك به فى مستهل حديثى عن فنون الضمة. إنه العمل، العمل ولا شىء غيره، فما من شىء يقدر على دمج كل هذه الأنماط اللحنية المنتمية إلى ثقافات جد مغايرة وصهرها وإخراج نمط مستقل الهوية منها سوى العمل . وقد يسر من هذا الدمج والانصهار أن الشغيلة من المُسَخَّرين والأجراء وملاحظيهم المباشرين مهما اختلفت جنسياتهم كانوا فى الكدح سواء، ولعل هذا ما ميز فنونهم شعبية الطابع عن فنون الحكام وموظفى الطبقة العليا التى تبد شغفاً بغير الرسمى من الفنون.

وتبدأ الضمة بـ (الجَواب) يصدر مُنغماً عن أحد الصحبجية يُعرف بـ (المُنْشد)، وقد يُقَطَّع هذا الجواب و يُوَزَّع على المنشدين بحيث يؤديه أكثر من منشد مُجزءاً وبالتتابع، بعدها يأتى الرد من مجموعة الصحبجية منغماً أيضاً .كأن يبدأ منشد فيقول:

ـ وع البنات البُكْرْ..

فيتبعه آخر قائلاً:

ـ .. لاسعى واسافر..

ويكرر صحبجي آخر أو نفس الصحبجي الأول:

ـ .. ع البنات البُكُر..

فيرد الصحبجية :

ـ العيون سودة والشفايف سكر.

ويهدف (الجواب) و(الرد) إلى تحقيق أحد الأمرين التاليين أو كليهما معاً:

أولهما: تهيئة الجو للصحبجية للدخول فى الغناء.

ثانيهما: تهيئة الجمهور (السميعة) للمشاركة الإيجابية.

وكما يكون الجواب فى بداية الضمة، فإنه قد يكون فى بداية الدور، ويقوم فى هذه الحالة مقام مفتاح الدور. ولا ضابط للجوابات فقد تكون دينية الطابع أو غزلية أو إباحية أو تجارية (نداءات الباعة)، مثلما قد تكون قصيرة أو طويلة، وقد يحدث أن يمزج الصحبجية بين جوابين أو أكثر. والنصوص والأمثلة كثيرة وليس هنا مجالها.

ولكل ضمة (ريس) يحترمه الصحبجية ويسمعون له . وهو فى العادة أكبر الصحبجية سناً، وأكثرهم مهارة، وأحفظهم للأدوار، وهو الذى يوزع الأدوار، وقد يبدأ هو بأول (جواب)، ويتميز عن بقية الصحبجية بأنه قد يكثر من أداء الأدوار، ويمكنه أن يوقف أى منشد يؤدى بطريقة خارجة عن النغم أو القول السليم . ومن العُرف ألا يسمح (الريس) لأحد بالمشاركة فى الضمة ما لم ينل الإجازة لهذه المشاركة . ولا تمنح هذه الإجازة بسهولة لأى راغب، إذ لابد له من تدريب صارم على يد صحبجى قديم أو أكثر من صحبجى، وعليه أن يحضر عشرات الضمات ويقف مع (السميعة) وأن يحفظ ويجيد.

أتوقف عند هذا الحد لأحدثك عن السمسمية، وإنْ أردتَ المزيد عن الضمة فارجع إلى ما ننشره من بحوث ودراسات ومقالات.

السمسمية:

بظهور آلة " السمسمية " خماسية الأوتار طرأ تطور كبير ليس فقط على الموسيقى الشعبية التى كانت تعزف بالمدينة، وإنما أيضاً على الغناء والرقص وفنون الأداء الداخلة فى لُحمتها. ونشأ بظهورها فن جديد هو فن " السمسمية "، وأصبح ما يُغنى بمصاحبتها يسمى، كما سبق أن أخبرتك، بـ " أغانى السمسمية "، وكذا الرقص وفنون الأداء الأخرى.

واختلف الباحثون فى منشأ هذه الآلة، فمنهم من ردها إلى جذور مصرية قديمة كـ "الكينر " أو " الكنارة " ـ التى أضحت القيثارة ـ و" الطنبورة "، ومنهم من توغل جنوباً فردَّها إلى القرن الإفريقى، أو شرقاً ليُرجعها إلى الجزيرة والخليج العربيين ؛ ومنهم من أوقف نشأتها على المدينة وجعلها ابتكاراً خاصاً بها على الرغم من تشابهها مع آلات وترية أخرى منتشرة جنوباً وشرقاً.

وعمن جاء بهذه الآلة إلى بورسعيد أو ابتكرها ترددت حكايات عن شخصية هى إلى الأساطير أقرب . هذه الشخصية هى شخصية عبد الله كبربر. والحكايات عن هذه الشخصية متضاربة ومختلف عليها . أحياناً تُضفى عليها هالات من التقديس وأخرى يُنزل بها إلى أسفل سافلين . بداية الاختلاف تتصل بما يحكيه الصحبجية عن موطن صاحب هذه الشخصية الأصلى، فمنهم من وصفه بالسودانى ومنهم أيضاً من قال بمصريته وأنه إنما جاء إلى بورسعيد من النوبة؛ وهناك صحبجية يقولون إنه شارك فى حفر القناة، فى

حين يقول آخرون بأنه لم يكن سوى شحاذ يتسول لقمته من أيدى الناس، ونعته نفر منهم بالخَمُورجى (شارب الخمر الذى قلما يفيق) وحددوا ما يتجرعه بالبوظة، وأوجدوا له مكاناً معروفاً بـ " السبع حصون " بالمناخ التحتانى، وقال هؤلاء بأن هذه المنطقة هى المكان الذى انطلقت منه معزوفات السمسمية للمرة الأولى فى المدينة، وأنه راح يطوف بنغماتها على البيوت متسولاً عطايا ساكنيها كسرات من الخبز أو ملاليم قليلة. ونفر آخر من الصحبجية نفى أى علاقة لكبربر هذا بآلة السمسمية وقصر دوره على مشاركاته كفقير أسود فى دقات الزار عازفاً على آلة الطنبورة، لكن آخرين استهولوا أن يوصف من تنسب إليه آلتهم المحبوبة بأوصاف كهذه فاستبدلوا نقيضها بها، وقالوا بأنه كان أفندياً يرتدى البدلة والكرافتة والطربوش.

ومن فرط ذيوع صيت هذه الشخصية ترددت الحكايات عنها فى منطقة قناة السويس بأسرها، ويمكن بتحليل بسيط لهذه الحكايات وصف هذه الشخصية - على فقرها وضعف حيلتها - بالخارقة، لظهورها بالتزامن فى محافظات السويس والإسماعيلية فى نفس أوقات ظهورها فى بورسعيد. وهى أوقات اختلف فى تحديدها أيضاً وإنْ انحصرت فى ثلاث محطات زمنية تاريخية؛ أولاها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، أى عند بدء حفر قناة السويس (١٨٥٩م.) ؛ وثانيتها فى النصف الثانى من الثلاثينيات من القرن العشرين، أى مع معاهدة (١٩٣٦م.) ؛ وثالثتها فى النصف الأول من خمسينيات ذات القرن، أى مع إلغاء المعاهدة (١٩٥١م.) وقيام ثورة يوليو (١٩٥٢م.) وما تبعهما من أحداث، وما من رواية يمكن التحقق منها لخلوها من الأسانيد، لاسيما أن أكثر رواة هذه الحكايات لم ير عبد الله كبربر أو يعايشه، ومن زعم أنه قد رآه لم يقدم الدليل على ذلك .

وأنا واحدٌ ممن يشككون فى ابتكار هذا الرجل - إن كان له وجود حقيقى - لآلة السمسمية أو حتى استخدامه لها.

والشك والاختلاف فى علم الفولكلور ليسا فقط أمراين واردين، لكنهما أيضاً منتشران ، ربما أكثر من الحقائق المثبتة، لسبب بسيط هو أن هذا العلم فرع من فروع العلوم الإنسانية، والإنسان متغير - كما هو معروف - بتغير الزمان والمكان . من هذا المنطلق، وفى ظل غياب الأدلة التوثيقية - إذ لا صور فوتوغرافية لعبد الله كبربر هذا ولا مواد فيلمية ولا مستندات ورقية أو مسجلات صوتية ولا حتى وقائع يرويها رواة ثقاة - وبافتراض أنه كان لهذه الشخصية - مع هذا - وجود فعلى فى بورسعيد ؛ وارتكازاً على نتائج جهد متواضع منى ، اعتمد على التحليل المنطقى لبعض الشواهد، منها ما يتعلق بالتركيبة السكانية والحراك الاجتماعى وثقافات الجماعات الشعبية المتواجدة بالمدينة، ومنها ما

يتصل باستخدامات آلة الطنبورة ذات الأصول الإفريقية والعربية، وما عُرف عن دقات الزار وأماكنها والمشتغلين بها داخل بورسعيد، ومنها أيضاً ما يرتبط بجمع ومقابلة وتحليل ما حُكى عن ذلك الرجل الغامض، فإنه يمكننى ذِكر أربعة أمور احتمالية عنه، أوجزها فيما يلى :

- كان بربرياً أسود رقيق الحال.

- جاء إلى بورسعيد فى أواخر الثلاثينيات أو أوائل الأربعينيات من القرن العشرين مع فيض البرابرة الذين وفدوا إلى المدينة فى ظروف الحرب العالمية الثانية بحثاً عن الرزق .

- كان يعزف على آلة الطنبورة فى دقات الزار، وأخرج هذه الآلة إلى ما يمكن أن نطلق عليه مجازاً وصف (مقهى) السبع حصون.

- ربما كان سكيراً أو حتى حشاشاً.

وتحضرنى هنا أهزوجة قصيرة كانت ذائعة على ألسنة الأطفال فيما يلى نصها:

إحنا تلاتة برابرة

جايين م السودان

نشرب جوزة وخمرة

ونبصبص ع النسوان

وأحياناً ما كانت تستبدل كلمة بوظة بكلمة جوزة التى تستخدم عادة لتدخين الحشيش.

ولعل أقصى ما يمكن نسبته إلى هذا الرجل هو إخراجه لآلة الطنبورة من دقات الزار إلى مقهى السبع حصون، وكانت تقع عند التقاء شارعى سعد زغلول والأمين، بمنطقة المناخ التحتانى.

وأعتقد أنه قد آن الأوان لأنتقل بك عزيزى القارئ من الحديث عن شخصية هذا الرجل المحيرة إلى الحديث عن الطنبورة ذاتها، تلك التى يمكن اعتبارها أم السمسمية، الطنبورة الموغلة فى الزمن، التى عرفتها الحضارتان المصرية والآشورية مثلما عرفتها إفريقيا والجزيرة العربية . وعلى الرغم من أن طنبورة المصريين القدماء كانت - كما تظهرها نقوشهم - دقيقة الحجم خفيفة الحمل، فقد اتصفت طنبورة الزار بالضخامة والثقل، لدرجة أن العازف عليها لم يكن بمقدوره حملها أو حتى إسنادها على ركبتيه أو فخذيه، مما يدل على أن أصولها غير مصرية، وأنها إفريقية أكثر منها عربية . وكانت هذه الطنبورة تثبَّت على الأرض فى وضع رأسى بحيث يمكن العزف عليها من وضع الجلوس أو وضع الوقوف. وكان صندوقها الرنان عبارة عن نصف قرعة عسلي مشدودة عليه قطعة من جلد الماعز فيها ثقبان ومثبت بالجزء الصلب من نصف القرعة مثلث خشبى ضخم قمته تبدأ من

وسط نصف القرعة وقاعدته لأعلى، وأوتارها خمسة مصنوعة من أمعاء الحيوانات أو من التيل، وكانت هذه الأوتار تشد إلى قاعدة المثلث بواسطة قطع خشنة من جلد الماعز أو من القماش الثخين تسمى الحوايا أو الحياصة، وكانت الأوتار من الثخانة بحيث تصدر أنغاماً إفريقية غليظة ومع هذا رخيمة.

ومن عازفى الطنبورة المعروفين : إبراهيم البشير، إبراهيم خلف، عبده أبو عزيزة، الإخوان محمود ومحمد أبو سبع، وعائلة عم ياقوت ؛ والأول كان سودانياً.

ويُنسب لإبراهيم خلف ابتكاره لآلة السمسمية، وإن عمل البعض على التشكيك فى هذه النسبة؛ لكننى أزعم أنه هو مبتكرها، وزعمى هذا إنما هو استنتاج يرتكز على مجموعة من الدلائل منها ما يتصل بالمعايشة والمشاهدة الشخصيين :

أولـهـا : رؤيتى لهذه الآلة لأول مرة فى المدينة بين يدى إبراهيم خلف فى النصف الأول من خمسينيات القرن الفائت.

ثانيـهـا : أننى لم أرها - قبل رؤيتى لها معه - فى أى جلسة من جلسات الضمة التى كنت مغرماً بمتابعتها فى سنى الطفولة سواء تلك التى كانت تُعقد أسفل بيتنا أو فى الشوارع والحارات القريبة.

ثالثـهـا : أنه لم يثبت قيام أى من الصحبجية بالعزف على السمسمية قبل تطواف إبراهيم خلف بها فى شوارع وحارات الحيين الشعبيين بالمدينة.

رابعـهـا : أن زوج أم إبراهيم خلف - حسبما ذكر لى بعض الصبجية فيما بعد - كان من العازفين على آلة الطنبورة فى دقات الزار، مما أتاح لإبراهيم ليس فقط العزف عليها وإنما أيضاً دراستها.

خامسها : أن إبراهيم خلف كان من مرتادى ما نسميه على سبيل المجاز بمقهى السبع حصون، التى قيل أن أول خروج لنغمات السمسمية كان منها.

سادسها : أن إبراهيم خلف والعازفين على آلته ظلوا خارج جلسات الضمة لفترة، لأن الصحبجية كانوا ينظرون فى بادئ الأمر إلى آلة السمسمية بتوجس، شأنهم فى هذا شأن كل من يجد نفسه فى مواجهة أمر جديد لم يعتده .

وقد يكون من المفيد أن أذكر لكَ هنا أن إبراهيم خلف قد خرج على ما كان مستقراً فى جلسات الضمة، فقد كان يعزف ويؤدى أدواره هو وأصحابه من الوضع وقوفاً، وقد رأيتُهم يفعلون هذا فى أكثر من مكان، فى حين أن أوضاع الأداء فى الضمة كانت قد استقرت على وضع الجلوس، بل إن منها الكثير الذى كان لا يُؤدى إلا بالجلوس على الأرض، ولذا سمى هذا النوع بالضمة الأرضية.

والبداية مع آلة السمسمية كانت غاية فى البساطة، فالأمر كله لم يتعد تصغير آلة الطنبورة، فاستبدل إبراهيم خلف طبق صاج " غويط "، من نوعية الأطباق التى كان استخدامها شائعاً بالبيوت فى أوائل الخمسينيات، بنصف القرعة . من هذا الطبق سيصنع الصندوق الرنان أو " المصوت " ؛ ولن يتطلب الأمر سوى أن يشد على هذا الطبق جلد أرنب بدلاً من جلد الماعز ؛ وما أسهل أن يقوم بتغير المثلث الخشبى، فالأمر لا يحتاج لغير ثلاث خشبات من كناسة أى نجار أو من أى صندوق للشاى أو حتى للصابون، يتم تشذيبها يدوياً أو بمعرفة الخرَّاط ثم تربط إلى بعضها البعض على هيئة المثلث المقلوب، قاعدة هذا المثلث تسمى " الفرمان " أو " الحمالة " وكل ضلع من الضلعين الآخرين يسمى " المدَّاد " ، وتثقب قاعدة المثلث - " الحمالة " - لربط الأوتار؛ وبدلاً من ربط الأوتار بالحياصات والحوايات المصنوعة من الجلد أو القماش الخشن تستخدم قطعاً خشبية صغيرة أطلق عليها وصف " المفاتيح " لأن كل واحدة منها تدار فى الثقب الخاص بها - كما يدور المفتاح فى ثقب أى قفل أو باب - وأحياناً يسميها الفنان الشعبى " الملاوى " لأنها تملأ ثقوب " الحمالة "، ويديرها العازف عادة إذا ما أراد شد أو إرخاء الوتر لضبط أنغامه.

الجديد كان مع الأوتار، فالأوتار القديمة المصنوعة من التيل أو أمعاء الحيوانات لا تليق بالحجم الجديد بالغ الصغر بالمقارنة بالأصل هائل الضخامة ؛ والبديل كان متاحاً وجاهزاً .. إنه سلك التليفون .. السلك النحاسى الأحمر .. ولا بأس أن يكون سلكاً صلباً .. إنه السلك الذى كان موضة ذلك الوقت .. صيادو السمك بالسنارة أو بالخطاف استعاضوا بهذا السلك عن الخيوط، ومن أراد لف شىء فى ذلك الوقت لم يلفه بالدوبار وإنما بسلك التليفون، حتى سيدات البيوت كن قد فضلن فى ذلك العهد استخدام سلك التليفون المضفور على حبال الغسيل.. وقدم السلك نفسه لإبراهيم خلف طواعية فاختار أوتاره منه وفردها من الفرمان حتى قلْب الطبق، الذى غطاه جلد الأرنب وحوله إلى " مصوت " أو صندوق رنان، واستعان بقطعة خشبية صغيرة سماها الحصان أو الفرس - أطلق عليها بعض العازفين الحاليين اسم الكرسى - لرفع الأوتار ملليمترات قليلة عن الجلد الذى يغطى الطبق، وهكذا حدث أن تم تصغير الطنبورة إلى أدق حجم ممكن. وللأوتار الخمسة تسميات مختلفة، أشهرها بالترتيب من أسفل إلى أعلى (من وضع العزف) " الدبانة " ثم " البوق " ثم " المجاور " ثم " الرداد " ثم " الشرارة ".

وأكاد أتصور حجم الفرحة الممتزجة بالدهشة والانسجام والعازفين الأُول - وفى مقدمتهم إبراهيم خلف - وهم يكتشفون القدرات اللحنية التى أتاحتها لهم هذه الآلة بالغة

الصغر والقصر، حتى أن أحدهم ـ مجهول ـ أطلق عليها وصف " المسمسمة "، ولا غرو فهى ـ مقارنة بأمها الطنبورة ـ تكاد تكون أشبه بحبة السمسم أمام حبة البطيخ، ولأن نغماتها من العذوبة والطلاوة بحيث استملحها السميعة، ورأوا فيها حلاوة تشابه الحلاوة التى يدخل السمسم فى صناعتها، تلك المعروفة بـ " السمسمية "، لذا استساغت الجماعة الشعبية إطلاق هذه التسمية عليها، وما زالت بها حتى أطلقتها علىٰ مجموعة الفنون التى تصاحبها بالعزف ؛ غير أن هناك من يقف إلى جانب الكابتن غزالى بالسويس فى رد التسمية إلى لفظة عامية قالوا إنها أصل التسمية، وهى لفظة " تمتمية " المشتقة من الفعل العربى الفصيح " تمتم " . وأنا لا أرى، عزيزى القارئ ،هذا الرأى ولا أوافق عليه، لأن التمتمة ـ حتى مع اللهجة العامية المصرية ـ هى ترديد لما فى الكلام من تاء وميم فلا يكاد يفهم المعنى أو المقصود، وفنون " السمسمية " غير هذا تماماً.

وقد هيأت التطورات التى شهدتها مدينة بورسعيد ومنطقة قناة السويس فى الخمسينيات والستينيات والربع الأول من السبعينيات من القرن العشرين الفرص أمام السمسمية لتلعب واحداً من أهم الأدوار الوطنية، ففى الخمسينيات ألغيت معاهدة ١٩٣٦م، وتحقق الجلاء، وتم تأميم شركة قناة السويس ، وأُفشلت مؤامرة سحب المرشدين الأجانب، وتم دحر العدوان الثلاثى ؛ وفى الستينيات وقعت هزيمة ١٩٦٧م العسكرية، ونشبت حرب الاستنزاف، وتم تهجير سكان المدينة اعتباراً من سنة ١٩٦٩م. ؛ وفى السبعينيات تحقق انتصار أكتوبر ١٩٧٣م، وبدأت عودة المهجرين إلى المدينة فى ١٩٧٤م وتجاوبت السمسمية مع هذه الأحداث جميعاً، وعبرت باقتدار عن روح الصمود والمقاومة، وعن مخاوف الجماعة الشعبية وآمالها، ومباهجها وأحزانها، وأصبحت أداتها الرئيسة لمواجهة متاعب الحياة، وللتحرر من قيود الفقر والحاجة، ووسيلتها لاكتشاف مكامن القوة فيها ؛ على أنغامها يبكى أفرادها ويضحكون، يستحضرون الوطن فى لَمَّتهم، يغنون له ويرقصون، يبثون حبيباتهم لواعج عشقهم، وعلى أنغامها يجابهون ليالى الأرق والسهاد. يجمعون البشر ـ كل البشر ـ فى حناجرهم ويتلبسونهم فى أجسادهم ويتوحدون مع الكون.

والأدوار التى تدل على ما قلنا به جد كثيرة وتستعصى على الحصر الشامل نذكر منها فى الوطنيات ـ إنْ صح فصل ما هو وطنى عما هو حياتى أو كونى ـ المرتبطة بحرب ١٩٥٦م أدوار " ما تقوليش .. ما تعدليش .. كان صحيح هنا الإنجليز "، " سالمة يا سلامة "، " فى بورسعيد الوطنية "، " سبع ليالى وصبحية "، " بحروف من نور وحروف من نار "، " مورهاوس "، " يا بورسعيد شباب ورجال " ،" مع السلامة يامهاجرين "، " يا أخى فى مولد طنطا " . ومن الأغانى التى تلت النكسة وصاحبت حرب الاستنزاف وفترة

التهجير " يا دنيا غنى واشجينا " ، " إحنا شباب النصر " ، " كتفاً سلاح " ، " ها نخطى .. ها نعدى " ، " رفرف يا نسر فى السما " ، " عاش الطيران والبحرية " ، " هجرنا المصنع والولاد " ، " قفلوكى يا بورسعيد " ، " هانت يا بلاطوة " ، " فجر الرجوع أهو لاح " ، " مركبنا المهاجرة " ، " بحار من بورسعيد " ، والأغنيات التى عبروا بها عن إقبالهم على الحياة كثيرة ومتنوعة منها على سبيل المثال لا الحصر: " مجلا البواخر فى المينا " ، " شلبية " ، " هشك مرزوقة تعالى جنبى " ، " الحلو عدا " ، " أنا بورسعيدى أصيل يا بنى " ، " م العزبة لراس البر " ، " يا مسافر كام يوم " ، " أم الخلول " ، " أنا كلت شبار " ، " البسبوسة " ، " منجة .. يا منجة " ، " لما أبص ألاقى الأحباب " ، " بنات اليوم " ، " هل الربيع " ، " الليلة ليلة جميلة " ، " يا سلام ع البحر الأبيض " ، " يا حلو رق وكلمنى " ، والنصوص كثيرة .

وكعادة الشعبيين هى نصوص مليئة بالاقتباسات، تلك التى يُطلق عليها الصحبجية وصف الاستلاف . ومن خلال هذا الاستلاف يفعل المغنى الشعبى الكثير فى نصه، فهو يُطعِّمَه بالأغانى الشائعة سواء سمعها من الجرامفون أو الفونوغراف أو الراديو أو شاهد ممثلاً يؤديها فى السينما أو فى صالة أفراح أو حتى على خشبة مسرح، وهو حر فيما يفعله من خلال هذا الاستلاف، فقد يدمج مقاطع من أغنيات شعبية ربما قام - وسيقوم - بأدائها مع الصحبجية بصورة منفصلة ومستقلة بذاتها ومكتملة فى ضمات أو سمسميات، لكن فى ضمات وسمسميات أخرى يقتطع منها ما يراه لازماً لخلق الحالة التى يريدها، ويمزجه مع ما يهوى ويرغب من مقاطع استلفها من دور أو أدوار أخرى.

المهم أنها بالشكل والمكونات والاسم والتوجه والنغمة الجديدة، وكل ما أدخلته على الغناء الشعبى بالمدينة، أخذ هذا الفن منطلقاً جديداً واكتسب أراضي جديدة وسميعة مغايرين، وذاع صيتها ليس فقط فى بورسعيد أو فى منطقة قناة السويس أو فى مصر وإنما تخطى حدود الوطن إلى مناطق عديدة مجاورة وقصية.

وأصبح للسمسمية باسمها البورسعيدى تواجداً واستخداما، ليس فقط فى مناطق أخرى غير منطقة السويس بمصر مثل : سيناء وأسوان والنوبة، وإنما فى عديد من الدول مثل : اليمن، السعودية (ينبع، أملج) عُمان (حضرموت)، الأردن (العقبة)، فلسطين (النقب)، لبنان .

ووجد المبتكرون من الصناع الشعبيين داخل بورسعيد فى الآلة الجديدة ميداناً لتصميماتهم، فطوروا فيها، وغيروا من صندوقها الرنان، ومن مثلثها، ومفاتيحها، ومن أعداد أوتارها، وأدخلوا إلى صندوقها الرنان الكهرباء ومكبرات الصوت، حتى بات كبار السن يتشوقون إلى شكلها البدائى الذى جعل صناعتها طوع يمين أى صبى يرغب فى

ذلك . لقد فعلت المخيلة الشعبية بهذه الآلة الكثير . ويمكن رصد بداية التحويرات التى طرأت على هذه الآلة اعتباراً من الربع الأخير من سنة ١٩٧٤م - تاريخ عودة سكان المدينة إليها من التهجير الجبرى الذى بدأ سنة ١٩٦٩م - فاعتباراً من هذه السنة تعاقبت على فنون السمسمية والضمة متغيرات كثيرها مدمر وقليلها داعم. وكادت تندثر تحت ركام البضائع التى أدخلها الانفتاح الاقتصادى إلى المدينة، وكاد أثرياء الطفرة أن يفسدوها هى وفنونها، لولا جهودنا نحن المثقفين من أبناء المدينة بمعاونة من مجموعة من المثقفين الغيورين على المأثور الشعبى المصرى، ولولا اهتمامات، محدودة لكنها مؤثرة، قامت بها الهيئة العامة لقصور الثقافة من خلال فرقها للفنون التلقائية، وكذا المعهد العالى للفنون الشعبية، على الرغم من النقد الذى يمكن توجيهه لأساليب هاتين الجهتين.

لقد أدت هذه الغيرية، وتلك الاهتمامات - على تواضع أدواتها وقلة إمكاناتها - إلى بعث فنون الضمة والسمسمية من جديد حتى أصبحت، ليس فقط مادة للدرس والبحث فى أكاديميات الفنون الشعبية، وإنما موضوعاً للندوات والملتقيات والمهرجانات والمؤتمرات التى تعقد خصيصاً من أجلها. بداية الاهتمامات الدولية كانت عربية بمهرجان دولى عربى انعقد فى بورسعيد رعته الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩١م. (١١)، وأخرها كان فى مدينة العقبة بالأردن حيث تم تنظيم مؤتمر دولى للسمسمية فى أواخر سنة ٢٠٠٦م (١٢)، وفيه تدارس أمور هذه الآلة باحثون عرب وأوربيون؛ وعزف عليها فيه عازفون من : مصر، السعودية، لبنان، الأردن، وأيضاً من اليونان، إسبانيا، وبريطانيا (!!).

الكل يحاول أن يؤصل لهذه الآلة باسمها البورسعيدى وليس بأى اسم أخر للآلات التى تشابهها بصورة أو بأخرى .

هوامش الباب الرابع

الفصل الأول:

(١) زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ,١٩٨٧، ص ص ٧١-٧٢ .

(٢) بيتر فايس، مارا – صاد، ترجمة د. يسرى خميس، روائع المسرح العالمى، العدد ٤٣، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٥ مارس ١٩٦٧م.

(٣) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى:

- زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص٢٨١ .

- قاسم مسعد عليوة، صفحات من تاريخ بورسعيد المسكوت عنه (٣)، بورسعيد الوطنية، حزب التجمع، بورسعيد، أبريل ٢٠٠٠م. ص ٥ .

(٤) ضياء الدين حسن القاضى ، مرجع سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١١١ .

(٥) زين العابدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ص ٧٣ – ٧٤ .

(٦) المرجع السابق، ص ١١٤ .

(٧) المرجع السابق ، ص ص١١٤-١١٥ .

(٨) المرجع السابق، ص١١٥ .

(٩) د. نبيل عبد الحميد سيد أحمد، الأجانب وأثرهم فى المجتمع المصرى : من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٩٢، الجزء الثانى، الآثار الاجتماعية، مكتبة نناسى، دمياط، ٢٠٠٤م.، ص ص ٢١٦ - ,٢١٦

الفصل الثانى:

....

الفصل الثالث:

(١٠) د.زين العبدين شمس الدين نجم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٣ .

(١١) المهرجان الدولى الأول للموسيقى الشعبية : السمسمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، جمهورية مصر العربية، بورسعيد، ١٢ - ١٨ ديسمبر ١٩٩١م.

(١٢) الملتقى العالمى الأول لآلة السمسمية الموسيقية، المملكة الأردنية، العقبة، ٧ - ٩ ديسمبر ٢٠٠٦م.

ما لم يرد بشأنه هامش فالعمدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة ورصده الميدانى وخبرته بالموضوع.



الباب الخامس



الفصل الأول

مصدران للإشعاع الثقافى



(١)

سينما المناخ .. سينما الإفرنج

أعتقد أنه قد آن الأوان لأنتقل بك من الحديث عن التسرى بارتياد الملاهى والمواخير بفنونها المبتذلة و من الحديث عن الفنون الشعبية من موسيقى وغناء ورقص إلى التسرية بالفنون التى يطلق عليها من باب المجاز وصف الفنون الراقية، ولعل أيسرها وأكثرها شيوعاً مشاهدة الأفلام السينمائية فى دور العرض المخصصة لذلك.

وفقاً لما ذكره الناقد السينمائى على أبو شادى فإن أول عرض سينمائى فى مدينة بورسعيد كان سنة ١٨٨٩م. أى بعد نحو عامين فقط من أول عرض سينمائى فى مصر، وبهذا تصبح بورسعيد ثالث مدينة مصرية تدخلها السينما بعد الإسكندرية (٥ نوفمبر ١٩٨٦م) والقاهرة (٢٨ نوفمبر ١٨٩٦م)؛ وهذا التاريخ يخالف التاريخ الذى ذكره ضياء الدين القاضى فى موسوعته عن المدينة، إذ أورد فيها أن أول جهاز سينما دخل بورسعيد كان ذلك الذى أدخله جريجوار سوليدس على مسرح الأولدرادو سنة ١٩٠٨م. (١) وكان المسرح قد أقيم قبل إدخال جهاز السينما هذا بسنوات .

وكثيرون كانوا يتحدثون عن سينما " عيسى " باعتبار أن من لا يعرفها لا يعتبر بورسعيدياً أصيلاً، أو على الأقل يؤخذ جهله بها أنه لم يعش فى بورسعيد العتيقة ؛ غير

أننى عندما كنتُ أسأل عن " عيسى " هذا، وعن مكان الدار التى حملت اسمه، والأفلام التى كانت تعرضها: أجنبية أم عربية وغيرها من الأسئلة الطفلية، لم أكن احصل على جواب شاف، وإنْ تطوع بعضهم وأشار إلى دكان هنا أو آخر هناك.

وكان ببورسعيد - على صغر مساحتها - عدد غير قليل من دور السينما، منها سينما باتيه (ماچيستك فيما بعد)، أمبير، إيسترن (الملحقة بحديقة البيت الحديد الصيفية)، ريو (وكانت تشغلها من قبل صالة مرجريتا للحفلات)، ديانا (الملحقة بالكازا دى إتاليا)، عباس (الكوزموغراف)، الكورسال، فاروق (الحرية فيما بعد)، فريال (صيفية)، الشرق (صيفية)، ريالتو (صيفية)، وكلها فى حى الإفرنج .

وفى حى المناخ توجد دارين للسينما هما: مصر والأهلى، وتقع سينما مصر عند تقاطع شارعى سعد زغلول والجعفرية، بينما تقع سينما الأهلى فى نهاية شارع السواحل بالقرب من المنطقة المعروفة بمنطقة خان الخليلى وكانت تقع على حافة مرسى اللنش ببحيرة المنزلة القديم (تم ردمه) .. وأذكر أننى دخلت فى طفولتى داراً صيفيه للسينما أغلب ظنى أنها كانت تسمى سينما ريفولى فى منطقة طرح البحر قريباً من امتداد شارع النيل (الجمهورية حالياً) والطابية، ولم يكن يبعدها عن البلاج سوى أمتار قليلة. واختفت هذه الدار بسرعة، وحلت محلها وفى المنطقة المحيطة بها عمائر كثيرة.

وعنى فما من دار من هذه الدور لم أدخلها وأشاهد الأفلام التى تعرضها سواء بالجلوس فى الصالة أو البلكون أو التسلل إلى اللوچ ، باستثناء سينما إيسترن التى أصابنى عامل تذاكرها بجرح لم يندمل .

أربع دور عرض كانت تجذبنى إليها جذباً هى : الأولدرادو، ماچستيك، أمبير، وريالتو . وحينما تكون النقود فى جيبى قليلة كنت اتجه إلى سينما الحرية أو مصر أو الأهلى، لكن ولعى بارتياد سينما الأولدرادو فى الشتاء وريالتو فى الصيف كان هو الولع الأكبر . فى الأولى شاهدتُ أفضل الأفلام الأمريكية والروسية والتشيكية، وفى الثانية شاهدتُ أفضل الأفلام الإيطالية والفرنسية والإنجليزية

وأعتقد أنه بأمرين اثنين انفتح شباب المدينة من المصريين على آفاق العالم الرحبة: الميناء ودور السينما التى ذكرت أسماءها لك عزيزى القارئ.

ولكن للأسف، جميعها تهدم بفعل سطوة رأس المال والمضاربات العقارية وحُمى ما سمى بالانفتاح الاقتصادى باستثناء اثنتين فقط هما: سينما ريو (صالة مارجريتا سابقاً) وسينما مصر، حتى سينما الأهلى التى ظل صاحبها يقاوم أغلقت بدعوى إخضاعها للتحسينات، ومضت مدة ليست بالقصيرة دون أن يجرى عليها أى تحسين.

ولى مع كل هذه الدور – ما بقى منها وما أزيل – ذكرياتٌ ليس هنا مجال ذكرها، لكن اسمح لى عزيزى القارئ ،بأن أذكر لك لمحات يسيرة مما صادفت من سينما مصر وسينما الأهلى . فى سينما مصر فوجئت ذات مرة أثناء الاستراحة بصورة لرجل مطربش، كثير النياشين ،رفيع الشارب منطبعة على الشاشة .. بعدها صعد إلى المصطبة غير العريضة المنبسطة أسفل الشاشة رجلان أحدهما نصف عار والآخر معه بندقية رش مما تُصاد به العصافير، ثم انتحيا جانباً، وقام الرجل نصف العارى بتعريض صدره لبندقية زميله الذى أطلق الرش عليه وأصاب صدره فى أكثر من موضع، بعدها قام المُصاب بأكثر من حركة بهلوانية بارعة، وحينما هبطا من فوق المصطبة حياهما الجمهور - وأنا معهم - بحرارة لا مثيل لها، فيما ظلت صورة الرجل المطربش منطبعة على الشاشة البيضاء . كنت وقتها صغيراً جداً وأعجبنى ما رأيت كثيراً، فقط سألتُ الولد الجالس إلى جوارى عمن يكون صاحب الطربوش والنياشين، فأجابنى : الملك . وللآن لا أستطيع تفسير هذا المشهد، ولا أذكر إذا ما كان هذا قد حدث قبل ثورة يوليو أم بعدها، لكن المشهد بتفاصيله مازال ملتصقاً بذاكرتى.

أما سينما الأهلى فقد شاهدتُ على مسرحها بعد انتهاء عدوان ١٩٥٦ السيرك الصينى يؤدى ألعابه المبهرة، كما شاهدتُ عرضاً لفرقة البولشوى الروسية .. نعم.. فرقة البولشوى الروسية والعرضان كانا مجانين فالسيرك الراقى وفرقة الباليه الأشهر ما جاءا إلا لتحية شعب بورسعيد ومباركة انتصاره على جيشى انجلترا وفرنسا.

ولعل أهم ما كان يميز دور السينما التى توصف عادة بالدرجة الثالثة هو فتواتها، هؤلاء الفتوات المسكون فى أغلب الأوقات بعصا رفيعة .. لا يشترط أن تكون صلبة، فقد تكون نسلة من جريدة نخلة، وقد تكون مسطرة تلميذ سقطت منه، قد تكون أى شيء، لأنها لا تستخدم فى الضرب عادة وإنما تستخدم فى لمس ظهور الأولاد بما يعنى التنبيه عليهم بالجلوس أو بالصمت أو بالكف عن التأرجح بمقعدة الكرسى أو عدم رمى قشر اللب فى أرض الصالة أو البلكون . كما يستخدمونها فى الهش بها على رواد السينما عند انتهاء العرض للإسراع بالخروج من الدار حتى يُسمح لغيرهم ممن هم فى الخارج بالدخول لمشاهدة العرض التالى، وللعصا أيضاً دور تؤديه للداخلين فهى تمنع هرولتهم وتوجههم إلى الأماكن التى ينبغى عليهم الجلوس فيها، أما الضرب فيكون بقبضة اليد ويا ويله من تناله هذه القبضة . وكثيرون هم من كانوا يقعون فى مرمى ضرباتها، لأن كثيرين من الرواد كانوا يتشاجرون مع بعضهم البعض ولم يكن ينهى الشجار سوى هذه الضربات، وأما الصفعات وما أهولها فتكون من نصيب المتأنقين من الشباب الذين يُضبطون - لسوء -

حظهم وهم يهمون بأى فعل جنسى، ولو طفيف، حيال الفتيات اللائى يجلسن أمامهن أو بجوارهن، حينئذ تنهال الصفعات المهينة للكرامة على من اقترف هذا الفعل، ولا تصلح لإيقافها عبارات من نوع " دى خطيبتى .. والله العظيم خطيبتى " أو "دى .. بنت خالتى".

وكان لكل سينما فتوة يخصها، ولم نكن نعرف سوى أسماء الفتوات المفردة، وما كان ينبغى لنا غير هذا . لسينما الأهلى كان " السادات "، طول وعرض وقوة عضلات، ولسينما مصر " فاروق "، شاب ولا كل الشبان، ولسينما الحرية "الأخرس"، وكان يكفى أن نقول الأخرس ـ لأنه كان أخرس فعلاً ـ لأن يُعمل له ألف حساب . ولم نكن ننطق اسم الواحد منهم مقترناً بوصفه فلا نقول " السادات " أو " فاروق " أو " الأخرس " ونتبع الاسم بلفظة الفتوة، لأن كل منهم كان علماً بذاته، فإذا نطقت فى أقصى مكان بالمدينة اسم السادات عُرف على الفور أن المقصود هو فتوة سينما الأهلى ونفس الأمر مع الآخرين.

وباعة كل شيء يتجولون فى الممرات وبين صفوف المقاعد . يبيعون الساندويتشات واللب والفول السودانى والبطاطس المقلية والبسكويت والمياه الغازية والشاى والقهوة وأطباق المهلبية والسجائر والكبريت وحَبْ العزيز والترمس، وينادون على بضائعهم بأصوات عالية جداً . وما زالت صورة " العربى" بائع المياه الغازية ببوفيه سينما مصر فى أواخر الخمسينيات والستينيات عالقة بذهنى .. زعيقه عال .. مشاجراته كثيرة .. لا يترك الجلوس فى حالهم .. وكانت تصنع فى المدينة وقتها زجاجات مياه غازية بلا ماركة .. مياه بلا لون .. شفافة .. والزجاجة التى تحتويها شفافة أيضاً، لكنها صغيرة وتأخذ شكل القنينة المدورة، لذا كان يُطلق عليها ما يشبه وصفها . وما كان يُشبهها فى الوصف هو " البلية "، لذا كانت تعرف بالـ " بلية " . كانت هى الأرخص وكان " العربى " يوزعها داخل هذه الدار .. بالذوق بالعافية كان لابد للزبائن من شرائها، يكفى أن يُطرقع عليها وينادى عليها " بلية " حتى نشعر بالتوجس فالمعارك قادمة.. قادمة. ومن بين الأمور المعتادة أن يُجلس " العربى " عدداً من صبيانه عند أطراف صفوف المقاعد المهمة فى الحفلات التى تعرض فيها الأفلام الجماهيرية بحيث لا يُسمح لأى فرد من الجمهور المتدافع إلى الصالة بالجلوس إلا إذا ابتاع منه راضياً أو صاغراً زجاجة " بلية ".

نفس الأمر كان يحدث ممن يقوم بوظيفة " الأبلاسير " الذى يُدخل الرواد أثناء تشغيل الفيلم، ويخوض بهم ظلام الصالة، مقدِّماً أمامه ضوء الكشاف الذى يمسكه بيده . كان يسلط ضوء الكشاف فى عيون الجالسين، ولا يُترك من يجلسه إلا إذا دفع له، ويا ويله إذا دفع له أقل مما توقع.

أما بالنسبة لدور السينما بحى الإفرنج فكان الأمر مختلفاً تماماً، فمثلاً لم يكن فى دار

مسرح وسينما الأولدرادو فتوات، أو كانوا موجودين لكن لا نعرفهم لأنهم لا يعلنون عن أنفسهم ولا تحدث فى هذه الدار مشكلات تستدعى إعلانهم عن أنفسهم . وكل شىء فى هذه الدار كان يتم همساً، والأقدام لا نكاد نسمع لها صوتاً على سجاد الأرضية . و " الأبلاسير " إذا ما خاض بك ظلمات الصالة فبأدب هو غاية ما يمكن توقعه من موظف، وضوء كشافه مصوب ناحية سجاد الأرض وبعد أن يُجلسك فى مقعدك ينحنى لك بعد إجلاسك وقبل انصرافه، نال منك البقشيس أم لم ينل ؛ أما بائع الشيكولاته والمياه الغازية فلا يظهر إلا فى الاستراحة ولا يمشى إلا فى الممرات دون غيرها، ولا ينطق إلا همساً.

ولمَّا لم يتبق بالمدينة من دور السينما القديمة سوى دارين فقط هما مصر وريو بعدما تحولت الدور الأخرى إلى عمارات ومخازن ومحلات وجراچات، ظهرت تقليعة تخصيص بعض الصالات فى القرى السياحية و المصايف الخاصة والفنادق الراقية التى انتشرت بطول الساحل للعروض السينمائية مثال ذلك قريتا النورس والكروان السياحيتان، مصيف الجميل للقوات المسلحة، فندق سونيستا وأغلب هذه العروض صيفى مؤقت ينتهى بانتهاء فصل الصيف ومنها ما أقفل أبوابه ولم يعد يستقبل الجمهور.

حال دور العرض السينمائى فى المدينة الآن لا يسر أحداً، والحكى عنها يطول أمده.والمسرح أيضاً.

(٢)

المسرح العريق

منذ النشأة الأولى عرفت بورسعيد المسرح . وقد ذكرتْ جريدة الأهرام فى أعدادها الصادرة فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨١م.، ٧ نوفمبر ١٨٨١م.، ١٨ نوفمبر ١٨٨١م. أنه كانت تقام فى المدينة حفلات للتمثيل والرقص وكان يحضرها كثير من الأجانب والوطنيين خصص دخلها لمنكوبى حريق قرية العرب المروع الذى التهم القرية فى ذلك الحين(٢) . وذكر بعض الأجانب ممن زاروا بورسعيد أو نقلوا عمن زاروها وجود مسرح فى المدينة(٣)، لكنهم لم يحددوا الشكل الذى كان عليه والأعمال التى كان يقدمها أو الفرق التى كانت تؤدى أعمالها عليه(٤).

وظهر للوجود مبنى مستقل يرتاده الراغبون فى مشاهدة العروض المسرحية والغنائية هو نبنى مسرح الليرا، وهو فى الأصل ناد للإيطاليين كانوا يلتقون فيه ويعزفون الموسيقى ويستمعون لها، ومن قبل كانت للإيطاليين مدرسة تقع خلف البيت الحديد لتعليم الدراما. وما لبث أن جاء الوقت الذى قدم فيه الفريق المنشق عن نادى رمسيس - وسوف أحدثك عن هذا الانشقاق فيما بعد - عروضه المسرحية على خشبة مسرح الليرا، وكانت هذه الخشبة -

ولا تزال ـ تتصدر الصالة الصغيرة التى تشغل الطابق العلوى فى المبنى الذى كان يشغله هذا النادى، وكان يشتهر وقتها ـ وقت شغل هذه الفرقة المنشقة لهذا المبنى بنادى موظفى الجمارك، لأن غالبية أعضائه كانوا وقتذاك يعملون بالجمرك.

ويرجع الفضل فى تأسيس أول دار عرض مسرحى تقام على أسس حديثة فى بورسعيد إلى اليونانى جريجوار سوليدس الذى أسس تياترو الأولدرادو بشارع التجارة (الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض حالياً) بالقرب من الميناء فى يونيو ١٨٩٦م.، وقام أيضاً بتغيير شامل فى ديكورات هذا المسرح وأدخل النظام المتبع حالياً من البنوار والبلكون وصالة المسرح مثلما أدخل نظاماً أكثر حداثة فى الإضاءة وافتتح موسم التعديل بمسرحيتين هما: ترافياتا وتريفاتور . وكما أخبرتك من قبل أدخل عام ١٩٠٨م. على هذا المسرح جهاز عرض سينمائى ليصبح اسم الدار مسرح وسينما الأولدرادو (٥) .

واسمح لى بأن أضيف شيئاً عن هذه الدار فكونها فى مبنى دعائمه وسلالمه وأرضيته وسقفه من الخشب لم يقلل أبداً من استقطابها لروادها واستئثارها بهم، بل إنها بديكوراتها الفخمة وبناويرها الأنيقة، ومقاصيرها التى كانت تشغل جدرانها الثلاثة المُطلة على خشبة المسرح، وبنقوشها الرائعة وألوانها المذهبة وبُسطها الحمراء، كادت تضارع أوبرا الخديو إسماعيل بالقاهرة . ربما وصفتنى بالمُبالغ، لكن صدقنى هذا ما رسخ فى ذهنى وأذهان كثيرين عنها، ولم يُفلح الخراب الذى حل عليها مؤخراً فى زحزحة هذا الرسوخ أو النيل منه.

وأنا بعد طفل صغير، اشتركتُ بالتمثيل مع الفريق المسرحى لمدرستى " القناة الابتدائية المشتركة " بمسرحيتين على مسرح هذه الدار، أولاهما مسرحية بعنوان " محكمة الثورة "، وكنتُ أودى فيها دور جاسوس أكتشف وحوكم وقتها، وكان اسمه محمود صبرى . وفى آخر المسرحية وعقب نطق رئيس المحكمة بالحكم " حكمتْ المحكمة حضورياً بإعدام المتهم شنقاً حتى الموت " نهضت، حسبما استلزم الدور، وصحتُ " نموت وتحيا مصر ". وأذكر أننى بكيتُ وقتها فاستشاط الجمهور تصفيقاً وحماسة ظناً منهم أننى كنتُ مندمجاً فى الدور، واعتبروا بكائى حُسن أداء، والحقيقة هى أن سبب هذا البكاء كان معايرة الأولاد لى، قبل العرض وأثناءه، لأننى قبلتُ دور الجاسوس ؛ المسرحية الثانية كانت بعنوان (التمثيلية الصحية)، وكنتُ الطبيب فى هذه المسرحية، وكان علىّ أن التفت أول دخولى المسرح إلى الشبابيك المغلقة فى غرفة الطفل المريض، الذى جاءوا بى لعلاجه، ثم أصرخ " إيه .. الشبابيك مقفولة ليه ... افتحوا الشبابيك "، وبعد جملتين أو ثلاث حول أهمية الهواء المتجدد للصحة ألمحُ أم المريض تقبله فى فمه فأصرخ فيها " إيه ده ؟ !. بتبوسيه ؟ ! أنت

مش عارفة إن البوسة أسرع طريق للعدوى ؟ ".. وهكذا.

وعلى ذات هذه الخشبة، التى أفخر بأننى اعتليتها، شاهدتُ فى الخمسينيات من القرن الماضى، عرضاً لفرقة رمسيس القاهرية، ورأيتُ رأى العين يوسف بك وهبى وأمينة رزق وهما يمثلان . وكان أبى كريماً جداً معى لما أفرغتُ أمامه كل ما بحصالتى من نقود فضية فأكمل عليها ما مكننى من شراء تذكرة الدخول.

ولأن الجاليات الأجنبية كانت تستقدم فرقها المسرحية وتقدم عروضها بالمدينة منذ نشأتها الأولى، فكان حريا أن تنشأ لدى الوطنيين فرقا مسرحية تخصهم، وإذا كانت الفرق الأجنبية تقدم عروضها فى دور عرض مجهزة وفخمة مثل الأولدرادو والليرا وديانا والكاديفال، فإن الأمر لا يقتضى سوى قدر من الصبر والمداومة من الفرق الوطنية لتقدم عروضها على خشبات هذه الدور وغيرها.

ولم يتأخر المسرح المصرى فى المدينة عن نظيره الأجنبى، فحسب وفاء عبد المتجلى تكونت عام ١٨٩٦م. جمعيه أطلق عليها مؤسساها خورى وشكرى نصر جمعية الآداب، وانتخب لها ١٢ عضوا كانوا من نخبه الشُبان الأدباء فى بورسعيد، وكانت تقدم رواية أدبية كل شهر أسوة بالبلاد الإفرنجية. وكان يخصص جزء من دخل عرض هذه الروايات على فقراء المدينة.

وفى سنه ١٩٠٣م. تأسس فى بورسعيد ما يعرف بالمحفل الأدبى بهمة محمد على بك وكيل عام محافظه القنال وبعض وجهاء المدينة، منهم : عثمان أفندى غندر وعلى أفندى لهيطة (بك) لإقامة حفلات مسرحيه يوجه جزء من دخلها للصرف فى أمور البر والخير.

كما تأسس نادى أطلق عليه النادى المصرى (بخلاف النادى المصرى للألعاب الرياضية الذى تأسس شعبيا عام ١٩١٧م. ورسميا عام ١٩٢٠م.)، وتعددت الاهتمامات داخله وحرص أعضاؤه على تمثيل كثير من الروايات على خشبة مسرح الأولدرادو. بدءاً من مارس ١٩٠٩م. ومن المسرحيات التى عرضها هذا النادى مسرحية (مروءة العرب).

وحسب رواية ضياء الدين القاضى عن جده لأبيه فقد كان يأتى إلى بورسعيد رجل يدعى الشيخ إبراهيم الإسكندرانى (نسبة إلى مدينه الإسكندرية)، وقد قام هذا الشيخ بتكوين فرقة للتشخيص من طلبة المدارس والعمال وعرض من خلالها روائع المسرح العالمى مثل : (هاملت) و (عطيل). وكانت هذه الفرقة هى اللبنة الأولى لفرقه نادى رمسيس المسرحية (٦).

وتأسست فرقه رمسيس المسرحية عام ١٩٢٧م. وكان قوامها مجموعة من الهواة مثل : توفيق الطيب، حامد الصفتى، طلبه رضوان، كمال علام، محمود ياقوت، احمد حامد، عبد

الحسيب الكيال، جمال خفاجه، السعيد البنا، طه الغرباوى، أحمد البنا . واحتوى هذه الفرقة نادى رمسيس الذى تأسس عام ١٩٢٣م. وكان يسمى بالنادى الأهلى و مقره الدور الأول بالعقار الكائن بشارعى الثلاثينى والمقدس أعلى محل أبو ذكرى للأسماك، وذلك حسب رواية ضياء الدين القاضى عن حسيب الكيال(٧). وحسب روايته أيضا فإن تغيير اسم النادى من الأهلى إلى رمسيس بموافقة الجمعية العمومية للنادى فى ٤ يونيه ١٩٤٢م. كان تيمناً بفرقة رمسيس المسرحية بالقاهرة وعرفانا بفضل عميد المسرح العربى يوسف بك وهبى (٨) . ويُفهم من هذا أن تسمية الفرقة المسرحية برمسيس كانت أسبق من تسميه النادى . أى أن فرقة رمسيس المسرحية أنشئت من خلال النادى الأهلى . وكانت بداية النشاط التمثيلى للفرقة فى عام تشكلها ١٩٢٧م. بمنزل غندر بشارع أوجينى عند تقاطعه مع شارع محمد على .

وإذا كانت هذه هى رواية ضياء الدين القاضى عن سنده الممثل المسرحى حسيب الكيال عن نشاة فرقة رمسيس فإن المرحوم فؤاد صالح، وكان فناناً مسرحيا أيضاً، يُقدم - والعهدة عليه - نشأة الفرقة بصورة مغايرة، فقد نشأت قبل نشأة فرقه رمسيس بمدة، فرقة كشافةاسمها فرقة وادى النيل للموسيقات النحاسية، وضمت فيمن ضمت والده مصطفى صالح الشهير بالسيد عبد العال، سليمان شادوفه ،محمود المصرى، محمد حمودة، محمد الطوبجى وخضر الطوبجى وأن هؤلاء استأجروا مخزناً بشارعى مظلوم والحميدى فى بيت نعمان وأقاموا فيه ما يشبه المسرح ورصوا فيه الدكك وأطلقوا على أنفسهم (الفرقة الوطنية)، وكانوا يقدمون التمثيليات التى شاهدوها فى السيرك جنبا إلى جنب الأغنيات الوطنية التى انتشرت أثناء ثوره ١٩١٩م. ؛ ولمَّا كانت هذه المجموعة الرائدة - والوصف والكلام ما زال لفؤاد صالح - تجمع بين موظفين وعمال وغيرهم من الهواة الموهوبين، فقد وقعت خلافات أدت إلى انفصال العمال ليكوِّنوا نادياً خاصاً بهم، وهو نادى العمال بنفس المقر القديم للفرقة بشارعى مظلوم والحميدى، ثم انتقلوا إلى شارع الأمير فاروق (الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض حاليا) بجوار حارة اليهود وبعدها انتقلوا إلى مبنى أمام سينما الكوزموغراف . وكان قوام نادى العمال: محمد النبع ومحمد الطوبجى وخضر الطوبجى وأبو بكر الصديق عبد الحق، الذى شارك فى تأسيس فرقة الطليعة فيما بعد، ثم عاد إلى نادى العمال ليترأسه، وضمت الفرقة فيمن ضمت محمد سالم وعبد السلام عياد .

واستقل الموظفون بأنفسهم ومعهم بعض الطلبة وكونوا فرقة أخرى سميت (فرقة الموظفين وعملوا على تقديم عروض مسرحية تجمع بين التراث العالمى والمسرح المصرى

واهتموا بما أبدعه كبار كتابه فى ذلك الوقت، واتخذوا لهم مقراً عند تقاطع شارع الثلاثينى (سعد زغلول حالياً) وحارة البكرى، ثم أطلق هؤلاء الموظفين بعد ذلك اسم رمسيس على فرقتهم (٩). وتستكمل سلسلة الانشطار بانفصال مجموعة السعديين عن فرقة رمسيس وتكوينهم لفرقة جديدة هى فرقة " نادى المسرح " فى عام ١٩٤٠م.

وتشكل أول مجلس إدارة للنادى من الدكتور محمد أبو الغيط رئيسا، ومحمد بك سرحان نائبا للرئيس، وعبد الرحمن لطفى بك (باشا فيما بعد)، والحاج إبراهيم علوان وكيلان، ومحمد الجمل، محمود شحاتة، عبد الحميد عطا الله، فهمى جودة، محمد عوض، إبراهيم فؤاد، احمد الدنف، طلبة رضوان، إسماعيل الزغبى أعضاء، وأحمد الحلوجى سكرتيراً(١٠).

وقدم هذا النادى ندوات وعروضاً كثيرة، وممن أخرج لفرقة النادى المسرحية نصر الدين الغريب، سمير زاهر، رشدى إبراهيم، بدر حسنين، فؤاد صالح، وغيرهم.

ومن العروض التى قدمها (المشخصاتية) تأليف عبد الله الطوخى، (الزوبعة) تأليف محمود دياب، (حدث فى ٣٩) تأليف سيد حافظ، (ولا العفاريت الزرق) تأليف على سالم، (كراكيب) تأليف أحمد أبو النور، وغيرها من المسرحيات منها : (يأجوج ومأجوج) و (حورية من المريخ) و (يا بهية وخبرينى).

ومما يذكر لهذا النادى إقامته صالوناً ثقافيا متعدد الشُعَب بتعدد أشكال الفنون والآداب فاشتمل على شعب للشعر للقصة والمسرحية، الفنون التشكيلية، المسرح، الموسيقى، والدراسات النقدية، التاريخية، التراجم، الدراسات الدينية، السينما والفيديو .

وفى الخامس من أغسطس ١٩٨٢م. تأسس بمقر النادى فرع لنادى المسرح المصرى القاهرى، وحضرت حفل الافتتاح الفنانة سميحة أيوب رئيس مجلس إدارة نادى المسرح المصرى القاهرى، كما استضاف فى أواخر الثمانينيات جمعية أدباء وفنانى بورسعيد كمقر مؤقت للجمعية التى أحالت مقر النادى إلى بؤرة إشعاع قوية لبث ونشر الثقافة الرفيعة.

ويذكر أيضاً لهذا النادى تنظيمه لمهرجان فنون المسرح ببورسعيد فى فن المونودراما فى الفترة من ٢٨ ديسمبر ١٩٨٥م. حتى ٣ يناير ١٩٨٦م.، ومن خلال هذا المهرجان شاهد الجمهور ثلاثين عرضاً مسرحياً ميلودرامياً منها سبعة عشر عرضاً لمؤلفين بورسعيديين، إلا أن حالة من الكمون ما لبثت أن رانت على النشاط المسرحى داخل النادى، كما سبق أن حدثتك، لصالح ألعاب البلياردو وتنس الطاولة والبريدج والشطرنج .

نعود إلى فترة النشاط التى ازدهرت بنشأة فرقة نادى المسرح.

فى هذه الفترة كانت العروض المسرحية للفرق الأجنبية تترى على المسرح والصالات ودور السينما الراقية بالحى الإفرنجى، ومن هذه العروض ما يخص الجاليات، كل جالية على حده، ومنها ما يُعرض لعموم الأجانب أو لعموم الأجانب والمصريين ؛ ومن العروض الأجنبية ما كان يعتمد بالأساس على الهواة، ومنها العرض الفرنسى (سنيور براكولى - Signor Bracoli) وهو عرض مسرحى مأخوذ عن عمل لسانت فينسون Saint-Vincent أخرجه موريس دونيف Maurice de Nève، واستضافته خشبة صالة مرجريتا (سينما ريو حالياً) على مدى ليلتين هما ليلتا الجمعة والسبت ٢٥،٢٦ مايو ١٩٣٤م. وما يستدعى التوقف عنده هو أن العرض كان يستغرق فى الليلة الواحدة أربع ساعات كاملة، والمسرحية كانت تعرض للتبدلات النفسية والسلوكية التى اعترت أفراد أسرة وجدت نفسها محاطة بأجواء مفعمة بالألم والمعاناة بعدما عثر على ربها مطعوناً بخنجر . وقد أدى شخصية البطل سنيور سيزار براكولى الممثل ليون ايرمان، وشاركه التمثيل: بول ميربير، لوى نيكولا، رفاييل كورو، ف. أوبير ؛ أما أدوار النساء فقامت بها مدام دو نيف، مدام ل. كوراى، هنرييت مينار، ومدام باكو . ويبدو أن المسرحية كانت مبهرة إذ استقبلها الجمهور بحماس بالغ على الرغم من طول المدة التى يستغرقها العرض، وكانت ديكوراتها وإكسسوارتها قد جُلبت من بورسعيد، وكان مستواها جيداً، وخصص دخل العرض للأعمال الخيرية.

كما حضرت فرقة الكوميدى فرانسيس إلى بورسعيد يوم الأربعاء ٢١ ديسمبر ١٩٤٩ وقدمت على مسرح سينما ديانا مسرحية (La Part Du Feu) للكاتب الفرنسى Louis Ducreux وكانت قد لاقت نجاحاً كبيراً بعد عرضها فى ليون فى ١٨ مايو ١٩٤٣ وقد دعا الفرقة للحضور إلى بورسعيد قنصل فرنسا فى بورسعيد D-Henaut، وشهد الحفل محافظ القنال عبد الهادى غزالى وزوجته وكبار الشخصيات الفرنسية وغيرهم.

وبعد انقطاع طويل عن حضور الفرق المسرحية الأجنبية إلى بورسعيد، لاسيما بعد حرب ١٩٥٦م.، حضرت إلى بورسعيد ضمن فعاليات مهرجان القاهرة الدولى فرقة الكوش The Kosh البريطانية وعرضت مسرحية (أنواع منقرضة (Endangered Species) على خشبة مسرح وسينما ديانا بكازا دى إيتاليا وتعرض المسرحية للتمزقات النفسية الناتجة عن مجموعة من العواطف والانفعالات العنيفة، جسدها اثنان من الممثلين البارعين هما: إميل وَلك Emil Walk وشيان ولیامز Sian Williams، وأخرجها اثنان من المخرجين هما: جونى هاتش Johnny Hutch ومايكل ميرويتزر Michael Merwitzer

.وقد شاهدتُ هذه المسرحية وكانت جيدة للغاية، وكان الممثلان يغيران ملابسهما أمامنا وكل ما وضع على الخشبة أخرجاه من حقيبة وفقاً للمواقف الدرامية المختلفة فى توقيتات وقوعها .

ولم تكن الفرق المسرحية الوافدة أجنبية فقط وإنما اشتملت أيضاً على فرق عربية مثل جوق الممثل السورى سليمان أفندى قرداحى الذى قَدِمَ إلى بورسعيد فى مايو ١٩٠١م . ومنها الفرق المصرية القادمة من القاهرة مثل فرق: سلامة حجازى، جورج أبيض، على الكسار، نجيب الريحانى، رمسيس، أمين صدقى، إسماعيل يس، المسرح العربى الحديث، المسرح العسكرى، وفرقة المسرح الحر . وكانت تقدم عروضها على مسارح سينما الكوزموغراف، الأولدرادو، وديانا. و حينما أنشئ مسرح البلدية الصيفى فى ١٢ يوليو ١٩٥٨م، وكان يحتوى على ١٠٥٠ مقعداً، حرصت الفرق المسرحية المحلية والوافدة على تقديم عروضها فوق خشبته لاسيما فرقة المسرح القومى و فرق مسرح التليفزيون التى تشكلت فى التسعينيات من القرن الفائت و غيرها من فرق مسرح القطاعين العام والخاص الكثير . ووصل الرواج المسرحى بالمدينة إلى الدرجة التى كانت تُقدم فيه على خشبة هذا المسرح – مسرح البلدية الصيفى – عروض مسرحية تتغير كل ليلة و لمدة شهر كامل.

وشهدت الحركة المسرحية فى المدينة ازدياداً فى حدة المنافسة بين الفرق المحلية الثلاث التى تستحق وصف الكبرى، وهى فرق : رمسيس، العمال، المسرح .

وما لبثت أن نشأت فرق أخرى لعل أهمها : فرقة هواة التمثيل، التى هى فرقة بورسعيد المسرحية ثم الفرقة الإقليمية وهى الفرقة التى أسسها نصر الدين الغريب و الأخوان رأفت ونجيب جبر و كامل الكيلانى، وأحمد أبو إسماعيل، وضمت: محمود فراج، محمود الحطاب، فتحى الباشا، عبد القادر رشاد، السيد عبد السلام، عبد القادر حسنى، سمير الجريتلى، محمد الشريف، أحمد أبو النور، عبد السلام الألفى، حمدى عبد الرحيم، كامل حجازى، محمود المصرى، محمد بدر الدين، محمد حامد الألفى، جمال الدين سالم، السيد عطوة، السيد العربى حنفى، محمد سالم، محمد عنانى، عبد الرحمن عرنوس، كمال عرفة، إبراهيم الدرنكى وغيرهم .

و تكاد تكون هذه الفرقة قد تخصصت فى تقديم مسرحيات نجيب الريحانى و مسرحيات الفودفيل. ومن المسرحيات التى قدمتها من هذا النوع : " حسن ومرقص وكوهين "، " لو كنت حليوة "، " ٣٠ يوم فى السجن "، " أنا ومراتى وجوزها "، " الزوجة آخر من يعلم "، " قسمتى "، و " حكم قراقوش " . إلا أن تنوعاً طرأ على عروضها،

بتأثير من العناصر الشابة التى انضمت إليها، فقدمت عروضاً مثل : " الكلمة الثالثة "، "المصيدة"،" الخماسين "، " مقالب محروس "، " انت اللى قتلت الوحش "، " ما كان من الأول " ،" عاليها واطيها " ،" رأس العش"، " الدرافيل "، " ملوك الفقر "، " الزنقة "، " المغفلون فى الأرض "، " عشاق فوق العادة "،" بالعربى الفصيح "، " أبو العربى والأمريكانى "، " رحلة حنظلة "، " إصحي يا نايم "، " فرعون الأمريكانى "، وغيرها .. كما قدمت تجارب مسرحية فى نادى المسرح الذى تشكل من خلالها وقوامه مجموعة من شباب الفرقة وقدمت عروضاً غير قليلة منها : " النوة "، " المسخ "، " حفلة عشاء "، " ماكبث هنا وهناك "، " أحلام تايهة "، " الوهم " . ومن مؤلفى عروض هذا النادى : محمد الشريف، محمد يسرى، خالد توفيق، وأسامة المصرى . ومن مخرجي عروض النادى : محمد الشريف، شريف مبروك، أحمد جمعة، هنادى، محمد العشرى.

وممن أخرج العروض الجماهيرية لهذه الفرقة كل من : نصر الدين الغريب، السيد عاشور، محمد شوقى نعمان، سيد عبد السلام، حمدى الوزير، محمد الشريف، محمد البحيرى، السيد طليب، أحمد عجيبة، رشدى إبراهيم، صلاح الدمرداش، سعيد حامد، طارق حسن، فوزى شنودة، و محمد سالم .

وألف لها كل من: أحمد أبو النور، محمد البحيرى، محمد جعفر، محمد الشريف.

وفى عام ١٩٥٩م أنشئت فرقة الطليعة و ضمت كلاً من عباس أحمد، محمود ياسين، محمد شوقى نعمان، على فلا، محمد عبد العاطى خليفة، وأبو بكر الصديق عبد الحق (ما لبث أن عاد إلى نادى العمال)، فؤاد صالح، أحمد عجيبة، السيد الدمرداش، السيد أبو العلا، عادل برهام، السيد طليب، عادل اللبان، محمود إبراهيم، عبده الزناتى وآخرون . ثم ما لبث أن انضم إليها مجموعة من الشباب منهم محمد شوقى صالح، محمد برهام (العربى برهام)، محمد الكتاتنى، عبد المنعم العجمى، و حمدى الوزير وغيرهم .

ودأبت هذه الفرقة على معارضة الفرقة الإقليمية و تقديم عروض مغايرة للعروض التى تقدمها تلك الفرقة، وحرصت على تقديم نصوص لكبار كتاب المسرح المصرى الجاد أمثال : نعمان عاشور، سعد الدين وهبة، الفريد فرج، عبد الرحمن الشرقاوى، أحمد شوقى، لطفى الخولى، محمود دياب وغيرهم من الكتاب المحليين و الأجانب . وقدمت عروضاً منها : (المحروسة) و(السبنسة) لسعد الدين وهبة، (مشهد من الجسر) لأرثر ميللر، (عبد الرحمن الناصر) لعباس علام ، (مجنون ليلى) لأحمد شوقى، (الحصار) لمحمود دياب، (عطوة أفندى قطاع عام)و(عيلة الدوغرى) لنعمان عاشور، (مأساة جميلة) لعبد الرحمن الشرقاوى، (القضية) للطفى الخولى و غيرها .

وقبل هذه الفرقة كانت قد أنشئت فرقة جمعية الكتاب المقدس المسرحية، ومن أعضائها: نصيف حبيب، جميل تادرس، فوزى شنودة، مراد منير، عياد حكيم، لطفى عزيز، إبراهيم جرجس، شوقى عزمى، وسمير إسكندر . وتعاون مع الفرقة و عمل معها سمير العصفورى الذى بدأ علاقته مع هذه الفرقة منذ كتب و أخرج لها عقب حرب ١٩٥٦م مسرحية (حاكم مدينة).

وبالإضافة إلى العروض الخاصة بالطقوس الكنسية قدمت هذه الفرقة عدداً كبيراً من المسرحيات الجيدة مثل : (الاعتراف الأخير)، (قضية كل يوم) عن مسرحية فاوست. وعلى الرغم من الطابع الدينى لهاتين المسرحيتين إلا أنهما تميزتا برؤية تتفق ومتطلبات العرض العام . كما قدمت الفرقة مسرحية " طبيب رغم أنفه " لموليير، " ثورة الدم " عن المسرح العالمى، و " نمرة سبعة " وهى معالجة كوميدية قدمتها الفرقة لمسرحيات نجيب الريحانى، وكانت تعرض فى الصيف باعتبارها الحفل السنوى المعفى من الضريبة لتدر ربحاً تنفق منه الفرقة على نشاطها.

وقد يكون من المفيد هنا ذكر أنه كانت من بين ملحقات الكنيسة اللاتينية (الكاتدرال) دار للمسرح كبيرة، وكان هذا المسرح قد شيد بمرسوم ملكى، ولما آل هذا المسرح للسقوط صدر قرار جمهورى سنة ١٩٩٠م. بالترخيص ببناء المسرح مرة أخرى، وفور صدوره أعيد هذا الصرح مرة أخرى، وهو والكنيسة يتبعان الآن المطرانية الأرثوذكسية ببورسعيد(١١). وغير معروفة العروض التى قدمت عليه أو تقدم الآن، وإن غلب الظن بأنها دينية طقسية بحتة.

ونشأت فى المدينة ظاهرة الفرق المسرحية الخاصة مثل : (فرقة الجيل) و أنشأها عبده متولى و تخصصت فى تقديم أعمال الممثل أمين الهنيدى التى تُعرض بالقاهرة، فرقة (نجوم المسرح البورسعيدى) و أنشأها عبده محمد فضالى، فرقة حسن إبراهيم و كان مشهور باستئجار عروض الفرق القاهرية، فرقة (شباب المسرح) وأنشأها محمود الحطاب، وفرقة(الإمبراطور) وأسسها صلاح عاشور، وفرقة أخرى أنشأها كل من محمود ياسين وعباس أحمد والسيد طليب وقدمت على خشبة مسرح وسينما ديانا مسرحيات: " نيرون "، " حب ولعب وفانتازيا "، و" مشهد من جسر" من إخراج محمود ياسين . ونشأت هذه الفرقة عبر مناقشات دارت فى جلسات كانت تعقد على مقهى توليس بشارع الجمهورية.

ومن الفرق المسرحية الخاصة التى تستحق التوقف عندها فرقة (النهضة للتمثيل المسرحى).وذلك لأسباب خمسة:

أولـهـا : أن هذه الفرقة نشأت عام ١٩٦٣م. قبل تأسيس قصر الثقافة وتشكيل الفرقة

المسرحية التابعة له.

ثانيها : أنها لم تحل نفسها و تندمج فى فرقة القصر عند تأسيسها مثلما فعلت الفرق المسرحية الأخرى.

ثالثها : أن مؤسسيها ستة من الشباب حديثى السن حديثى التجربة نصفهم من أسرة واحدة هم : محمد خضير، محمود خضير، مصطفى خضير، إبراهيم الصياد، فوزى العريان، وأحمد حماد.

رابعها : أنهم حددوا جمهورهم فى طلاب المدارس و جمهور الجمعيات و النوادى ومؤسسات الأيتام و طافوا بعروضهم على جمهورهم فى أماكن تواجده، و لم ينتظروا قدومه إلى مسرح ثابت يختارونه .

خامسها : أن عروضهم كانت منوعة إذ جمعت بين العرض المسرحى المتكامل، و الاسكتش الفكاهى، والأوبريت، والأغانى والأناشيد الوطنية المواكبة لمرحلة المد الوطنى التى كانت تعيشها مصر وبورسعيد هذه الفترة . ومن العروض التى قدمتها هذه الفرقة:" اللحظة الحرجة "، " البخت الضايع "، " الشيخ بركات "، " الغريب "، و" أغنية على المر ".

وظلت هذه الفرقة تؤدى عروضها بقروش مؤسسيها القليلة وتطوف بالمدينة لمدة سبع سنوات متصلة ١٩٦٣م – ١٩٦٩م. ولم يُوقف نشاطها سوى التهجير الجبرى لسكان المدينة وتشتت أفرادها فى أكثر من محافظة .

وتوالى ظهور الفرق المسرحية التى كان قوامها العمال والمهنيين والشباب من حديثى التخرج في الكليات والمدارس ومراكز التدريب داخل المدينة مثل فرق : نقابة المعلمين، نقابة التطبيقين، إستاد بورسعيد، القناة لرباط وأنوار السفن، خريجى المدارس الصناعية، مركز التدريب المهنى، نادى الجمارك، الساحة الشعبية، شباب المدينة، هيئة قناة السويس، شركة بورسعيد للغزل والنسيج (بور تكس) .

وما زال الأمر كذلك حتى نهض المسرح الجامعى وتشكلت فرق فى كل من: كلية التربية الأساسية، كلية التربية النوعية، كلية التجارة، المعهد العالى للخدمة الاجتماعية وكلية الهندسة وكلية التمريض ومعهد الحاسب الآلى.

البداية كانت مع قدرى حفيلة وعرضه " بكالوريوس فى حكم الشعوب " الذى حاز المركز الأول على مستوى الجامعات المصرية فى مطلع السبعينيات من القرن الفائت، وبعد فترة ركود عاود هذا المسرح نهوضه فى أواخر الثمانينيات، ونجح عرض " دماء على أستار الكعبة " للمخرج خالد توفيق نجاحاً باهراً لفت الأنظار إليه، لاسيما أنه كان مواكبا للعرض الذى قدمته فرقة المسرح القومى بالقاهرة عام ١٩٨٩م. لذات المسرحية، ثم

توالى صعود المسرح الجامعى بالمدينة حتى حصل عرضان قدمهما لهذا المسرح المخرج طارق حسن على المركز الأول فى عامين متتالين وهما عرض " يا طالع الشجرة – ١٩٩٩م " لتوفيق الحكيم و" القرد كثيف الشعر – ٢٠٠٠ م " للكاتب الأمريكى يوچين أونيل .

وعندما تم تنظيم مهرجان للإبداع المسرحى بالمدينة سنة ٢٠٠٥م. اشتركت فيه خمس كليات ومعاهد بعروض لفرقها هى : كلية التجارة " أبو الهول الحى "، كلية الهندسة " يا بهية وخبرينى "، معهد الحاسب الآلى " لخبطة "، معهد الخدمة الاجتماعية " سعدون المجنون "، وكلية التربية " القرد كثيف الشعر ".

ولمعت فى هذا المسرح أسماء مخرجين مخضرمين وشباب من أمثال : صلاح الدمرداش ورابح رخا (المعهد العالى للخدمة الاجتماعية)، أحمد عجيبة (كلية التمريض) ،علاء فراج (كلية التجارة)، محمد الملكى (كلية الهندسة)، كمال أبو الخير (كلية التربية النوعية)، ومحمد يسرى (معهد الحاسب الآلى).

وكان أن أنشئت فى سنة ١٩٦٤م. فرقة قصر الثقافة، ووقتها كانت تتبع جهاز الثقافة الجماهيرية، وكان للمخرج عباس أحمد الدور الأكبر فى هذه الفرقة عند نشوئها، بل إنها ما كانت لتنشأ لولا دمجه لفرقة الطليعة بأكملها فى هذه الفرقة، بما أدى إلى إلغاء فرقة الطليعة، ومن بعد هذا الانضمام وكنتيجة للنجاح الذى حققته الفرقة الجديدة انضم أغلب فنانى المسرح ببورسعيد إليها، حتى انفردت بتمثيل المسرح ببورسعيد فى المهرجانات والمسابقات المسرحية على مستوى الجمهورية، ومثّلت مصر فى كثير من المهرجانات المسرحية الدولية ؛ حتى فرقة بورسعيد الإقليمية التى ظلت متماسكة إلى حد ما لأكثر من عشرين سنة، ما لبثت أن انضمت إلى قصر الثقافة - الذى أصبح يتبع الهيئة العامة لقصور الثقافة - وإن ظلت محتفظة باسمها وبالمقر الذى تؤدى عليه عروضها وهو مسرح الليرا القديم .

وقدمت فرقة القصر عروضاً لمسرحيات كثيرة منها : " الخطوبة "، " عيلة الدوغرى "، " الحصار "، " القضية "، " المحروسة "، " السبنسة "، " سكة السلامة "، " جمهورية فرحات "، " ملك القطن "، " الزوبعة "، " القاعدة والاستثناء "، " الموقع ٢٣ "، " النديم "، " القرية المفقودة "، " أحلى صباح يا بورسعيد "، " ملك الشحاتين "، " صابرة "، " المجانين "، " ملاعيب "، " وصاحبه غايب "، " جحا فى المزاد "، " فرسان المؤامرة المستديمة " ، " فرح العمدة "، " رحيل وطن "، و" أولاد الغضب والموت ".

وفى مسيرة التطوير تشكلت فرق ذات مستويات مختلفة بالهيئة العامة لقصور الثقافة وجاءت هذه المستويات على النحو التالى:

* فرق قومية للمحافظات.
* فرق لقصور الثقافة.
* فرق لبيوت الثقافة.
* فرق نوادى المسرح.

ومن ثم تشكلت فى بورسعيد فرقة " بورسعيد القومية المسرحية "، وفرقة " قصر ثقافة

بورسعيد " (تم إلغاؤها حاليا)، وفرقتا " بيت النصر المسرحية بالقابوطى و" بورفؤاد المسرحية " ببورفؤاد.

و فيما استمرت فرقة قصر الثقافة فى تقديم عروضها إلى أن ألغيت بقرار إدارى غامض، كان أول عرض تقدمه الفرقة القومية هو عرض " الحريق " من إخراج حمدى الوزير فى أكتوبر ١٩٨٣م. ثم مالبثت العرض أن توالت منها على سبيل المثال : " زيارة السيدة العجوز"، " حلم يوسف "، " اليهودى التائه " " سيف الله "، " حانغنى لمين ؟ "، "النقرزان "، " ليلة النيروز " " المهرج " " باى باى يا عرب ". ومما قدمته فرقة بيت ثقافة النصر المصرية مسرحيتا " الفيل يا ملك الزمان " و " سعدون كيشوت "، ومما قدمته فرقة بيت ثقافة بورفؤاد مسرحيتا " السر فى بير " و " تياترو فرفشة ".

وللتجريب المسرحى تواجد كبير فى المدينة، وأحرز المجربون المسرحيون من أبنائها تفوقاً مشهوداً منذ نشأة نوادى المسرح التى نشئت عام ١٩٩٠م بالهيئة العامة لقصور الثقافة حتى الآن. واللافت للانتباه أن القليل من المسرحيات التجريبية التى قدمت بالمدينة سواء بقصر الثقافة أو البيوت التابعة للفرع الثقافى بالمحافظة مأخوذ عن نصوص لمؤلفين أجانب مثل ماكبث/ شكسبير وزيارة السيدة العجوز / فريدريش دورينمات. والقليل منها أيضاً المأخوذ عن نصوص لمؤلفين عرب مثل هاملت يستيقظ متأخراً / ممدوح بدران ؛ أما الكثرة الكاثرة من العروض فلمؤلفين محليين، وهذا مؤشر جيد. ومن هؤلاء المؤلفين: رجب سليم، عبد القادر مرسى، عبد الفتاح البيه، ياسر عاشور، محمد عبد القادر، أحمد عزت، أسامة المصرى، علاء المصرى، خالد توفيق، إبراهيم سكرانة، متولى حامد، وزكى فواز. ومنهم من قام بإخراج نصوصه والتمثيل فيها .

والعروض التجريبية التى تقدمها هذه النوادى كثيرة، منها : "من يملك النار"، "البطاحيش "، " حكاية دعبل"، "نُص ساعة كلام"، "فلسفات حيوانية"، "راجعين"، "الجزيرة"، "إعدام فار"، "لحن الشيطان والحب"، "عود الورد"، "طاقة شوف"، "أطياف ورق"، "أومليت"، "القلع والصارى"، "من الميلاد للممات"، "العِمَّة والعصاية"، "محاكمة زنجى

أبيض"، "حانة الربيع"، "أغنية الليل و السكن"، "أوين بوفيه"، " فانتازيا العالم الرابع"، " فى محراب السيد دود"، "من الميلاد حتى الممات"، و"اللوحة الأخيرة " .

وممن أخرج لنوادى المسرح عروضاً تجريبية : جمال مهران، إبراهيم فهمى، حسنى عكرى، كمال أبو الخير، عبد القادر مرسى، عبير فاروق، سامح فتحى، عمرو عجمى، هانى عيسى، محمد عيسى، عمرو كمال، شريف مبروك، أحمد محسب، مصطفى العَزَب، عمرو كمال، عمر الحلوجى، أدهم رشدى، زكى فواز، إبراهيم سكرانة، محمد الملكى، ومحمد ياسين (رحمه الله - أحد ضحايا محرقة بنى سويف).

منذ عام ١٩٧٤م.، وبعد العودة من التهجير، ومسرح الطفل فى ازدهار فقُدمت عقب العودة مباشرة مسرحيات : " الحاوى "، " أرض الأحلام" و " بلاد الحب " وذلك من خلال التأليف الجماعى للأطفال أنفسهم عبر ورشة سُميت وقتها ورشة مسرح الطفل بإشراف وتدريب من إبراهيم فهمى ؛ ثم قُدمت بعد ذلك مسرحيات للأطفال من تأليف الكبار، و منها مسرحيات : " لوزة الذكية"، " ثمن الحرب "، " يا ديب .. يا ديب "، " خروف بقرش "، " يُحكى أنَّ "، " كان يا ما كان "، " أراجوز فى المدينة "، " سعاد بنت الصياد "، " عصفور الجنة "، " الجزيرة الشقلوبة "، " وحوى يا وحوى "، " بياع الحواديت "، " قصر الأحلام "، " القرد ملك الغابة "، " رحلة منصور "، " الأصدقاء والكنز "، " رحلة الست أرض "، " رحلة النرجس "، " تعلوب المغلوب "، " قدورة والعرائس "، " الخوف "، " الحلم "، و" الكنز " وغيرها .

ومن المؤلفين لمسرح الطفل : عبده مخلص، أحمد زحام، عاطف عبد الرحمن، عبد الفتاح البيه، محمد خضير، عبد القادر و مصطفى العربى . وممن أخرج للطفل: على أبو الورد، علاء الشوادفى، محمد الدسوقى، حسنى عكرى، إبراهيم فهمى، عبد القادر مرسى، مصطفى العزب، ومحمد نصر الدين . ومنهم أيضاً من أخرج العرض الذى ألفه، ومنهم من أدى أدواراً تمثيلية فيه.

والنتيجة هى ثراء مسرحى باهر بزت به بورسعيد سائر المحافظات المصرية، واحتشاد ملحوظ بكتائب من الفنانين المسرحيين المرموقين الذين أصبحوا محط أنظار كل محب لهذا الفن.

وإنْ أردتَ، عزيزى القارئ، فهذه بعض أسماء لأفراد من هذه الكتائب.

فى مجال التأليف المسرحى:

عباس علام، أحمد أبو النور، سيد طليب، د. أحمد سخسوخ، عبد مخلص، عاطف عبد الرحمن، محمد البحيرى، رجب سليم، محمد صالح الخولانى، على بركات، محمد سعد

بيومى، مصطفى اللبان، صلاح متولى، عادل منسى، أسامة المصرى، محمد عبد القادر، محمد حامد السلامونى، السيد الخميسى، عبد الناصر حجازى، ومحدثك عزيزى القارئ.

فى مجال الإخراج:

نصر الدين الغريب، عباس أحمد، سمير العصفورى، مراد منير، نجيب جبر، محمود الحطاب، رأفت جبر، خضر الطوبجى، إسماعيل الزغبى، محمد شوقى نعمان، السيد عاشور، محمد الشريف، سيد عبد السلام، محمد سالم، عبد الرحمن عوف، سمير زاهر، رشدى إبراهيم، فوزى شنودة، مراد منير، صلاح الدمرداش، أحمد عجيبة، حمدى الوزير، سعيد حامد، عاطف عبد الرحمن، فؤاد صالح، حسين عز الدين، طارق حسن ،خالد توفيق، رابح رخا، حسنى عكرى، محمد حسن، محمد طه حماد ،عبد القادر مرسى، إبراهيم فهمى، محمد يوسف، السيد رضوان، قدرى حفيلة، ناجى أباظة، إبراهيم سكرانة، جمال مهران، سامح فتحى، وزكى فواز.

فى مجال أغانى المسرح:

إبراهيم البانى، محمد عبد القادر، أحمد سليمان، عبد الفتاح البيه، صلاح زكريا، أسامة المصرى، طارق زرمبة، محمد صالح الخولانى.

فى مجال الديكور والإكسسوارات:

تصميم:

مصطفى السيد، عباس الطرابيلى، عاطف زرمبة، د. على بدوى، محمد شوقى سعيد، أحمد العدوى، حسن الداوودى، معتز حمود، محمد غريب، عادل الشاذلى، عبد القادر مرسى، إبراهيم المطيلى .

تنفيذ:

كامل حجازى، رفعت حجازى، محمود المصرى، محمد عدس، سعيد حامد، محمد عبد القادر.

فى مجال الموسيقى:

منير حزين، نصر السمطى، أحمد متولى، فاروق البولاقى، صلاح صديق، أحمد العجمى، عبد العزيز عثمان، رجب الشاذلى، عادل عثمان، محمد جمْعة، إبراهيم الداوودى، الدسوقى الغماز، هشام الداوودى، محمد نصر.

فى مجال الاستعراضات المسرحية:

محمود حسين، محسن يوسف، حسن تاج الدين، أحمد عبده، محمود أبو مسلم، جمال سالم، محمد عشرى، عمرو عجمى، محمد أبو صالح، أشرف شرف، طارق مدبولى.

فى مجال الماكياج:

كامل الكيلانى، السيد العادلى، صلاح غنيم، محمد محيى الدين.

وإذا كانت الفرق المسرحية خارج العاصمة تشكو دائماً من ندرة العناصر النسائية، فإن من علامات الحركة المسرحية فى بورسعيد اغتناءها بهذه العناصر، ومن فنانات المسرح ببورسعيد على سبيل المثال لا الحصر: ملك الجمل، علية عبد المنعم، فاطمة التابعى، علية الجباس، عفاف سحلب، عبير منصور، عبير فاروق، عفاف الرشيدى، وفاء الشطورى، مى أبو عبده، آمال العسكرى، هنادى صابر، حنان خضر، هالة خضر، هالة عبد الرازق، هالة بركات، فاطمة هدية، هناء عز الدين، فاتن عوض، مروة مجدى .

أما الممثلون فهم من الكثرة والاحتشاد بحيث يصعب، ليس فقط حصرهم، وإنما أيضاً تقديم أسماء عدد منهم ولو على سبيل المثال.

ولاحظ عزيزى القارئ أن الفنانين - بمن فيهم الممثلون والفنيون قد تنقلوا - ومازالوا - بين الفرق المختلفة، وأنه لم يعد يميز فرقة عن أخرى أى تمايز.

ولأن المسرح فى بورسعيد كان محط أنظار مصر كلها فقد حرص عدد من نجمات ونجوم الأداء التمثيلى المسرحى على الاشتراك فى العروض التى تُقدم على خشبات المسرح بالمدينة من خلال الفرق المحلية، وليس الفرق المركزية التى حرصت على القدوم إلى المدينة وتقديم عروضها بها، ومنهم على سبيل المثال: زهرة العلا، سناء جميل، ميمى شكيب، وسناء يونس، محمد السبع، توفيق عبد الحميد . ومن فنانى بورسعيد الذين اتخذوا مدارهم فى فلك النجومية بسماء القاهرة حرص على المجىء إلى مدينتهم كل من : ملك الجمل، علية عبد المنعم، محمد سالم ،محمود ياسين، حمدى الوزير، وجمال عبد الناصر.

وكثيرون هم فنانو المسرح الذين انطلقوا من بورسعيد إلى سماء النجومية وأضاءوا فى الفلك القاهرى، منهم على سبيل المثال لا الحصر : عباس علام (تأليف)، محسن سرحان (تمثيل)، أنور محمد (تمثيل)، ملك الجمل (تمثيل)، محمود ياسين (تمثيل)، فاروق يوسف (تمثيل)، محمد عنانى (تمثيل)، علية عبد المنعم (تمثيل)، فاطمة التابعى (تمثيل)، عباس أحمد (إخراج)، سمير العصفورى (إخراج)، جمال عبد الناصر (تمثيل)، سيد طليب (تأليف وإخراج)، محمد سالم (تمثيل وإخراج)، سيد الملاح (تمثيل وغناء مونولوجى)، مراد منير (إخراج)، يوسف معاطى (تأليف)، علية الجباس (تمثيل)، حمدى الوزير (تمثيل)، د. أحمد سخسوخ (تأليف وتعليم من خلال عمادته لأكاديمية الفنون المسرحية). ومن الذين أثبتوا تواجدهم فى سماء القاهرة : عادل برهام (تمثيل)، عبده الوزير (تمثيل)، حسن

الوزير (إخراج)، محمد الحديدى (تمثيل)، ناصر شاهين (تمثيل)، ماجدة منير (تمثيل)، عبد الرحيم حسن (تمثيل)، أيمن بشاى (تمثيل) نشأت خضير(تمثيل)، محمد ولاء الدين (تمثيل)، عادل اللبان (تمثيل)، محمد حامد السلاموني (تأليف)، ومحدثك عزيزى القارئ (تأليف).

ومن هؤلاء، كما هو معروف، من امتد نشاطه إلى السينما والتليفزيون مثل: محسن سرحان، ملك الجمل محمود ياسين، فاروق يوسف، علية عبد المنعم، فاطمة التابعى، سيد الملاح، جمال عبد الناصر، عادل برهام، يوسف معاطى، علية الجباس، حمدى الوزير، محمد الحديدى، عادل اللبان، ناصر شاهين، وغيرهم.

وأشرقت على الشاشات المصرية كبيرة كانت هذه الشاشات (سينما) أم صغيرة (تليفزيون)، دونما مرور على المسرح القاهرى أو مكوث طويل به، وجوه بورسعيدية غير قليلة، منها على سبيل المثال وجوه : عبد العزيز محمود (تمثيل وغناء وتلحين)، نادية حمزة (إخراج سينمائى)، يحى العلمى (إخراج تليفزيونى وسينمائى)، ناهد يسرى (تمثيل سينمائى وتليفزيونى)، سامية شكرى (تأليف وتمثيل تليفزيونى وسينمائى)، حسام الدين مصطفى (إخراج سينمائى وتليفزيونى)، نعمت مختار (رقص وتمثيل)، سهير رمزى (تمثيل سينمائى)، أحمد البيه (تأليف وسيناريو سينمائى)، رضا الوكيل (تأليف وسيناريو تليفزيونى).

غير أن الحقيقة تقتضى الاعتراف بأن هذا الازدهار قد اعترته تغيرات كثيرة، ووُضعت أمامه معطلات أكثر . صحيح أنه للآن لم تظهر أعراض الذبول الكامل على ما ببستان الفنون الدرامية من أزهار، لكن احتمالات ظهورها قائمة وتُرهص بذبول وشيك. ومن العوامل المؤدية إلى هذه الاحتمالات ما يعود إلى:

* الممارسات الإدارية المركزية والمحلية.
* التبدلات التى اعترت المجتمع البورسعيدى.
* تطور الميديا متعددة الوسائط.
* المسرحيين البورسعيديين أنفسهم.

فيما يتعلق بالممارسات الإدارية المركزية والمحلية، نجد أن هذه المعطلات قد نالت من وظائف المديرين المعروفة، من تخطيط وتنظيم وتوجيه وتنسيق ورقابة، مثلما نالت من وظائف المؤسسة المسرحية ذاتها كالتمويل والإنتاج والتسويق، حتى أضحى عرض مسرحية ما على الجمهور العام مشكلة رئيسة تحتوى على العديد من المشكلات التفصيلية المتشابكة المرهقة . وبسبب من هذه الممارسات ساءت أحوال خشبات المسرح، والمتاح من

هذه الخشبات دخل فى دائرة الندرة التى تكاد تشبه فى الحجم سم الإبرة، وتدهورت أحوال الفرق المسرحية تدهوراً كبيراً .

وأسهم فى هذا التدهور الحالة المريعة التى أصبح عليها المسرح المدرسى فى المدينة فبعد أن كان هو باذر حَب المسرح فى التربة البورسعيدية، ومن خلاله نما أبناء جيلنا والجيل السابق علينا، أصبح منذ السبعينات من القرن الفائت ساحة جدباء، والأسباب كثيرة منها السياسى، لكن أغلبها يعود إلى قصور فى الإدارة التربوية ونقص مهارات موجهى المسرح المدرسى، أو يعود إلى أولياء الأمور . صحيح أنه بُذلت بعض محاولات لإقالته من عثرته، على النحو الذى ذكرته لكَ آنفاً، إلا أن التعثر كان سمة مصاحبة لأغلب نتائج هذه المحاولات، فكيف لمتعثر أن يقيل متعثراً .

لقد قصر موجهو المسرح المدرسى فى أغلب المدارس اهتمامهم على الأداء وحده، واختزل هذا الأداء فى جهارة الصوت والتلوين النغمى – أحياناً – مع تحريك الذراعين برفعهما أو خفضهما أو التشويح بهما فى وجوه المشاهدين، أما المسرح من حيث هو رسالة جمالية وذهنية، وما ينطوى عليه هذا من عناصر هى عماد العمل المسرحى، فلا شأن للمسرح المدرسى بها ؛ وأحياناً ما يُوظف المسرح لخدمة المناهج التعليمية فيما يعرف بمسرحة المناهج، لكنها مسرحة قاصرة تتميز بالجفاف وانتفاء كثير من عناصر المسرح عن عروضها .

ومما ازاد من المخاطر التى تعرضت لها الحركة المسرحية فى المدينة الارتباكات التى يعانى منها الآن مسرح الهيئة العامة لقصور الثقافة، ذلك المسرح الذى تحمل وحده عبء النهوض بالمسرح المصرى برمته، والمسرح ببورسعيد على وجه الخصوص، لاسيما فى أوقات الانهيار السبعينى وما تلاها . وما كان له أن ينهض بهذا العبء لولا أنه تبنى القيم الروحية والوطنية والإنسانية الأصيلة، وعمل على مد جذوره لدى الطبقات الشعبية، وقدم النصوص المصرية والعربية والعالمية الجيدة لأنه كان منفتحاً على التجارب المسرحية المحلية والعربية باعتبارها تجارب فنية وإنسانية . وكان مسرحاً يعتنى بالهواة وينمى مواهبهم، لكن عيوباً كثيرة طرأت عليه فأعاقت أداءه ؛ منها أنه لم يعمل على إقامة خشبات مسرحية جديدة بالمحافظة، ولم يعتن الاعتناء الكاف بالتدريب المسرحى، ولم يشجع التأليف له، ولم يبتكر أشكالاً مكتملة للتنسيق بينه وبين مسرح الشركات والمسرح الجامعى والمسرح المدرسى والجهات الأخرى التى تنتج عروضاً مسرحية أو لديها استعداد لتكوين فرق وتقديم عروض مسرحية . أضف إلى هذا ضعف التحضير المادى والمعنوى وضعف التسويق وبيروقراطية الإدارة، وفوبيا الأمن والسلامة التى أصابت المسرحيين بعد فاجعة

مسرح بنى سويف.

وكثيرة هى التبدلات التى طرأت على المجتمع البورسعيدى لا سيما بعد تحويل المدينة إلى قاعدة لفوضى ما يسمى بالاقتصاد الحر . فى البداية خشى المثقفون أن تطغى معايير الكسب المادى على قاطنى المدينة فينصرفون إلى شئونها ويضربون كشحاً عن الزاد الثقافى، فاجتهدوا وناضلوا - دونما مبالغة - من أجل درء هذا الحظر ؛ وكانت النتيجة أنه إلى جانب ثقافات أثرياء الطفرة التى اتسمت بالضحالة والتشوش والكومبرادورية وتسييد كل ما يحض على الاستهلاك ويؤكد التمايز الطبقى ... إلخ، تواجدت - بقوة - الثقافة الوطنية المستنيرة المنحازة إلى الطبقات الشعبية المنتجة، الداحضة لدعاوى التبعية والمناهضة للاتجاهات المرتدة، المواجهة لثقافات التجهيل وتكفير المجتمع، الموثقة لوحدة عنصريه . وكان المسرح سلاح من أسلحة استخدمها المثقفون الوطنيون فى نضالهم هذا . لكن لم يدم الأمر لأكثر من عقدين ونصف العقد، لنقل لربع قرن من الزمان، ثم ما لبثت النكسات أن توالت لصالح ثقافة الارتداد والانسلاخ بدعم من السياسات العامة والسياسات الإدارية وتوحش الأثرياء الجدد. وكلاهما المنسلخ من أثرياء الطفرة والمرتد إلى الوراء أثخن الثقافة والمثقفين طعناً، وكلاهما أطبق أصابع كفيه على رقبة المسرح فى بورسعيد، حتى كادا أن يزهقا روحه، لولا أنه ما يزال يقاوم مدفوعاً فقط بالرغبة فى أن يستمر حياً . لكن ما هو شكل هذه الحياة التى يرومها والهواء اللازم له قد ضاقت مداخله؟ .. أقولها لك بصدق، لا أحد يعرف .. لا من الجمهور العام .. ولا من أهل المسرح ذاته.

ومن الصور الخانقة للمسرح أن الكثرة الكاثرة من أثرياء الطفرة يحجمون عن تمويل عروضه ولو بشراء تذاكر العرض أو حتى بالتبرع لإصلاح صالاته وخشباته أو تجهيزاته أو توصيلاته الكهربائية، ناهيك عن تحديث هذه الصالات والخشبات . ومن يُقدم منهم على رعاية عرض – وهذا نادر – يخنق فنيي وفنانى هذا العرض بما يفرضه عليهم من شروط ؛ أما من اختاروا الاتجاه الارتدادى وتوشحوا بالدين فقد نظروا إلى المسرح نظرة سوء - عن قصد أو بسلامة نية - ورأوا فيه أداة فسق وفجور ومكاناً للاختلاط، حتى إن بعضهم أقدم عام ١٩٨٩م. على إحراق خشبة مسرح قصر الثقافة بسكب صفيحة كيروسين عليها وإضرام النار فيها .

أما أساليب الميديا الجديدة المرتكزة على طفرات هائلة من التقدم التكنولوجى فقد قدمت للمواطن البورسعيدى - شأنه شأن المواطن المصرى مواطنى كل دول العالم - صوراً للتثقيف والتسلية متعددة الأوجه، مبهرة الشكل، وهى بكل أسف تكرس أشكال التلقى

الانفرادى، وتؤكد العزلة، وتُبقى المواطن فى البيت أو فى المكتب ليتلقى حاجاته دونما التقاء أو اتصال بالآخرين، فإن خرج وركب وسيلة مواصلات أو حتى تمشى فى الشارع فهو معزول أيضاً عن الآخرين، يتلقى ثقافته وحده عبر تكنولوجيا أجهزته الإلكترونية أو غير الإلكترونية، السمعية والبصرية والسمع بصرية ؛ وإن لم تكن هذه الأجهزة مملوكة له فهى موزعة على الفتارين والحوائط وقريبة من أسقف وسائل النقل والمواصلات العامة ومثبتة فوق أو داخل تابلوهات كبائن قيادة المركبات الخاصة بأنواعها . والأثر المباشر لشيوع الثقافات التى تبثها هذه الأجهزة هو ضعف ارتياد الجمهور لمسارح ودور العرض السينمائى، من هنا نال المسرح فى بورسعيد ما ناله فى سائر المدن المصرية من خلو الصالات إلا فيما ندر، ومن ثم ضعف التأثير ؛ واعتقد أن الإدارة المسرحية ـ مركزية ومحلية ـ قد أسهمت بنصيب وافر فى صرف الجمهور عن العروض بعدم الاعتناء بالدعاية والإعلان، وعدم اهتمامها بنشر الثقافة المسرحية بين عموم المواطنين، وضبابية السياسات التى يُفترض أنها إنما تعمل على تطبيقها .

ولا أبرئ فنانى المسرح من البورسعيديين من المسئولية عن الأوضاع المتردية التى أصبح عليها حال المسرح ببورسعيد، فهم ضالعون فى القضاء على سمعة ومكانة المسرح فى مدينتهم بانصرافهم عن تثقيف أنفسهم بالثقافة المسرحية الواسعة، وإغلاقهم لورش المسرح التى كانت تشغى بالحركة، وعدم اهتمامهم بالمنجز المسرحى الحديث، ورنوهم الدائم إلى المركز، وخلودهم إلى النمطية، وتعليق كل المشكلات التى تعانى منها الحركة المسرحية على مشجب الإدارة والدولة والظرف العام، بالإضافة إلى السلوكيات غير السوية التى سمحوا بشيوعها فى مجتمعهم فلا انضباط ولا التزام بقواعد الإدارة المسرحية الرشيدة، والركون إلى وهم التفوق حتى شاع لدى كثيرين منهم أنهم الأفضل والأرقى وما هم كذلك، وكثيرون صرفوا جهودهم إلى إزاحة الآخرين للاستئثار بمساحات الضوء كلها، وصاحب هذا شيوع مثالب الذم والنميمة إلى آخر هذه السلوكيات الأخلاقية التى هى أفتك مرض يهدد الحركة المسرحية فى المدينة، ومع هذا ما يزال المسرح فى المدينة يتنفس تنفس المتحشرج.

غير أن أكبر العقبات التى يعانى منها المسرح ببورسعيد هو تعطيل خشبة المسرح بقصر الثقافة لاعتبارات الأمن والسلامة، وعدم وجود خشبات بديلة سوى منصة للعروض الصيفية أقيمت دخل سور هذا القصر وتنقصها إمكانات وأجهزة كثيرة.

الفصل الثانى

بيوتٌ يُذكر فيها اسم الله



(١)
مساجد المسلمين الجامعة

فى الوقت الذى اهتمت فيه شركة قناة السويس بالجانب الدينى والشعائرى للأوربيين الكاثوليك العاملين بها، فأنشأت لهم كنيسة دُشنت للصلاة منذ بدء العمل فى شق مجرى القناة، فإنها لم تول المسلمين ذات الاهتمام، وهم الأكثر عدداً وما يقومون به هو الأهم. ولمَّا كانت ممارستهم الشعائر الدينية وعمودها الصلاة ضرورة فرضتها طبيعة الأعمال الشاقة، التى اضطروا إليها اضطراراً، فقد ظلوا يمارسون شعائر الصلاة الإسلامية فى العراء أو داخل الخيام والعشش أو تحت المظلات البائسة التى كانوا يقيمونها لهذا الغرض لمدة اقتربت من السنة.

من المساجد القديمة:

أول مسجد بالمدينة:

لم يبن أى مسجد للمسلمين فى قرية العرب قبل سنة ١٨٦٠م. تاريخ إقامة أول مسجد بالمدينة، وكان موقعه عند التقاء شارعى أحمد ماهر (الحميدى) والمقدس الحاليين. وأقامت الحكومة بيتاً فوق هذا المسجد الذى كان مبنياً من الخشب بعد استلامها إياه من الشركة سنة ١٨٦٥م، وخصصته للقاضى الشرعى الذى عينته للمدينة، وقد تحول هذا البيت فيما

بعد إلى مقر للمحكمة الشرعية.

ولأن هذا المسجد كان صغيراً وضيقاً، ومع تزايد سكان قرية العرب من المسلمين، فقد وافق الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٩م (سنة افتتاح القناة) على إنشاء مسجد آخر تتحمل نفقته الحكومة المصرية، إلا أن ندرة مواد البناء أجلت إنشاءه .

المسجد التوفيقى:

عند زيارة الخديو توفيق لبورسعيد سنة ١٨٨١م أصدر أوامره بسرعة إنشاء مسجد جديد تلحق به مدرسة لتعليم الأطفال فى قرية العرب، وتم الاحتفال بوضع حجر الأساس فى السابع من ديسمبر ١٨٨٢م ، وافتتح رسمياً للصلاة فيه فى مايو ١٨٨٥م ، وعلى الرغم من أن مئذنته لم تكن سامقة الارتفاع، ولم يكن بها سوى طابق واحد، وارتفاعها لم يتجاوز الخمسة وعشرين متراً، فإنه - من وجهة نظرى على الأقل - كان تحفة معمارية إسلامية تتسم بالأصالة والرشاقة والبساطة . ويضاف إلى الإبداع الهندسى أنه كان لسكان القرية بمثابة مجمع خدمى عظيم الأهمية، فقد ضم نحو ستة عشر محلاً ومدرسة . وفى هذه المدرسة بدأ عبد الرحمن شكرى رائد المدرسة الديوانية تعليمه الأساسى . ومن المحال - على عهدى - محل عم محمود لبيع وتركيب مستلزمات التوصيلات الكهربائية المنزلية، ومحل لبيع مستلزمات دفن الموتى، وكذا جمعية دفن الموتى التى كان يرأسها رجل المجتمع مصطفى البنا . والمربع الذى أقيم عليه المسجد وملحقاته يطل على شارعين رئيسيين هما شارع أوجينى من الشمال وشارع سعد زغلول(الثلاثينى) من الجنوب .

ومن التحولات التى شهدها مقر المدرسة أنه أصبح مقراً للاتحاد الاشتراكى العربى فى إحدى الفترات ثم آل إلى حزب العمل الاشتراكى . وكانت الميضأة أسفل المسجد الذى كان يُصعد إليه بعد ارتقاء سلم مكون من عدة درجات . وسمى هذا المسجد بالجامع التوفيقى، وأول إمام تم تعيينه لهذا الجامع هو الشيخ عبد الرحمن أبو الحسن .

وظل هو الجامع الرسمى للمدينة إلى أن تم بناء المسجد العباسى . وقد هُدم هذا المسجد الجامع على الرغم من كونه أثراً إسلامياً تاريخياً بالغ الأهمية، وأعيد بناؤه بتصميم مغاير وطراز مختلف وروعى فيه أن يكون صرحاً شامخاً شاهق الارتفاع له مئذنة سامقة وأربع قباب صغيرة تتوسطها قبة ضخمة وله مدخلان أحدهما جنوبى يطل على شارع سعد زغلول والآخر شمالى يطل على شارع صفية زغلول (أوچينى) . وتمت إعادة البناء بمساهمات المواطنين وصندوق الخدمات والتنمية المحلية بالمحافظة، تحت إشراف جمعية نور الإسلام للخدمات التى تأسست لإدارة شئونه فى ٢٦ من رجب ١٤٠٠ هـ، الموافق ٢٦ من مايو ١٩٨٠م .

وساحة الصلاة الرئيسة فى الطابق الأول، ويُصعد إليها بارتقاء سبعه عشرة درجة من كل مدخل، تسع درجات تليها بسطة عريضة تليها ثمان درجات ثم بسطة عريضة تنتهى بعتبة المدخل . وافتتح الجامع للصلاة بعد إعادة البناء فى ١٦من ربيع الأول سنة ١٤٢٢ هـ. الموافق ٨ من يونيو ٢٠٠١ م ، وحضر الافتتاح الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف، د . نصر الدين فريد واصل مفتى الجمهورية، ومصطفى كامل محمد محافظ بورسعيد .

المسجد العباسى :

أنشئ المسجد العباسى فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى، فى موقع يطل على شارع المحروسة الذى يمثل امتداداً لشارعى محمد على (الشهداء) ويقع حالياً فى دائرة حى العرب، واحتفل بافتتاحه والصلاة فيه سنة ١٩٠٥م ـ ١٣٢٢ هـ ، وأول إمام تم تعيينه لهذا الجامع هو الشيخ عبد الفتاح الجمل. وكانت نقوش سقفه المصنوع من الخشب السميك ذات الطابع الإسلامى من أهم ما يلفت الانتباه فى هذا المسجد، غير أنه تم انتزاع هذا السقف الخشبى المنقوش عند ترميمه عام ٢٠٠٠م واستبدل بآخر خشبى أيضاً لكن غابت عن السقف الجديد النقوش القديمة. وعلى الرغم من أنه تمت توسعة هذا المسجد الجامع، فإن اتجاهاً إدارياً يسود هذه الأيام يرى أن هدمه وبناء مسجد آخر بدلاً منه ضرورة دونما اعتداد بالآراء التى تؤكد على أثريته،لاسيما أنه قد مضى على إنشائه أكثر من مائة عام وطرازه البنائى غير متكرر، لكنهم لم يعتدوا بهاتين الحجتين وغيرهما، مثلما لم يعتدوا بمثيلاتهما عندما هدموا الجامع التوفيقى . والأدهى أن جهات رسمية استخرجت التصديقات اللازمة للهدم وإعادة البناء باعتبار أن ما تقرر هدمه ليس أثراً، ويحضرنى هنا أن الجامع العباسى بالمنصورة، وقد بنى فى نفس العهد الذى بنى فيه المسجد العباسى ببورسعيد، عُد أثراً واعتمد المجلس الأعلى للآثار ترميمه لتمتعه بهذه الصفة، الأمر الذى يستدعى التساؤل.

مسجد صالح سليم:

لم يكن اسمه من قبل مسجد صالح سليم، وإنما كان اسمه جامع فؤاد الأول. أسسه صالح سليم، أحد أثرياء فترة ما بين الحربين العالميتين، فى ٥ من فبراير ١٩٤٦م الموافق ٣ من ربيع الأول ١٣٦٥هـ، وأنعم عليه الملك فاروق برتبة الباشوية بعد إقامته هذا المسجد، وبعد الثورة أصبح المسجد يعرف باسم مؤسسه، وكان موقع هذا المسجد هو آخر المدينة من ناحية الغرب، وآخر شارع سعد زغلول وآخر حى المناخ فى وقت بنائه، غير أن العمران تجاوزه وامتد الشارع ليصبح موقع هذا المسجد الجامع عند نقطة من نقاط التقاء شارع

سعد زغلول بالشوارع المتعامدة على البحر، وهى نقطة التقائه بشارع ستالنجراد (فولجوجراد حالياً).

مسجد النشار:

وهو مسجد صغير نسبياً ومقام فى المنطقة التى تحمل ذات الاسم بالقرب من الساحة الشعبية بحى المناخ، وأقامه مقاول شهير من مقاولى الميناء ، اسمه على النشار وأنعم عليه الملك فاروق برتبة البكوية مكافأة له، والمسجد بدون قبة ومئذنته متوسطة الارتفاع ولها شرفة واحدة، وقد تمت توسعة المساحة المخصصة للصلاة أكثر من مرة .

مسجد علوان:

بانيه مقاول أيضاً، لكنه متخصص فى رصف الطرق، وقد احتفل بافتتاح هذا الجامع فى يونيو ١٩٤٨م. وتحيط به عدة محال، أوقف ريعها للصرف على المسجد . وتمثل هذه المحال مشكلة كأداء لجهة الإدارة، وقد خطط لنقلها أكثر من مرة ولم يتم التنفيذ . والمسجد بدون قبة وإن كان بالسقف ارتفاع به نوافذ لإدخال الضوء والمئذنة متوسطة الارتفاع، ويشغل المسجد وأوقافه مربعاً كاملاً داخل حى العرب ويطل على شارع الأزهر من ناحية الشرق وعلى شارع البلدية(الشهيد عمرو محمد شاهين) من ناحية الشمال، وعلى شارع المقدس من ناحية الغرب، وعلى شارع النيل من ناحية الجنوب.

مسجد إمام:

ويقع فى أقصى حى العرب من ناحية الغرب عند حدوده الإدارية مع حى المناخ ويطل من الغرب على شارع المنيا ومن الشمال على شارع روس (الأنصار) وهو مسجد متوسط الحجم . افتتح للصلاة فى سنة ١٣٩٧ هـ - سنة ١٩٤٨م، وبانيه هو مصطفى إمام محمد الدمياطى ومثله مثل مسجد علوان بدون قبة ومئذنته متوسطة الارتفاع .

مسجد عبد الرحمن لطفى:

بناه عبد الرحمن لطفى باشا فى المنطقة المعروفة بمنطقة الفيلات بحى الإفرنج (حى الشرق) فى مكان يطل على شارع كتشنر (٢٣ يوليو حالياً) على مقربة من الكنيسة اللاتينية، واحتفل بافتتاحه للصلاة سنة ١٣٧٣ هـ ، - ١٩٥٤م. وقد بلغ من روعة التصميم وحسن البناء حداً دفع شركات للسياحة إلى إدراج هذا المسجد الجامع فى برامجها لزوار المدينة من السياح الأجانب القادمين عبر الميناء كمزار سياحى باعتباره واحداً من أهم الطرز المعمارية الإسلامية الموجودة بالمدينة على الرغم من حداثة نشأته آنذاك .

مسجد الرحمة:

عند تأسيسه وحتى قيام الثورة كان اسمه مسجد فاروق الأول ثم أصبح بعد قيامه

جامع الرحمة. وضع الملك فاروق حجر أساسه فى يوم الخميس ١٤ من ربيع الأول ١٣٦٣هـ، الموافق ٩ من مارس ١٩٤٤م، وافتتح للصلاة يوم الجمعة الخامس من يناير ١٩٥٢م،، وحضر حفل الافتتاح وزير الأوقاف إسماعيل رمزى باشا نائباً عن الملك وكذا على زكى العرابى باشا رئيس مجلس الشيوخ . تطل واجهته الجنوبية على شارع صفية زغلول والشرقية على شارع جمال عبد الناصر بدائرة حى الشرق (الإفرنج). وحسب ضياء الدين القاضى فقد صمم هذا المسجد الذى كانت مئذنته أول مئذنة ترفع فى حى الإفرنج المعمارى أوجست سوفيراين August Souverain، وساهم فى مصاريف إنشائه وعمارته أعيان ذلك العصر، منهم : صالح سليم باشا، محمد على سودان باشا، وعلى دحروج بك . وقد أضيفت إليه فى سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م توسعة من الناحية الغربية، تولى الإنفاق عليها الحاج سيد سيد صبح . وأعيد تجديد الجامع وإعماره واستقبل المصلين من جديد اعتباراً من يوم الاثنين ٢٠ من رمضان سنة ١٤٢٣هـ الموافق ٢٥ من نوفمبر سنة ٢٠٠٢م. ويجرى فى الوقت الحالى الإعداد لتوسعته توسعة جديدة وإنشاء مدرسة لتحفيظ القرآن تلحق به، مع توسيع مصلى السيدات، وكذا الميضأة وفصلها عن جسم الجامع، ووضع تصميم هذه التوسعة المعمارى حامد إبراهيم البنا ويتم حالياً جمع التبرعات من المواطنين من أجل تنفيذ هذه التوسعة التى بدأت أعمالها الإنشائية بالفعل من الناحية الشمالية .

مسجد المغربى:

بناه التاجر المعروف محمد محمد المغربى باشا المشهور بالدمياطى فى ميدان السكك الحديدية . وحسب اللوحة التذكارية التى تتصدر واجهة المسجد فإن تأسيسه كان سنة ١٩٥٤ م ١٣٧٣ هـ وقامت بإنشائه وزارة الأوقاف بفضل محمد محمد المغربى الدمياطى. وقبة المسجد هرمية الشكل ومئذنته مربعة ومتوسطة الارتفاع . ويؤخذ على الإدارة المحلية عدم اعتنائها بالمجال البيئى الذى كان يحيط بهذا المسجد ويبرز من جماله فالمساحات الفضاء التى كانت تحيط به زحفت عليها واحتلتها من جانبيه الكتل الخرسانية قميئة المنظر وظلت فى نمو إلى أن التصقت به التصاقاً قلل كثيراً من روعة بنائه، وإن قدمت خدمات للجمهور العام من خلال المنظمات التى تشغل هذه الكتل كجمعية التنمية الاجتماعية الملحق بها عيادة ومستشفى من ناحية الشرق والجراج متعدد الطوابق من جهة الغرب.

ومن المساجد الحديثة:

مسجد الإيمان الكبير:

يطل على شارع الأمين (محمد سرحان) مئذنته متوسطة الارتفاع، وله قبتان مضلعتان إحداهما أكبر من الأخرى وسقفاهما هرميان . افتتحه الشيخ عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر، عقب عودة أهالي المدينة من التهجير القسرى الذى فرض عليهم بعد نكسة ١٩٦٧م، وبالتحديد عام ١٩٦٩م. واستمر إلى ما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وبالتحديد عام ١٩٧٤م. وقد ألحقت به دار للمناسبات أقامها أحد تجار المدينة سنة ٢٠٠٢م.

مسجد غندر:

هو مسجد قديم نسبياً ويحمل اسم بانيه، ومكانه الناصية الشمالية لتقاطع شارعى الشهيد محمد أحمد الجيار (عبادى سابقاً) والإسكندرية بدائرة حى العرب . مدخله بواجهته الجنوبية المطلة على شارع الشهيد الجيار، وهو مسجد متوسط المساحة والارتفاع، وكذلك مئذنته، ولا قبة له، وتم تجديده سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

مسجد السلام:

فى أقصى مكان شمال شرقى قارة إفريقيا أقيم هذا المسجد الجامع الذى تأسس فى ٢٤ رجب ١٤٠١هـ الموافق ٢٨ مايو ١٩٨١م. بناؤه ضخم شاهق، واجهته الشمالية هى مدخله الرئيس، وهذه الواجهة تطل على كورنيش البحر (شارع الشهيد عاطف السادات) وآخر شارع الجمهورية . وله فى هذه الواجهة ثلاثة أبواب، يُصعد إليها عبر دَرَج يضم إحدى وعشرين درجة، وبالواجهة الجنوبية باب واحد يُصعد إليه من الميضأة الموجودة أسفل المسجد، ولمصلى السيدات باب فى الواجهة الغربية يُفضى إليه سلم مكون من إحدى وعشرين درجة، وأسفل هذا المصلى دورة مياه لهن . وتعلو المسجد خمس قباب، أربع منها صغيرة موزعة على الأطراف، والخامسة ضخمة عالية تتوسطها جميعاً. وللجامع مئذنتان سامقتان منفصلتان عن جسم المسجد، وكان من المخطط أن يكونا أعلى مما هما عليه الآن على أن ينقل الفنار إليهما، إلا أن وزارة الطيران المدنى اعترضت وطلبت خفض ارتفاعهما فامتثلت الإدارة المحلية وضربت كشحاً عن هذه الفكرة. وملحق بالمسجد مكتبة إسلامية وقاعة لعقد الزيجات ومركز لجراحة العيون تم تطويرها فى ١٥ من أغسطس ٢٠٠٠م وأنشئت فى الطرف الجنوبى الغربى من حديقته دار للمناسبات .

مسجد الإمام الحسين:

ويطلق عليه المشهد الحسينى ويقع بالمنطقة السابعة من المساكن الشعبية التى بنيت عقب حرب ١٩٥٦م. بدائرة حى المناخ، وتطل واجهته الجنوبية على شارع دمشق الذى هو

امتداد لشارع كسرى باتجاه الغرب ، وقد أعيد بناؤه وتوسعته وافتتح للصلاة فيه يوم الجمعة ٢٨من ربيع الأول ١٤٠٥هـ، الموافق ٢١من ديسمبر ١٩٨٤م، بحضور وزير الدولة للأوقاف د. الأحمدى أبو النور ومحافظ المدينة اللواء عبد الرحمن الفرماوى.

مسجد الوليد:

بناه رجل الأعمال عبد الوهاب قوطة، وقت أن كان نائباً بمجلس الشعب، بدائرة حى المناخ. والمسجد شاهق الارتفاع يُصعد للصلاة فيه عبر سلم مكون من أربع وعشرين درجة . له ثلاثة مداخل، الرئيسى منها بالواجهة الجنوبية التى تطل على شارع السواحل، والمدخلان الآخران بالواجهة الشمالية التى تطل على حارة الورشة، وملحق بالواجهة الغربية التى تطل على شارع مظلوم عيادة الشيماء الطبية، أما الواجهة الشرقية المطلة على شارع بنى سويف فملحق بها دار الشيماء للمناسبات . والمسجد بدون مئذنة وله قبة ضخمة تكاد تغطى سقف المسجد بأكمله إلا من الزوايا الأربع التى تشغلها أربع قباب صغيرة، والمسجد كثير الزخرفة والنقوش البارزة. ويعود تاريخ تأسيسه إلى سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

مسجد الصالح:

أنشئ هذا المسجد بأموال المرحوم الحاج مساعد الصالح القناعى . وهو جامع شاهق البناء يُصعد إليه عبر واحد وعشرين درجة، وله مئذنة سامقة، وملحق به عيادة طبية ودار للمناسبات، وتطل واجهته الغربية على شارع الأمين (محمد سرحان) ويقع فى دائرة حى المناخ. وقد افتتح للصلاة فى الثانى من جمادى الأولى ١٤٠٨هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر ١٩٨٧م بحضور وزير الأوقاف د. محمد على محجوب ومحافظ المدينة محمد سامى خضير.

مسجد قباء:

هو مسجد متفرد فى بنائه، سقفه متدرج، أينما نظرتَ إليه شاهدتَ هذا التدرج . لا يشبه الهرم، ولا يشبه الدَرَج المعتاد .. تركيبة فنية ذات طابع خاص لمجموعة من المكعبات التى تشكل فى تراكبها مشهداً فنياً لا يوجد له مثيل بالمدينة.. وتتضافر فى تكوين هذه التركيبة الفريدة مجموعة من القباب الخضراء التى يتميز بها هذا المسجد عن سواه .. واحدة خضراء كبيرة، مكتملة، فوق أعلى مكعب بنائى، وأربع - خضراء أيضاً - موزعة على الأركان الأربعة، وهذه القباب الأربع غير مكتملة، ولا تعدو أن تكون مجرد مقاطع رأسية، وإن بدت بسبب طريقة بنائها فى غاية الاكتمال. والمئذنة غير تقليدية إذ شُيدت على هيئة

محراب عملاق تجويفه باتجاه القبلة. ويتآلف اللونان الأبيض الذى طُليت به جدران المسجد المتدرجة والأخضر الذى طُليت به القباب والجزء العلوى من المئذنة غير التقليدية ألفة لا ينساها من ينظر إلى المسجد من أى زاوية يريد. وهذا المسجد قائم فى قلب منطقة عثمان بن عفان بدائرة حى الزهور، وواجهته الرئيسية تطل على شارع يحمل اسم المسجد.

مسجد البغدادى:

مُقام غربى منطقة الـ٥٠٠٠ وحدة سكنية وتطل واجهته الشرقية على شارع محمد رياض، وبهذه الواجهة توجد مئذنة المسجد . وهى منفصلة عن جسمه، وسامقة. والمدخل الرئيس فى الواجهة الشمالية، ويجمع بين اللونين الأبيض والأخضر.

مسجد التوكيلات الملاحية:

أنشأته شركة القناة للتوكيلات الملاحية وهى شركة من شركات قطاع الأعمال العام عند تقاطع شارعى طنطا ومحمود صدقى بدائرة حى الشرق فى مكان ملاصق للنادى الاجتماعى الرياضى الذى أنشأته للعاملين فيها. وهو مسجد متوسط الحجم، بسيط البناء، مئذنته متوسطة الارتفاع، وقبته ثمانية الأضلاع أسقفها مائلة عليها وتأسس سنة ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

مسجد عزيزة عصفور:

سمى على اسم محامية مشهورة أنفقت على بنائه فى دائرة حى الضواحى، وهو مسجد بسيط جدرانه الخارجية بُنية اللون وقبته مضلعة مائلة الأسقف، ومئذنته متوسطة الارتفاع ولها شرفتان، وبه مساحة فضاء أمام مدخله ويحيط بالمسجد وهذه المساحة الفضاء سور . وتأسس المسجد سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

مسجد السمحاء:

أسسه الحاج حسين إبراهيم السقا وحرمه الحاجة سميحة بمنطقة العاشر من رمضان بدائرة حى المناخ . وبناؤه بسيط، به مئذنة رشيقة وقبة هرمية الشكل صغيرة، وقد افتتح للصلاة يوم الجمعة ٣٨ من شعبان ١٤١١هـ الموافق ١٥ من مارس ١٩٩١م.

مسجد التوحيد:

أنشئ هذا المسجد بأموال سليمان حمد الحشان، وبمباشرة من بيت الزكاة الكويتى والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية ـ وبإشراف ومتابعة إداريين من وزارة الأوقاف المصرية ـ فى مكان كان يلامس مياه البحيرة إلا أنه ردم وأقيمت فوقه عمارات سكنية . تطل واجهة المسجد الشمالية على شارع الناصر ومنطقة ٦ أكتوبر بدائرة حى المناخ . وقد حل هذا المسجد محل زاوية بسيطة للغاية كانت مقامة فى ذات المكان وتحمل ذات الاسم، وبعد

ردم الجزء الذى كانت تشرف عليه هذه الزاوية من البحيرة، أراد الأهالى التوسعة، إلا أن خلافات كبيرة نشبت بينهم وبين جهة الإدارة التى كانت تريد تخصيص الأرض لأغراض أخرى . والبناء يتسم بالبساطة والخلو من الزخارف والنقوش، قبته مربعة سقفها هرمى، ومئذنته منفصلة عن جسم المسجد وتواجه مدخله الشمالى، قاعدتها مثمنة إلا أنها تأخذ شكلاً مربعاً ابتداءً من سطح المسجد المتصل بها، ولها شرفتان إحداهما رمزية.

مسجد الحرمين:

يتواجد هذا المسجد بنهاية شارع عمر المختار بدائرة حى الزهور وهو مسجد واسع ومسور، مئذنته منفصلة، وبدلاً من القبة المستديرة يوجد بسقف المسجد ارتفاع مضلع، ويتميز هذا المسجد بلونيه الأبيض والأخضر، وتم إنشاؤه فى رمضان ١٤١٢هـ ـ مارس ١٩٩٢م.

مسجد الحسن:

بناه الشيخ حسن أحمد بادريق، سعودى الجنسية، بمنطقة الـ ٥٠٠٠ وحدة بدائرة حى الزهور. بناؤه بسيط ويتميز بتعدد أبوابه وبالأسماء التى أطلقت عليها وهى : باب الحسن، باب محمود، باب على، وباب أسماء ويُصعد منه إلى مصلى السيدات. قبته صغيرة ومئذنته منفصلة عن جسم المسجد وتقع إلى يمين الداخل إليه وبينها وبين المدخل مسافة. وافتتح للصلاة فى ١٤من جمادى الأولى ١٤١٢هـ. الموافق ٢١ من نوفمبر ١٩٩٢م.

مسجد مريم القطرية:

أسسته السيدة مريم يوسف دحيم. بناؤه بسيط، قبته متوسطة الارتفاع ومئذنته رشيقة. يطل على شارعى سعد زغلول والأمين (محمد سرحان) بدائرة حى المناخ، ملحقة به دار للمناسبات، وافتتح للصلاة فى ١٤ من ذى القعدة ١٤١٥هـ الموافق ١٢ من أبريل ١٩٩٥م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة اللواء فخر الدين عبده، وكان حجر الأساس قد وضع فى عهد المحافظ السابق عليه اللواء جميل أبو الدهب.

مسجد الكريم :

أنشأه حسن عبد الكريم، تطل واجهته الشرقية على شارع عبد الهادى الحديدى وواجهته الشمالية تطل على شارع دمشق (امتداد شارع كسرى باتجاه الغرب) بدائرة حى الزهور. له ستة أبواب ثلاثة فى الواجهة الشمالية ومثلها فى الواجهة الجنوبية له قبة مربعة سقفها هرمى والمئذنة منفصلة عن جسم الجامع . وضع حجر أساسه فى ١٤ من رمضان ١٤١٣هـ الموافق ٧ من مارس ١٩٩٣م. وافتتح للصلاة فى ٢٨ من ذى القعدة ١٤١٥هـ الموافق ٢٨ من أبريل ١٩٩٥م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة اللواء فخر الدين

خالد عبده.

مسجد الغفور:

تأسس على نفقة عبده محمد عيسى، من أبناء بورسعيد . تطل واجهته الجنوبية على شارع الناصر فى دائرة حى الزهور . قبته مربعة ومئذنته متوسطة الارتفاع . افتتح للصلاة فى محرم ١٤١٧هـ الموافق يونيو ١٩٩٦م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة اللواء مصطفى إبراهيم صادق.

مسجد الفرج:

تأسس سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٩٧م بمنطقة عمر بن الخطاب بدائرة حى الزهور . واجهته تُطل على شارع حسن واصف . بسيط البناء . قبته مربعة وأسقفها مثلثة، ومئذنته متوسطة الارتفاع.

مسجد الرسول:

يطل على مساكن المنطقة الرابعة الشعبية من ناحية الجنوب الغربى بدائرة حى المناخ. أسسه حسنى محمد السقا فى أول رمضان ١٤٢٠هـ الموافق ١٨من نوفمبر ٢٠٠٠م. متوسط المساحة والارتفاع ويتميز بمئذنتيه اللتين تجمعان بين اللونين الأبيض والأخضر . أما قبته المصنوعة من الآجر فمتوسطة الحجم ومطلية بدهان أخضر.

مسجد النور والهداية:

هو مسجد شاهق وإن كان بسيط الخطوط يغلب عليه اللون الأحمر، قبته مضلعة وسقفها مائل والمئذنة متوسطة الارتفاع ولها شرفتان، نوافذه من الزجاج الملون على هيئة نجوم ثمانية الأضلاع، ويُصعد إلى مدخله، الذى تتقدمه أربعة أعمدة وثلاثة عقود، عبر اثنين وعشرين درجة، يشغل مربعاً كاملاً، له حديقة ويحيط به وبالحديقة سور، وقد أنشأه المواطن عمر زكى أحمد اللواح فى موقع بالمنطقة المعروفة بمساكن الحديدى والنادى بأقصى حدود حى العرب الجنوبية المواجهة لحدود حى الضواحى الشمالية الشرقية، وافتتحه للصلاة الدكتور مصطفى كامل محمد يوم الاثنين ٢٤ شعبان ١٤٢١هـ الموافق ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٠م.

مسجد الغفار:

يتميز هذا المسجد على اتساع مساحته وبساطة بنائه بمآذنه الأربع القصيرة الموزعة على أركان سطحه كما يتميز بباحته العريضة المسورة وبلونه الأبيض وقمم مآذنه الخضراء، لا قبة له واستعيض عنها بارتفاع مستطيل يقوم بوظيفتى التهوية والإضاءة . أسسه جمال عبد الونيس محمد عبد الهادى بمنطقة مساكن اللنش فى الثامن من ربيع

الأول ١٤٢٢هـ، الموافق الأول من يونيو ٢٠٠١م.

مسجد القدوس:

يتواجد فى شارع عبد الحليم محمود بآخر منطقة عمرو بن العاص بدائرة حى الزهور، مساحته واسعة، مسور، لا مآذن له ولا قباب، تأسس سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

مسجد أنوار النبوة:

يتواجد هذا المسجد فى منطقة المروة بدائرة حى الزهور . وهو مسجد متوسط المساحة، مسور، لا مئذنة له، وبدلاً من القبة يوجد به ارتفاع مربع له سقف هرمى، وافتتح للصلاة فى جمادى الآخر ١٤٢٤هـ - أغسطس ٢٠٠٣م.

مسجد الروضة:

هو مسجد ضخم واسع المساحة، موجود بمنطقة عمرو بن العاص بدائرة حى الزهور له خمس قباب، أربع منها متوسطة الحجم تتوسطها قبة أكبر، عالية أكثر منها ضخمة، والمئذنة شاهقة الارتفاع، ولواجهة المسجد أربعة أعمدة وثلاثة عقود . أسسه الحاج محمد عبد الغنى سالم وافتتحه الدكتور مصطفى كامل محمد محافظ بورسعيد فى رمضان ١٤٢٤هـ - نوفمبر ٢٠٠٣م.

مسجد الشاطئ:

أنفق على بنائه خليل خليل شرارة . وهو مسجد شاهق البناء تطل واجهته الشمالية على البحر وواجهته الجنوبية على كورنيش البحر (الشهيد عاطف السادات) بدائرة حى العرب . أقيم محل مسجد قديم كان يحمل ذات الاسم . قبته ضخمة من القيشانى الأزرق تتخلله تموجات من القيشانى الأصفر، ومئذنته سامقة ومنفصلة عن جسم الجامع وتقع إلى يسار الداخل من مدخله الجنوبى . افتتح للصلاة فى الثانى من ذى القعدة ١٤٢٤هـ. الموافق ٢٦ من ديسمبر ٢٠٠٣م. وحضر الافتتاح مفتى الجمهورية د. نصر فريد واصل، ورئيس جامعة الأزهر السابق د. أحمد عمر هاشم، ومحافظ المدينة الدكتور مصطفى كامل محمد.

مسجد الباسط :

مُقام فى منطقة عثمان بن عفان السكنية بدائرة حى الزهور ومدخله الرئيسى بواجهته الجنوبية التى تطل على شارع العبور، وله بابان إضافيان فى واجهته الشمالية، وفى نفس هذه الواجهة يوجد الباب الذى يُصعد منه إلى مصلى السيدات. قبته سداسية الأضلاع ذات أسقف مثلثة، ومئذنته متوسطة الارتفاع . افتتح للصلاة فى يوم الجمعة ٢٤ من شعبان ١٤٢٥هـ الموافق ٨ من أكتوبر ٢٠٠٤م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة مصطفى

د.كامل محمد.

مسجد طيبة:

أقيم بمنطقة الصفا بدائرة حي الضواحي . له قبة ضخمة تكاد تشغل سقف الجامع بأكمله، وليست له مئذنة، وملحقة به دار للمناسبات. افتتح للصلاة يوم الجمعة غرة صفر ١٤٢٦هـ الموافق ١١ مارس ٢٠٠٥م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة د. مصطفى كامل محمد.

مسجد الرضوان:

أعاد تأسيسه سعيد محمد محمد عويضة صدقة جارية على روح المرحومة ماريهان محمد عويضة . يقع فى قلب منطقة الكويت وتطل واجهته الغربية على شارع أسوان بدائرة حى العرب، وأقيم محل مسجد بذات الاسم . وهو جامع شاهق البناء له ثلاثة مداخل ، وتعلوه قبة ضخمة وقبتان صغيرتان، إحداهما باتجاه الشرق والأخرى باتجاه الغرب، والمئذنة سامقة ومنفصلة عن جسم المسجد وتقع إلى يمين الداخل إليه من مدخله الرئيسى، وملحقة به دار ماريهان لتحفيظ القرآن . وافتتح للصلاة بعد إعادة التأسيس سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. وحضر الافتتاح محافظ المدينة د. مصطفى كامل محمد.

مسجد المجمع الإسلامى:

هو مسجد شاهق الارتفاع يُصعد للصلاة فيه عبر ثلاثين درجة، ويقع فى قلب منطقة تعاونيات الزهور بدائرة حى الزهور، روَّج لإنشائه ماضى أبو العزايم وجمع التبرعات من أجل إنشائه بعدما حصل على ترخيص البناء وبدأ فى التنفيذ، لكنه لم يتمكن من استكمال البناء، فتولته وزارة الأوقاف وللجامع مدخلان المدخل، الرئيس من ناحية الشمال والآخر الذى يُصعد إليه من خلال سُلمين متقابلين من ناحية الشرق وللجامع مئذنتان سامقتان وقبة ضخمة مدورة . وافتتح للصلاة فى ٢١ من ذى القعدة ١٤٢٦هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر ٢٠٠٥م.

مسجد حمزة:

أعاد تأسيسه الحاج حسنى محمد الطناحى فى نفس المكان الذى كان يشغله مسجد قديم يحمل ذات الاسم بدائرة حى العرب. مدخله الرئيسى بالواجهة التى تطل على حارة الزاوية، وواجهته الغربية تطل على حارة العريش، والشرقية على شارع الغورى، ولا توجد له واجهة شمالية لالتصاق المسجد من ناحيتها بأحد الأبنية . مئذنته متوسطة الارتفاع وقبته عالية وعلى شيء من الاستطالة الرأسية، وافتتح للصلاة بعد إعادة التأسيس فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١٤٢٧هـ الموافق ١٠ من أبريل سنة ٢٠٠٦م. وحضر الافتتاح محافظ

المدينة مصطفى كامل محمد.

مسجد العظيم:

هو مسجد عظيم المساحة شاهق الارتفاع، له مئذنتان سامقتان وقبه ضخمة يغطيها الفسيفساء الأخضر ونوافذ المسجد من الزجاج المعشق وهو زجاج ملون يجمع ما بين الأزرق والأخضر والأحمر ويشغل هو وملحقاته مربعاً كاملاً فى منطقة فاطمة الزهراء ومواجهاً ما تبقى من منطقة زرزارة العشوائية بحى الضواحى . أسسه الحاج السيد عصام الدين محمود لهيطة وافتتح للصلاة يوم الجمعة ١٥ شعبان ١٤٢٧هـ الموافق ٨ سبتمبر ٢٠٠٦م. والمسجد آية من آيات الإبداع الهندسى، وعلى هيئة هى الغاية من الجمال فى منطقة هى ـ بكل أسف ـ القبح مجسداً، ويحدونى الأمل فى أن يتبدل حال هذه المنطقة لتتوازى مع الجمال الذى يشع من هذا المسجد، فهل سيأتى يوم يتحقق فيه هذا الأمل؟

وثمة مساجد جامعة يجرى بناؤها وقت وضع هذا الكتاب منها :

ـ مسجد الإحسان وتطل واجهته الجنوبية على شارع ٢٣ يوليو وواجهته الغربية على شارع جمعية الإحسان النوبية بدائرة حى العرب . وبعد أخذ ورد مع جهة الإدارة حصل بانوه على ترخـيص البناء رقم ١٢٨ لسنة ٢٠٠٥م. وهو مكون من دور أرضى ودورين علويين، والمئذنة ستكون سامقة حسب الرسم التخطيطى الخاص به .

ـ مسجد لم تتم تسميته بعد بأقصى الاتجاه الغربى للمدينة بالقرب من منطقة مساكن أرض قبضايا بدائرة حى الزهور حديثة النشأة، ومجاوراً لمحطتى نقل الركاب من بورسعيد إلى دمياط والعكس، وهو مسجد شاهق له مئذنة مرتفعة مفصولة عن جسم المسجد وتواجه مدخله الجنوبى وخمسه قباب أربع منها متوسطة الحجم موزعة على أركانه الأربعة والخامسة ضخمة تتوسطها جميعاً.

ـ مسجد لم تتم تسميته بعد بمنطقة عمر بن الخطاب عند تقاطع شارعى الزهور وعباس سيد أحمد قبالة سوق منطقة على بن أبى طالب، وهو مسجد ضخم، قبته كبيرة وتكاد تشغل معظم سطح المسجد، ومئذنته منفصلة سامقة الارتفاع وقد أقيم هذا المسجد مكان آخر قديم كان متواضع البناء.

ـ مسجد لم تتم تسميته بعد بمنطقة خالد بن الوليد، وهو مسجد ضخم له مئذنة سامقة وخمس قباب أربع منها صغيرة جداً موزعة على أركانه الأربعة والخامسة ضخمة جداً ومغطاة بالفسيفساء الأخضر تتوسطها جميعاً.

ـ مسجد الهدى بجنوب شرق منطقة مساكن زمزم ويطل مدخله على امتداد شارع عبد الرحمن شكرى فى مواجهة منطقة مسكن الصفا، وقوائمه التى رُفعت تبين أنه مكون من

طابقين علويين بالإضافة إلى الطابق الأرضى ونفقة البناء تبرع من السيدة سمية محمود عبد المنعم، ولم تظهر له بعد مآذن أو قباب.

ويلاحظ على عمارة المساجد الحديثة ما يلى:

* اتساع مساحاتها وضخامة أبنيتها.

* انفصال مآذن أغلبها عن أجساد المساجد، أو الاستغناء عنها تماماً، وذلك بعد ما أضحى وجودها وجوداً رمزياً وانعدم استخدامها لأغراض وظيفية، نتيجة لاستخدام مكبرات الصوت فى رفع الأذان، والاستعانة بالتكنولوچيا الحديثة للتعرف على مواقيت الصلاة واستطلاع الأهلة.

* الاستعاضة عن القباب المدورة، فى كثير من المساجد، بارتفاعات المربعة أو المستطيلة أو المسدسة أو المثمنة وتغطيتها بأسف مائلة مصنوعة من القرميد.

* الابتعاد عن الأنماط الجاهزة فى عمارة المساجد.

* ارتفاع صحون المساجد التى تؤدى فيها الصلوات عن مستويات الطرق ارتفاعاً ملحوظاً، بحيث بات الصعود إليها لا يتم إلا بارتقاء عدد من الدرجات يتفاوت بتفاوت الارتفاعات.

* كثرة إنشاء الملحقات بالمساجد لأداء وظائف اجتماعية مختلفة.

* اختفاء الزخارف من أغلبها.

* اختفاء نمط الطلاء بلونين متميزين فى خطين عريضين أفقيين متكررين يمتدان بطول أضلاع الجدران الخارجية أحدهما إما أصفر أو أبيض والآخر إما بنى أو أخضر.

ويربو عدد المساجد الجامعة بالمدينة على ٤٥٠ مسجداً موزعة ما بين مساجد حكومية وأخرى أهلية، وذلك بخلاف الزوايا التى يقيمها الأهالى حتى لا يكاد مربع سكنى يخلو منها.

وإذا كانت الإحصاءات الرسمية تُظهر أن عدد المساجد الأهلية أقل من نظيراتها الحكومية، فمرجع هذا إلى أن الكثير من المساجد التى يقيمها الأهالى يتم ضمها إلى مديرية الأوقاف بعد فترة من إنشائها لتتولى شئون الإشراف عليها وتجهيزها وفرشها وصيانتها وخدمتها بتعيين الوعاظ والأئمة والمقرئين ومقيمى الشعائر وتنظيم الدروس والمحاضرات بها، وكذا الإشراف على فصول تقوية تلاميذ المدارس.

(٢)
كنائس المسيحيين
كنائس الكاثوليك

ما فعله دى ليسبس، وفعلته شركته، مع المسلمين فعلته مع المسيحيين الأرثوذكس، وأغلبهم من المسيحيين المصرين وقليلهم من الأوربيين الشرقيين لا سيما من الوافدين اليونانيين، فقد تجاهل بناء الكنائس لهم، ولم يستجب إلا بعد طلب وإلحاح، وفى المقابل اهتم بترضية مشاعر الأوروبيين الغربيين ،لاسيما أولئك الذين قدموا من فرنسا، ووفر لهم إمكانات إقامة شعائرهم الدينية.

الكنيسة الفرنساوى :

بنى دى ليسبس أول ما بنى - منذ بدء أعمال الحفر - كنيسة كاثوليكية خشبية عُرفت بالكنيسة الفرنساوى، وتكفلت الشركة بنفقات القسيس الذى عينته بها . وقبل الافتتاح بنحو سبع سنوات وأثناء الحفر وبالتحديد فى ٥ يناير ١٨٦٢ م ، احتفلت الشركة بتدشين كنيسة لعمالها وموظفيها الأجانب، وعينت لها قسيساً ينتمى لطائفة البون باستير (الراعى الصالح) وبعد سنة ونيف ألحق بهذه الكنيسة دير فى ١٨ أغسطس ١٨٦٣م. ثم ألحق بها مستشفى الشركة .

كنيسة سانت أوجينى :

قبل افتتاح القناة فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩م بنت الشركة كنيسة أخرى للكاثوليك عُرفت فيما بعد بكنيسة سانت أوجينى . وقد أعيد بناؤها على نفقة جمعية تيرا سانتا، وأهدتها الشركة الأرض وزودتها بكثير من مواد البناء، وأقيم أعلاها جرس كبير وساعة لها أربع واجهات، وألحقت بها مدرسة كاثوليكية هى مدرسة Ecole catholique De La Terre Sainte، وقد أعيد افتتاحها فى ١٩مارس ١٨٩٠م.

وتقع هذه الكنيسة ببنائها الفخم بحى الإفرنج بشارع رمسيس على مقربة من ميدان المنشية وملحق بها حالياً دير الرهبان الفرنسيسكان .

كنيسة الظهور الأسقفية:

وقد بُنيت سنة ١٨٨٥م عند تقاطع شارع التجارة، الذى أصبح الآن شارع الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض - بعد أن أخذ تسميات مختلفة - مع شارع المغرب الذى أصبح شارع الشهيد نقيب محمود محمد أبو راية . وهذه الكنيسة مشهورة بالكنيسة الإنجليزية وكان الجنرال ستوكويل قائد الجيوش المعتدية على المدينة فى حرب ١٩٥٦م يصلى فيها

أيام الآحاد ، وعلى سورها كتب الوطنيون أثناء هذه الحرب العبارات والشعارات المنددة بالإنجليز .

كنيسة النبى إلياس:

وهى كنيسة للروم الكاثوليك ، وتقع عند تقاطع شارع جمال عبد الناصر ورشيد (الشهيد نقيب محمد إسماعيل عبد الله العمرى حالياً) ، وتعد من الكنائس القديمة التى أقيمت للأجانب الكاثوليك .

الكنيسة اللاتينية (كاتدرائية العذراء مريم):

فى أحد الأعياد الكاثوليكية الخاصة بالسيدة العذراء مريم التى أقيمت بمدينة الإسماعيلية، وكان ذلك فى يوم ٨ ديسمبر ١٩٣٠م، أعلن المبعوث البابوى انج ماريه هيرال، رئيس الأساقفة والكاهن الأول لمنطقة القناة، فى خطاب دينى له عن بناء كاتدرائية العذراء مريم (ملكة الكون)، وصدر المرسوم الملكى بالترخيص ببناء هذه الكاتدرائية فى سنة ١٩٣٢م، برقم ٦٠، وقام بتخطيطها ووضع رسوماتها المهندس الفرنسى (جون هولوه) مهندس أسقفية باريس، وحسب القس شنودة فتحى بدأ البناء فى ٧ ديسمبر ١٩٣٤م، وتم استيراد مواد البناء بوفرة من أجل الإسراع فى بنائها ، وشيدت المنارة بأربعة أضلاع كبيرة وضخمة كيما تتلاءم وضخامة حجم تمثال السيدة العذراء الذى كان مقرراً وضعه أعلى المنارة، لكنه لم يوضع لأنه قد اتضح أنه سيعطل عمل الفنار فى حالة وضعه . ووضعت فى المنارة ستة أجراس تدار بالكهرباء وكان لكل منها دقات لكل مناسبة من المناسبات، ودشنت هذه الأجراس يوم تركيبها فى ٦ فبراير ١٩٣٨م، وأقيمت صلوات الكاثوليك بمقر الكاتدرائية أثناء بنائها وذلك بعد إقامة مذابح مؤقتة دشنها الكاردينال (ماك دورى) أسقف أيرلندا وهو فى طريقه إلى استراليا .

أما التدشين الرسمى فقد تم فى يوم ١٣ يناير ١٩٣٧م، فى حفل كبير رأسه الأسقف دوجوتى أسقف فلادلفيا نائباً عن بابا روما . وفى عام ١٩٤٧م، بُنى منبر الكنيسة من تصميم الأخوة (ألبرتى) مهندسى بورسعيد . وبالكنيسة مجموعة من المقتنيات الأثرية من بينها قطعة من خشب الصليب المقدس الذى صُلب عليه السيد المسيح . هذه مجتزأت عن رواية القس شنودة متى عن تاريخ هذه الكاتدرائية (١٢).

ويحضرنى هنا أن أذكر فى مجال المقارنة أن ضياء الدين حسن القاضى ذكر فى موسوعته أن حجر أساس هذه الكاتدرال قد وضع فى الأول من فبراير سنة ١٩٣٤م. وهذه معلومة يمكن الأخذ بها إذ يمكن، منطقياً، أن يتأخر موعد بدء البناء - ٧ ديسمبر ١٩٣٤م. حسب رواية القس شنودة - عن موعد وضع حجر الأساس ، لكنه - أى القاضى - ذكر

أمرين أحدهما غير متوافق مع رواية القس شنودة والآخر لم يرد فى هذه الرواية .الأمر غير المتوافق هو ذِكْر القاضى لاسم ألبرتى Alberti باعتباره إيطالياً مشهوراً وأنه هو مصمم الكاتدرال(١٣)، فى حين أن القس شنودة ذكر أن مصمم الكاتدرال هو جون هولوه مهندس أسقفية باريس وذكر تفاصيل كثيرة عن هذا المهندس وإنجازاته فى بناء الكنائس، كما ذكر القاضى أن " ألبرتى " هو لقب عائلى لعدد من الأخوة قاموا بإعداد رسم منبر الكنيسة، وأنهم من مهندسى بورسعيد . أما الأمر الذى لم يرد فى رواية القس شنودة وذكره ضياء فى مرجعه فهو حضور الملك فؤاد حفل الافتتاح (١٤).

ما يهمنى من الناحية الجغرافية أن أوضح لكَ أن هذه الكاتدرال تحتل مربعاً كاملاً يطل على شارع كتشنر (٢٣ يوليو) من الشمال، وعلى شارع الأزهر (جمال عبد الناصر) من الغرب، وعلى شارع صلاح الدين من الشرق، وشارع إبراهيم (عبد السلام عارف) من الجنوب . ويهمنى أيضاً أن أذكر لكَ أن هذه الكاتدرال قد آلت إلى الأرثوذكس من المصريين، وهذا ما سوف يأتى ذكره فيما بعد .

الكنيسة الإيطالية :

فى مواجهة الكاتدرال باتجاه الغرب يقع مبنى القنصلية الإيطالية ولصق هذا المبنى من الناحيتين الجنوبية والغربية بنى الإيطاليون كنيسة لأبناء جاليتهم بالمدينة تتسم ببساطة المظهر الخارجى وبالأبراج النحيلة الرشيقة فى قِصر، وهى فى معمارها - ومعها مبنى القنصلية - تشعر الرائى بأجواء الكنائس الإيطالية والطراز الخاص بمدينة فينيسيا تحديداً.

كنيسة القديسة ترين:

وتقع فى مواجهة الكنيسة الإيطالية وتطل مثلها على شارع إبراهيم (عبد السلام عارف)، وهى كنيسة للموارنة الشوام، وقد بنيت سنة ١٩٥٠م . وبناؤها فريد ومتميز إذ أخذ شكل نصف البيضة، مع زركشات غاية فى البساطة .

كنائس الأرثوذكس

كنائس الروم الأرثوذكس:

الكنيسة اليونانية :

بناء على طلبهم منح دى ليسبس اليونانيين الأرثوذكس الأرض اللازمة لبناء الكنيسة سنة ١٨٦٦م، أى قبل افتتاح قناة السويس بثلاث سنوات، ووضع حجر أساسها فى ١٣ أبريل ١٨٨٨م، وأقيمت فيها الصلاة فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٨م، وفى مارس ١٨٩٤م تأسست الجمعية اليونانية للتقدم " أيوس " وجمعت التبرعات اللازمة لبناء صرح كنسى كبير للجالية

اليونانية الأرثوذكسية . وانتهى البناء ودُشنت للصلاة فى أول نوفمبر ١٩٠٣م. وتطل واجهتها الشمالية على شارع دى ليسبس (سعد زغلول) وبها المدخل الرئيسى، وتطل واجهتها الشرقية على شارع (جمال عبد الناصر) بحى الإفرنج .

كنيسة القديس نيقولاس :

هى كنيسة للروم الأرثوذكس وتقع بدائرة حى الإفرنج ومحاطة بالعمائر السكنية من ثلاثة اتجاهات هى الاتجاهات الشمالية والشرقية والجنوبية، أما الاتجاه الغربى فيطل على شارع المشرق، وهى قريبة من شارع سعد زغلول من الناحية الشمالية .

كنيسة القديس يوسف:

وكانت خشبية بدائية البناء، أقيمت للروم الشوام عند تقاطع شارعى سعد زغلول وإفريقيا وما لبث أن هُدمت وأقيمت فى موضعها دار عرض سينمائية هى سينما فاروق (الحرية فيما بعد)، وهُدمت هذه الدار فيما بعد بتأثير من الانفتاح الاقتصادى وتحويل بورسعيد إلى مدينة حرة اقتصادياً، وأقيم مكانها عمارة سكنية شاهقة بها عدد كبير من المحال التجارية . ولا يكاد يذكر أمر هذه الكنيسة فى هذه الأيام.

كنائس الأقباط الأرثوذكس:

بداية .. أرجو أن أحيطك علماً عزيزى القارئ أن الدكتور عبد العزيز الشناوى قد أكد أن أدوات البحث قطعت بأن شركة القناة لم تشيد فى أى ساحة من ساحات الحفر حتى وقت استخدام السخرة كنيسة قبطية أرثوذكسية . فقط أردت أن أحيطك علماً بهذه الحقيقة لتستكنه منها ما تشاء . ولم تسمح الشركة ببناء الكنائس الأرثوذكسية للأقباط إلا بعد تزايد أعدادهم وارتفاع أصواتهم المطالبة بالسماح لهم ببناء كنائسهم .

كنيسة العذراء :

هى أول كنيسة تم بناؤها فى بورسعيد للأقباط الأرثوذكس وقد دُشنت للعمل فى ٢١ بؤونة سنة ١٦٠١ش. الموافق ٢٨ يونيو ١٨٨٥م. وكان تعداد الأقباط الأرثوذكس ببورسعيد قد بلغ ١٦٧٥ نسمة، ١١٢٠ منهم ذكور و ٥٥٥ من الإناث أغلبهم أقام بحى العرب، وبالتحديد ١٦٧٥ قبطياً، أما المدينة حيث الأجانب وأهل الثراء من المصريين فكان عدد الأقباط محدوداً للغاية حيث بلغ ٢٧٨ قبطياً . وإزاء هذا التزايد وحيث أصبح بناء الكنيسة مطلباً ملحاً فقد اتجهوا نحو دى ليسبس وطلبوا قطعة أرض لهذا الغرض على أن تكون قريبة من قرية العرب التى يعيش فيها أغلبهم وقد منحهم الأرض المطلوبة سنة ١٨٨٤ م فى منطقة قريبة من قرية العرب. واستغرق بناؤها نحو السنة، وأنفق على البناء من تبرعات أقباط المدينة، ولمَّا دُشنت للصلاة فيها كانت مكونة من طابق واحد . واستخدم فيها نظام

المشربيات حتى تتمكن النساء من الصلاة فيها وتوسعت الكنيسة فى العام ١٩٠٥م. وتم تطويرها فى سنة ١٩١٠م، وفى سنة ١٩١٢م باع عبد الرحمن لطفى باشا الأرض المجاورة لحد الكنيسة الشمالى لها فتوسعت وأقيم على هذه الأرض عقار شغلته المطرانية بعد ذلك . والصلاة مستمرة فيها منذ سنة ١٨٨٥م. حتى الآن، وأُلحقت بها مدرسة الأقباط، وكانت تقبل التلاميذ من أبناء المسلمين، وأمامها وقعت عملية فدائية إبان حرب ١٩٥٦م. ومن داخلها أُمطر المحتل بوابل من الرصاص(١٥).

كنيسة الشهيد مارجرجس :

اشترت الجمعية الخيرية القبطية التى كانت ترعى شئون الكنيسة الأرض التى أقيمت عليها هذه الكنيسة ومساحتها ١١٧٣ متراً مربعاً، وتقع على حدود حى الإفرنج الغربية وتطل على شارع محمد على (الشهداء) وحى العرب وموقعها قريب من ميدان محطة السكة الحديدية، وتعاقدت الجمعية عليها مع مصلحة الأملاك المشتركة عام ١٩٣٦م. بعد سداد فورى لربع الثمن المتفق عليه وهو مبلغ ٨٦٠ ،٩٦١ جنيهاً، ويمثل رُبع القيمة الحقيقية لسعر الأرض المشتراة، أى أن الجمعية سددت نحو ٤٦٥ ٢٤٠ . جنيهاً فقط وتم تقسيط الباقى، وجمعتْ التبرعات لسداد رسوم التسجيل وكانت وقتها ٧١٢ ٤٣٦ . جنيهاً. ووُضع حجر الأساس لها فى ٢١ يوليو ١٩٤٣م. وفى صباح الأحد السابع من هاتور ١٦٦٩ ش. الموافق ١٦ نوفمبر ١٩٥٢م. أقيم بها أول قداس إلهى حضره محافظ القنال محمد رياض والحكمدار ورجال الإكليروس والأجانب والأعيان وعامة الشعب ؛ ولم يكن الجرس الخاص بالكنيسة قد تم تركيبه فى منارة الكنيسة لأنه وصل يوم ١٥ نوفمبر ١٩٥٢م، أى قبل التدشين بيوم واحد، ولم يكن من السهل تركيبه فى نفس اليوم(١٦). وتتصدر واجهة الكنيسة أيقونتان من الفسيفساء الملون لمارجرجس تصورانه بالهيئة المشهورة عنه وهو يركب الفرس ويطعن التنين برمحه، إحداهما وهى الكبيرة تتصدر حائط الواجهة، والثانية - الصغيرة -تعلو البوابة الحديدية التى تفضى إلى الفناء المؤدى إلى مدخل الكنيسة . ولاحظ عزيزى القارئ أن بناء هذه الكنيسة قد استغرق نحو ١٦ عاماً . ولعبت هذه الكنيسة دوراً وطنياً إبان ثورة ١٩١٩م. وإبان مقاومة الاحتلال البريطانى فى بداية الخمسينيات من القرن الفائت، وكان يوم الجمعة ١٦ نوفمبر ١٩٥١م. يوماً مشهوداً فى تاريخ الكنيسة والمدينة حيث كانت الكنيسة فى قلب العمليات الفدائية. وخلال حرب ١٩٥٦م حاولت القوات البريطانية التمركز فى الكنيسة إلا أن الأب بطرس عوض رفض.

كنيسة الأنبا بيشوى :

كانت فى الأصل كنيسة كاثوليكية، وكان اسمها الآزيل كوفريه، وكانت تابعة لراهبات

الراعى الصالح . وهى أول كنيسة يحصل عليها الأقباط الأرثوذكس فى بورسعيد، وفور أيلولتها إلى الأقباط الأرثوذكس سُميت باسم كنيسة الأنبا بيشوى، وكان ذلك فى ١٠ مارس ١٩٧٨ وتقع هذه الكنيسة فى دائرة حى الشرق بشارع رمسيس(١٧).

كنيسة مارمينا العجائبى :

وهى كنيسة حديثة نسبياً، إذ أقيمت على مساحة الأرض التى حصل عليها الأقباط من الحكومة وتقدر بنحو ألفى متر، وذلك عقب عودة سكان المدينة من التهجير القسرى ـ العودة كانت فى سنة ١٩٧٤م. وتقع هذه الأرض على حدود مساكن منطقةالسلام الشعبية بامتداد شارع الأمين بدائرة حى المناخ . وفى أوائل مارس ١٩٨٠م أقيمت فوق هذه الأرض الصلوات فى خيمة أعدت لذلك، وبعد فترة ليست طويلة أنشئت كنيسة مؤقتة من الخشب والأعمدة الحديدية وألواح الصاج، وما لبثت الكنيسة أن شُيدت على النحو المخطط له بعد صدور قرار رئيس الجمهورية رقم ٤٢٨ لسنة ١٩٨٤ بالترخيص بإنشاء الكنيسة(١٨) . وتتصدر الواجهة الرئيسة للكنيسة أيقونة كبيرة من الفسيفساء الملون تصور مار مينا باسطاً كفيه فى وضع ابتهال وتضرع يعلوه ملكان وتحيط به كنيستان وإلى جوار ساقية جملان فى وضع الإناخة، وهى رموز أحاطت بهذا القديس الذى أبى الجمل الذى كان يحمل جثمانه أن يمضى به إلى أى مدفن إلا ما حددته مشيئة الرب، وهو مكان بمريوط بالإسكندرية، فبنيت فى هذا المكان كنيسة هى المرموز إليها فى الأيقونة، والملاكان إنما يضعان إكليل الشهادة فوق رأس القديس، والأيقونة مثبت عليها اسم صانعها القمص يو آب الربانى، ومن ملحقات الكنيسة مستشفى هو مستشفى أفا مينا، وصيدلية هى صيدلية العجايبى .

كنيسة السيدة العذراء والملاك (الكاتدرال):

آلت هذه الكنيسة بما تحتويه من نفائس ولوحات وذخائر إلى مطرانية الأقباط الأرثوذكس ببورسعيد . ومن ثم فقد تم تأسيس ثلاثة هياكل بها أحجبة من الأخشاب الثمينة المنقوشة نقوشاً قبطية أصيلة . ونقل إليها بعد هذه الأيلولة أجزاء من رفات القديس توما الرسول ورفات القديس تيمو ثاوس الرسول . وقد وضع كل منهما فى أنبوب داخل مقصورة وصارا من ذخائر الكاتدرائية .

وفى مكان أحد المذابح التى دُشنت سنة ١٩٣٤م. من أجل الصلاة فيها بصفة مؤقتة ثم إعداد كنيسة صغيرة دُشنت باسم الملاك ميخائيل، وأقيم له مذبح داخل هيكلها، وزين حجابها بالأيقونات وكذلك جدرانها، وجُعل الدخول إليها بدون أحذية بعدما فُرشت بالبسط، لتكون على غرار كنائس الأديرة، كما زُودت هذه الكنيسة الصغيرة بجزء من رفات شهداء

الفيوم ووضع داخل أنبوب فى مقصورة كبيرة . وأعيد بناء المسرح الذى كان ملحقاً بها، وصدر بهذا الخصوص قرار جمهورى سنة ١٩٩٠م. كما أقيمت صالات للعرض وقاعات للاجتماعات وكذا قاعات لوسائل الإيضاح والكمبيوتر والأعمال الفنية والخدمات الكشفية وغيرها، استحدثت بها ورشة نجارة وحدادة لزوم أعمال التجديد والتشييد والتعمير(١٩).

كنيسة أبو سيفين:

حصلت المطرانية من المحافظ على قطعة أرض خصصتها لبناء هذه الكنيسة، وتقع فى دائرة حى الزهور فى أقصى جنوبه الغربى، داخل المنطقة العمرانية الجديدة . واتخذت المطرانية إجراءات بنائها، وتتضمن فصولاً لمدارس التربية الكنسية وقاعات لاجتماعات السيدات وغيرها.

كنائس الأقباط الإنجيليين

كنيسة نهضة القداسة :

وهى كنيسة ملحقة بمدرسة للبنات أقامتها مؤسسة بنايل الأمريكية سنة ١٨٩٧م. اشتهرت باسم (مدرسة الأمريكان)، وكانت تطل على شارع كتشنر (٢٣ يوليو) والغازى مختار، وقد ألحقت الكنيسة بالمدرسة سنة ١٩٠٧م .

الكنيسة الإنجيلية:

صدر بشأنها مرسوم ملكى من الملك فؤاد بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٩٢٤م. وذلك بعد زيارته لبورسعيد أول مرة فى ٢٦ يناير ١٩٢٤م. وكانت أرضها قد خُصصت لهذا الغرض فى ٢٤ ديسمبر ١٩٢٢م. وتقع عند تقاطع شارعى إبراهيم (عبد السلام عارف) والإسكندرية بدائرة حى العرب، وألحقت بها مدرسة للمراحل التعليمية الثلاث الأولى : الابتدائية والإعدادية والثانوية، وتعرف بالمدارس الإنجيلية الخاصة وتشرف عليها مديرية التربية والتعليم (إدارة شمال) وأجريت مؤخراً على الكنيسة والمدرسة عمليات ترميم .

الكنيسة الرسولية:

أقيمت هذه الكنيسة سنة ١٩٣٠م، بملجأ للأيتام تم بناؤه ما بين ١٩١٧م، - ١٩٢٠م، وتقع فى دائرة حى العرب، وتطل مباشرة على شارع كتشنر (٢٣ يوليو) من واجهتها الشمالية، وبها المدخل الرئيسى، أما واجهتها الغربية فتطل على شارع جمعية الإحسان النوبية، وهى كنيسة بلا أبراج ومقامة داخل العقار رقم ٩٢ وهذا العقار مصمم أساساً ليكون مبنى سكنياً، وللكنيسة سور منخفض أقيم حديثاً وفناء محدود الحجم .

وأغلب الكنائس ملحق بها وحدات لأداء وظائف دينية واجتماعية مختلفة.

(٣)

معابد اليهود

هما معبدان أقيما داخل منطقة تجمعهم بالمدينة (حارة اليهود)، وكان هذه التجمع غربى شارع التجارة (الشهيد فريق أول عبد المنعم رياض) بدائرة حى الإفرنج، وهذان المعبدان هما:

معبد سوكات شالوم :

كان معبداً صغيراً ضيقاً وأقيم بتقاطع شارعى التجارة والمشرق، قريباً من مدرسة البون باستير (الراعى الصالح) وبناه يهودى من أصل عدنى اسمه " مناحم ميشا " وأهداه للجمعية الإسرائيلية .

معبد ميشيل أوهيل :

أقامه تاجر يهودى عدنى الأصل أيضاً اسمه " بنين " بتقاطع شارعى أفريقيا والوكيل، بالقرب من حديقة الباشا سنة ١٩١١م، وألحقت بهذا المعبد مدرسة لليهود وخصص فوقها منزل للحاخام.

ولى عزيزى القارئ مع حارة اليهود قصة لا أظن أن ستتاح لى فرصة حكايتها لك الآن.

الفصل الثالث

بورفؤاد .. لؤلؤة خرجت من صدفتها



حتى أول مايو ١٩٢٥م، لم يكن بالضفة الشرقية لقناة السويس فى المنطقة المواجهة لمدينة بورسعيد من مبان سوى مبنى الحجر الصحى (الكارنتنيا) التى أنشئت قبل هذا التاريخ بنحو ربع القرن وبالتحديد سنة ١٩٠١م لعزل المسافرين المرضى بأمراض معدية، وكذا بعض الورش والمخازن والمستودعات، وكانت زيادة حركة المرور فى القناة وزيادة حمولات السفن زيادة غير منتظمة سنة ١٩١٣ م هى التى أوجدت هذه الإنشاءات فى هذا الجزء من الشاطئ الأسيوى، ويضاف إلى تزايد حركة المرور تعاظم نشاط تصليح ما يطرأ على السفن العابرة من إعطاب هى وأسطول الكراكات والقاطرات والصنادل التى تمتلكها الشركة، لذلك استدعت الحاجة التفكير فى إقامة مبان لسكنى مستخدمى الشركة وعمالها، وأغلبهم من الأوروبيين المشتغلين فى هذه المنشآت، وقد ارتفعت أصوات هؤلاء بالشكوى لشعورهم بأنهم إنما يعملون فى منفى بسبب اختلاف ظروف العمل بينهم وبين أقرانهم الذين يعملون فى بورسعيد (٢٠).

كانت مجرد فكرة، وكان الهدف هو تسكين مستخدمى الشركة من عمال وموظفين بإنشاء ٣٠٠ مسكن لهم . كانت بالفعل مجرد فكرة، ولكن الشركة لم تتخل عن استثمارها لصالحها، كما هى عادتها، فقد عملت على الاستفادة إلى أقصى حد ممكن من أساليب

الضغط والمراوغة والاستثمار التى برعت فى استخدامها . ومعروف ما لجأت إليه عند إبرام اتفاق سنة ١٨٦٦م، بينها وبين الحكومة المصرية، مما أدى إلى نجاحها فى بسط سيطرتها على مساحات شاسعة من الأراضى غير تلك التى أتاحها لها امتياز سنة ١٨٥٤م، المصدق عليه من الباب العالى فى يناير ١٨٥٦ م. ؛ فبعد أن كانت هذه الأراضى محددة بالمشغول منها فقط بالقناة وشواطئها وموانيها، مكنها هذا الاتفاق - اتفاق ١٨٦٦ م . - من أن تُلحق بالمستودعات والمخازن والورش والمرافئ ومساكن الحرس والملاحظين والعمال المكلفين بأعمال الصيانة أراض يمكن زرعها بصفة حدائق لاستنبات الخضروات فى أماكن محرومة من كل مورد، كما مكَّن هذا الاتفاق الشركة من الحصول على الأراضى الكافية لإقامة المنشآت اللازمة لحماية القناة من تراكم الرمال ولضمان وقايتها .. غير أن الحكومة المصرية خشيت من انتفاع الشركة بجميع هذه الأراضى أو المضاربة عليها بقصد الربح، فنصَّت صراحة بالبند الرابع من الاتفاق المذكور على أنه ألا يجوز للشركة أن تطالب بمساحات من الأراضى بقصد المضاربة أو الحصول على أرض لزرعها أو لبيعها عند تكاثر السكان، وحددت مناطق على طول القناة مبينة برسوم وخرائط أرفقت بذلك الاتفاق(٢١).

وقد استهولت الشركة أيلولة ما سوف تُجبر على تمهيده من أراض أو إنشائه من أبنية يستلزمها تطور العمل بالشركة، إلى الحكومة المصرية دونما مقابل وفقاً لما رتبه عقد امتياز ١٨٥٤م . الذى نص على أنه " عند انتهاء أجل الامتياز تحل الحكومة محل شركة القناة وتتمتع بدون قيد بجميع حقوقها وتمتلك القناة بين البحرين تملكاً تاماً مع جميع المنشآت التابعة لها ". ولهذا عملت الشركة على التخلص من كل ذلك، وعكفت على استثمار هذه الأراضى التى أصبحت بعد شق القناة ذات قيمة مادية كبيرة . ووسيلتها كانت البيع. لذا كان لا بد من عقد اتفاق آخر يحقق لها ما تريد . وقد تمكنت بالفعل فى إبريل ١٨٦٩م. - أى قبيل افتتاح القناة للملاحة البحرية بشهور قليلة وبعد الاتفاق الأخير بثلاث سنوات فقط - من عقد اتفاق يجيز فى بنده الأول للشركة أن تقوم ببيع الأراضى المخصصة لها الصالحة لإنشاء المدن والمحطات والمبانى الخصوصية، ما عدا ما يتضح لزومه لاستغلال القناة .

وإذا كان من الطبيعى أن يعود الربح الناتج عن هذا البيع إلى الحكومة المصرية وحدها دون شريك، فإنه من الغريب فعلاً أن ينص البند الثانى من هذا الاتفاق على أن ما يتكوَّن من مجموع ثمن هذه الأراضى يعتبر مالاً مشتركاً، يقسم صافى المتحصل منه مناصفة بين الحكومة والشركة ؛ ووفقاً للبند الخامس من الاتفاق يُشكل قومسيون من عضوين

يختارهما الخديو وعضوين تختارهما الشركة لتقرير وتحديد الأراضى التى تعرض للبيع فى المناطق المختلفة من القناة والأكثر ملائمة لإقامة السكان بها .

هذا القومسيون هو ما عرف بمصلحة الأملاك المشتركة . من هنا تيسر للشركة، كلما أرادت الحصول على إيرادات جديدة ببيع بعض قطع من الأراضى التى ترتفع أسعارها، أن تقوم بالتنازل عنها لمصلحة الأملاك المشتركة باتفاقات خاصة، لتصبح الأراضى المتنازل عنها قابلة للتجزئة وتكتسب شرعية البيع فيحق للشركة مقاسمة الحكومة فى عوائد البيع، فى حين أن الحكومة المصرية هى المالك الأصلى لجميع نواتج هذا البيع (٢٢).

ولن أستطرد فى شرح التفاصيل المخزية لما ترتب على هذا الاتفاق فى المنطقة التى أقيمت عليها بور فؤاد فيما بعد، ولا كيف استولت الشركة على ٩٩ هكتاراً (٢٤٥ فداناً تقريباً) فى هذه المنطقة بموجب اتفاق أبرم سنة ١٨٨٦م، بمقابل غاية فى الضآلة والهزال، وبشروط تقترب من حدود التفريط من قبل الحكومة المصرية . أقول إننى لن أستطرد فى هذه التفاصيل لأنتقل بك إلى تبلور فكرة إنشاء المدينة الجديدة، التى بدأت المفاوضات بشأنها سنة ١٩٢٠م . وكانت الشركة قد عزمت على إطلاق اسم " بورسعيد الشرقية " على ما تفكر فى بنائه فى هذه البقعة، إلا أن المجلس البلدى عند مناقشته لفكرة إنشاء هذه المدينة قرر بجلسة ٢١ نوفمبر ١٩٢٠م أن يعطيها اسم " بورفؤاد "، وكان رجاؤهم أن يعرض هذا الاسم على صاحب العظمة مولانا السلطان فؤاد للموافقة(٢٣).

وبعد تبادل المذكرات بين الشركة والحكومة المصرية أمر رئيس مجلس الوزراء المصرى وقتذاك توفيق نسيم باشا ـ ووزير الداخلية فى نفس الوقت ـ بتشكيل لجنة من وزارة الداخلية لدراسة ما جاء بهذا المشروع من الوجهتين الفنية والإدارية . وقد ضمت هذه اللجنة مندوبين من مصلحة الجمارك والصحة والبلديات و المالية، واستمر عملها حتى سنة ١٩٢٢م، حيث قدمت لرئيس مجلس الوزارة الجديد عبد الخالق ثروت تقريرها الذى تضمن حلولاً لكثير من المسائل التى تبين للجنة أنها تؤدى إلى تحقيق المشروع (٢٤).

وبعد إتمام هذا التقرير تقدمت الشركة للحكومة بتاريخ ٨ مايو ١٩٢٣م باقتراحات رسمية مفصلة عن المشروع وشروط تنفيذه فاستصدرت وزارة المالية قراراً من مجلس الوزراء بتاريخ ٤ يونيو ١٩٢٣م . بتأليف لجنة بمعرفة وزارة المالية يُعهد إليها بدرس موضوع إنشاء مدينة جديدة على الشاطئ الأسيوى تجاه مدينة بورسعيد وتقديم تقرير بذلك إلى مجلس الوزراء . وتشكلت اللجنة تحت رئاسة حضرة صاحب السعادة صادق حنين باشا وكيل المالية فى ذاك العهد، وعضوية حضرات محمود بك رفعت (باشا) محافظ القنال والشيخ إبراهيم يوسف عطا الله وعلى أفندى لهيطة (بك) عضوى الشيوخ والنواب

عن دائرة القنال، والمستر باكستر السكرتير المالى لوزارة المالية، وحنين جرجس حنين بك مندوب الحكومة فى مصلحة الأملاك المشتركة . وشريف صبرى بك (صاحب المقام الرفيع شريف صبرى باشا) مدير قسم البلديات فى ذلك الوقت، والدكتور مصطفى صفوت البقلى بك مندوباً عن مصلحة الصحة، ومحمد وجيه بك سكرتيراً للجنة .

ومن بين المهام التى وضعت أمام اللجنة لدراستها ما كان يتعلق بالأمور المالية من حيث تقدير نفقات التأسيس والصيانة والموارد الكفيلة بتغطيتها، شروط التنازل لقومسيون الأملاك المشتركة عن الأراضى التى ستقام عليها المدينة، ونوعية العلاقات التى ستترتب على نشأة المدينة الجديدة بين الحكومة المصرية وشركة القناة طوال المدة المتبقية من فترة الامتياز، وكذا طريقة تصفية هذه العلاقات عند نهاية الامتياز.

وقد قامت اللجنة بفحص الموضوع بأكمله، واستعانت بالمستشارين الملكيين المسيو بيولا كازللى والمسيو واتليه وتقدمت لمجلس الوزراء بتقرير مصحوب بمشروع الاتفاق الذى انتهى المجلس إلى قبوله فى ١٠ أكتوبر ١٩٢م. وعقده مع الشركة بتاريخ ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٥م(٢٥)

والغريب أنه فى ذات يوم توقيع هذا العقد، أى فى ١١ أكتوبر ١٩٢٥م. أرسل وزير المالية المصرى يحيى إبراهيم كتاباً إلى مسيو دى بنوا - وكيل عام الشركة - أورد فيه تعديلات طفيفة على العقد لصالح الشركة، وذكر فى هذا الكتاب أنه إذا رأت الشركة أنها محتاجة فى استغلال القناة لما يزيد عن الأراضى التى تضع يدها عليها فى هذا المكان (٨٥ ألف متر مربع) فإنَّ كل طلب يُقدم منها لتوسيع هذه المساحة سيقابل من الحكومة بعين العطف (٢٦).

ويهمنى هنا أن أذكر بعضاً مما كان من شأن عضو اللجنة على أفندى لهيطة عضو اللجنة النائب عن دائرة القنال، فى جلسة المجلس البلدى المنعقدة السبت فى ٤ أغسطس ١٩٢٣م، التى خصصت بالكامل لمناقشة مسألة إنشاء مدينة بورفؤاد، ورأسها المحافظ حسن باشا مظلوم، وحضرها جناب البارون دى بنوا لكى يعطى المناقشين إيضاحاً عن مشروع إنشاء المدينة الجديدة بالبر الشرقى .

لقد كان النائب على أفندى لهيطة متخوفاً من تأثير إنشاء المدينة الجديدة على مستقبل مدينة بورسعيد ودخل فى مساجلة طويلة - أظهرها محضر هذه الجلسة - مع البارون دى بنوا ؛ ويتلخص رأى على لهيطة أفندى فى أن إنشاء البلدة الجديدة سيؤدى بعدد كبير من الناس إلى ترك بورسعيد للإقامة بها فيبدأ انحطاط بورسعيد، وعلى الأخص من الوجهة التجارية، وأنه إذا كان من حجج إنشائها عدم وجود أراض لسكنى الفقراء - كما تحجج

دى بنوا- فإن مصلحة الأملاك المشتركة يمكنها أن تنشئ أراض بالردم فى بحيرة المنزلة كما فعلت منذ عامين، وإذا كانت الشركة غير مستعدة لأن تنشئ فى البحيرة أراضي جديدة، فالحكومة يمكنها أن تبيع أرضى المناخين لإقامة مساكن للعمال عليها، لأنه يرى – من وجهة نظره – وجوب الانتفا ع بكل الأراضى الفضاء الموجودة ببورسعيد أولاً، وإذا لم تُرد مصلحة الأملاك المشتركة إنشاء أراض بالردم فى بحيرة المنزلة فالبلدية تقوم بهذه العملية، وأن البلدية مستعدة لإصلاح أراضى المناخين وبيعها بشروط مخفضة (٢٧).

وتطرَّق إلى بعض الجوانب الاقتصادية المتعلقة بأسعار الأراضى فى البلدة الجديدة . فالشركة ستطرح فى البداية هذه الأراضى بأثمان بخسة تقل عن ثمنها ببورسعيد بهدف جلب المشترين، فيقدم سكان المدينة عليها ويرحلون عن مدينتهم، ثم تقوم الشركة بزيادة الأسعار تدريجياً بعد ذلك، وهذا - حسبما قال - ما حدث فى بورسعيد نفسها . وحينما يحاول دى بنوا التخفيف من أثر الأسعار على الحالة السكانية بقوله " لكن المبانى ستكون كبيرة النفقات " يرد عليه على أفندى لهيطة بأنه من المحتمل أن تشكل إذ ذاك شركات لتبنى مساكن بالتقسيط من نوع شركة عين شمس . والحقيقة أنه لم يكن الوحيد من النواب المتخوف من نشأة المدينة الجديدة فقد شاركه نفس الموقف النواب : إبراهيم أفندى لهيطة، على أفندى البحراوى، ومحمد بك غندر . وقد أيدهم العضو الدكتور سكوفر بولو ورأى أنه من الأفضل الانتظار حتى تملأ الأراضى الفضاء - الكثيرة - ببورسعيد لكى يتسنى بعد ذلك بيع أراضى البر الشرقى . والحقيقة أن محضر هذه الجلسة حافل بما هو جدير بالدراسة المتأنية، لأن على أفندى لهيطة على مناقشاته التى تحمل وجهة نظر معارضه قال فى نهاية الجلسة " نحن لا نعارض مطلقاً فى إنشاء البلدة الجديدة طالما أنها تكون قاصرة على مساكن الشركة " (٢٨).

وواقع الأمر أن نواب بورسعيد إنما كانوا يترجمون واقعساً حياً شهدته المدينة فبعدما تأكد سكانها فى أواخر يوليو ١٩٢٤ من عزم الشركة على إنشاء المدينة الجديدة انتظروا - حسب خلدوبيس صاحب المرجع اليونانى الذى اعتمد عليه ضياء الدين حسن القاضى - اللجنة التى سوف ترسلها الحكومة المصرية، وكانوا فى غاية من الخوف والاضطراب للدرجة التى قاموا معها بتشكيل جمعية من مختلف الجنسيات والطوائف دفاعاً عن مستقبل مدينتهم وحاربت هذه الجمعية منذ إنشائها شركة قناة السويس، إلا أن الشركة والحكومة مضيا على عزمهما.

وأشرفت مصلحة الأملاك المشتركة على إدارة أوضا ع المدينة الجديدة وذلك بصفة مؤقتة حتى يسمح الوضع داخل المدينة الجديدة بإنشاء مجلس بلدى قائم بذاته وكان عقد ١١

أكتوبر ١٩٢٥م، قد نص فى مادته التاسعة على احتفاظ الحكومة بأن تنشئ بعد مضى عشرين سنة من تاريخ الاتفاق أى اعتباراً من ١١ أكتوبر ١٩٥٤م مجلساً بلدياً لمدينة بورفؤاد يحل محل لجنة ١٩٤٩م لتصفية كثير من المسائل بين الشركة والحكومة ؛ لكن الحكومات المتعاقبة أغفلت هذا النص ولم تقم بتطبيقه لمدد طالت كثيراً (٢٩).

ومن الناحية المالية فصلَتْ اللجنة الموازنة المالية للمدينة الجديدة فصلاً تاماً عن موازنة مصلحة الأملاك المشتركة فلا تُحصل إيراداتها ولا تُسدد أى عجز يحصل فى هذه الإيرادات . وتضمنت تكاليف الإنشاء كل ما يتعلق بمصاريف ردم المنطقة بناتج الكراكات التى كانت تقوم بتعميق وتوسعة مدخل القناة وإنشاء أحواض جديدة وأرصفة لتشوين الفحم على الشاطئ الأسيوى، وشملت هذه المصاريف إنشاء سحارة (سيفون) تحت قاع القناة لتوصيل مياه الشرب من الشاطئ الأفريقى إلى الشاطئ الأسيوى . وقدَّرَت اللجنة هذه التكلفة بنحو ١٢٥ ألف جنيه، أما المصاريف المتعلقة بإصلاح وتمهيد المنطقة وإعدادها للبيع فقد قدرتها بنحو ٥٠ ألف جنيه تقريباً، بخلاف المصاريف التكميلية لإنشاء المجارى وتكملة رصف الشوارع وإنارتها، وقدرت خسارة الحكومة المحتملة بحوالى ٥٠ ألف جنية تنازلت عنها الحكومة للشركة . أما مصاريف الصيانة فقد قضى الاتفاق مبدئياً بإيجاد مورد لها بطريق ربط ضرائب مختلفة على الأراضى المباعة، على أن يُسد كل عجز يظهر فى هذا الباب من حصة الحكومة فقط من ناتج بيع الأراضى .

وتقرر أن تُحَصَّل الضرائب البلدية كالآتى :

(أولاً) ١٠٠ مليم لكل متر طولى من واجهات المبانى المطلة على الشوارع العمومية نظير الكنس والرش و المكدام .

(ثانياً) ١٠٠ مليم لكل متر طولى من واجهات المبانى إذا كانت تطل على متنزهات عمومية .

(ثالثاً) ٤٠ مليماً لكل متر طولى من واجهات المبانى نظير الإنارة العمومية.

(رابعاً) ٢٠ مليماً لكل متر طولى من واجهات المبانى نظير غرس الأشجار على جانبى الطريق

(خامساً) ١٠ مليمات لكل متر طولى من واجهات المبانى نظير مقاومة الناموس .

وقُدِّر ما تحصله مصلحة الأملاك المشتركة بهذه الطريقة من كل منزل من المنازل العادية بمبلغ يتراوح بين ٨ جنيهات و ١٢ جنيهاً سنوياً، وهى قيمة أقل من العوائد البلدية المعتادة فى المدن الأخرى، وذلك بالطبع علاوة على ما تحصله الحكومة من عوائد المبانى(٣٠).

وقد بلغت المساحة التى خصصت إذ ذاك لإقامة المدينة مليوناً ومائتين وثلاثين ألف متر مربع (١,٢٣٠,٠٠٠م ٢) احتفظت الشركة منها بـ ٨٥ ألف متر مربع لمبانيها الخاصة، وسمحت للحكومة بالاحتفاظ بمساحة قدرها ١٥ ألف متر مربع لإنشاء المدارس والمستشفيات ودار البلدية والجمرك والبوليس والمحكمة وغيرها .

وقُسِّمت المدينة إلى أربع مناطق، وذلك على أساس طبقى :

المنطقة الأولى : وكانت تقع إلى جنوب ورش الشركة وعرضتها بأثمان مرتفعة حتى تخصص للفيلات الفخمة لأعلى طبقة ستقيم بهذه المدينة .

المنطقة الثانية : وتلى المنطقة الأولى جنوباً وخصصت للفيلات العادية .

المنطقة الثالثة : وتلى المنطقة الثانية وخصصت للفيلات والمبانى الأصغر حجماً .

المنطقة الرابعة : خصصت للعمال، وكانت تقع بالقرب من الأحواض الجديدة التى أنشأتها الشركة لتشوين الفحم .

وعند وضع التصميمات الهندسية للمدينة تم الأخذ بأحدث ما وصل إليه تخطيط المدن من أساليب فبلغت عروض الشوارع فى ثلاثة منها خمسين متراً، ولم يقل عرض أغلب الشوارع عن عشرين متراً، كما أخذ المخطط بتعدد المتنزهات والميادين العامة حتى بلغت نسبة المساحة التى خصصت للمتنزهات ٧ ٪ من مجموع هذه المساحة، وهذه النسبة غير موجودة فى أى مدن أخرى بالقطر المصرى حتى فى الإسماعيلية ومصر الجديدة كما لاحظ فؤاد فرج بحق.

أما الجزء الذى يقع من المدينة على شاطئ البحر المتوسط ويخلو من الورش فقد أقيم به مصيف بورفؤاد المميز بكبائنه الخشبية وكازينوهاته الفخمة وأنديته البحرية التى عُدَّت وقتها أندية من الطراز الأول .

وكانت الحكومة المصرية قبل إبرامها الاتفاق مع الشركة فى ١١ أكتوبر ١٩٢٥م قد نشرت فى العدد الصادر أو ل مايو ١٩٢٥م من الجريدة الرسمية موافقتها على قيام الشركة بوضع حجر الأساس لمدينة بورفؤاد .

وسواء كان التعمير قد بدأ فى قبل أول مايو ١٩٢٥م (تاريخ النشر فى الجريدة الرسمية)، كأن يكون التعمير قد بدأ سنة ١٩٢٠م. كما ذكرت بعض المراجع غير المسندة، أو بعد هذا التاريخ، أو حتى بعد ١١ أكتوبر ١٩٢٥م (تاريخ إبرام الاتفاق) فقد شهدت المدينة الوليدة حركة إعمار جريئة وسريعة حيث افتتحها رسمياً الملك فؤاد الأول فى يوم الثلاثاء ٢١ ديسمبر ١٩٢٦م.

وقد ذكر لنا ضياء الدين القاضى نقلاً عن خلوبيس نص ما كتب على لوحة الافتتاح

وهو كما يلى :

" افتتحت مدينة بورفؤاد فى ١٦ جمادى الأخري سنة ١٣٤٥هـ. الموافق الثلاثاء ٢٠ ديسمبر ١٩٢٦م بحضور صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول فى السنة العاشرة من حكمه يرافقه صاحب العزة عدلى يكن باشا رئيس الوزراء والمسيو جونار مدير عام شركة قنال السويس، كما حضرها جميع رجال الإدارة وأعضاء لجنة تأسيس مدينة بورفؤاد وهم إسماعيل رمزى باشا، أصلان قطاوى باشا (ممثلين عن الحكومة المصرية) والكونت دى سريون، البارون لوى دى بنواه (ممثلين عن شركة قنال السويس) " .

وكان الملك فؤاد الأول قد وصل إلى بورسعيد على ظهر اليخت الملكى (المحروسة) مساء يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٢٦م، وفى اليوم التالى وصلت البارجة الحربية البريطانية كونكورد Concord إلى ميناء بورسعيد قادمة من الإسكندرية وعلى متنها المندوب السامى البريطانى لورد لويد . كما تواتر وصول المدعوين والزوار. وبدأت حفلات الافتتاح فى الساعة الثالثة والنصف فى سرادق ضخم أقيم فيه حفل شاى ألقيت أثناءه كلمات الترحيب. ولمَّا عاد الملك إلى ظهر اليخت المحروسة فى الخامسة والنصف مساء توهجت سماء المدينة بالألعاب النارية (٣١).

وهكذا كانت نشأة هذه المدينة، نشأة تراوحت بشأنها وجهات النظر بين طامع (الشركة) ومتواطئ (الحكومة) ومتوجس (الشعب) .

هى نشأة غريبة الأطوار بالفعل تجاور فيها الخوف والرجاء، القحط والبذخ، الحمق والحيلة، التوجس والاطمئنان ؛ لكنها فى النهاية كشفت بوضوح عن علاقة إذعان بين طرفين متواجهين : شركة انتفخت من كثرة ما هضمت من خراف، ووطن لا يملك إلا أن يقدم لها خرافة قطعان بعد قطعان .

وضع إذا استمر يصبح ظلماً بيناً

ألم تلحظ عزيزى القارئ تكرار التصاق وصف المدينة ببورفؤاد كلما تردد اسمها فيما ذكرت، فهل هى حقاً مدينة ؟

اسمح لى، بداية، بأن أذكر لك أنها لم تنفصل أبداً منذ نشأتها حتى الآن عن مدينة بورسعيد، وأن مسماها الإدارى بدأ بتصنيفها كشياخة ثم أصبحت قسماً أو حياً وما تزال كذلك للآن، ففى تعداد ١٩٢٧م كانت بورفؤاد شياخة تابعة لقسم الإفرنج، وهو أحد أقسام بورسعيد، ومنذ تعداد ١٩٣٧م وحتى تعداد ١٩٦٠م انتقلت تبعية هذه الشياخة إلى قسم الميناء، ثم فصلت عنه سنة ١٩٦٩م (٣٢)، لتعود إلى قسم الإفرنج الذى أصبح اسمه

(قسم الشرق) ، وفى سنة ١٩٧٩م أصبحت قسماً مستقلاً بذاته (٣٣)، وما زالت كذلك حتى الآن .

ومع هذا فإنها لم تكن تُذكر قبل وأثناء النشأة إلا باعتبارها مدينة، أكثر من هذا فإن الخرائط المساحية التى تصدرها الجهات الحكومية الرسمية، وفى مقدمتها خرائط مصلحة (هيئة) المساحة والجهاز المركزى للتعبئة العامة للإحصاء لا تذكر بورفؤاد إلا مسبوقة بكلمة مدينة . من ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

- خريطة ضواحى مدينة بورسعيد وبورفؤاد الصادرة عن مصلحة المساحة سنة ١٩٢٧م (مقياس رسم ١ : ٥٠,٠٠٠).

- خريطة بورسعيد وبورفؤاد الصادرة عن مصلحة المساحة أيضاً سنة ١٩٣٣م (مقياس رسم١ : ٢٥,٠٠٠)

- خرائط بورسعيد وبورفؤاد الصادرة عن وزارة الإسكان سنة ١٩٧٨م (مقياس رسم ١ : ٥,٠٠٠) وهى ثماني خرائط .

- خريطة تخطيط الأراضى فى بورسعيد وبورفؤاد الصادرة عن جهاز تخطيط الأراضى بمحافظة بورسعيد سنة ١٩٨٠م (مقياس ١ : ٥,٠٠٠) (٣٤).

ومع هذا فما تزال بورفؤاد تصنف فى نظام الإدارة المحلية كقسم أو حى . وأعتقد، ومثلى آخرون، أن بورفؤاد مؤهلة لأن تكون مدينة مكتملة المقومات لأنها بالفعل كذلك . وقد قدم البدرى فرغلى عضو مجلس الشعب عن دائرة بورفؤاد والشرق اقتراحاً بهذا الخصوص فى دورة ٢٠٠٠م- ٢٠٠٥م إلا أنه لم يؤخذ به.

حدود المدينة:

أحالت تفريعة قناة السويس الجزء الأكبر من بورفؤاد إلى جزيرة مثلثة، ذلك أن حدودها الإدارية الشرقية، التى هى حدود محافظة بورسعيد، مع محافظة شمال سيناء تتجاوز التفريعة إلى غرب طريق بالوظة / الساحل، كما أن حدودها الجنوبية تمتد إلى نقطة الكيلو ٤٠ شمال مدينة القنطرة شرق محافظة الإسماعيلية.

أما حداها الشمالى والغربى فهما البحر المتوسط وقناة السويس . وفى نقطة التقاء هذين الحدين كانت النواة الأولى لبورفؤاد، وتحديداً عند نقطة التقاء القناة بالبحر بالقرب من الحاجز الشرقى للقناة، وباتجاه الشرق والجنوب كان تنامى هذه النواة.

والمدينة النواة نُظمت وصممت مبانيها ومنشآتها وميادينها وطرزها على الطراز الفرنسى ولأغراض وظيفية قبل أن تكون جمالية . ويثير وضعها الحالى نقاشات موضوعها الرئيس المقارنة بين الطرز المعمارية المتباينة بين النواة وامتداداتها.

مقومات المدينة :

تبلغ مساحة بورفؤاد الآن ٥١١,٨٧٥ كم٢ بنسبة ٣٨ ٪ من جملة محافظة بورسعيد، وعلى الرغم من أن مساحتها تعادل ٢ / ٥ مساحة المحافظة، إلا أن عدد سكانها البالغ٣٧٧٠٦ نسمة وفقاً لتعداد ١٩٩٦م لم يكن يمثل إلا ٦ ٪ من جملة السكان(٣٥). غير أنه مع الحراك السكانى ووفقاً لمعدل الزيادة الطبيعى نجد هذه النسبة قد تضاعفت سنة ٢٠٠٦ م حيث وصل عدد سكان بورفؤاد إلى ٧٠٥٩٣ نسمة من إجمالى سكان بورسعيد الذى وصل فى هذه السنة إلى ٥٤٥٧٩٢ نسمة أى أصبح يمثل ١٢,٩ ٪ من جملة السكان(٣٦). وإن أشار هذا إلى شىء فإنما إلى تعاظم شأن بورفؤاد .

وهذا التعاظم لم يأت من فراغ فهى تقوم بمجموعة من الوظائف شديدة الحيوية، ففيها نشطت صناعات وخدمات مختلفة منها:

١) الصناعات المينائية :

فى بورفؤاد ترسانة بحرية افتتحها جمال عبد الناصر تضم عدداً من القزقات لبناء السفن حتى حمولة ١٢ ألف طن للسفينة الواحدة، وبها ثلاثة أحواض عائمة (الأحواض الجافة) طاقاتها على التوالى ٥٠٠ طن، ١٠,٠٠٠ طن، ٢٥٠٠٠ طن وبها ورش متخصصة فى كل ما يتعلق بصناعة وإصلاح وصيانة السفن من أنواع الرورو (الدحرجة) وكذا القاطرات ووحدات الإطفاء والإنقاذ البحريين ومعدات الركاب واللنشات وغيرها . وتشرف هيئة القناة أيضاً على شركة القناة للإنشاءات البحرية التى تقوم بترميم وصيانة وتكسير السفن وانتشالها وبناء وصيانة مختلف العائمات، فضلاً عن صناعتها للأبراج والكبارى والصهاريج والشمندورات، وكذا شركة الأعمال الهندسية البورسعيدية وتعمل فى مجالات بناء السفن والصنادل واللنشات وإصلاحها وتركيب وصيانة أجهزة الرادار واللاسلكى والبوصلات البحرية وإنشاء صهاريج البترول وبناء منصات وأنابيب البترول والغاز وما يلزم لمحطات الصرف الصحى .

٢) صيد الأسماك:

ولا يتم الصيد فقط من شاطئ المتوسط ومن مجرى القناة، ولكن أيضاً من بحيرة بورفؤاد التى تقع عند شرق تفريعة بورفؤاد وظلت - ومازالت - مصدراً هاماً لإمداد سكانها بالأسماك من أنواع البورى والدنيس والقاروص واللوت، وهذه البحيرة تتصل بالبحر المتوسط من خلال بوغاز القلعة وبوغاز بورفؤاد وكانت مساحة هذه البحيرة حتى يونية ١٩٦٨م. تقرب من ٦٢ ألف فدان لكنها تقلصت كثيراً حتى وصلت فى وقتنا الحاضر إلى ٢٥ ألف فدان فقط . ويمكن إرجاع هذا التقلص إلى ثلاثة أسباب هى (٣٧):

* قيام إسرائيل عام ١٩٦٧بإنشاء طريق فى منتصف البحيرة يصل بين رمانة ورأس العش، مما أدى إلى تقلصها بمقدار ١٢ ألف فدان نتيجة جفاف الحوض الجنوبى لها (جنوب الطريق المذكور) .

* إطماء بوغاز القلعة الواقع شمال شرق البحيرة مما أدى إلى جفاف الحوض الشرقى للبحيرة ومساحته ١٤ ألف فدان .

* قيام هيئة قناة السويس بحفر تفريعة بورفؤاد وإلقاء ناتج التكريك من رمال وطمى داخل هذه البحيرة مما أدى إلى تقليصها بمقدار ١٠ آلاف فدان كما أدى ذلك إلى سد المواسير التى كانت تغذى البحيرة بمياه قناة السويس .

٣) استخراج الغاز الطبيعى :

من أهم الحقول التى يستخرج فيها الغاز الطبيعى:

* حقل بورفؤاد البحرى ويضم أربعة آبار ويقع على مسافة قدرها ٣٦ كم من شاطئ بورفؤاد ويبلغ عمق مياه البحر عنده ٢٨ متراً، ويتدفق الغاز من هذا الحقل بمعدل ٧٠ مليون قدم مكعب يومياً بالإضافة إلى متكثفات (زيت عالى الجودة) بمعدل ثلاثة آلاف برميل يومياً . ويقدر إحتياطى هذا الحقل بنحو ٢٨٠ بليون قدم مكعب فضلاً عن ٦ ملايين بترول .

* حقل وقار البحرئ ويقع على مسافة قدرها ٥٢ كم من شاطئ بورفؤاد (شمال غرب حقل بورفؤاد) ويبلغ عمق المياه عنده ٤٦ متراً، وهو مكون من طبقتين يبلغ حجم تدفق الغاز من الطبقة الأولى بمعدل ٢٦ مليون قدم مكعب يومياً بالإضافة إلى متكثفات قدرها ٢٠٧٠ برميل يومياً وذلك من الطبقة الأولى، أما الطبقة الثانية فيتدفق منها الغاز بمعدل ٢١ مليون قدم مكعب يومياً مصحوباً بمتكثفات قدرها ٢٤٦٠ برميلاً يومياً (٣٨).

٤) استخراج الملح :

وهى صناعة قديمة ارتبطت بنشأة بورفؤاد وحققت سمعة عالمية، و يستخرج من المياه المالحة التى يوفرها البحر المتوسط وبحيرة بورفؤاد ومجرى قناة السويس، وتقع الملاَّحة جنوب شرقى بورفؤاد فى منطقة محصورة بين قناة السويس غرباً والتفريعة الجديدة شرقاً وتنتج حوالى نحو ٤٠٠ ألف طن من الملح (٣٥ ٪ من جملة إنتاج الملح بالبلاد) ويصدر منه نحو ٢٣٠ ألف طن . وأشكال الملح الذى تنتجه بورفؤاد متنوعة ما بين ملح المطبخ وملح المائدة، وملح الصناعات، وأقراص طبية للمناطق الحارة، وقوالب كعلاج كيميائى للماشية، وملح مجروش مُعالج للطيور، وقد جَنت تفريعة القناة على هذه الملاَّحة جناية كبيرة إذ اقتطعت منها مساحات كبيرة فى جانبها الشرقى مما قلص مساحتها الكلية تقليصاً

كبيراً اضطرت معه الحكومة إلى تعويض الشركة التى تديرها عن الأجزاء المقتطعة بمنحها مساحة مماثلة من أراض منخفضة تقع إلى الجنوب من أحواض الملاحة لتستخدم كأحواض للتركيز والتبلور(٣٩).

٥) الزراعة :

بوصول مياه ترعة السلام إلى سيناء انطلاقاً من جنوب بورسعيد دخل مخطط التنمية الزراعية لشمال سيناء حيز التنفيذ باستزراع ٤٠٠ ألف فدان خص سهل جنوب بورفؤاد منها ٦٠ ألف فدان تم توزيعها بالفعل واستزراعها.

٦) السياحة :

تملك بورفؤاد بأهلها وموقعها وشاطئها وبحيرتها وأسماكها وطيورها أكثر من مقوم سياحى . ولعلها تصلح أكثر ما تصلح للسياحة الترفيهية المتصلة بالصيد والاصطياف، وهذا ما فطن إليه مخططوها الأولون حينما هيأوا شاطئها لتحقيق هذا الغرض وبنوا عليه مجموعة الكبائن الخشبية الجميلة . دمرها الفرنسيون عند احتلالهم لها فى حرب ١٩٥٦م، وقامت شركة قناة السويس بإنشاء كازينو الشاطئ سنة ١٩٣١م وهو كازينو بالينير Ca-sino Balineaire De Port-Fauad وقامت بتأجيره لرجل الفنادق السياحية الأشهر سيمونينى . ولعل هذا ما فطنت إليه الإدارة الحالية فقررت إنشاء قريتين سياحيتين فى المنطقة الشمالية الشرقية منها.

وكان من الممكن أن تتضاعف هذه الطاقات لو أنه قد تم تنفيذ مشروع شرق بورسعيد وفقاً لما تضمنه مخططه الهيكلى من استخدامات لتفريعة قناة السويس الواقعة شرقى بورفؤاد. وتوزعت هذه الاستخدامات على ٢٢٠كم٢(٥٢٤٠٠ فدان) وذلك على النحو التالى(٤٠):

الاستخدامات الرئيسية	المسطحات		
	كـم٢	فـدان	٪
الميناء المركزى المحورى (شاملة الامتدادات)	٢٢,٥	٥٤٠٠	١٠
المنطقة الصناعية الحرة	٨٧,٦	٢٠٨٠٠	٤٠
منطقة سياحية	٥,٧	١٤٠٠	٣
المنطقة الإدارية	٤,٧	١١٠٠	٢
مزارع سمكية (شاملة البحيرات)	٩٩,٥	٢٣٧٠٠	٤٥
الإجمالى	٢٢٠,٠	٥٢٤٠٠	١٠٠

فإذا أضفنا العنصر البشرى وجدناه كأفضل ما تكون حالاته فى الدول النامية، سواء فى بورفؤاد أو فى بورسعيد، فلديه من مقومات تنميته الكثير، فهو يعمل ويتعلم ويتثقف ويتريض ويتطبب ويمارس السياسة ويصلى ويلهو، وتوفر له هذه الخدمات مؤسسات كثيرة من تعليمية وصحية وثقافية ورياضية واجتماعية ودينية ومالية وأمنية.

فمن المؤسسات التعليمية المتواجدة ببورفؤاد كليات: الهندسة، التجارة، التربية الرياضية بخلاف المدارس الحكومية والخاصة، الأهلية والأجنبية ومعاهد التدريب وأشهرها الأبرانتيه ويتبع هيئة القناة.

ومن المؤسسات الثقافية يوجد بيت ثقافة بورفؤاد بحديقة الزهور وعدد من المكتبات العامة التى يشرف عليها الفرع الثقافى بالمحافظة، ومركز إعلام بورفؤاد وفرع الهيئة المصرية العامة للكتاب، وكذا مسرح جامعة قناة السويس، ومسرح هيئة قناة السويس. وكانت توجد ببورفؤاد إلى عهد غير بعيد داران للعروض السينمائية هما دارسينما فاميليا ودارسينما بورفؤاد الصيفى.

ومن المؤسسات الرياضية نادى بورفؤاد الرياضى ويتبع هيئة قناة السويس، وصالة الألعاب المغطاة (الجمنزيوم) التابعة للتوجيه الرياضى بمديرية بورسعيد التعليمية، ومركز شباب بورفؤاد، ونادى التجديف وغيرها.

ومن المؤسسات الصحية توجد مستشفى بورفؤاد العام ، والصحة المدرسية والكثير من المستشفيات والعيادات الخاصة.

ومن المؤسسات السياسية تتواجد ببورفؤاد مقار لأربعة أحزاب نشطة هى : الوطنى، الأحرار، الوفد، والتجمع (٤١).

وما أكثر المؤسسات الاجتماعية التى تأخذ أشكالاً عدة من أهمها النوادى والمقاهى، ومن النوادى ما يخص بالعاملين بالجهات الرسمية كنادى العاملين بديوان حى بورفؤاد أو من تعودنا على تسميتهم العاملين فى الجهات ذات السيادة كنادى الشرطة الذى يطل على قناة السويس مثلاً أو نوادى النقابيين كنادى نقابة المعلمين.

أما المقاهى تلك التى تعد مزيجاً من مصانع للكسل، والتلهى، وإزجاء أوقات الفراغ، والتحرر من أشكال القهر والكبت فى أماكن العمل والبيت، والإقبال على الحياة عن طريق المنادمة والمعاونة المتبادلة بين الغرباء، فهى فى بورفؤاد كثيرة ومتنوعة، منها على سبيل المثال لا الحصر المقاهى الآتية : النمس (شارع رقم ٢)، بلياردو (ميدان ٦ أكتوبر)، القصيفى، الزعيم، النجمة (منطقة البلاج)، الفردوس (شارع العباس بن عبد المطلب)، سهر، روتانا (شارع الشيخ محمد متولى الشعراوى)، نور جراند (فى مواجهة الملاّحة)،

الجزيرة (شارع عمر بن عبدالعزيز)، البوريفاج (شارع ٢٣ يوليو).

وهذا كله بخلاف مقومات أخرى كثيرة متوفرة بها وتفتقر إليها مدن كثيرة مثل:

* الصناعات البحرية وخدماتها ولبورفؤاد بها خبرات وأية خبرات.
* الطرق ووسائل النقل - بل صناعة النقل - وقد تزايدت طاقاتها ببورفؤاد بعد إنشاء الميناء المحورى على تفريعة القناة شرقى بورفؤاد.
* شبكات الاتصال الحديثة.
* التمويل والائتمان والتأمين وإعادة التأمين.

إن تأمل هذه المقومات - وغيرها كثير - لكفيل بأن يجعل أى منصف متيقناً من أن ظلماً بيناً يقع على بورفؤاد إذا لم تعامل رسمياً معاملة المدن.

الطرز المعمارية بين التنميط والاختلاف:

بالفعل يا عزيزى، اختلفت طرز المبانى فى النواة عن امتداداتها المتنامية، ومع هذا فإنه من الخطأ القول بأن طرز بناء النواة كانت متشابهة تشابهاً مطلقاً . لا .. لم تكن متشابهة فى كل تفاصيلها، فكما ذكرتُ لك آنفاً تم تقسيم الأراضى المخصصة للبناء إلى أربعة مناطق، وأذكر أننى قلتُ لك أنَّ التقسيم كان ذا طابع طبقى، وأنَّ أردأ منطقة كانت هى المنطقة المخصصة لسُكنى العمال، وهذا صحيح وما زلتُ مصراً عليه، وسوف أريكه رأى العين عندما أصحبك إلى قلب هذه المدينة . عندئذ سوف تقف على الحقيقة كما هى موجودة على أرض الواقع، فتوحيد الطرز المعمارية لم يكن شاملاً لكل المبانى السكنية، بل تنوع ما بين فيلات فاخرة للأجانب من مهندسين وربابنة وخبراء، وشغلتْ أقصى الشمال باتجاه الشرق وفيلات متوسطة مكونة من طابقين وحديقة وهى فى الوسط، ثم أخرى لم يكن يطلق عليها لفظ فيلا، لأنها لا تصلح لأن تكون كذلك، وإنما كانت تسمى بالعنابر وهذه كان يسكن بها العمال من الوطنيين وثمة فرق بين العنبر والفيلا سواء فى مواد البناء أو المساحة أو نمط البناء ذاته فمواد بناء الفيلات من قوالب الطوب الأسمنتى المطلى - أيضاً - باللون الرمادى وأسقفها مائلة ومصنوعة من القرميد الأحمر أما العنابر فمن الحجر الجيرى العارى من أى طلاء ومساحة الوحدة السكنية المخصصة لأسرة العامل فى العنبر أقل كثيراً من مساحات الفيلات، ونمط بناء العنابر مختلف تماماً فلا طوابق تعلو الطابق الأرضى ولا أسقف من قرميد ولا شرفات ولا حدائق ولا استقلال بين الوحدات السكنية، وإنما تلاصق فيما يضمه العنبر الواحد، والانفصال لا يكون إلا بين العنابر، وكانت هذه العنابر تقع إلى الجنوب .

صحيح أن فيلات المنطقة التى أعطيناها الترتيب الثالث متلاصقة هى أيضاً داخل كل

مربع أو معين سكنى، لكنها ليست كالعنابر فلكل فيلا خصوصيتها وحديقتها وطابق ثان وشرفات تحملها كوابيل، أكثر من هذا فإن الشركة خصصت المساكن التى تتواجد على رؤوس الشوارع أو تطل على التقاطعات للملاحظين والأسطوات، وهذا أيضاً نوع من التمييز الطبقى ذى الصبغة الإدارية يضاف إلى التمييز المعمارى.

لكن نمط بناء مساكن المنطقة التى أعطيناها الترتيب الثانى، تلك المخصصة لمن هم أرقى فى منظومة العمل من ساكنى المنطقتين السابقتين، مختلف، بل واضح الاختلاف، فقد صممت بحيث يقع كل زوج منها متجاورين . لاحظ أننى قلتُ " زوج"ـ " زوج " فقط ـ فالخصوصية هنا أكثر احتراماً وتأميناً، لأن التمايز يجب أن يكون واضحاً لمن هم دونهم . وقد تميزت هذه المساكن بأمور أربعة هى:

* فخامة البناء.
* الشرفات العريضة.
* الحدائق الواسعة.
* حجرات الخدم فى نهايات الحدائق.

أما أنماط مساكن الطبقة الأعلى تلك التى تضم علية القوم والمديرين ـ وجُلهم من الأجانب ومن العاملين بالشركة بطبيعة الحال وقتها ـ ولا حظ أننى قلتُ " أنماط " بصيغة الجمع، وهذا ما أقصده تحديداً، ذلك أن الفيلات هنا مختلفة ومنفصلة تماماً عن بعضها البعض . الاختلاف يوضحه التمايز البين فى الطرز المعمارية، والانفصال تؤكده الشوارع التى تبدو كما لو أنها شقت خصيصاً ليكون لكل فيللا طريقها المقصور عليها، ويضاف إلى هذه الشوارع الخاصة المساحات الخضراء المسورة التى تحيط بها، فضلاً عن إنشاء حديقة مركزية واسعة المساحة بديعة التنسيق وسط هذه الفيللات.

واسمح لى بأن أذكر لك أمراً كان موضع اهتمام المنشغلين بأمور السياسة وغير المنشغلين بها سواءً بسواء، ولا تطلب منى تعليقاً من أى نوع، فقد جذبت الروعة التى عليها هذه الفيلات الرئيس محمد أنور السادات ليتخذ من إحداها ـ أقصد من أفضلها ـ استراحة له لتكون هى الثانية له، بالإضافة إلى استراحته بكبائن المعمورة الموجودة بالجانب الإفريقى من المحافظة.

ومن رأيى أن السبب فى بهاء بورفؤاد / النواة لا يعود إلى توحيد الطرز المعمارية فى المناطق الأربع التى ذكرتها وحده، وإنما أيضاً إلى خطوط التنظيم التى عُدت مبتكرة وقت إنشائها، فقد جَمعت هذه الخطوط بين نمطين فى تنظيم الوحدات السكنية والشوارع هما

النمط الإشعاعي والنمط الشبكي . فالشوارع تنبثق عن الميادين انبثاق الأشعة عن قرص الشمس أو الكشاف الكهربي المضاء، وتتسع الفُرَج بينها كلما استطالت، وإذ تميل فى خطوط طولية بزاوية ٤٥ْ باتجاه الميادين فإنها تتقاطع مع بعضها البعض فتشكل شبكة من الطرق تحيط بالوحدات السكنية وتفصلها عن بعضها البعض بصورة واضحة الانسجام . وساهمت الطرز الموحدة، على اختلاف المناطق الأربع التى حدثتك عنها، وكذا خطوط التنظيم فى إضفاء صفات محببة إلى المناطق السكنية، فهى هادئة، نظيفة، صحية، وجميلة، وزاد من بهائها الأشجار التى غرست على جوانب الطرق وفوق الجزر التى تشق أنهارها ومساحات الخضرة المنتشرة بها .

وثمة أمر لم يلتفت إليه أحد، وهو غياب التسميات عن شوارع بورفؤاد/ النواة والاستعاضة عنها بالأرقام، مثال ذلك: شارع رقم (١)، شارع رقم (٢) وهكذا .. وللتمييز بين الشوارع الرئيسة والشوارع الفرعية تذكر الصفة إلى جوار الرقم، مثال ذلك: شارع رقم (١) رئيسى، شارع رقم (٢) رئيسى، أو شارع رقم (١) فرعى، شارع رقم (٢) فرعى . وهى ظاهرة لا تتواجد ببورسعيد بالصورة التى هى عليها فى بورفؤاد، فالعامة لا يتذكرون أن فى بورسعيد من الشوارع ما يحمل أرقاماً سوى شارع (٩٩) وشارع (١٠٠)، والمدققون قد يتذكرون شارع رقم (٤١) الذى أصبح سنة ١٩١٦م، كتشنر فـ ٢٣ يوليو بعد الثورة، وشارع نمرة (١) الذى هو شارع التجارة والأمير فاروق والنهضة والشهيد فريق أول عبد المنعم رياض على الرغم من أنه ليس أول الشوارع التى شقت بالمدينة . هذه الشوارع الأربعة هى التى يمكن تذكر أرقامها فى بورسعيد لاسيما أنها جميعاً أطلقت عليها تسميات مختلفة وأغلبها منذ أزمان مبكرة جداً، لكن مع بورفؤاد/ النواة فالأمر مختلف إذ أن الشوارع المرقمة كثيرة جداً، وما تزال لوحاتها تحمل أرقامها دون تسميات بديلة.

لماذا؟ ..

طرحتُ على نفسى هذا السؤال ولم أتوصل إلا لبعض التماعات من أفكار قد لا تشكل إجابات حاسمة على هذا السؤال العارض لكنها محاولة تحتاج إلى استكمال . بداية فلنتفق على أن قرارات تسميات الشوارع فى مصر هى من شئون جهة الإدارة وليست من شئون المعمارى أو مسئولى التخطيط الهندسى، وأنه نادراً ما ترتبط الأسماء بعمليات تصميم المدن والمناطق الحضرية الجديدة وهى بعد فى وضع التصميم ورسم الخرائط، ولهذا فقد تعطى هذه التصميمات رموزاً أو أرقاماً أو الاثنين معاً ـ الرموز والأرقام ـ على إحداثيات هذه الخرائط وفى المواقع عند بداية التنفيذ، وقد تستمر هذه الرموز والأرقام

حتى تمام التنفيذ ليتم استبدال أسماء جديدة بها، وقد يتم هذا الاستبدال قبل تمام التنفيذ؛ وقد حدث هذا مع بورسعيد فلماذا لم يحدث مع بورفؤاد ؟

أولي الأفكار المتعلقة بهذه المسألة تفرق بين ظروف نشأة المدينتين فمع بورسعيد كانت الأوضاع متوترة والشركة الذئبة لم تستقر بعد والأسد البريطاني دائم التحرش بها، وهناك من يجب ترضيتهم من الأوربيين والحكام المحليين، وللحكام الإقليميين رغباتٌ وأحلامٌ يجب أن تنفذ، لذا كانت التسميات ضرورة حتى قبل افتتاح القناة، مثلما كان الأمر مع أول رصيف ينشأ ببورسعيد، فقد كان من اللازم والضرورى ترضية حاكم فرنسا الإمبراطور نابليون الثالث بإطلاق اسم زوجته الجميلة الإمبراطورة أوچينى على هذا الرصيف الذى أصبح شارعاً، وكذا كان الأمر مع فرانسوا چوزيف ، والسلطان عثمان، ودى ليسبس، وواجهورن، وكتشنر .. وهكذا. المسألة كانت وقتها تحتاج إلى ترضيات ومماالآت وإشباع غرور بعض الشخصيات المؤثرة لتحقيق مصالح الشركة ؛ أما مع بورفؤاد فكانت الأوضاع قد استقرت كثيراً، فالأسد تصالح مع الذئب بعدما سيطر على العرين المصرى، والحرب العالمية الأولى كانت قد وضعت أوزارها، والسلطان فؤاد أصبح الملك فؤاد، ومن ثم لم يكن المجال مجال ترضيات أو ممالآت، وتكفى ترضية واحدة للملك المصرى بإطلاق اسمه على المدينة الجديدة كما طلب المجلس البلدى ؛ فلماذا العجلة فى رفع أرقام الشوارع وإطلاق تسميات عليها ؟

ثانية هذه الأفكار تتعلق بالمخطط التنظيمى لبورفؤاد / النواة، فقد أخرج هذا المخطط المدينة الجديدة فى صورة هندسية ذات طابع وظيفى أكثر منه اجتماعى أو شخصانى ؛ فلا زركشات ولا زخارف، فلماذا تنسب منطقة أو مناطق لأسماء بعينها ؟.. ثم إنَّ أرقام الشوارع تتوافق مع معطيات الهندسة أكثر مما تتوافق مع الحروف التى تكون الأسماء سواء كانت لأشخاص طبيعيين أو اعتباريين أو أوصاف لمعان أو أماكن.

وثالثها يتعلق بطرائق الاستدلال، فعند تقاطع شارعين تمت تسميتهما يُذكر اسما الشارعين، وأسهل من هذا ذكر الرقمين اللذين يدلان على الشارعين . وبالنسبة للوحدات السكنية المتلاصقة من فيلات وعنابر فإن التنسيب يكون هو الأفضل بذكر رقم الشارع ورمز الفيلا ـ مستقلة أو غير مستقلة ـ أو الوحدة السكنية الملحقة بالعنبر.

هذه مجرد أفكار مستنتجة أكثر منها معلومات مؤكدة فلربما كان أحدها أو بعضها أو حتى كلها السبب فى استمرار حمل أغلب شوارع بورفؤاد النواة لأرقامها، والأمر يحتاج إلى استكمال.

أما الامتدادات، تلك التى أقيمت بعد تأميم قناة السويس، وبتحديد أكثر بعد انتهاء

حرب ١٩٥٦م. حتى التهجير الجبرى سنة ١٩٦٩م الذى استلزمته ضرورات هزيمة ١٩٦٧م وحرب الاستنزاف، وبعد حرب ١٩٧٣م وبتحديد أكثر بعد العودة من التهجير سنة ١٩٧٤م، فقد جاءت على نمط مختلف، فلا الطرز هى الطرز ولا التنظيم هو التنظيم . فالوحدات السكنية أصبحت رأسية، وأشكال البناء تعددت والألوان تنوعت والارتفاعات تفاوتت، والمساحات لم يعد يضبطها ضابط .

والأسباب كثيرة، منها:

* الانفجار السكانى.
* قلة المساحات المتاحة للبناء الإسكانى.
* ارتفاع أسعار الأراضى ومواد البناء.
* الضعف الاقتصادى.
* تنوع الملاك بين أفراد ومؤسسات أهلية وجمعيات تعاونية إسكانية، فضلاً عن الحكومة وما تبنيه من مبان سكنية قبيحة الشكل.
* تغيير هيئة قناة السويس ذاتها لأنماط بناء وحداتها السكنية ،ومنشآتها الإدارية، فبعد أن هدمت عنابر أسر العمال قامت ببناء عمارات سكنية متعددة الطوابق بدلاً منها، كما قامت ببناء مجموعات مماثلة فى الشمال الشرقى بمواجهة منطقة البلاج.
* مسايرة بعض المعماريين لأنماط البناء فى المناطق المميزة بسائر أنحاء الوطن حيث ظهرت الأبراج السكنية تلبية لرغبات الملاك من الأفراد والشركات والجمعيات الإسكانية، حتى المبانى الحكومية زادت طوابقها من أربعة طوابق إلى ستة طوابق.
* التعاقدات الانفرادية على عمليات التصميم والبناء، مما نوع من أعداد المعماريين ومن ثم اختلفت المدارس وتجاورت القدرات الابتكارية والتقليدية، فتلاصقت المبانى الحداثية والمستنسخة فى نفس المشهد.
* شيوع قيم التحرر من أسر الطرز الجاهزة لدى قطاع عريض من المعماريين.

وبالنسبة للنقطة الأخيرة فإنه يمكن القول بأن العمارة مع الألفية الثالثة تتجه بقوة إلى نبذ مبدأ التكرار الذى كان أحد ملامح الهوية المعمارية، ربما بتأثير من الثورات التكنولوجية المتتابعة، وربما بسبب جهود معماريين مبتكرين يعتمدون فلسفات مغايرة لما ساد لآماد طويلة، وربما لأسباب أخرى، أياً ما كان الأمر فقد باتت الطرز المعمارية - مزخرفة أو غير مزخرفة - أشبه بالموضة القديمة.

ومع هذا فإن الخروج على مبدأ التكرار، والازورار عن الطرز المنمطة لا يعنيان بأية حال إلغاء الهوية ؛ فبقدر ما تتيحه الثورات التكنولوجية وابتكارات المعماريين من

تغييرات، بقدر ما تتفتح المجالات واسعة لإعادة تشكيل الهوية.

وعلى كل ما زالت بورفؤاد فى تنام وامتداد حتى وصلت الوحدات السكنية إلى منطقة الملاحة وتجاوزت منطقة الجبانة . وفى الوقت الذى لم يعد ممكنناً فيه سوى البحث عن ظهير عمرانى شرقى البحيرة فى سهل الطينة، لم يعد ممكناً أيضاً البناء على نفس الطرز القديمة.

ومع اختلاف طرز البناء الحديثة عن مثيلاتها القديمة فإن فى هذه المدينة من الوحدات المعمارية ما يقوم بالربط بين ما هو قديم وما هو حديث، أو بالأصح بين ما هو غربى وما هو شرقى أو عربى.

ومن هذه الوحدات مبنى المحكمة المختلطة بطرازه المراكشى وواجهته ذات الأعمدة الأربعة و عقوده الثلاثة وبرجه المستطيل ذي الأضلاع الأربعة بارتفاعه غير المبالغ فيه وفسيفسائه الخضراء البديعة، وقد افتتح هذا المبنى فى مايو ١٩٣٤م. باحتفال كبير تكفلت بنفقاته شركة القناة بإشراف البارون دى بنوا، وكان قد دعا رئيس محكمة الاستئناف المختلط المستر هوسون Houson ورئيس محكمة المنصورة المستشار إيمان وكثير من المحامين لحضور هذا الاحتفال وحضروا بالفعل(٤٢).

وقد تحولت هذه المحكمة إلى محكمة للاستئناف، ولفترة شغلت مكاتب ديوان حى بورفؤاد الجزء الخلفى منه ولم تغادره حتى تم تشييد مبنى مستقل للحى، ثم شغل نفس هذا الجزء مكتب خبراء وزارة العدل . وأياً ما كانت التغييرات التى طرأت على هذا المبنى، فإنه يظل شاهداً على انحراف العدالة فى واحدة من أشد الفترات التى شهدتها مصر حلكة بتفريقها بين الأجنبى المميز والوطنى مهضوم الحق.

ومن الوحدات المعمارية التى قامت بمهمة الربط بين القديم والحديث من الطرز المعمارية مبانى الترسانة البحرية التى تجمع بين أنماط البناء الغربى والفرعونى والإسلامى فى وحدة عضوية تتأبى على الفصل وتنسجم مع الفيلات السكنية التى تواجهها لا سيما المبنى الرئيس بشرفاته المتعددة ذوات الأعمدة المستديرة والنوافذ الخضراء التى تُفتح بدفعها إلى الأمام، وبزخارفه الحمراء البسيطة على الواجهة، وسورة الرمادى الذى تتخلله وحدات زخرفية غاية فى البساطة تجمع بين الأحمر والأبيض وتتآلف مع ما يحيط بها من مبان.

ومبنى النادى الاجتماعى لنقابة المعلمين المقام بشارع الشيخ محمد متولى الشعراوى بقلب مناطق العمران الجديدة التى تاخمت منطقة الملاّحة يقوم بنفس المهمة بحمرته الخفيفة والمُجَسَّمين المُصَمَّمين على هيئة زهرتى لوتس تحفان ببوابته العريضة، وبرجيه

اللذين يحتضنان مبناه الرئيس ولا يرتفعان عنه كثيراً والقرميد الأحمر الذى يغطى مظلات النوافذ والأبواب.

غير أن أهم ما يقوم بهذا الدور ولا يربط فقط بانسجام ما بين الطرز المعمارية غير المنسقة، وإنما أيضاً يعطى الدليل على إمكان المصالحة بينها والعيش فى تجاور ووئام، على الأقل من الناحيتين التاريخية والجمالية، فهو دور العبادة، بقبابها ومآذنها وأهلّتها (المساجد) وبأبراجها، أيقوناتها وصُلبانها (الكنائس)، فهذه الدور تبدد بسموقها وبساطتها وضراعة مآذنها وأبراجها، أى إحساس بالتوزع أو التشتت بين البيوت المنخفضة والعمائر متفاوتة الارتفاعات، وهى بالتصاقها بالأرض ورنوها نحو السماء ترفع ما انخفض من مبان وتخفض ما ارتفع واستعلى .

واسمح لى عزيزى القارئ بأن أحكى لك نُبذاً عن بعض من هذه الدور .

دور العبادة ببورفؤاد

(١)

مساجد المسلمين الجامعة

المسجد الكبير:

أقدمها هو المسجد الكبير ولم يكن يُعرف بهذا الاسم حين إنشائه، وإنما كان اسمه مسجد فاروق الأول ببورفؤاد، ووضع الملك فاروق حجر أساسه فى ١٥ من ربيع الأول سنة ١٣٣٦ هـ الموافق ١٠ مارس ١٩٤٤م. فى نفس اليوم الذى وضع فيه حجر أساس مسجده ببورسعيد .

واجهته تكاد تشبه واجهة مبنى محكمة المختلط بأعمدته الأربعة وعقوده الثلاثة . مئذنته غير مُبالغ فى ارتفاعها ومربعة الأضلاع، وقبته مُثمنة، ومظلات شبابيكه ومداخله مائلة ومصنوعة من القرميد الأحمر . وما هى إلا سنوات قليلة وزال اسم الملك فاروق عن هذا المسجد مثلما زال عن المسجد الذى وضعَ حجر أساسه فى بورسعيد . حدث هذا بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م.

وإذا كان مسجد بورسعيد قد اكتسب اسماً جديداً هو مسجد الرحمة، فقد عرف الناس هذا المسجد باسم الجامع الكبير، وتسمى الميدان الذى يشرف عليه بالميدان الكبير . ورُفعت مظلة من الصاج فى حديقة المسجد أمام واجهته الرئيسة لتيسر على المصلين، المتزايدة أعدادهم، الصلاة أيام الجمع والأعياد، وفى أوقات تغير الأحوال المناخية، إلا أن هذه المظلة حجبت بعضاً من بهاء هذا المسجد.

مسجد النور:

وهو مسجد متوسط الحجم، قريب من ميدان ٦ أكتوبر من الناحية الشمالية، أبيض اللون، قبته مربعة ومئذنته قصيرة، أسسه السيد السيد صبح ، وافتتح للصلاة فيه يوم الاثنين ٢٨من رجب ١٣٨٥ هـ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٩٦٥م.

مسجد قباء:

وهو مسجد متوسط الحجم، يحتل الناصية الشمالية الشرقية لتقاطع شارعى ٢٣ يوليو والشيخ محمد متولى الشعراوى، قبته مضلعة بأسقف مائلة ومئذنته متوسطة الارتفاع منفصلة عن جسم المسجد متعدد الأضلاع، وللمسجد ساحة مسورة، وتأسس فى رمضان ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م على نفقة المغفور لها ريهام محمد الكيلانى.

مسجد الرحمن:

أسسه محمود صبح وهو مشهور بمسجد الشعراوى نسبة إلى الشارع الذى يطل عليه وهو شارع الشيخ محمد متولى الشعراوى . القبة مضلعة وأسقفها مائلة ومصنوعة من القرميد المطلى بالأخضر، والمئذنة منفصلة عن جسم المسجد ولها شرفة واحدة. وللمسجد ساحة مسورة، وافتتح للصلاة يوم الجمعة ٢٧ صفر ١٤١٥هـ الموافق ٥ أغسطس ١٩٩٤م وحضر الافتتاح محمد على محجوب وزير الأوقاف وفخر الدين خالد عبده محافظ بورسعيد.

ومن المساجد فى طور الإنشاء ببورفؤاد مسجد السيدة خديجة بنهاية شارع ابن خلدون عند مدخل المَلَّاحة، وهو متوسط الحجم يتكون من طابقين، ليس له مئذنة وقبته من الفسيفساء الأخضر.

مسجد المجمع الإسلامى ببورفؤاد:

افتتح هذا المسجد الجامع للصلاة فيه يوم الجمعة ٢٠ من رجب سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر ١٩٩٤م، وحضر افتتاحه كل من شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق والدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف والدكتور محمد سيد طنطاوى وقت أن كان مفتياً للديار المصرية وفخر الدين خالد عبده محافظ بورسعيد . وهو جامع شامخ يُعد مأثرة معمارية، ويقع عند مدخل بورفؤاد الغربى حيث يطل على ساحة المعديات وميدان ٦أكتوبر ويُصْعَد إليه عبر اثنتين وعشرين درجة، وله مئذنتان شاهقتا الارتفاع وأربع قباب صغيرة تتوسطها قبة ضخمة، وبواجهته الرئيسة أربعة أعمدة وثلاثة عقود، وله مظلات لواجهاته قصيرة مائلة ومصنوعة من القرميد المطلى بالأخضر . وقد استغرق بناء هذا المسجد نحو إحدي عشرة سنة.

مسجد عباد الرحمن:

هو مسجد ضخم البناء تعلوه قبة واحدة ضخمة، ولا مآذن له، يقع فى نهاية شارع الشيخ محمد متولى الشعرواى من الجهة الجنوبية . تأسس يوم الاثنين ١٣ من رمضان سنة ١٤١٥هـ الموافق ١٣ من فبراير ١٩٩٥م.

المسجد المحمدى:

هو أيضاً مسجد متوسط الحجم، يقع فى بداية منطقة العبور الإسكانية الشعبية، مئذنته مرتفعة وبها شرفتان، وقبته عالية ذهبية اللون وبها شريط أخضر اللون . أنشأه محمد إبراهيم، وافتتح للصلاة سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م وأجريت عليه توسعات وتعديلات تم تمويلها بالجهود الذاتية، وأعيد افتتاحه للصلاة سنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

(٢)

كنائس المسيحيين

الأقباط الأرثوذكس:

كنيسة مار جرجس:

بتاريخ ٢٠ من يناير ١٩٤٠م أسس الأقباط الأرثوذكس ببورفؤاد جمعيتهم الخيرية، وتقدمت هذه الجمعية لمصلحة الأملاك المشتركة بطلب للحصول على قطعة أرض لتشييد كنيسة لهم، و حصلت على الأرض التى بلغت مساحتها ٨٧٨ متراً سنة ١٩٤٦م (موقعها الآن شارع ١٥ سبتمبر) وبمجرد حصولها على الأرض أقامت كنيسة صغيرة مؤقتة تم تدشينها عام ١٩٤٨م، وتعثرت الجمعية فى بناء الكنيسة لأسباب تتعلق بالإدارة ؛ وعلى الرغم من صدور قرار رئيس الجمهورية (اللواء محمد نجيب) رقم ١٢ لسنة ١٩٥٣م ببناء الكنيسة ونشره بالعدد رقم ٧٥ من جريدة الوقائع الرسمية الصادر فى أول سبتمبر١٩٥٣م، فإن الجمعية أجَّلت البناء ريثما تشترى قطعة الأرض المجاورة لها من ناحية الشمال التى عرض مالكها بيعها . غير أنها تعثرت فى سداد التزاماتها المالية قِبل مصلحة الأملاك المشتركة ، فحصلت المصلحة على حكم بالحجز على أرض الكنيسة برقم ١٤ لسنة ١٩٦٥م وتحدد يوم ٢١ نوفمبر ١٩٦٥م. لبيع الأرض، إلا أن الأوامر صدرت بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٩٦٥م بإعفاء الكنيسة من كل الديون المستحقة، ومع هذا لم تبدأ أعمال استكمال البناء إلا فى ١٨ ديسمبر ١٩٧٦م ولمَّا أصبحت الكنيسة جاهزة، دُشنت للصلاة فى الثانى من سبتمبر عام ١٩٨٤م(٤٣).

ومبنى الكنيسة شامخ تتصدر واجهته أيقونة تصور مار جرجس فى هيئته التقليدية راكباً حصانه وطاعناً التنين برمحه. ويصعد من جانبى المبنى برجان أعلى كل منهما صليب مربع.

كنيسة مارمرقس:

بتاريخ ١٨ طوبة ٧١٤ ش. الموافق ٢٦ يناير ١٩٩٨م . صدر القرار الجمهورى رقم ٤١ لسنة ١٩٩٨م. بالموافقة على إنشاء هذه الكنيسة بمناطق الامتداد السكانى الجديد جنوب بورفؤاد، فى المنطقة المعروفة بأرض المعاشات . وكالعادة أقيم مبنى مؤقت فى هذا الموقع للصلاة فيه، وتم تدشين هذا المبنى فى ١٦ من إبريل ١٩٩٨م. بإقامة قداس خميس العهد برئاسة الأنبا تادرس(٤٤). وتم تشييد ثلاثة طوابق منها حتى الآن، وتجرى أعمال الاستكمال لبقية الطوابق، ويمكن لمن يمر فى التفريعة الشرقية للقناة رؤية المبنى غير المكتمل.

الأقباط الإنجيليون:

الكنيسة الإنجيلية:

تشغل عمارة عادية بامتداد شارع الجزائر.

كنيسة نهضة القداسة:

تشغل هى أيضاً عمارة عادية بشارع الحرية.

وفى بورفؤاد كنيسة تحولت إلى دار لرعاية الأيتام والأرامل، تقع هذه الكنيسة فى الشارع رقم ٢٥ مكرر، ما بين مدرسة سان چورچ للآباء الفرنسيسكان ومبنى الجمعية التعاونية الاستهلاكية للعاملين بهيئة قناة السويس، وهو بالمناسبة من مبانى بورفؤاد القديمة إذ يعود تاريخه إلى سنة ١٩٢٧م، وما زال مبنى الكنيسة قائماً ومتماسكاً.

مرفق معديات بورفؤاد

نعم .. نعم .. بالتأكيد يا عزيزى السمع ليس كالرؤية .

وليس من سمع كمن رأى .

لذا سأصحبك إلى الضفة الأسيوية للقناة لترى بعينيك أن ما أخبرتك به عن بورفؤاد وأحوالها حقيقة وليس خيالا.

الأمر لا يتطلب سوى دقائق لعبور القناة، والعبور يستلزم معدية، والمعدية تحتاج إلى مرسيين أحدهما على الشاطئ الإفريقى والأخر فى الشاطئ الأسيوى ،أى أحدهما فى بورسعيد والآخر فى بورفؤاد، وهذا ما يوفره لى ولك وللكافة مرفق المعديات الذى وصلنا إليه الآن ونحن نتبادل الحديث .

انظر .. إنَّ الموجود ليس مرسى واحداً، وإنما عدة مراس، وهى ليست معدية واحدة وإنما عدة معديات . أراك منبهراً بحجم الحركة .. رسو وإقلاع، راجلون وراكبون، دراجات وسيارات .. زحام منضبط ، وهرولات فى اتجاهات شتى، وعمال ينظمون الحركة.

هذا هو مرفق المعديات بورسعيد / بورفؤاد يا عزيزى .

مرفق قديم يعود تاريخه إلى تاريخ نشأة بورفؤاد .. إلى سنة ١٩٢٥م ، أى قبل افتتاحها بسنة . فقد سيرتها الشركة منذ هذا التاريخ وعملت على أن تكون وسيلة مريحة لنقل الركاب والمركبات بين الضفتين حتى وُصفت فى وقت بأنها تبدو كشارع عائم ينتقل به الإنسان فيما يشبه الحلم، إذ يُخيل إليه أنه لم يترك الطريق الذى كان سائراً فيه من فرط إتقان المناسيب فى الجانبين، وعدم وجود أى فارق بين سطح المعدية وسطح الشوارع فى أى من الجانبين، لا سيما أن عملية التعدية لا تستغرق إلا دقائق معدودة وتتسم بغاية النظام والهدوء والراحة .

هذا ليس كلامى، إنه كلام فؤاد فرج الذى نقلت لك عنه الكثير(٤٥).

ها هى واحدة قد رست . لا تتعجل الركوب . انتظر حتى يغادرها ركابها وكما ترى هم كثر.

هذا المرفق لا يتوقف أبداً، لا فى وقدة الصيف ولا فى زمهرير الشتاء .. سقط السحاب ثلجاً، أو هبط غماماً .. التمع الماء بالشمس لا تستطيع النظر إليه، أو أغطشه الضباب فلا ترى ضفتيه .. أبداً ما توقف .. لا يمكن أن يتوقف هذا المرفق، ولا يتصور أحد من هؤلاء الجادين فى الهبوط أو القلقين من الانتظار أنه من الممكن أن يتوقف ولو لبعض يوم . القناة هى فلك هذا المرفق الخاص، فيه تتحرك معدياته.. تذهب وتؤوب .. تؤوب وتذهب .. بانتظام لا يعرف التوقف.

فى الماضى لم يكن هذا المرفق يملك سوى ثلاث معديات فقط، وكانت لها أسماء:"إفريقيا "، " أسيا "، و" أوروبا " . كانت الظروف غير الظروف والزحام كان غير الزحام .. لكن كما هو الحال مع المعديات التى تراها أمامك الآن كانت هذه المعديات الثلاث تنقل سيولاً لا تتوقف من البشر، فقد قُدِّر متوسط ما تنقله بنحو ٥ آلاف راجل، وستمائة مركبة، وألف وثلاثمائة دراجة، لكن ازدياد حجم بورفؤاد وتضخماً أعداد سكانها، زيادة وتضخم لا يعرفان التمهل، وضع المرفق فى قلب مشكلة مرورية كبيرة، لا سيما أن المعدية الواحدة لا تزيد طاقتها الاستيعابية عن ست مركبات من الحجم الصغير، وهناك أوقات ذروة يحتقن أثناءها المرفق، لا سيما فى مواعيد ذهاب العمال إلى ورش الشركة ببورفؤاد أو فى مواعيد عودتهم منها، وكذا فى المَرَّات التى كانت تشهد فيها بورفؤاد مباريات رياضية، وكذا فى فترات التنزه المسائى . كل هذا كان - وما يزال - استلزم أن تكون معديات المرفق على استعداد دائم وكاملة الصيانة باستمرار . لذا فقد كانت هذه المعديات تعمل بالمناوبة أو بالتبادل بين الضفتين بحيث أصبح المرفق شبيهاً بما يأتيه

البهلوان الذى يتلاعب بثلاث كرات معاً بيديه الاثنتين .

وكانت هناك أمورٌ فى أسلوب تشغيل هذه المعديات نراها الآن جميلة ونتحسر على غيابها:

أولها : الصفارة المميزة التى تنذر بالتحرك الوشيك للمعدية التى ستغادر.

ثانيها : الأبواب الجرارة التى يتم إحكام إغلاقها قبيل التحرك بمسمار غليظ مثبت بسلسلة ما زال أبناء جيلى يتذكرونها.

ثالثها : العمال - بزى البحارة - الذين يعاونون الأطفال والمسنين من النساء والرجال على الصعود إلى المعدية أو الهبوط منها، لا سيما أن فراغاً كان موجوداً دائماً بين المعدية ورصيف المرسى سببه لفات الحبال المضغوط والإطارات الكاوتشوك المعلقة على جانبى المعدية لتحفظ جسم المعدية عند الاحتكاك بالمرسى.

رابعها : فصلها بين الركاب المترجلين وسائر المركبات سواء كانت سيارات أو عربات أو حيوانات جر أو دراجات، فالمترجلون لهم جانبيا المعدية، والراكبون لهم ممر يتوسط المعدية، وثمة فواصل بين الأجزاء الثلاثة لا تمنع من رؤية الكل للكل.

خامسها : الصالونان البديعان اللذان يتوسطان الجزءين المخصصين للمترجلين، فكانا صالونين رائعى التصميم بحق، الدخول لكل منهما كان يتم عن طريق اجتياز باب يُقفل عند اشتداد البرد أو الريح .

سادسها : تلك الأناقة التى كانت عليها كل معدية حتى لكأنها - من أناقة طلائها ذى اللمعة الورنيشية واللون الكلاسيكى - قد صنعت من خشب الأرو أو الماهوجنى على اختلاف نوعيهما.

سابعها : وجود معدات السلامة والإنقاذ من الغرق فى متناول الركاب.

ثامنها : اختفاء مشغلى كل معدية عن أعين الركاب - باستثناء عمال الأبواب - إما فى قاع المعدية أو فى كابينة القيادة .

تاسعها : عدم تأثر الركاب بأدخنة التشغيل لأن لكل معدية مدخنتين علويتين مفصولتين عن أماكن تواجد الركاب.

عاشرها : توفر إضاءة جيدة داخل المعدية لإنارتها أثناء العبور الليلى.

لكن هذه الميزات العشر قلل منها كثيراً أمران أولهما الطبقية التى صاحبت استخدامها، وتبدت هذه الطبقية فى البوابات التى كانت موضوعة عند المداخل المؤدية إلى مراسيها فى الضفتين الغربية والشرقية، والبوابات التى كانت موجودة فى بورسعيد كانت تتخلل الحائط الشبكى شاهق الارتفاع المصنوع من أسلاك غليظة جداً، وكان على

الرصيف بجوار باب رقم ١٥ المخصص للإشكاربية (الفحامة) باب صغير لدخول الوطنيين وجلهم من العمال الذاهبين على أرزاقهم في منطقة القناة أو الذاهبين إلى ورش الشركة ببورفؤاد، وباب آخر أوسع طولاً وعرضاً كان يفتح ويُغلق نهر الشارع - شارع دى ليسبس/ سعد زغلول - أمام السيارات والدراجات. وكان تفتيش الوطنيين يتم أمام هاتين البوابتين إن حزب الأمر أو أراد الأجانب أو الحكام تعكير أمزجة العابرين من الوطنيين، أما الأجانب وأبناء الطبقة الراقية فكان لهم شارع السلطان حسين ؛ ومن ثم كان أحد جانبى كل معدية للوطنيين والآخر للأجانب وأبناء الطبقة الراقية ولا التقاء بينهما ، لكن أمام الأطفال لم تكن هناك أية موانع تحول بين تحركهم فى جميع أرجاء المعدية شاء النظام هذا أم لم يشأ.

الأمر الثانى هو كثرة حوادث وقوع الركاب فى مياه القناة، لكنها على العموم ليست حوادث مفجعة، والحوادث الملاحية من الضآلة بما لا يجعلها رقماً يُذكر.

وكان ركوب المعديات بلا مقابل حتى عام ١٩٣٧م حيث أصبحت بمقابل زهيد: مليمين للراجل وثلاثة مليمات للدراجة وضعفها للسيارة. وظل هذا المقابل سارياً إلى ما بعد التأميم، كل ما طرأ عليه من تغيير هو اللغة المطبوعة بها التذكرة، فقد أصبحت تطبع باللغة العربية الخالصة .

لكن الأوضاع تغيرت بفعل التقادم والزحام، فأحيلت المعديات الثلاث إلى الاستيداع وظهرت أجيال أخرى من المعديات تواترت حتى ظهر الجيل العريض الضخم المكشوف فى أغلبه ذو الطاقة الاستيعابية الكبيرة التى يتحرك أمامنا الآن.

أول هذه الأجيال - أجيال ما بعد المعديات الفرنساوى - لم يكن كما تراه أمامك. كان أصغر كثيراً، وبوابته من نوع الـ (Ramp البوابات المنحدرة) كانت تنزل بإرخاء جنزير غليظ وترتفع بجذب ذات الجنزير، وكان عامل يقوم بهذه المهمة العضلية عبر بَكرة تيسر له قيامه بعمله، وقد لعب هذا الجيل من المعديات دوراً مهماً إبان هزيمة يونيو ١٩٦٧م. فقد كانت تنقل الجنود المنسحبين من سيناء هم ومركباتهم، وتخيل عزيزى القارئ كيف كانت المعدية من هذا الجيل تنقل الدبابات والمجنزرات .. إنها مهمة لم تُعد لها أصلاً .. حقاً لقد قامت معديات هذا الجيل بمعجزة.

بعدها تم توسيع المعديات وزيادة طاقاتها الاستيعابية، لكنها كانت مكشوفة بالكامل للهواء والمطر، ثم أُدخلت عليها الصالونات، لكنها صالونات معدنية، والكراسى أضحت بلاستيكية، ومطالع ومنازل الركاب والمركبات استمرت بالبوابات من نوع الـ Ramp، لكن أُدخل عليها النظام الهيدروليكى، لكن ظلت مزاحمة سيارات النقل الثقيل وعربات الكارو

وحيوانات الجر تزاحم البشر ومركبات الركاب، وظل الشحاذون والباعة المتجولون يزعجون كل من يركب المعدية، ووقعت حوادث سقوط الركاب المتعجلين والشبان المغامرين، الذين يحاولون القفز إلى المعدية بعد تحركها، فى مياه القناة. ولم يكن هناك ما يحد أو يُخفف من هذه الحوادث، فالبوابات من نوع الـ Ramp تغرى بالوثوب إلى المعديات على الرغم من يقين الواثب من أنها تتحرك، كما أنها تغرى بالوقوف عليها أثناء رحلة العبور للاستمتاع باستقبال الهواء الدافق مثلما فعل دى كابريو وحبيبته فوق ظهر السفينة تايتانك فى الفيلم المشهور، أو لكسب قصب السبق بالهبوط المُعَجَّل إلى المرسى حتى قبل تمام الرسو.

وكانت أشياء كثيرة غائبة، فلم تكن اللوحات الإرشادية تنبه وتلح فى التنبيه، والحواجز التى تمنع من الوقوف على البوابات لم يكن لها وجود، ولم يكن هناك عمال يساعدون الركاب أو يمنعونهم من إتيان ما لا تحمد عقباه، فضلاً عن أن العوامات ومعدات الإنقاذ كانت قليلة وبمنأى عن الركاب. وتصادف أن أصبحتُ مديراً لمتابعة شئون الميناء بديوان عام محافظة بورسعيد، واسمح لى بأن أتحدث عن نفسى، عزيزى القارئ فى هذه الجزئية، فبادرتُ بمخاطبة هيئة القناة وبدأت المحافظة والهيئة - ممثلة فى مرفق المعديات - عهداً من التعاون أثمر تركيب حواجز مفصلية فى جميع المعديات منعت المغامرين والمتعجلين من امتطاء البوابات، وتعيين عمال يرتدون ملابس موحدة للمساعدة والمنع، وتثبيت اللوحات الإرشادية فى أماكن مرئية، وزيادة أعداد العوامات ومعدات الإنقاذ وتعليقها بحيث تكون فى متناول الركاب، وكان المهندس المسئول عن المرفق وقتها متعاوناً إلى أقصى حد. وبشأن الشحاذين والباعة الجائلين الصاعدين إلى المعدية ومفترشى الطريق المؤدية إلى المراسى خاطبت شرطة الميناء بشأنهم فانتهى تردد هؤلاء إلى حين. وعقدنا الاجتماعات تلو الاجتماعات لتطوير المرفق، وأثيرت مشكلات وطرحت حلول، وفاجأتنا هيئة قناة السويس بزيادتها لعدد المراسى وإنشاء مرسى جديد باتجاه الجنوب عند منطقة الرسوة، وشرعت الهيئة فى التنفيذ وأنا ومعاونى فى المتابعة إلى أن تم الانتهاء من مرسيى الرسوة/ بورفؤاد ليتم التخفيف من أعباء معديات بورسعيد/ بورفؤاد بتولى المرسيين الجديدين مهمة نقل عربات النقل الثقيل والخفيف والأتوبيسات وعربات الكارو وحيوانات الجر إلى بورفؤاد عبر معديتين خصصتا لهذا الغرض.

لكن أموراً أخرى لم تتحقق منها التنظيمى ومنها الجمالى، لن أزعجك بها، لن أنظر باتجاه شارع زغلول . كما ترى فإن السيارات التى يروم أصحابها ركوب أى معدية إلى بورفؤاد يدخلون إلى حارات (ممرات) وينتظرون فيها . عدها ، إنها ست حارات ممتدة

بطول يقترب من ١٢٥ متراً وتستوعب كل حارة ما بين ٣٥ و٤٠ سيارة صغيرة . فى أوقات الذروة تزدحم هذه الحارات بالسيارات المنتظرة لأدوارها، أى أن المكان يحتشد بما يتراوح بين ٢١٠ و٢٤٠ سيارة، ومع هذا فهى حارات مغلقة من جميع الجوانب، فإن حدث عطب أو حريق لا سمح الله فى سيارة وسط هذا الزحام فلن يتيسر النجاة لكثيرين، أضف إلى هذا أنه لا توجد فى أماكن الانتظار هذه معدات إطفاء حريق ملائمة ولا طفايات تتحرك على عجلات، وهذا أبسط ما يطلب.

تطلع إلى المراسى التى أمامك هنا فى بورسعيد، عددها أربعة، ويقابلها فى بورفؤاد أربعة مراس شبيهة . أيام الفرنسيين لم يكن هناك سوى مرسى واحد ببورسعيد يقابلها آخر ببورفؤاد . عد المعديات سواء الراسية هنا فى بورسعيد أو التى تعبر القناة الآن أو تلك التى تلوح لك راسية فى البر الشرقى .. إنها ست معديات، لكن دقق النظر هناك إلى يمين مراسى بورفؤاد، ثمة واحدة ساكنة لا ركاب فوقها ولا تتحرك . حسناً .. هذه المعدية احتياطية لمواجهة متطلبات النقل فى أوقات الذروة أو أوقات الطوارئ . إذن هى سبع معديات تعمل بين هاتين النقطتين . أيام الفرنسيين كانت ثلاثاً كما سبق أن أخبرتك.

لا تظن أننى أستكثر هذا العدد من المعديات أو أراه كافياً لتلبية حاجات النقل بين ضفتى القناة بكل من بورسعيد وبورفؤاد، بالعكس هو عدد قليل، وإن لم يستنبط حل جذرى فإن المشكلة ستعاود الظهور بأحد مما كانت عليه . من قبل تردد الحديث - وما زال - عن كوبرى يربط بين المدينتين، لكن الكوبرى كان من نصيب موقع يقع إلى جنوب مدينتى القنطرة غرب والقنطرة شرق . وأثناء وبعد إتمام نفق الشهيد أحمد حمدى كان هناك حديث عن نفق مماثل يربط بورسعيد ببورفؤاد ومناطق أخرى من سيناء، وقيل كثير عن مساهمات للقطاع الخاص حتى يرى مشروع النفق النور، ونشرت الصحف صوراً لماكيتات ورسوم تخطيطية ونقلت تصريحات وحوارات، ثم ما لبث كل هذا أن خمد. المشكلة ليست بنت هذه الأيام لكنها كانت موضع تفكير من قبل مسئولى شركة قناة السويس عند نشأة بورفؤاد الأولى فقد فكروا فى وسيلة مبتكرة، وقد ذكر ضياء الدين القاضى نقلاً عن مرجعه اليونانى خلدوبيس أنه كان من المقرر إقامة وسيلة اتصال كهربائية أعلى القناة، إلا أنها لم تنفذ(٤٦)، ونحسب هذه الوسيلة هى التليفريك.

وما أبغى من إثارة ما أثرتُ، إلا التبصير بما قد يحدث فى مستقبل الأيام والتحسب له من الآن.

والآن .. هيا بنا نركب، فالمعدية أخلت ركابها، وهاهم آخرون يركبونها.

أنت الآن تعبر القناة التى ضحى من أجلها ١٢٠ ألف مواطن مصرى . أنت الآن تعبر

ماءً تخضّب بالدم فى حروب غير قليلة، والمعدية تمرق بك وبى وبكل هؤلاء الذين يحيطون بنا من بين شمندورات شهدت الكثير من أحداث الزمان ، وتشق ونحن على متنها زحاماً من أجنحة النوارس لطالما عانتْ مثلما عانى أبناء المدينة التى غادرناها والمدينة التى نحن مقبلون عليها.

صفحة الماء داكنة الزرقة، ترنو إلينا .. وكعادتها تتذلل أمام مقدمة معديتنا، وتفسح لنا الطريق إلى القارة الأسيوية .. إلى بورفؤاد التى تراها شديدة القرب منك، ها هو مسجد المجمع الإسلامى يرفع مئذنتيه ذراعين ممتدتين إلى السماء فى ضراعة.

واسمح لى أن أخبرك، قبل أن نصل إلى المرسى وقبل أن أنسى، بأن هناك مرسيين آخرين على ضفتى التفريعة الشرقية تعمل بينهما معديتان تصلان ما بين بورفؤاد وبالوظة (التحريف العربى لبيلوزيوم) .. هل تذكر حديثى عنها فى الباب الأول ؟

قاعدة جرانيتية حمراء

ها نحن قد وصلنا، وها هى أقدامنا تطأ الأرض الأسيوية.

انظر إلى زحام العربات والدراجات والناس.. أمامك ١٨ حارة بطول حوالى ستين متراً لكل حارة، أغلبها مشغول بالسيارات المنتظرة للانطلاق إلى المعدية التى هبطنا منها أو أية معدية أخرى، هل ترى الكشك الموجود هناك ؟.. ما من سيارة يمكنها أن تقف فى أية حارة إلا إذا مرت من أمام هذا الكشك. إنه كشك تحصيل رسوم العبور من السيارات ومن السيارات فقط .

وهاك مسجد المجمع الإسلامى الذى حدثتك عنه مشرئب بقبابه ويمد مئذنتيه ناحية السماء، ومحكمة الاستئناف بعباءتها المراكشية تلوح هادئة وديعة إلى جوارها ؛ وأمامهما فى الوسط، بعد النافورة قرنفلية الشكل، قاعدة جرانتية حمراء..

آه .. القاعدة الجرانيتية الحمراء..

أتعرف قصة هذه القاعدة ؟..

سأحكيها لك ثم أتوقف عن الحكى لأريك ما قصصته عليك رأى العين. حدث فى سنة ١٩٥١م، سنة الالتهابات وإلغاء معاهدة ١٩٣٦م، أن حاولت شركة القناة استمالة الملك فاروق إليها ومخاطبة عواطفه، فلم تجد أفضل من أن تنشئ تمثالاً لأبيه الملك فؤاد الأول وتضعه فى مدخل المدينة المسماة باسمه . لذا أقامت يا عزيزى هذه القاعدة المصنوعة من الجرانيت الأحمر، وأنفقت على هذا التمثال حتى تم، ورتبت زيارة للملك فاروق ليحضر حفل إزاحة الستار عن التمثال فى الأول من نوفمبر من نفس السنة . وتقرر بالفعل أن يصل الملك فاروق الأول إلى بورسعيد على متن اليخت فخر البحار فى هذا اليوم قادماً من

الإسكندرية، لكن حدث ما لم يكن فى حسبان الشركة، أو كان فى حسبانها لكنه تعدى نطاقات السيطرة، ذلك أن عمال ميناء بورسعيد أضربوا عن العمل، وهجمات الفدائيين المصريين على ثكنات الإنجليز بقناة السويس احتدت، فكان لا بد من الإلغاء المؤقت للزيارة الملكية، ولأن التمثال لم يكن قد وُضع بعد على هذه القاعدة، فإن قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م. وعزل الملك فاروق ثم إخراجه من البلاد استتبع أن يكون الإلغاء هذه المرة أبدياً.

ومع هذا، فالحكاية لم تنته لأن أغرب فصولها قد وقع بعد أكثر من نصف قرن من الزمان، وبالتحديد بعد واحد وخمسين سنة، ذلك أنه فى صيف ٢٠٠٢م. استيقظ الأهالى ذات صباح ففوجئوا بتمثال الملك فؤاد الأول قائماً فوق القاعدة، فصار سخط عظيم، واشتعلت الأجواء وطالب المثقفون الوطنيون، وأحسب نفسى من زمرتهم، برفع التمثال لأسباب كثيرة، منها السياسى والتاريخى والثقافى والفنى، وعارضنا من يمكن وصفهم باللامبالين أو السائرين فى الركاب أو المفرطين . وفى ظرف يومين اثنين تمت إزالة التمثال بعد طلب إحاطة عاجل قدمه النائب البدرى فرغلى فى مجلس الشعب ثم بدأت معركة كلامية شديدة الوطيس، لكنها أيضاً سرعان ما خبت(٤٧).

والسؤال هو ما الذى يحول دون عرض تماثيل من ورطوا الوطن فى المتاحف ؟ .. ألم تُجعل المتاحف لتكون مكاناً لقراءة التاريخ وهدفاً لطلاب السياحة ؟ ..

الآن وقد ألمتَ بطرف من بعض الحكايا، لنترك القاعدة الجرانيتية الحمراء خالية كما هى، ولنهتم بما هو أهم.

لقد آن يا عزيزى أن أتوقف عن الحكى لأصطحبك كما أخبرتك، فتعال نستأجر دراجتين لتشهد وتعاين بنفسك ما حكيتُ لك عنه وتراه رأى العين.

هوامش الباب الخامس

الفصل الأول:

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى :

- على أبو شادى، وقائع السينما المصرية فى مائة عام: ١٨٩٦ - ١٩٩٥، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م. ص ١٥ - ٢٢، ص ٢٤ .

- ضياء الدين حسن القاضى، موسوعة تاريخ بورسعيد، الجزء الثانى، مرجع سبق ذكره، ص ٨١ .

(٢) زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.، ص ٣٨١ .

(٣) المرجع السابق، ص ٣٨١ .

(٤) المرجع السابق ، ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

(٥) ضياء الدين حسن القاضى ، مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص ٨١ .

(٦) المرجع السابق، ص ٨٠ .

(٧) المرجع السابق، الجزء الأول، ص١٦٣ .

(٨) المرجع السابق، الجزء الثانى، ص ٨٥ .

(٩) فؤاد صالح، من البداية، بورسعيد، بدون تاريخ نشر، ويرجح أن يكون تاريخ النشر فى عام ١٩٩٦، ص ص ٩ - ١١ .

(١٠) ضياء الدين حسن القاضى ، مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص ٨٦ .

(١١) القس شنودة فتحى، إيبارشية بورسعيد قديماً وحديثاً، ط ١، دار الأوائل للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٨٢ .

الفصل الثانى :

(١٢) المرجع السابق، ص ص ٢٧٤-٢٧٩ .

(١٣) ضياء الدين حسن القاضى، مرجع سبق ذكره، الجزء الثانى، ص ١٨٥ .

(١٤) المرجع السابق، ص ١٨٥ .

(١٥) القس شنودة فتحى، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢١٦ ـ ٢٢١ .

(١٦) المرجع السابق، ص ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

(١٧) المرجع السابق، ص ص ٢٦٠ـ ٢٦١ .

(١٨) المرجع السابق، ص ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

(١٩) المرجع السابق، ص ص ٢٧٤ ـ ٢٨١ .

الفصل الثالث:

(٢٠) فؤاد فرج، المدن المصرية وتطوراتها مع العصور، مجلد ٢، منطقة قناة السويس، مكتبة ومطبعة المعارف، القاهرة، بدون تاريخ نشر، (ربما صدر سنة١٩٤٢م)، ص ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(٢١) المرجع السابق ، ص ص ٢٦٨ـ ٢٦٩ .

(٢٢) المرجع السابق، ص ص ٢٦٩– ٢٧٠ .

(٢٣) ضياء الدين حسن القاضى، جـ ١، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٩ .

(٢٤) لمزيد من التفاصيل حول هذا التقرير يمكن الرجوع إلى:

- المرجع السابق، ص ١٦٩ .
- فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

(٢٥) المرجع السابق، ص ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٢٦) وليم إبراهيم قوسة، جذور تاريخية لمدينة مصرية، الجزء الأول، بدون ناشر، ١٩٩٥م.، ص ٢٣٦ .

(٢٧) للاطلاع على تفصيل ما ورد فى محضر جلسة القومسيون الاعتيادية المنعقدة فى يوم السبت ٤ أغسطس سنة ١٩٢٣ يمكن الإطلاع على:

- ضياء الدين حسن القاضى، جـ ١، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٢٨) المرجع السابق، ص ١٧٤ .

(٢٩) وليم إبراهيم قوسة ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٥ .

(٣٠) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(٣١) ضياء الدين القاضى، جـ ١، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٧٤ ـ ١٧٥م.

(٣٢) بموجب القرار الوزارى رقم ٢٣٣ لسنة ١٩٦٩م.

(٣٣) بمقتضى القرار الوزارى رقم ٦١ لسنة ١٩٧٩م.

(٣٤) د . مصطفى البغدادى : تغيرات التركيب والوظائف فى بورفؤاد، مؤتمر شرق التفريعة : جغرافياً، اقتصادياً، بحرياً، بورسعيد، ٢٢–٢٣ سبتمبر ١٩٩٨ م، ص ١ .

(٣٥) دليل المسح الإحصائى الشامل، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، محافظة بورسعيد ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧ م . ص ٤ .

(٣٦) نشرة المعلومات، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، محافظة بورسعيد، ٢٠٠٦ م، ص ٣٨ .

(٣٧) مصطفى البغدادى، مرجع سبق ذكره، ص ١٢، نقلاً عن : ورقة عمل للمؤتمر العام الثانى للثروة المائية، بورسعيد، ٢٧–٢٩ ديسمبر١٩٨٦، ص ص ٣٦ – ٣٨ .

(٣٨) المرجع السابق، ص ص ١٤ ـ ١٥ .

(٣٩) المرجع السابق، ص ص ١٨ ـ ١٩ .

(٤٠) مشروع شرق بورسعيد، ملحق مجلة الأهرام الاقتصادى، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٧ سبتمبر ١٩٩٨م، ص ١٣ .

(٤١) هذا الترتيب حسب تواتر الحصول على هذه المقار (الباحث).

(٤٢) ضياء الدين حسن القاضى، جـ ١، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧ .

(٤٣) القس شنودة فتحي، تاريخ إيبارشية بورسعيد قديماً وحديثاً، ط ١، دار الأوائل للطباعة، القاهرة، نوفمبر ٢٠٠١م، ص ص ٢٣٣ـ٢٤٣ .

(٤٤) المرجع السابق، ص ص ٢٨٤ ـ ٢٨٨ .

(٤٥) فؤاد فرج، مرجع سبق ذكره، ص٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

(٤٦) ضياء الدين حسن القاضى، جـ ١، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٤ .

(٤٧) للمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى :

- قاسم مسعد عليوة، لماذا نقيم تمثالاً للملك فؤاد ببورسعيد ونتجاهل عبد الناصر، القاهرة، القاهرة، العدد ١٢١، ٦ أغسطس ٢٠٠٢، ص ٢١ .
- إبراهيم راجح، المعارضة تقود حرباً شعواء على الملك فؤاد الأول ملك مصر، (تحقيق)، الحياة البورسعيدية، بورسعيد، يونيو ٢٠٠٢ ص ٣ .

ما لم يرد بشأنه هامش فالعمدة فيه هو الباحث اعتماداً على دراساته السابقة ورصده الميدانى وخبرته بالموضوع.

المراجع

أولاً ـ الكتب:

١- أبو الحجاج حافظ، صفحات من التاريخ السرى لمعركة بورسعيد، دار الميثاق للطباعة، القاهرة، بدون تاريخ نشر.

٢- أحمد عبد الرازق وحسن صادق عمران، المحميات الطبيعية ببورسعيد، جهاز شئون البيئة فرع بورسعيد، بورسعيد، بدون تاريخ نشر.

٣- أحمد هانى قزامل، انهيار سد مصر: بورسعيد قبل أن تتحول إلى قدس أخرى،بدون ناشر،بورسعيد،١٩٩٧م.

٤- بيتر فايس ، مارا - صاد، ترجمة د. يسرى خميس، روائع المسرح العالمى، العدد ٤٣، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٥ مارس ١٩٦٧م.

٥- د. جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد ٥٠٩، مايو ١٩٩٣م.

٦- د. جمال حمدان، شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان، الجزء الأول، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٠م.

٧- جون مارلو، تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية ١٧٩٨م. إلى الاحتلال البريطانى ١٨٨٢م.، ترجمة د. عبد العزيز رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م.

٨- حسن الرزاز، طرق مصر المقدسة، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.

٩- حسن رفعت عبد الجواد، ٢٥ عاماً إرادة وإدارة مصرية، دار الجامعى العربى، القاهرة، بدون تاريخ نشر.

١٠- ديفيد لاندز، بنوك وباشاوات، ترجمة د. عبد العظيم أنيس، كتاب الأهالى، حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى، القاهرة، العدد السابع، ١٩٨٥م.

١١- رفعة الجادرجى ، حوار بنيوية الفن والعمارة، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ـ لندن، ١٩٩٥م.

١٢- روبير سوليه، مصر: ولع فرنسى، ترجمة لطيف فرج، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٩٩م.

١٣- د. زين العابدين شمس الدين نجم، بورسعيد: تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

١٤- القس شنودة فتحى، إيبارشية بورسعيد قديماً وحديثاً، ط ١، دار الأوائل للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٥- ضياء الدين حسن القاضى، موسوعة تاريخ بورسعيد، جزآن، المستقبل للطباعة، بورسعيد، ١٩٩٧م.

١٦- عبد الحميد أبو بكر، قناة السويس والأيام التى هزت الدنيا، (مذكرات)، دار المعارف، القاهرة ،١٩٨٧م.

١٧- عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، ط٢، تاريخ المصريين، العدد رقم ٢٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١٨- عبد الرحمن الرافعى، عصر إسماعيل، الجزء الأول، الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م.

١٩- اللواء عبد المنصف محمود، على ضفاف بحيرات مصر، الجزء الأول، سلسلة من الشرق والغرب،العدد ١٩٨، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ٨ يناير ١٩٦٧م.

٢٠- عبد المنعم حنفى، المقومات الجغرافية لتنمية بورسعيد، بدون ناشر، ٢٠٠٥م.

٢١- علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، المجلد الثالث، دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، بدون ناشر، ١٩٨٤م.

٢٢- على أبو شادى، وقائع السينما المرصية فى مائة عام: ١٨٩٦ - ١٩٩٥، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م .

٢٣- فتحى رزق، قناة السويس الموقع والتاريخ، دار النصر للطباعة الإسلامية، شبرا مصر، القاهرة، ١٩٨٣م.

٢٤- فؤاد فرج، المدن المصرية وتطوراتها مع العصور، مجلد ٢، منطقة قناة السويس، مكتبة و مطبعة المعارف، القاهرة، بدون تاريخ نشر، (نرجح أن يكون تاريخ أُصدار ١٩٤٢م.).

٢٥- مارى ـ لور كورنييه وآخرون، بورسعيد: عمارة القرن التاسع عشر والقرن العشرين، " التاريخ والمعمار "، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٢٦- محمد الشافعي و محمد يوسف، قناة السويس : ملحمة شعب.. تاريخ أمة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م.

٢٧- محمد سامى عسل، الجغرافيا الطبيعية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م.

٢٨- د. محمد صفى الدين، مورفولوجية الأراضى المصرية، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٧م.

٢٩- محمد عوض محمد، نهر النيل، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٦٢م.

٣٠- د. مصطفى الحفناوى، قصة قناة السويس، الطبعة الثانية، ذاكرة الكتابة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٣١- محمود صالح منسى، مشروع قناة السويس بين أتباع سان سيمون وفردينان دى ليسبس، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧١م.

٣٢- مِندى بهاء الدين وآخرون، عالم الطيور فى مصر، برنامج الطيور المهاجرة، المركز الدولى لحماية الطيور ومركز التعليم والوعى البيئى بحديقة الحيوان، الجيزة،١٩٩٠م.

٣٣- د. نبيل عبد الحميد سيد أحمد، الأجانب وأثرهم فى المجتمع المصرى : من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٩٢، الجزء الثانى، الآثار الاجتماعية، مكتبة نناسى، دمياط، ٢٠٠٤م.

٣٤- هنرى لورنس، المملكة المستحيلة : فرنسا وتكوين العالم العربى الحديث، ترجمة بشير السباعى، سينا للنشر والانتشار العربى، القاهرة وبيروت، ١٩٧٧م.

٣٥- وليم إبراهيم قوسة، جذور تاريخية لمدينة مصرية، الجزء الأول، بدون ناشر، ١٩٩٥م.

٣٦- د. يسرى الجوهرى، الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٦م.

ثانياً ـ الدوريات:

١- إبراهيم راجح ، المعارضة تقود حرباً شعواء على الملك فؤاد الأول ملك مصر، (تحقيق)، الحياة البورسعيدية، بورسعيد، يونيه ٢٠٠٢م.

٢- السعيد السويركى، دعوات خبيثة لنقل تمثال ديليسبس للإسماعيلية، جريدة العربى، القاهرة، العدد ٤٠١ يوليو ١٩٩٩م.

٣- جريدة الشعب، القاهرة، ٢٤ ديسمبر ١٩٥٦م.

٤- جريدة الشعب، القاهرة، ٢٩ ديسمبر ١٩٥٦م.

٥- جريدة الأهرام، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٩ أغسطس ١٩٨٩م.

٦- جريدة الأهرام، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٣ سبتمبر ١٩٨٩م.

٧- جريدة الوفدى، حزب الوفد، بورسعيد، أكتوبر ١٩٨٩م.

٨- جريدة بورسعيد الوطنية، حزب التجمع الوطنى التقدمى، بورسعيد، مايو ١٩٩١م.

٩- جريدة المدينة الحرة، بورسعيد، منتصف مايو ١٩٩٨م.

١٠- جريدة الحدث البورسعيدى، بورسعيد، يناير ١٩٩٩م.

١١- جريدة أخبار اليوم، مؤسسة الأخبار، القاهرة، ١٢ يونيه ١٩٩٩م.

١٢- جريدة الرأى البورسعيدى ، بورسعيد، ديسمبر ٢٠٠٠م.

١٣- طارق حسن وآخرون،استطلاع حول تمثال ديليسبس، جريدة المدينة الحرة، بورسعيد العدد ١٦، أول مارس ١٩٩٨م.

١٤- فاطمة ناعوت، العمارة والشعر، الثقافة الجديدة، القاهرة، يناير ٢٠٠٥ م.

١٥- قاسم مسعد عليوة، مارينا أهل الكافيار ومارينة عم أحمد، جريدة بورسعيد الوطنية، حزب التجمع الوطنى التقدمى، بورسعيد، العدد الأول ٦ يونيه ١٩٩٢ م.

١٦- قاسم مسعد عليوة، بعض الخجل يا أتباع ديليسبس: فضائح بالجملة، جريدة العربى، القاهرة، العدد ٤٠٢، ١٦ يوليو ١٩٩٩ م.

١٧- قاسم مسعد عليوة، إعادة تمثال دى ليسبس على استمارة، جريدة القاهرة، وزارة الثقافة، القاهرة، ٢٠ مارس ٢٠٠١م.

١٨- قاسم مسعد عليوة، صفحات من تاريخ بورسعيد المسكوت عنه (٣)، بورسعيد الوطنية، حزب التجمع، بورسعيد، أبريل ٢٠٠٠م.

١٩- قاسم مسعد عليوة، لماذا نقيم تمثالاً للملك فؤاد ببورسعيد ونتجاهل عبد الناصر، القاهرة، القاهرة، العدد ١٢١، ٦ أغسطس ٢٠٠٢م.

٢٠- مجلة المصور، دار الهلال، القاهرة، ٢٧ ديسمبر ١٩٥٦م.

٢١- مشروع شرق بورسعيد، ملحق مجلة الأهرام الاقتصادى، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ٧ سبتمبر ١٩٩٨م.

٢٢- نعمات حسين ، " دعوة للمحافظة على ٢ مليار طائر مهاجر تعبر أرض مصر"، الحياة الجديدة، جهاز شئون البيئة، القاهرة، العدد ٢٨، مارس ١٩٨٩م.

ثالثاً - الرسائل العلمية :

١- عبير الحسينى أحمد موافى، الوحدة الفنية ذات التعددية فى عمارة بورسعيد القديمة كمصدر لاستلهام أعمال تصوير، رسالة ماجستير، كلية التربية الفنية، جامعة حلوان، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٢- مصطفى محمد البغدادى، مدينة بورسعيد: دراسة فى جغرافية المدن، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٥م.

رابعاً - مؤتمرات:

١- د. السيد عباس زغلول ، " التطور الجيولوچى لبحيرة المنزلة "، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.

٢- د. جميل عبد المولى ، " أهمية بحيرة المنزلة كمأوى للطيور البرية "، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.

٣- خالد منتصر، " المشاكل التى تواجهها حافظة دمياط من تلوث بحيرة المنزلة: الاقتراحات - التوصيات"، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.

٤- فريق عمل محافظة بورسعيد ، " بورسعيد وبحيرة المنزلة"، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة،محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.

٥- د. محمد حسن عامر، " مصادر التلوث فى بحيرة المنزلة وطرق التخلص منها "، المؤتمر القومى لبيئة بحيرة المنزلة، محافظة بورسعيد بالتعاون مع جامعة قناة السويس وجهاز شئون البيئة، بورسعيد، ٢٧- ٢٩ أكتوبر ١٩٩١م.

خامساً - شبكة المعلومات الدولية:

http://en.wikipedia.org/wiki/Ferdinand_de_Lessep

http://www.bbc.com.uk/historic_figures/Lesseps_Ferdinand_de.shtm

سادساً ـ أخرى:

(١) ج.م.ع.، مجلس الشعب، الفصل التشريعي السادس، دور الانعقاد العادى الأول، مضبطة الجلسة السادسة عشرة، ٩ فبراير ١٩٩١م.

(٢) قسم علوم البحار بكلية العلوم جامعة قناة السويس، تقرير أولى عن التلوث فى المياه الإقليمية لبورسعيد، مرفوع لمحافظة بورسعيد، أكتوبر ١٩٩٠م.

(٣) د.أحمد أمين الجمل، " تلوث المياه فى مصر وأثره على صحة الإنسان"، (إعداد)، الدورة التدريبية الأولى لفروع ومكاتب البيئة بالمحافظات، جهاز شئون البيئة ومؤسسة فريدريش إيبرت، الإسكندرية، ١٧-٢١ يوليو ١٩٨٩م.

(٤) محافظة بورسعيد، الخريطة الاقتصادية لمحافظة بورسعيد، بورسعيد، يونيو ١٩٨٦م. (٥) محافظة بورسعيد، بورسعيد جوهرة مصر، مطبعة بورفؤاد، بورسعيد، ديسمبر ١٩٩٧م.

(٦) دليل المسح الإحصائى الشامل، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، محافظة بورسعيد ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧ م.

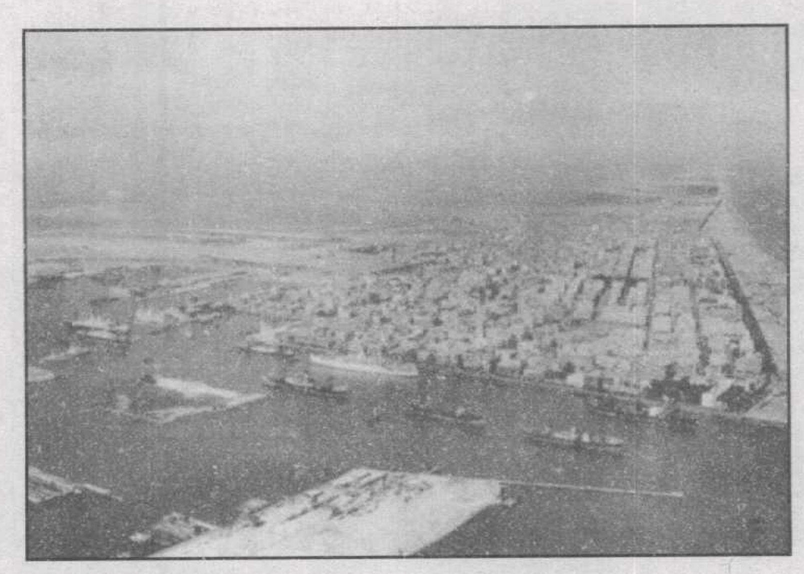
(٧) نشرة المعلومات، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، محافظة بورسعيد، ٢٠٠٦ م.

(٨) الملتقى العالمى الأول لآلة السمسمية الموسيقية، المملكة الأردنية، العقبة، ٧ ـ ٩ ديسمبر ٢٠٠٦م.

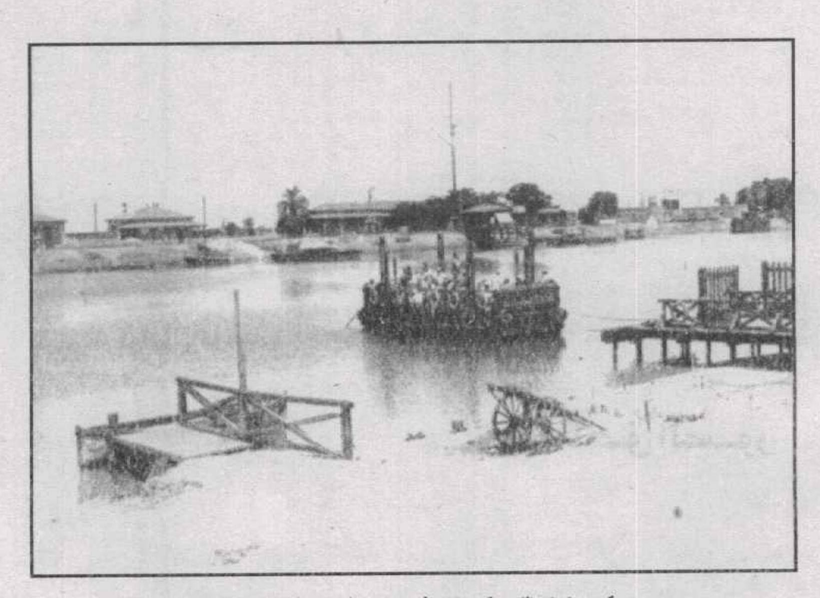
(٩) المهرجان الدولى الأول للموسيقى الشعبية : السمسمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، جمهورية مصر العربية، بورسعيد، ١٢ ـ ١٨ ديسمبر ١٩٩١م.

(١٠) وزارة الخارجية، جمهورية مصر، الكتاب الأبيض فى تأميم شركة قناة السويس، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٢ أغسطس سنة ١٩٥٦ م.

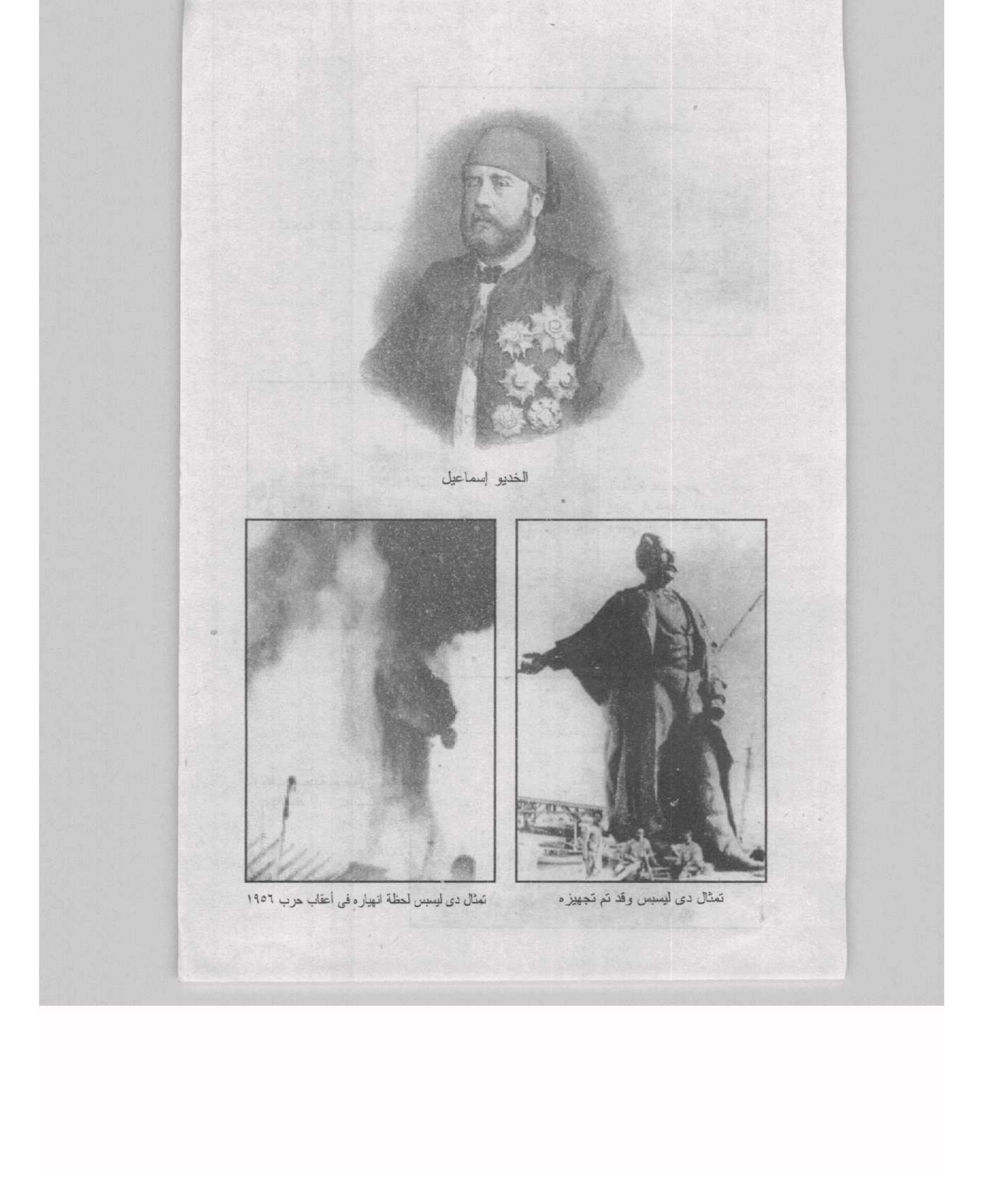
ملحق الصور



مشهد علوى لبورسعيد القديمة ــ وتظهر بعض الجزر القديمة



معدية بورفؤاد القديمة ويلاحظ جنزير الجر والسقالات الخشبية



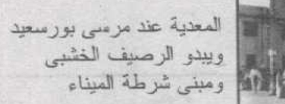
الخديو إسماعيل

تمثال دى ليسبس وقد تم تجهيزه

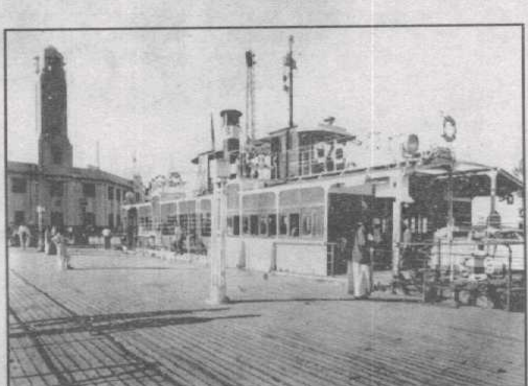
تمثال دى ليسبس لحظة انهياره فى أعقاب حرب ١٩٥٦

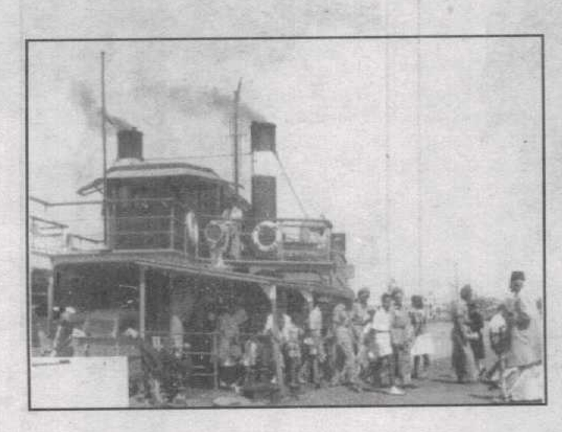


المعدية ذات المدخنتين

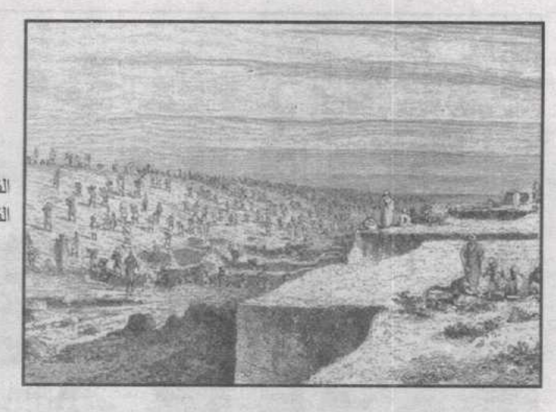


المعدية عند مرسى بورسعيد
ويبدو الرصيف الخشبى
ومبنى شرطة الميناء





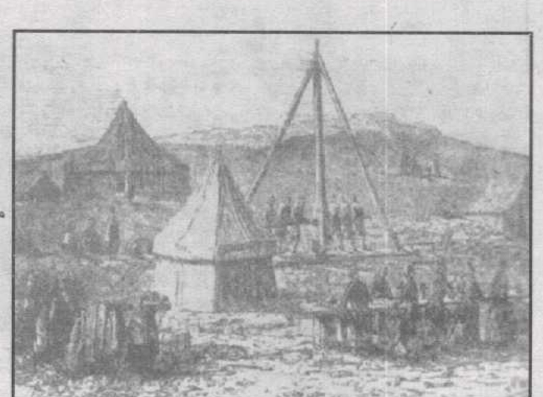
ركاب المعدية يهبطون منها
ويلاحظ أن من بينهم عدد
من الجنود



الفلاحون المصريون يشقون
القناة قبالة بورسعيد



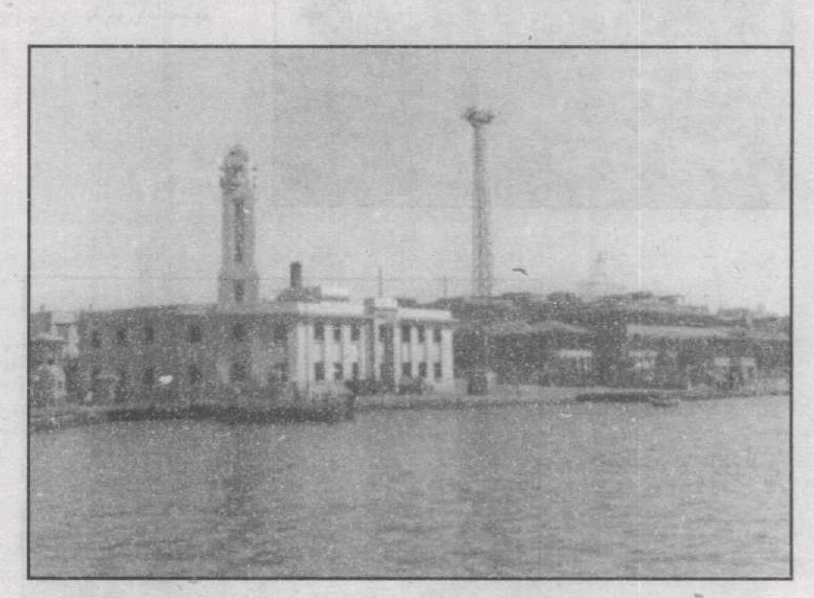
الإشكاربية(الفحامون)
يقومون بأعمالهم



مخيم المهندسين فى موقع للحفر



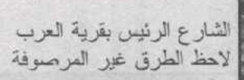
رصيف فرانسوا جوزيف سنة ١٨٨٦م



مبنى شرطة الميناء وتظهر إلى جواره المباني المنخفضة



أحد شوارع بورسعيد ــ لاحظ
(التراسينات ــ الشرفات ــ والأعمدة)

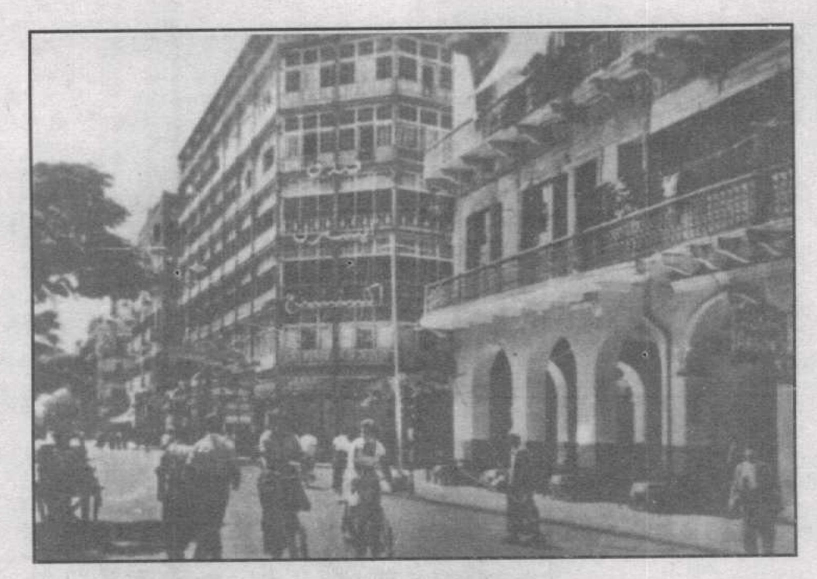


الشارع الرئيس بقرية العرب
لاحظ الطرق غير المرصوفة





ترام يجره بغلان
بشارع الثلاثينى
لاحظ القضيبين الحديدين



شارع فؤاد الأول



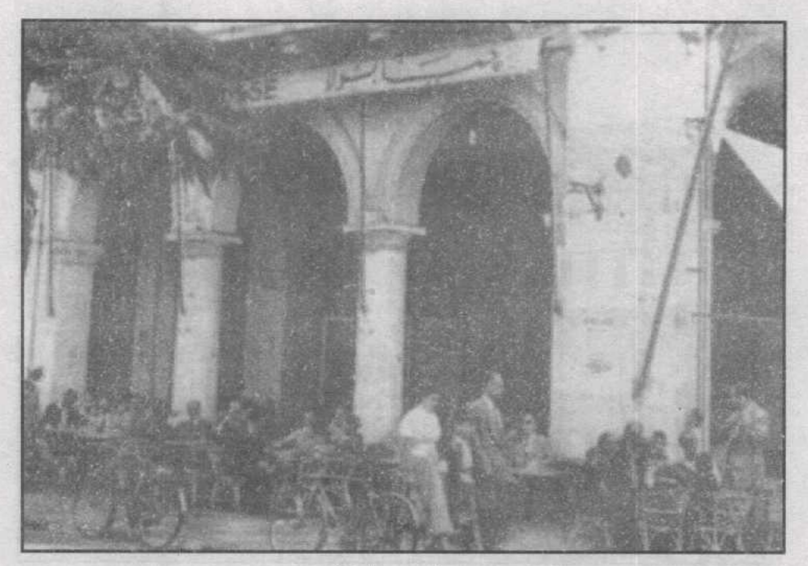
شارع بحى العرب ويلاحظ الطريق الترابى



سوق بحى العرب



صورة تبين الحالة السيئة لقرية العرب



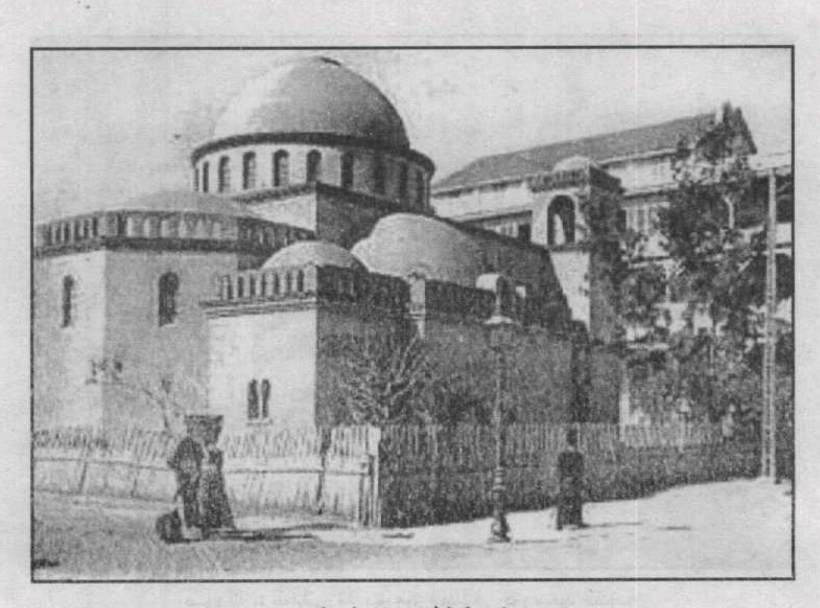
مقهى جيانولا



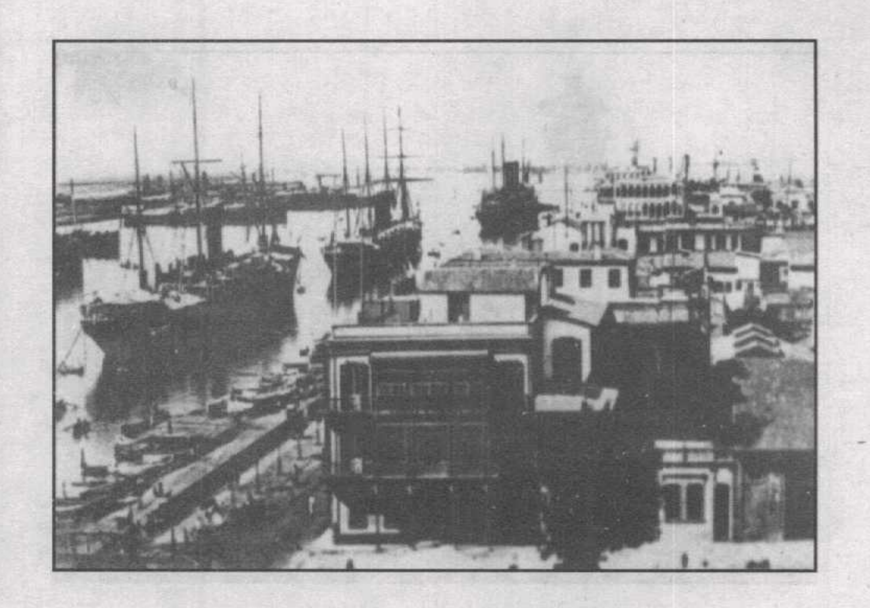
مقهى بلدى بقرية العرب



مسجد عبد الرحمن لطفى بحى طرح البحر

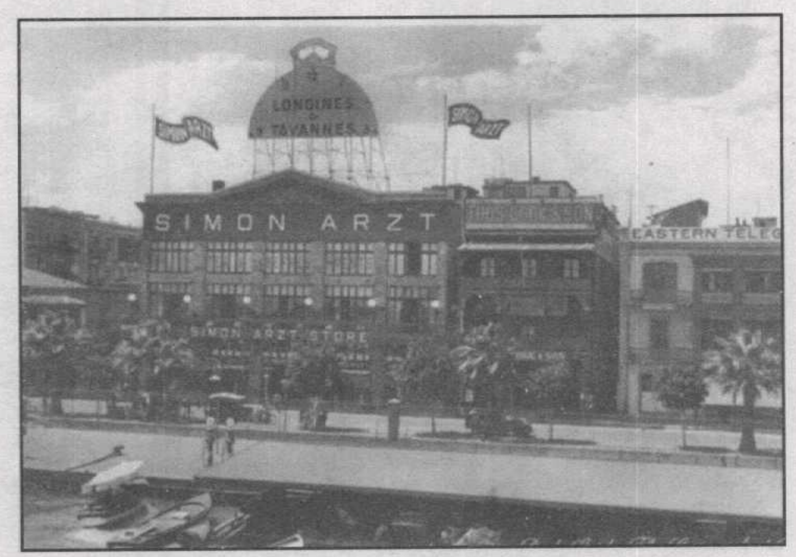


كنيسة الظهور الإنجليزية

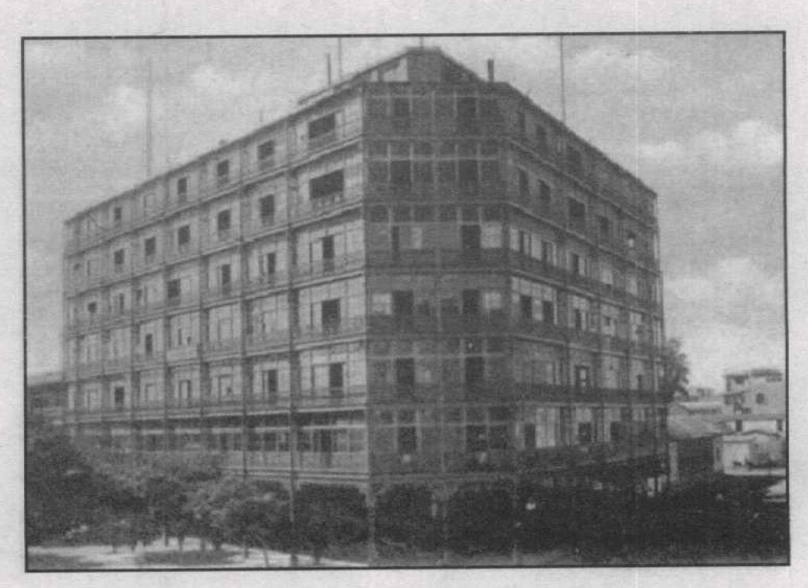




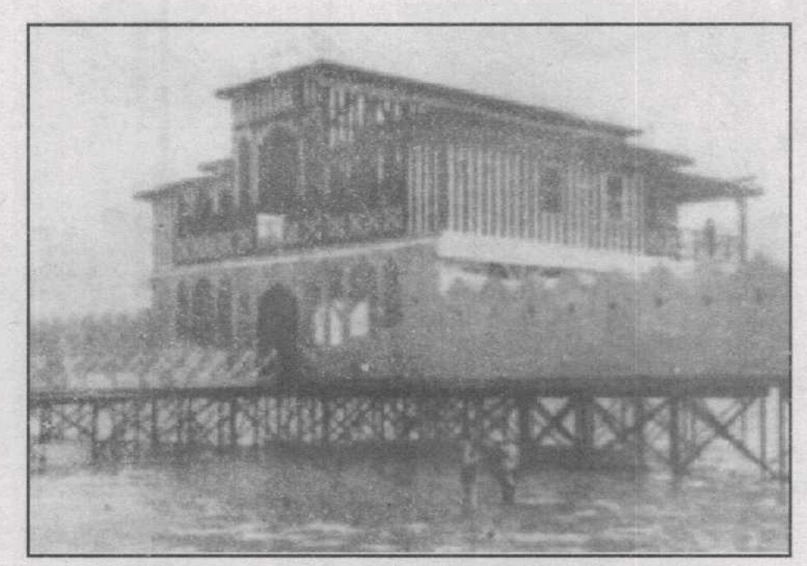
صورتان: للمبانى القريبة من القناة فى بورسعيد القديمة



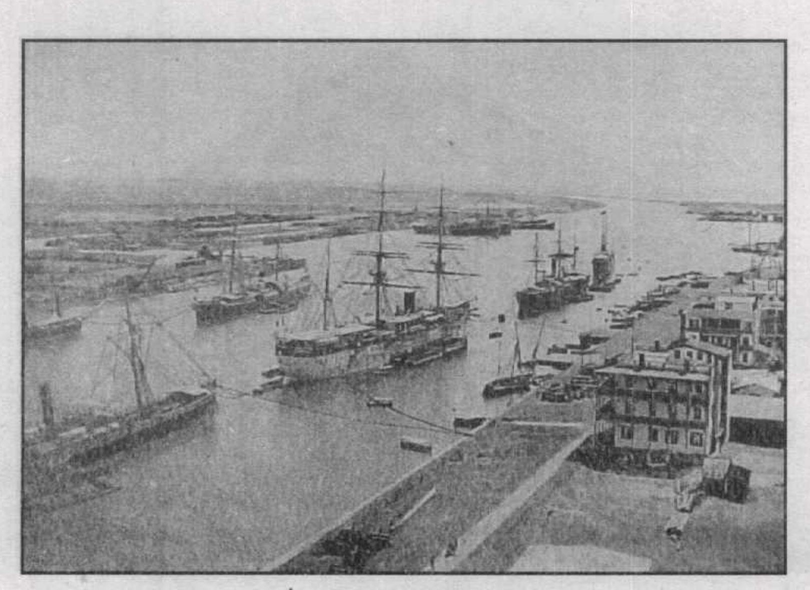
مبنى سيمون أرزت



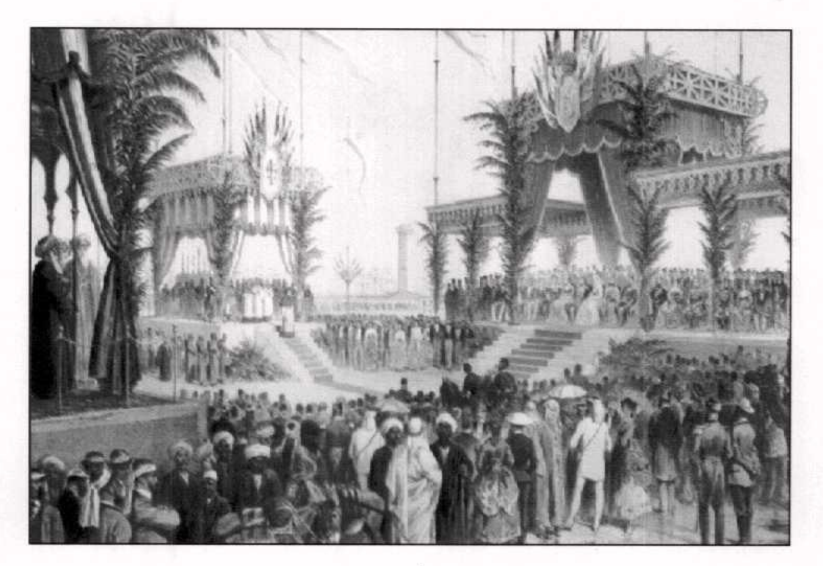
فندق اكستشنج فى أول عهده



كازينو البالنيير بشاطئ بورفؤاد



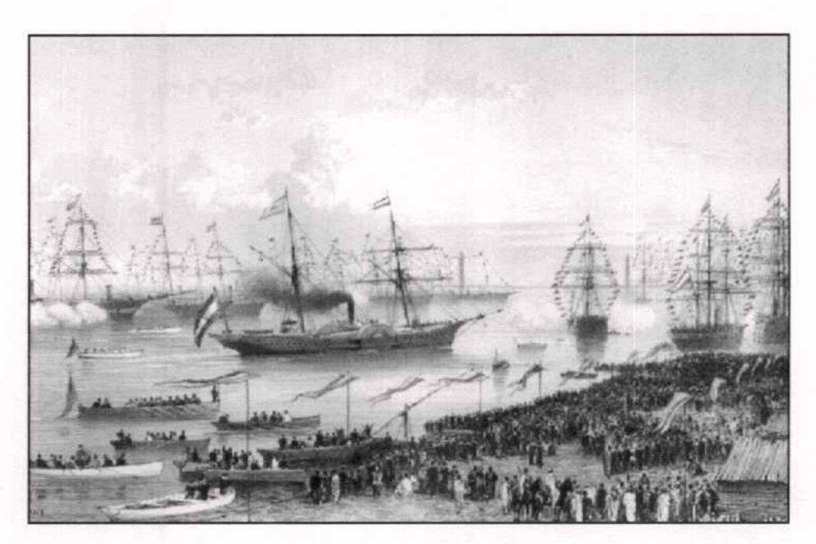
موقع بور فؤاد على الضفة الشرقية وهى أرض جرداء



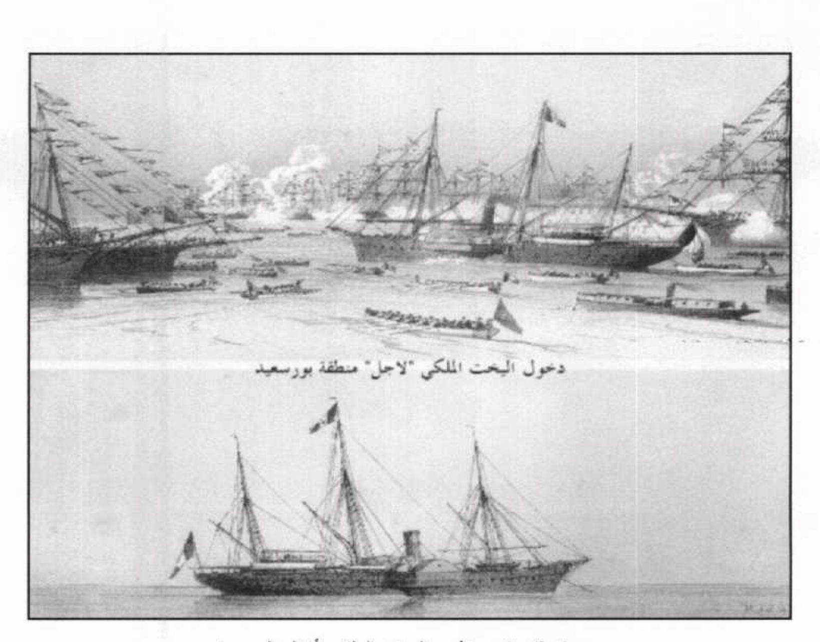
حفل الافتتاح الأسطورى ببورسعيد



احتفالية دينية عند الافتتاح



وصول إمبراطور النمسا إلى بورسعيد

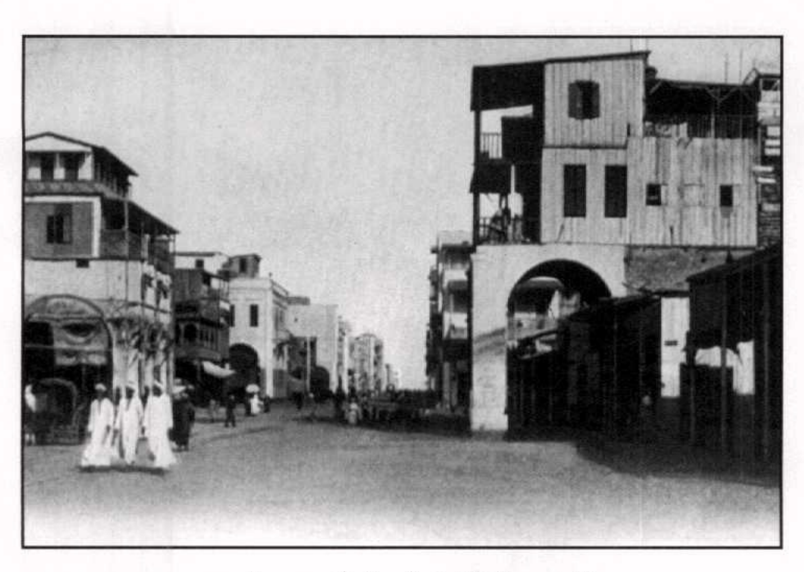


دخول اليخت الملكي "لاجل" منطقة بورسعيد

رسمان قديمان ويظهر اليخت الملكى أسفل الصورة



كارت بوستال لشارع فرنسوا جوزيف - لاحظ سور قناة السويس



كارت بوستال لشارع بالحى الوطنى - حى العرب

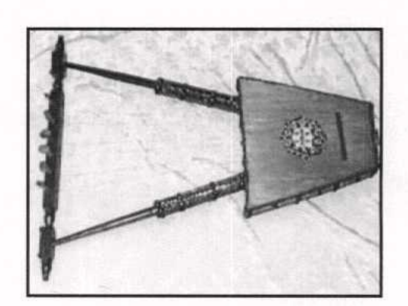
فنار بورسعيد الحجرى



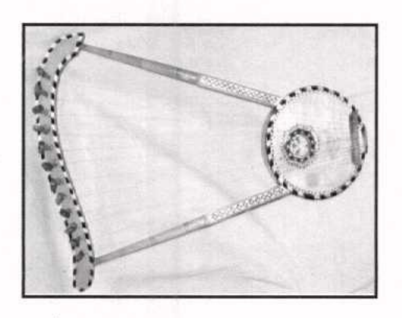
مبنى هيئة قناة السويس



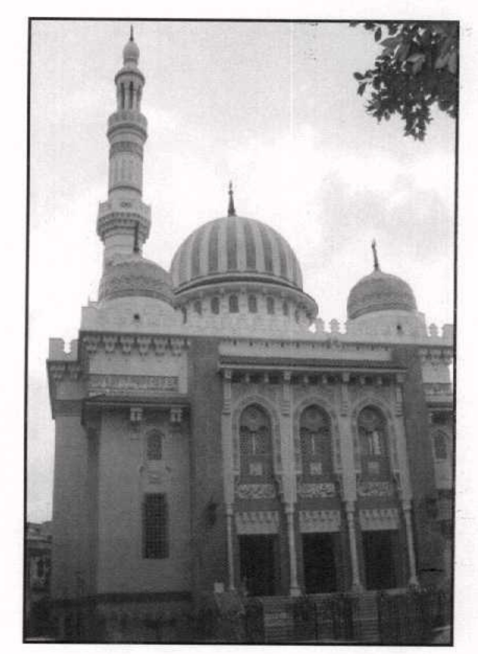
رسم للصحبجي رجب أبو حسن



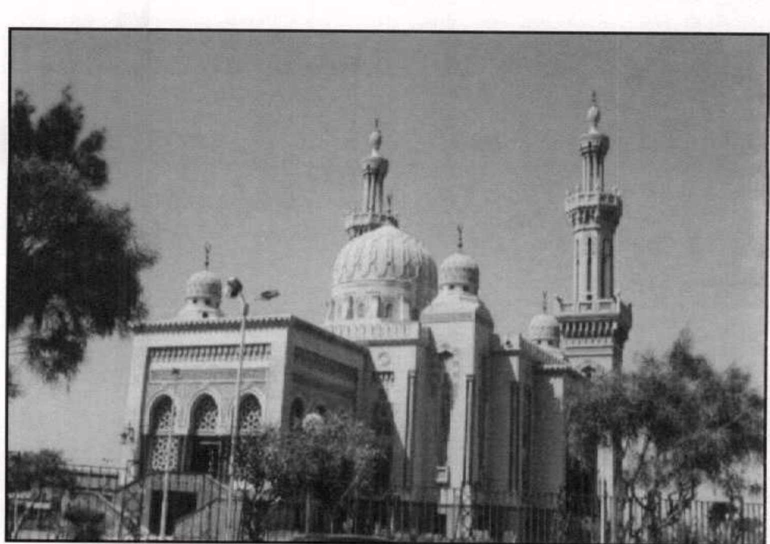
أحد أشكال السمسمية المتطورة



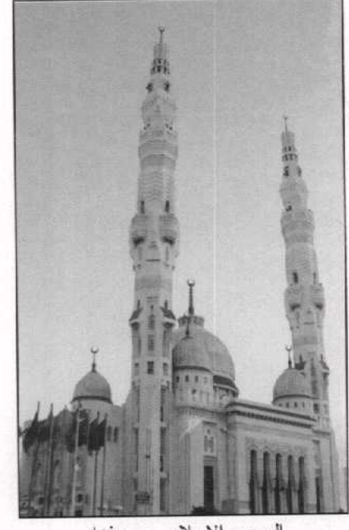
سمسمية خليجية متعددة الأوتار



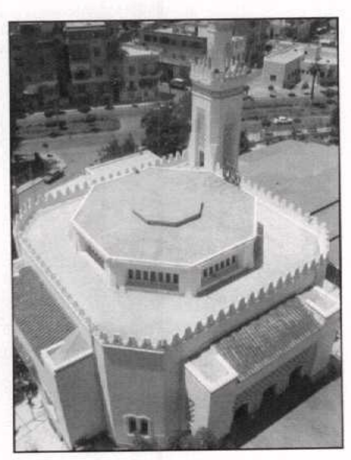
المسجد التوفيقى بعد إعادة بنائه



مسجد السلام ببورسعيد



المجمع الإسلامى ببورفؤاد



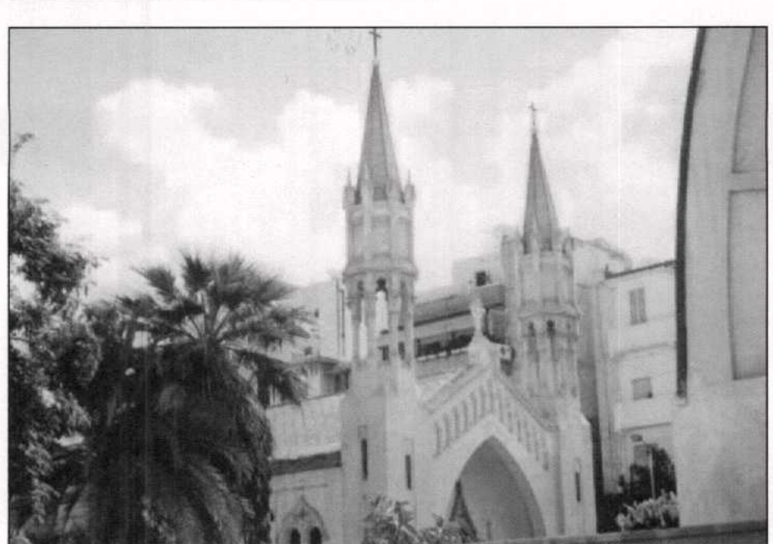
مسجد بورفؤاد الكبير من أعلى وتظهر القبة المثمنة



مسجد عبد الرحمن لطفى – بورسعيد



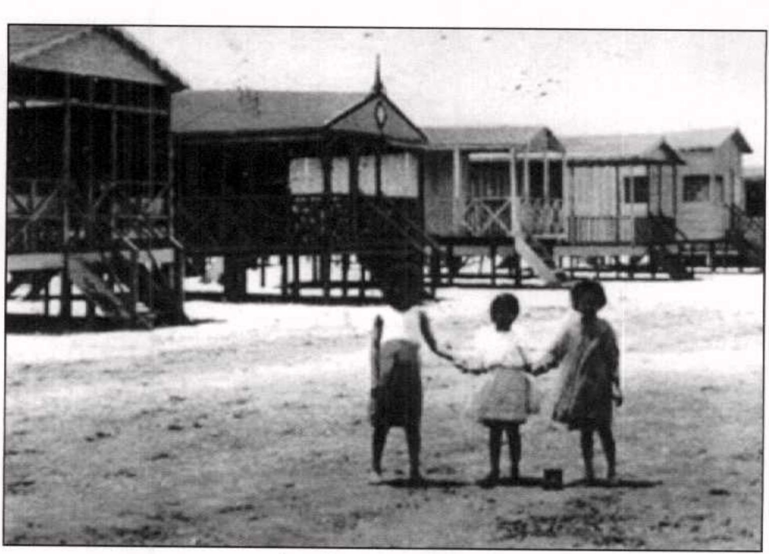
الكتدرائية الفرنسية



الكنيسة الإيطالية



فندق زكازينو بالاس فى أوج ازدهاره وملحق به حديقة واصف بكار



كارت بوستال للكبائن الخشبية



منزل قديم ببورسعيد



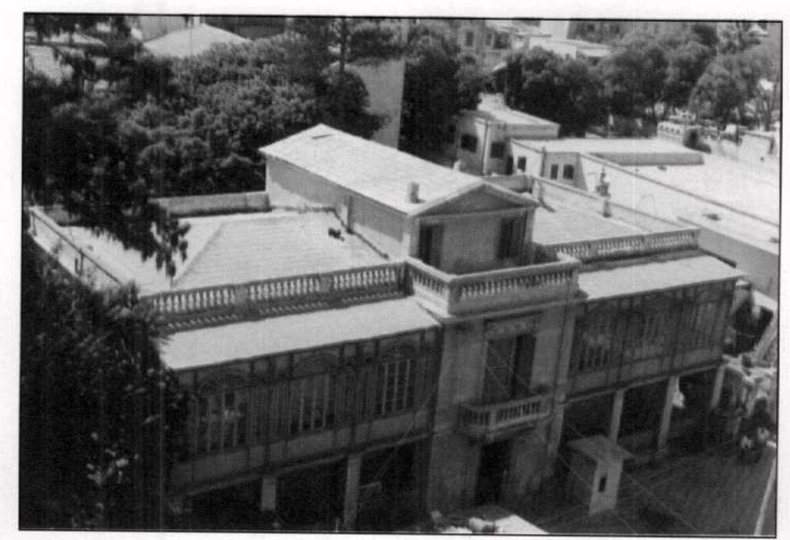
منزل له شرفات محمولة على أعمدة خشبية



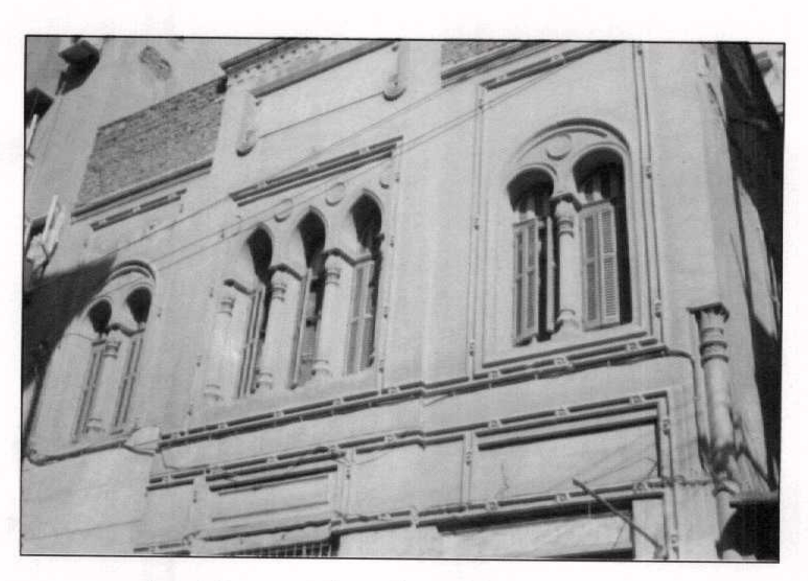
منزل خشبى بحى الأفرنج سقفه الخشبى مائل وله كرانيش خشبية



مبنى كازاايتاليا وقد ظهرت عليه علامات الهرم وحاصرته العمارات



مبنى تابع لهيئة قناة السويس متأثر بالطراز اليونانى



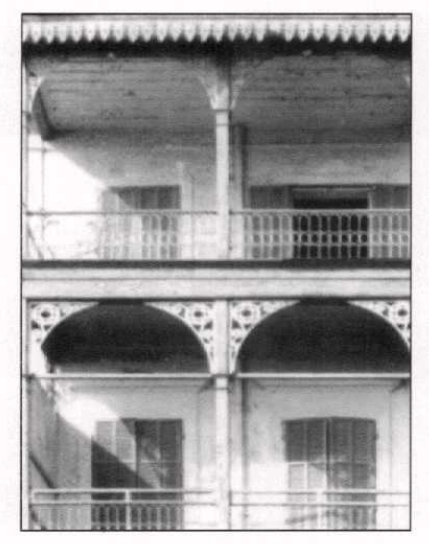
مبنى المسرح الإيطالى وتظهر عليه بعض التشوهات



ممشى سياحى بجوار قناة السويس



جانب من أحد منازل عمال هيئة قناة السويس



شرفتان



شرفة مغلقة بنوافذ زجاجية ويلاحظ الكورنيش الخشبى



شرفات من الحديد المشغول وأبوابها



شرفات مكشوفة أسوارها وكوابيلها من الحديد المشغول



صورة توضح شكل البواكى



أحد البواكى بشوارع بورسعيد